نهاد سيريس

رياح الشمال

رواية

الجزء الثانـي
1917

1

أوقف الحصان، وراح يتطلّع إلى قرص الشمس، ضيّق عينيه، واستظلَّ بيده، وراح يتطلّع إليها بعناد.

أراد أن يبصق إلاّ أنّ حلقه كان جافاً. فمنذ الصباح جعلوا يقنِّنون شرب الماء. إلاّ أنّ الشّمس لا ترحم، والحرارة عالية، والعطش يأتي بعد دقائق من الارتواء.

مسح بلسانه على شفتيه المتقشرتين فأحسّ بخشونتهما، وجاءه طعم الملوحة لاذعاً، شتم في سرّه، شتم نفسه شتيمة يحمرُّ لها الجبين، هكذا اعتاد، ثمّ حرك خصره إلى الأمام وإلى الخلف حركة عرف الحصان معناها، فانطلق بطيئاً متثاقلاً، ينخر من منخريه بقوة هواءً ساخناً يشوبه المخاط، لاحقاً الحصانين الآخرين، اللذين ابتعدا في الأفق الرملي المتراقص.

سار إلى جانبهما، سار وحبات العرق التي انعقدت على جبهته وصدغيه، تتصل، ثمّ تسيل في خطوط متعرجة حتى خلل لحيته، ثمّ تنقط مختفية في قمصلته، وشفتاه تتحركان في تمتمة طويلة لا تهدأ.

نظر بهدوء، كي يتسلى، إلى ظهري الرجلين المنحيين المتحركين بوتيرة واحدة مع حركة كل حصان. كان الظهر الأول العريض المبتل جراء التعرق الشديد يعود إلى الشيخ غالب. ذاك الرجل البدين والملتحي واللطيف، الذي يفوق ذكائه عشرة رجال. إنه ملاك وثعلب في ثوب واحد. لم يخطئ الشيخ درويش بتعيينه مساعداً أولاً له. أما هو، أي عمر بنبوك، فقد ارتاح كثيراً في التعامل معه، أحبّه كما أحبَّ الشيخ الكبير، وأعجب به كثيراً أثناء المناقشات التي جرت في "بدنة"* مع الرسل السريين للشريف حسين.

أما الظهر الثاني، فهو لمعاونه الشاب، النحيل، صاحب الوجه الجامد والفم المطبق. لم يفهم عمر بنبوك كيف يمكن أن يكون، للشيخ غالب، مثل هذا المعاون، مثل هذا الحيوان الآدمي الصموت، الذي لا ينبس، حتّى، بعطسة.

استدار الشيخ غالب وحدج عمر بنظرة هادئة، ثمّ ابتسم له.

* – بدنة: بلدة تقع الآن داخل حدود المملكة العربية السعودية.

نظر عمر إلى قرص الشمس، مرّة أخرى، ثمّ قال للشيخ غالب بصوت صادر عن حلق جاف واهن:

- لقد اجتازت الشمس منتصف السّماء، دعنا نشرب بعض الماء!

- اشرب إن أردت: ليس عندي مانع!

- لن أشرب بمفردي!

فردّ الشيخ غالب، وهو يرفع جسده على الركاب، ويضيّق عينيه، وينظر ملياً ناحية الشمال الشرقي"

- اشرب يا أخي اشرب!... سرعان ما نصل المنطقة الخضراء. لقد اجتزنا الحدود منذ زمن، ألا تحسّ كيف انتعش النسيم؟

فقال عمر، وهو يرفع قربة الماء إلى فمه:

- إنّني والله لا أشعر سوى بدماغي يغلي.

ثمّ عبَّ الماء، تمضمض مطولاً، ثمّ بلع الماء الدافئ ذا الملوحة، أعاد الكرّة، ثمّ علّق خطاف القربة على السرج، وراح يرطّب شفتيه بلسانه.

اللعنة . قالها وهو يتذكر برودة مياه الآبار التي كان يحفرها، فيما مضى، ثمّ راح يتملى السهوب الرملية الصفراء، التي راحت تخضوضر من بعيد.

ربّت رقبة الجواد العرقى، وحدّث نفسه: قريباً، قريباً جداً سنصل إلى بغداد. لم تعد الطريق طويلة كما تخيلتها، سنصل عند الفجر، هذا إذا استطعنا عبور الفرات عند "الفلوجة" بسرعة، ولكن هذا لا يهم!.... الخضرة والماء العذب أهم شيء في الوجود. يكفي أن نصل إلى أوّل قرية، عندها... سأبدأ بالتفكير في فريدة، أمّا الآن فهو سابق لأوانه، لقد منعت نفسي عن التفكير بها فيما سبق من الرحلة، ولكن فريدة تلح عليّ حالما أسمح لنفسي بالتأمل بجمالها.

ولكنه حلم بها عدّة مرات أثناء غيابه عن بغداد. في المرّة الأولى، حلم بها وهي تدنو منه وهما في بستان كبير لانهائي. جنة مثل جنان المؤمنين. جنة كثيفة الأشجار والأزهار والظلال، كان الماء يهدر في سيلانه، عذباً رقراقاً، شفافاً وبارداً، تشرب منه فلا ترتوي، أمّا السّماء الزرقاء، فقد أطلّت من بين غيمات هشات بيض، لا تخفي وراءها سوى حرارة الشمس، فتحيلها إلى لطيفة محمولة. كانت تدنو منه

بابتسامتها المشرقة، حاسرة الرأس، ترتدي ثوباً حريرياً شفّافاً، بلغ من شفافيته إلى حدّ رؤيته لبشرتها ترتعش. كانت تحرّك شفاهاً رقيقة خُلقت للقبل فحسب. كانت تقول: خذني معك... لا تتركني وحيدة في الحفرة!...

أية حفرة؟... تساءل عمر بتمتمة يسمعها وحصانه فحسب.

وفي المرّة الثانية، حلم بفريدة أيضاً. كان يقترب منها. هذه المرة هو الذي كان يجهد نفسه في الوصول إليها، وعندما مدّ يده ليلمسها، انقلبت إلى زوجته، إلى بهية الزيات. ضحكت بهية، في الحلم، وقالت له:

– ها قد عدت يا عمر... لن أتركهم يأخذونك مرّة أخرى، لن أدعها تأخذك مني!..

فقال لها راسماً ألف إشارة تعجب على وجهه:

– من هذه؟

– أنت تعلم... وتعلم أيضاً أنّني أعلم، لماذا تظهر نفسك بريئاً يا ابن الشياطين؟ لديّ حاسة أخرى، حاسة سادسة وسابعة.. وعاشرة. إنّني أراك، وأسمعك، وأشم رائحتك من بعد مئات الأميال. وأحسّ في حلمه، بالخجل، ثمّ قال لها:

– أحسّ بتعاسة مؤلمة يا امرأة، هكذا أرادت الحرب، أنا لا أفهم نفسي والآخرين، ولكن عليّ أن أبحث عن فريدة.

– من هي فريدة هذه؟

– إنها امرأة بريئة يريد أحد الوحوش أن ينهشها.

– هل تحبّها؟

– كثيراً... كما أحبّك.

– هل ضاجعتها؟

– ليس بعد!

– هل تنوي ذلك؟

– أجل أنوي... كم أحبّ ذلك، ولكنّي أقتل تلك الرغبة، تبقى الأحلام فحسب، يبقى اللهو البريء، ولكنك يا بهية لست رجلاً، لست فحلاً يرى من واجبه أن يدفع عن فتاة وحشاً يريد افتراسها كما تُفترس الأسماك الصغيرة الحلوة الملونة في اللجّة

وكما تفترس الأيائل في الغابة.

ضحكت بهية في الحلم، ضحكت حتّى أصمّت أذنيه بقهقهة عالية وطويلة. قالت له بعد أن عاد الهدوء، وبعد أن تقاطرت حبّات العرق عن جبينه، متسربة في قش المخدة التي كان يتوسدها:

- تريد أن تحميها من الآخرين فتفترسها أنت بنفسك، تعال إليّ (جذبته من يده) يا أيّها الشهم المغوار، أيّها الفارس القادم من التاريخ العتيق!. تعال إليّ، وضاجعني إن أردت مضاجعتها، لقد أصبحت فريدتك أيضاً، بهية وفريدة في جسد واحد، لن تهرب مني كما أنك لن تهرب منها، وإن فقدت واحدة، فستفقد الأخرى في الوقت نفسه، هيا...! تعال، في كلِّ مرّة ستلج الأخرى.

مسح عرقه عن وجهه بقرف، كان يتعرّق أيضاً كما في الحلم، توقف عن التذكر، وراح يلفّ سيجارة. إلاّ أنّ وجيفاً اجتاح يديه، فأحسّ بارتجافهما، كان يحسّ بقلبه يدق مسرعاً، وغمامة معتمة تقبع على صدره.

أيُّ حلم هذا الذي حلمه في ذلك البيت المنسي على أطراف بدنه؟ ماذا يسميه؟ كيف يفسّره؟ لو كان في حلب لاستدعى غجرية تفسر الأحلام، كي تشرح له ما كان خافياً عليه. فريدة وبهية في جسد واحد "في كلِّ مرّة ستلج الأخرى"؟!!

قبل سفرهم، في بغداد، لم يكن يشعر بمثل هذا الوجيف من أيّ شيء، لم يكن يحبّها، كان يعطف عليها، ويحميها فحسب، أو هكذا كان يخيّل إليه، لأنّه لم يكن ليبتعد عنها في مخبئه في بيت جدّها الشيخ درويش، كان يقابلها عشرات المرات يومياً، كانت تجلس إلى جانبه، وتطعمه، وعندما يحتاج إلى كأس من الماء كانت تهرع لتحضره له بشغف، أو لنقل بإذعان. كانت تجالسه، تحت النخلات الثلاث، في حديقة المنزل وهو صامت يدخن لفائفه، ينفث في هواء الأمسيات الربيعية، دخانها ذا الرائحة غير المستحبة. كان يرى إلى إذعانها، ويستمع إلى تنهداتها العميقة وهي تحدجه بعينيها الغائمتين، بنظرات ولهٍ عظيم لا يقاوم.

كانت تهمس له بمخاوفها من حسين. حسين هدّدها، حسين ضربها، حسين سوف يذبحها إن لم تذعن له، وتتزوجه. وهي لا تحبّه، لا تطيقه... ما العمل؟... "قل لي يا عمر، ماذا عليّ أن أفعل؟. هل عليّ في النهاية، أن أهرب من بيت جدي

كي أتخلص منه؟... لا يتركني وشأني هذا الثور العنيد الذي لا يهدأ. وفي النهاية، كانت تغرز في عينيه نظرات لا قبل له على تحملها وتقول له، إن طلبت يدي من جدي، فسيزوجني لك، لن يسألك عن أيّ مهر، لن يأبه، كما هي حالي، بكونك متزوجاً وأباً لثلاثة أطفال، هيا يا عمر... بهية لن تمانع، أقسم بأن بهية لن تمانع، فأنا الآن أعرفها جيداً. أنت حدثتني طويلاً عنها. لن أجعلها تغار، لن أكون ضرتها. بل سأكون بهية وستكون هي فريدة... سنكون امرأة واحدة لا غير.... ها هو يقابل، مرّة أخرى، الجسد نفسه، الجسد لبهية وفريدة الملتحمتين.

تململ على حصانه. كان يحسّ بخدر في إليته وفخذيه، وبضغط هائل في أسفل عموده الفقري. سحب عدّة أنفاس من سيجارته، وقذف عقبها إلى الأمام. كان الأفق أمامه مغطّى بأشجار النخيل الباسقة والمتراصة، منظر جميل أخاذ، وخاصة للقادم من صحراء النفوذ، اللعنة، ها هو الأمان... الماء والفيء، والاقتراب من عيون فريدة، الاقتراب من دفء عينيها الملتهبتين والجارحتين والمتضرعتين.

تذكّر حلمه الثالث... حلمه المروع الذي أفاق منه مسحوقاً. كان يرتعد عندما استفاق، كان يرتجف، أمّا جسده، فقد كان يسبح في سائل التعرق اللعين الدبق والمالح، عرقه الذي كانت بهية تقضي الساعات وهي تتنشق رائحته المعتقة من تحت إبطيه، وقد أوغلت يدها عميقاً تحت ردائه.

في حلمه الثالث رأى فريدة تتوسد يده، وكانت كلّما أغمض عينيه، وأعاد فتحهما تتحوّل إلى إنسان آخر... كائن آخر لا علاقة لفريدة به. وذلك الكائن هو أقرب إلى بهية. أقرب إلى بهية لأنّ الوجه كان مغبشاً، كان اللون الأحمر، كالدم، يغبش صورة ذلك الكائن الأنثوي. كان ذلك الكائن الأنثوي عارياً من الرأس حتى القدمين، والجسد هو لبهية، إنه متأكد من ذلك فهو يعرفه جيداً، عايشه سنين طويلة دون أن يمل أو أن يعن، ارتشف منه نبيذاً وسكر به طويلاً، وحلم به، بعد أن فارقه، ليال طوال، عند تخوم كوت العمارة وفي المستشفى الحربي في بغداد. وعلى صدر بهية كان هناك طفل يرضع من الثدي المليء حتى الانفجار.

وفجأة... استدار الطفل وراح يتقيأ حليباً غير مهضوم أحمر اللون... مثل الدم أيضاً. يا إلهي!... صاح عمر بذلك في الحلم، وفي اليقظة أيضاً وهو على

صهوة حصانه الذي راح يقترب أكثر فأكثر من أشجار النخيل الباسقة.

كان الطفل هو ابنه أحمد. ابنه البكر... يا إلهي... مرّة أخرى، ثمّ سقط ميتاً، وتحوّل الوجه إلى وجه فريدة البريء والمتضرع، وما إن مرّت لحظات حتّى تلبّس الهلع ذلك الوجه الجميل. لقد دخل حسين، كان يمسك سكيناً في يده وأسنانه بارزة من فكيه عبر شفتيه، أمسك حسين شعر الفتاة، وجذبها نحوه بعنف، نهش لحم كتفها بأسنانه، حتّى سال دمها على ثديها، وجعل ينقط من الحلم، وعندما طرحها أرضاً، وداس على صدرها، وشرع بذبحها... أفاق، أفاق، فألفى نفسه جالساً في الفراش، وقد انطبقتْ قبضتاه وأسنانه تكز، استعاذ بالله من الشيطان... هكذا علّموه، ذكر الله يطرد الشياطين والكوابيس. ولكنّه لم يمحُ الهلع والارتجاف اللذين تملّكاه. أيّ حلم هذا؟ إنّه كابوس ينذر بسوءٍ لا يعلم كيف أتاه.

حينها، نهض من الفراش، لفّ لنفسه سيجارة ثخينة، وخرج يدخّنها في سقيفة البيت، كان الوقت فجراً، وكان هناك نسيمٌ معتدل يهبُّ من ناحية الغرب، فأنعشه استنشاق الهواء الصحراوي الذي يتسلّل عند الفجر هادئاً، لطيفاً.

كان الهدوء والسكون يلفّان "بدنه" ببيوتها الحجرية والطينية، وكان المسجد القريب، ذو المئذنة الواطئة متسربلاً في غبش الفجر بينما توهج نجم، خلف المئذنة، مودعاً بصمت، وكان سعف النخيل يهتز ببطء مع تلك النسمات اللينات، وقد تدلّت عناقيد التمرد الثقيلة دون حراك. أواه يا بدنة... أهنا، بين ثناياك، يتبدل الرجال، وتنعقد المساومات، وتقوم القيامات...!

أواه يا بدنة! يا من في بيتك المنسي على أطرافك يتغيّر الرجال، وينقلبون وتأتي الكوابيس الثقيلة المروعة دون سماح..!

* * * *

– قف! ... ترجلوا!

سمع عمر صوتاً يجأر بتركية صحيحة، كان الصوت لجندي يتمنطق بأحزمة الرصاص المتصالبة على صدره، ويحمل بندقيته مشرعة الحربة، أمّا تحت النخلات فقد استلقى عدد لا بأس به من الجنود، وقد أبدوا لا مبالاة وحيادية تجاههم، كانت

ظلال أغصان النخيل قد أحالتهم إلى رجال مسلوبي الهمة.

ترجلوا، ثمّ ساروا باتجاه الأومباشي قائد القوة نصف النائم.

– من أين أنتم قادمون؟

قال الأومباشي بملل عظيم، وهو يكش الذباب من على وجهه.

– من بدنة... قال الشيخ غالب.

– من بدنة... وماذا كنتم تفعلون؟

– كنا نحضر أحد الأعراس.

– أعراس...؟ أنت تكذب! قل الحقيقة وإلا دفناكم في الرمال أحياء!

قال ذلك الأومباشي، ثمّ نهض، وأصلح ثيابه، وفتل شاربه الأسود الفاحم. كان تركياً أصيلاً، تركياً أصابه الملل، فقرّر أن يتسلّى، نهض بعض الجنود، واقتربوا، ممسكين ببنادقهم، وقد ارتسمت على شفاههم بسمات ناعسات، يهرشون رؤوسهم وجلداتهم بأظافرهم.

ابتسم الشيخ غالب، وقال:

– سامحك الله يا بني، نحن نكذب! ولماذا نكذب؟ هل حدث شيء أيّها الأومباشي المحترم؟...

– اسكت أنت!

ثمّ اقترب الأومباشي من معاون الشيخ غالب، وتفرّس طويلاً في عينيه مهدداً بصمت، وهو يريد أن يبدي ذكاءً في استجواب هؤلاء الخيالة الغرباء. قال له:

– قل الحقيقة أيّها الولد...! من أين أنتم قادمون؟

ثمّ أضاف، وهو يغمز بعينيه: نحن نعرف كلّ شيء....

انتظر عمر سماع صوت المعاون "الذهبي"، ها قد حانت اللحظة التي سيتكلم فيها المعاون من دون همس.

قال المعاون ووجهه يعبر عن لا شيء:

– كما قال لك الشيخ!...

– الشيخ... سحقاً لك وللشيخ!

أطلق الأومباشي الإهانة، ثمّ بصق بعنف، ثمّ سأل مرّة أخرى:

– من أنتم؟

فأجاب المعاون ببرود:

– هذا هو الشيخ غالب.

– قلت لك: قل الحقيقة!

– أنا أقول الحقيقة.

– ومن أنت؟

– أنا الشيخ علي.

– ومن أنت أيضاً؟ سأل الأومباشي عمر.

– أنا الشيخ عمر.

جلجلت ضحكة الأومباشي، وانتشر رذاذ المخاط على شاربه الفاحم.

ماذا كان على عمر أن يقول؟ لم يفكر أنّهم قد يواجهون مفرزة تركية يقودها أومباشي أهبل مثل هذا. أومباشي أصابه الملل الشديد، فقرّر أن ينشط بالتحقيق معهم.

ولكن الهزل قد يتحوّل إلى الجد في أيّ لحظة، والذي يؤكد ذلك هو تجهم وجه الشيخ غالب السموح، والذي قال فوراً موجهاً كلامه إلى الأومباشي:

– اتركنا أيها الأومباشي المحترم! ألا ترى إلينا... ؟ نحن نموت من العطش وأنت تتسلى معنا!

– أنا لا أتسلى... إنّني أحقق مع ثلاثة جواسيس.

– جواسيس..؟ استغرب الشيخ غالب، ثمّ قال، ماذا تقول أيّها الرجل؟ نحن لسنا بجواسيس، وفرصتك ليست معنا. كلّ ما هنالك أنّنا كنا في عرس ابن أحد شيوخ القبائل في بدنة، وها نحن عائدون إلى بغداد.

– ولكنّكم جواسيس، ولسوف نقوم بإعدامكم بالرصاص.

تكهرب الجوّ... وأحسّ عمر بانقباض شديد في صدره، ها قد تحوّل الهزل إلى جد، لقد اكتشف هذا الأومباشي اللعين شيئاً، هل يعقل ذلك؟ ... هل علموا بأنّهم كانوا مجتمعين مع رسل الشريف حسين من أجل العمل المشترك ضدَّ الأتراك؟.. امتقع لون وجه عمر، ونشف حلقه. أحس بذلك الأومباشي ذو الوجه الملول والقبيح،

فاقترب من عمر، ثمّ أخذه من يده، وابتعد به عن الآخرين.

قال له وهو يعود للتفرّس في وجهه مقطب الجبين:

– قل لي "يا شيخ عمر" (قالها بتهكم) ماذا فعلتهم في "بدنة"؟

– وماذا يوجد في "بدنة" حتّى تشكّ فينا إلى هذا الحدّ؟..

– توجد أشياء كثيرة!

– مثل ماذا؟ سأل عمر، فأجاب الأومباشي وهو يُلعِّب حاجبيه:

– يوجد أنكم لم تكونوا في "بدنة" إلا للراحة. وأنكم كنتم في "مكة" أليس كذلك؟ ... آ... ؟ ... أيّها "الشيخ عمر"! كيف يمكن أن يكذب شيخ مثلك؟

– "مكة"؟!! قال عمر باستغراب، وقد هدأت نفسه.

– نعم في "مكة"، ألم تزوروا الشريف حسين؟ ماذا تدارستم وإياه؟ ماذا تحضّرون أيّها الشيوخ المحترمون؟

ابتسم عمر بأدب جم، وكأنّه يقف بين يدي ضابط كبير، ثمّ همس للأومباشي مخفياً ضربات قلبه المتلاحقة:

– أقسم لك بربِ محمّد أنّنا لم نكن في "مكة"، بل في "بدنة".

– ماذا كنتم تفعلون؟

– حسناً... كنا في تجارة.

– تجارة؟! همس الأومباشي، وكأنّه لا يريد افتضاح الأمر. ثمّ قال:

– بم كنتم تتاجرون؟

– بالتمر.

ثمّ قال عمر، وهو يراقب الشيخ غالب ومعاونه اللذين كانا يراقبانه من مكانهما بسحنات متسائلة:

– دعني أقنع الشيخ غالب أن يعطيك ما تيسر! يمكنك أن تثق بي.

وجرت المساومة بين الثلاثة بهدوء، وأصرّ الأومباشي على مبلغ عشر ليرات بينما راح الشيخ غالب يراوغ، فقد رفض أن يدفع أكثر من خمس ليرات.

انتقلت حمى المساومة إلى الجنود، وما إن مرّت دقائق حتّى لقم أحد الجنود الشباب بندقيته ووجهها نحو رأس الشيخ غالب مهدداً بقتله إن لم يدفع ما يقوله

الأومباشي. وهكذا فعل الجنود الآخرون، وفي نيتهم، حقّاً، قتل هؤلاء "التجار الأثرياء" وسلبهم.

صاح عمر مهدئاً الجمع:

- خوش يا أولاد... خوش. تحلوا بالصبر من فضلكم، سوف نعطيكم ما تبغون.

إلا أنّ الشيخ غالب لم يكن يملك سوى خمس ليرات ذهبية.

- ماذا؟ ... خمس ليرات فقط؟

- أجل ...، هذه والله ورطة وضعتنا فيها أنت يا شيخ عمر، لن نخرج منها أحياء.

اصفرّ لون عمر، وراحت ساقاه ترتجفان، مسح شفتيه الجافتين بلسانه الجاف أيضاً، وأحسّ بحاجة ماسة للتبول. حقاً إنّها ورطة. كيف تجرّأ، وأخبر الأومباشي أنّهم تجار؟ على عمر ورأس عمر اللعنة!

وعندما عاد، ونظر ناحية الجنود، رآهم وقد وقفوا في صف واحد مصوبين بنادقهم إلى حيث يقف مع الشيخ غالب والمعاون.

أفلتت طلقة من بندقية أحد الجنود، وكان يفترُّ عن ابتسامة ملعونة، فأصابت جذع شجرة نخيل ذات ذوائب نافرة، فتطايرت ندف أبرية في جميع الجهات.

سمع عمر قهقهة الجندي، فأعاد فتح عينيه. كانت فوهات البنادق السود قريبة جداً من عقله، أيُّ عصر ابن كلب هذا. كيف سيموت هكذا ميتة الكلاب؟ ومن أجل ماذا؟ لو أنّهم سيقتلونه، لأنّه شارك في التآمر على الحكم التركي، لكان الأمر أهون. أمّا أن يقتل لسبب دنيء، فهذا ما لم يستوعبه عقله، في تلك اللحظات التي اختلطت فيها أشعة الشمس التي بردت منذ برهة، واستحالت إلى لون برتقالي مختلط بلون فضي هو لون الغروب، بجميع قذارات العالم، واختلطت بالثياب الرثة للجنود وبلحاهم النابتة الدبقة وبأحذيتهم الكتانية والجلدية بكلّ أنواعها، وما علق بها من قاذورات.

تذكّر اللحظات الرهيبة أمام مدينة كوت العمارة، تذكّر القنابل المتفجرة والأتربة الصاعدة النافرة، الهابطة والمقصوفة على الرؤوس، تذكّر أصوات الهلع التي

كانت تنطلق من أشداق الجنود المفتوحة على آخرها.

أما أفواه الجنود، الذين اصطفوا أمامهم، فقد افترّت عن أسنان صفراء.. يا للقذارة التي تسيل مع اللعاب المصفرّ. أغلق فمك أيّها القاتل! ألم ترَ إلى نفسك في المرآة أبداً؟ وهل يجب أن يكون الموت بهذه القباحة؟

ومرّت بهية كالصاعقة في ذهنه. كان خياله يعمل بسرعة، فلم يتبيّن له كيف كانت تبدو، أما فريدة فكان يراها، ولم يكن يتخيّلها، كانت تسير أمامه، بعباءتها السوداء، باكية. كانت تسير ببطء شديد، وكأنها تؤخر لحظة الموت إلى ما لا نهاية، تتبعها المرأة الألمانية الخرساء، عارية، تجتاحها اللحظة الجنسية العارمة.

– يا للسخف..! تمتم عمر بنبوك وهو يحسّ بالإنهاك، ثمّ دوى صوت إطلاق الرصاص المصم للآذان. كان عقله معطلاً عندما انقشع دخان البارود الصادر عن البنادق. لم يستطع أن يفهم ما حدث، وكأنّ الموت هو كلّ ما كان يحدث في هذه اللحظة، عندما أنزل الرجال بنادقهم الموجهة إلى الأفق فوق رؤوسهم، ثمّ أخذوا يقهقهون، ويطلقون الألفاظ البذيئة:

– انظر! ها هو يتغوط في ثيابه.

– لقد انقطع "حيله". لن يأتيه أولاد بعد الآن.

– ما لك يا شيخ؟!! لماذا ترتجف؟ مثل قحبة عارية في الأربعينية؟

ثمّ اقترب الأومباشي من الشيخ غالب، وراح يهمس في أذنه، أمّا عمر فقد اصطنع ابتسامة بلهاء جداً على سحنته المصفرة. يا لها من لعبة قذرة، يا لجبن الإنسان، ثمّ سمع أحدهم يحادثه:

– آه...؟ لن تستطيع أن تنكح زوجتك بعد الآن أيها الشيخ المبجل! أليس كذلك يا شيخ عمر؟ عليك أن تستأجر فحلاً لهذه الغاية!

ثمّ قال له:

– الحياة أثمن من عشرات ليرات، يجب عليك أن لا تكون بخيلاً إلى هذا الحد! هيا... نفّض جيوبك!

فقال عمر، وقد شرع يمسح حبّات العرق التي تفصدت على وجهه بكثافة:

– يا له من مزاح سمج، لماذا أخفتمونا؟ كدت أموت من الهلع.

دفعوا إليهم كلّ ما يملكون، وما إن سمحوا لهم بالذهاب حتى هرعوا إلى خيلهم، ثمّ راحوا يهمزونها مبتعدين عن قهقهات الجنود، ثمّ ساروا خبباً، يلفهم الظلام الذي شرع يزحف، بلا كلل، قادماً من نفس الجهة التي كانوا يغوصون فيها.

* * *

دفع عمر باب السياج، وقاد حصانه إلى الزريبة. كان القمر هلالاً، إلاّ أنّ نوره تمدّد في البستان برفق، فبان البيت، الغاطس بين الأشجار، متوحداً، مشرع النوافذ بسبب حر ليالي حزيران الخانق.

ألقى السرج على المصطبة، ثمّ راح يمسح ظهر الحسان بيده. لقد أرهق الحصان، ولولا أنّهم باتوا ليلتهم الماضية في إحدى القرى على الفرات، لكان الحصان قد فطس. مسح أيضاً على جبهته الطويلة، فابتلت يده بالمخاط، وعندما نخر هبت على رقبة عمر موجة من الهواء الساخن، فربّت على كفله، وقرّب منه حزمة من البرسيم، ثمّ انطلق خارجاً.

دار حول البيت، نحو الجهة الخلفية، فبانت النخلات الثلاث. كانت المعزة مستلقية بكسل في الظلمة، وما إن أحسّت بحركته حتّى أطلقت صوتها المتقطع الحاد. شتمها، ودلف عبر الباب الخلفي الضيق إلى الممر المظلم، ومن غرفته الضيقة سمع صوت شخير الشيخ درويش وصفير رئتيه.

استلقى في فراشه دون أن يغتسل، ورائحة عرق الجياد تفوح منه. أراد أن يغفو إلا أنّ النوم طار من عينيه، كان يفكر، ماذا حدث في البيت أثناء غيابه؟ لقد غاب أربعين يوماً، الشيخ درويش بخير، ها هو يشخر بانتظام، هذا يعني أنّ كلّ شيء على ما يرام. غداً سيقابله، سيأتي الشيخ غالب أيضاً، للتحدث مع الشيخ وإعلامه بالنتائج. لقد وقعوا اتفاقاً مع الشريف حسين. أصبحوا حلفاء له وسوف يقومون معاً بمحاربة الأتراك. المهم الآن هو محاربة الأتراك ليتمّ طردهم من البلاد. هذا هو الطريق الصحيح للخلاص. الخلاص من كلّ هذه الجراثيم التي تفتك بالجسد الواهن. لم يعد مهماً الآن مع من يتعامل الشريف حسين. مع من يتحالف.. مع الإنكليز أو الإفرنسيين.. أو حتى مع الشياطين. المهم الآن هو تسلق هذا الجبل العالي والقاسي،

رغم كلّ الظروف، رغم كلّ العوائق، ليس مهماً انحداره الشديد، السقوط هو السقوط دائماً، السقوط واحد في كلّ الأحوال. أمّا النجاح... فلا شيء يوازيه. الوصول إلى قمة الجبل هو السعادة كلّها. هو القوة والثقة والشعور بالذات كإنسان يعيش، ويدبُّ على هذه الأرض الطيبة.

لم تعد ممكنة الحياة على هذه الشاكلة، سحقاً للعيش مع هؤلاء، إنّه يكرههم، لم يحسّ طوال حياته، بمثل هذا الحقد عليهم، على أولئك الغرباء القادمين من الشمال.

تذكّر الحادثة في الصحراء، ولكنّه لم يشعر بالخزي الذي تملك عليه شعوره حينها، بل بحقد راح يثور، ويتصاعد مع كلّ ضربة من ضربات قلبه القوية، ومع كلّ زفير حار يطلقه، بينما كانت أسنانه تصرف، حتّى حسب أنّها ستتكسر.

وفي الطريق، أثناء العودة، كان يحسّ بحاجة ماسة للانفراد بنفسه. بحاجة لأن يفكّر في كلّ هذا الذي جرى معه، منذ اليوم الأول، حينما قهروه بكمينهم وحبالهم في أحد شوارع حلب، وحتى عملهم المثير للغثيان، حينما أوحوا له أنهم سيقتلونه.

ولكنني ابن كلب، قال لنفسه هامساً، أخاف أن أموت... ما هو الموت؟ هل هو أقسى من الذل؟ أواه يا عمره بنبوك، أنت خرقة بالية، ممسحة أحذية، ذيل حمار ملوث بالروث، أنت يا عمر . تابع يحدّث نفسه . لا تساوي أكثر من دبيبة... عليك أن تخصي نفسك، لتكون فعلاً كذلك... لتبين على حقيقتك!

أنت تحبّ النساء، تحبّ أن تبقى مستلقياً بين أفخاذهن. لا هم لك سوى عضوك، ترضى أن ترفس على مؤخرتك على أن تثابر على معاشرتهن.. بهية... ما لها بهية؟ سحقاً لبهية وأم بهية وأبي بهية..!

كلّ الحقّ على بهية. حتّى عندما وجهوا مواسير بنادقهم، وحسبت أنّك زائل.. فاطس، تأسفت على بهية، لن تنام معها بعد الآن، بعد أن تصير إلى جيفة... طظ!

ولكنّهم كانوا يضحكون عليك، يضحكون على مؤخرتك أيّها المخصي اللعين، قالوا لك إن حيلك انقطع. نصحوك أن تستأجر فحلاً لإرضاء بهية! ثمّ تخيلت تلك الألمانية الخرساء، وهي عارية، ترتعش، في انشراح جنسي لانهائي. تكاد يغمى

عليها بفعله.... ما هذا؟ هل هذا ما يرضيك يا عمر؟ هل هذا كل ما ستخسره عندما يطلقون عليك، فيما لو فعلوا، أو بعدما تصبح طعاماً حلواً للديدان والعقبان؟

اللعنة عليك يا عمر بنبوك وعلى عضوك!

ماذا كان عليه أن يفعل؟ أن يهجم على بنادقهم، ويحطمها؟ أن يحطم رؤوسهم، ثمّ يستلّ سيفاً مشحوذاً، وينهال على رقابهم وصدورهم طعناً وتقطيعاً؟ ماذا يمكن أن يفعل رجلٌ أعزل؟ هذه الأمور لا تحل ببساطة، قتال الأتراك شيء منظم ويحسب له ألف حساب، فهم جند مسلحون حتى أسنانهم. يملكون السلطة وأداتها والقانون... وكلُّ الكلاب المفترسة.

لا بأس . قال لنفسه . إنّ اتّفاقهم مع أمير مكة لا بأس به، وها أنا منخرط فيه. هذه الأشياء تحدث في أوقاتها دائماً، إنّها فرصة، سأكون أوّل من يحمل السلاح حينما يصل، ويتم تكوين السرايا. المكيون، حسب الاتفاق سيرسلون النقود والسلاح، أمّا نحن فعلينا تجييش الرجال، ثمّ، هيا! نحو عالم آخر، حياة أخرى.

الشيخ غالب أصرَّ على معرفة مدى علاقة هذا الاتفاق بالإنكليز، وقد حبذ عمر إصرار الشيخ، ولكنهم كانوا يتجنبون الخوض في مثل هذه الأمور، أخيراً، قالوا: إنّ الإنكليز يمدون يد المساعدة فحسب، وهذا بسبب حربهم ضدَّ الأتراك والألمان. ليس هناك ما يخيف. المساعدة فحسب، وقيام المملكة العربية هو لصالحهم أيضاً. الإنكليز سيرسلون السلاح الذي نفتقده، والذي بدونه لا يمكن مجابهة الأعداء المسلحين، وحالما يتمُّ تأسيس الدولة العربية، سيترك لنا الخيار في تطوير علاقاتنا معهم أم لا...! إنّكم تتطيّرون أيّها العراقيين! ولكنّ الإنكليز واقع لا يمكن تناسيه. إنّهم موجودون في العراق فعلاً، وعندما نتحالف مع الإنكليز فإنّهم، وحسب اتفاقنا معهم، سوف ينسحبون منها بعد انتصار ثورتنا على الأتراك، وسيتم تتويج أحد أبناء الشريف ملكاً على العراق.

لا بأس... ما دام دور الإنكليز سيقتصر على ذلك، فلا بأس. والشيخ درويش قد حصل على تعهد بذلك، هذا يعني أنّ الأمور تسير على ما يرام...!

غفا عمر، غفا بعد أن ارتاحت نفسه، ولم يدرِ كم نام، عندما استيقظ على صرير الباب، وهو يفتح، ونور الشمعة يتراقص على جدران حجرته. كان الفجر قد

تسلّل في العتمة، أوصدت فريدة الباب، ثمّ اقتربت من النافذة الواطئة، تركت الشمعة عليها، ثمّ تربعت بجانب الفراش، قريباً من رأس عمر.

رأت إلى بياض عينيه، فقرّبت وجهها من وجهه، حتّى أحسّ بأنفاسها، همست له، وهي ترسم ابتسامة حلوة على محياها:

- الله بالخير!

- الله بالخير يا فريدة!

- شلونك... زين؟.

- لا بأس.

- تأخرتم كثيراً. شنهوه حصل؟ خير إن شاء الله... حنطة ولا شعير؟

- جرت مداولات طويلة، كنّا مضطرين للبقاء هناك كلّ هذه المدّة، وفي النهاية تمّ الأمر، تمّ توقيع الاتفاق.

زفرت تنهيدة في وجهه، كانت عيناها مثبتتين فيه، فنظر إلى الفجر عبر النافذة، وهو يحاول أن يبعدها عن أنظاره، قال ليكسر الصمت:

- لقد استيقظتِ باكراً جداً.

- بلى، النوم يهرب مني، بتُّ أكره الليل، وأخافه، حدث هذا بعد سفرك. لم أسمعك حينما وصلت، ولولا أنّني شاهدت حذاءك على الباب لما عرفت.

ثمّ تابعت:

- لماذا لم توقظني؟ كان عليك أن تطرق على بابي!

- ليش؟

- لأنّني كنت أنتظرك.. كلّ ليلة أتوقع مجيئك، فتتوفز حواسي. الغائب يحضر ليلاً، وهكذا أنت أيضاً، وصلت في الليل. (ابتسمت، فازداد جمالها) إنه اكتشافي.

ثمّ سألته:

- ألا تحتاج إلى شيء؟ هل أنت جائع؟

- جائع.. ولكنني سأنتظر حتّى الصباح. التعب غالب على الجوع. لقد كبرت.

سألته بلهفة، وهي تمسك يده، وتبتسم:

– تقول عجزّت؟ أيش يقول الآخرون؟

سألها بعد فترة صمت:

– قولي لي! ما هي أخبار البيت؟

– شنهوه أقول لك؟ كالعادة، ناس رايحة وناس جية، واجتماعات بلا نهاية، وجدي صحته مو زين.

– اش بيه؟

– إنّه لا يهدأ، الربو والمفاصل لا يعفان عنه. منذ أسبوعين زاره طبيب. أعطاه بعض الحبوب والحشائش. قال له أن يرتاح، ولكنك تعرف جدي، إنه لا يأبه لنفسه.

ثمّ أردفت:

– كما جاء الأتراك.

– متى؟

– بعد سفركم بمدّة، حققوا معه، قالوا له، إنّهم غير مرتاحين لما يجري في البيت، إلا أنّهم كانوا مهذبين، كانوا يطرحون الأسئلة فقط. أخبرهم الشيخ أنه يدرّس علوم الفقه، وأنّهم لا يتدخلون في السياسة، ثمّ راح يتشاقى وإياهم. بعد ذلك قبّلوا يده، وخرجوا.

ضغطت على يده، ثمّ قبّلتها، وقالت:

– شيء آخر.

– ما هو؟

– أنت.

– ما بي؟

– اشتقت إليك هواي. كان البيت من دونك فارغاً وبارداً.

ابتسم لها، كان كلامها حلواً، يقطر عسلاً. واتّضح شيء مبهم في قلبه، فهمسها وصمت الفجر الذي يزحف ببطء داخلاً الحجرة خلل النافذة، وغناء القبّرة المتواصل، جعله يرتعش، وهو مستلق، ورأس فريدة يطلّ عليه من الأعلى.

كم كان يكره نفسه، منذ ساعة، بسبب ولعه الشديد، ولعه ببهية وفريدة. ولكن هذه الأمور لا تهمل، لا يمكن أن يغمض عينيه. ها هي الآن جالسة إلى جانبه تنفث أنفاسها المعطرة في وجهه، ممسكة يده برفق كمن يمسك بعصفور الدوري المزقزق، الملتاع والهش. هل تحبّه؟ .. هل يحبّها؟. سأل نفسه وهو ينظر إلى عينيها السوداوين المؤطرتين بكحل الأمس. هي لا تنسى أن تجمّل نفسها، لا تنسى أن تضفي على وجهها ما يهيّجه ويسكّنه في آن واحد.

جذبها إليه قليلاً، ثمّ أوقفها، صارعته نفسه، صاحت فيه: لا..! كن حذراً! إياك أن تنقاد بشهواتك إلى الأسفل هذا غير صحيح، عليك أن لا تتسرع. اترك قلبيكما يمتدان كما يحلو لهما. اترك الأعين تعمل وتنشط حتى تغرق في الدموع التي لا تقدر بثمن.

سمعها تردد ما قالته مرّة أخرى: اشتقت إليك هواي... بعيوني اشتقت إليك، أما هو فقد تابع النظر إليها، إلى تعابير وجهها التي تفصح عن صدقها، كانت هاربة من حسين. مجرد هروب من إنسان لا تطيقه، أما الآن فهي تحبّه. المرأة تحبّ، المرأة تهوى، ويطير من عينيها الكرى، حينها لا تحسب أيّ حساب لأيّ إنسان. ها هي تبرز لسانها لحسين. تبرز لسانها لكلّ شيء، وتفصح عن هواها.

ربّت على يدها الممسكة بيده الأخرى، ثمّ قال:

– وأنا اشتقت إليك. عليّ أن أعترف أنّك غالية على نفسي، لقد فكّرت فيك وحلمت بك في بدنة، وعندما كنّا عائدين، كنت أتلهف للوصول كي أقابلك. ولكن علينا أن نفكّر بعقل، أن لا ندع الشيكان يكون ثالثنا. أنت مازلتِ صغيرة، وأمامنا الوقت الكافي. هيا! ... عودي إلى غرفتك! قد يراك أحد، وقد يصحو الشيخ، ويجدك في غرفتي، هذا لا يصح. هيا... لقد عاودني النعاس!

قالت: خوش. ثمّ أدنت يده مرّة أخرى من فمها، وقبّلتها. صدر صوت عن قبلتها الطفولية المضحكة، نهضت، نفخت الشمعة، فأطفأتها، ثمّ التقطتها عن الإفريز، وخرجت وهي تطلق تنهيدة حلوة.

* * *

بعد يومين من وصول عمر، وقبل أن تطل الظهيرة بحرها القائظ، كانت غرفة الشيخ تعجّ بالضيوف، وصلوا من كلّ مكان. كانوا عشرة رجال من أقرب مساعديه.. هم الذين يقودون فعلياً عمل الجمعية. كان الشيخ متربعاً، بثيابه البسيطة، بينما طرح على كتفيه عباءة سوداء، أضفت عليه روعة ومهابة.

كان الشيخ مصفراً، راجف اليدين والذقن، يتطلّع إلى رجاله بأعين أطفأها الزمن، إلاّ أنّ حاجبيه الكثين قد ظلّلا عينيه بقوسين أشهبين متهدلين، أعادا للعينين هدوءهما وبأسهما معاً. كان فمه مطبقاً، أمّا أذناه الكبيرتان، فقد راحتا تنصتان باهتمام إلى شروح الشيخ غالب الطويلة. كان عمر جالساً بجانب الشيخ، وقد أسند ظهره إلى الجدار يستمع، ويراقب الرجال الآخرين الذين عرف معظمهم. فقد كان إلى يمينه الشيخ محمود الشاب الذي علّم عمر القراءة والكتابة. كان ينصت باهتمام ويسجّل ملاحظاته على ورقة بخط دقيق لا يُقرأ، أمّا إلى جانب محمود، فقد جلس اثنان من المراسلين يعرفهما عمر، ثمّ الشيخ غالب الذي كان يتحدّث في تلك اللحظة، فمعاونه الشيخ علي الصموت كالحجر، أمّا حسين، ابن أخ الشيخ فقد جلس مقابل عمر من الجهة الأخرى تقريباً من عمه.

كان عمر يلقي نظراته السريعة على حسين بين الفينة والأخرى. ينظر إليه رغم أنه صمم على تجاهله، كان يرى وجهه المجدور والقبيح كلّما أخطأت عيناه وتطلّع إليه، فيلعنه في نفسه. كم هو قبيح هذا الرجل! هل يمكن لفريدة الحلوة أن تقترن به؟ هل يمكن إرغامها على الزواج منه؟

طرد هذه الأفكار، وراح يركّز ذهنه على حديث الشيخ غالب حتّى انتهى.

صمت الجميع بانتظار حديث الشيخ درويش، إلاّ أنّه أطرق مدّة وهو لا ينبس بشيء. ماذا؟ ألم يعجبه الاتفاق؟ دور الإنكليز في الثورة؟ عمر أصبح له رأي في هذا الموضوع.

رفع الشيخ رأسه، ثم سأل:

– ماذا كان تصورك الشخصي، يا شيخ غالب، عندما كنت توقّع الاتّفاق؟

فقال الشيخ غالب، وهو يداعب مسبحته الخشبية، التي كان يدّعي أنّها تصدر رائحة المسك:

– الثورة ستقوم، وبمساعدة الإنكليز، شئنا أم أبينا. علينا أن لا نكون متخلفين عنها، كلّ عشائر الجزيرة موافقة على السير خلف شريف مكة. (جهينة) وافقت، وكلّ أفخاذ عشيرة "حرب" ينتظرون إشارة الشريف. هذا يعني عشرات الألوف من المسلحين الراكبين، عدا أنّهم يتوقعون التجاء ألوف الجنود العرب الفارين إليهم من الجيش التركي، من عراقيين وسوريين وغيرهم.

طلب حسين الكلام.

– شنوه يا حسين، تريد تقول حاجة؟

– بلى يا عمي! ... قال حسين، ثمّ سلّك حنجرته بقوة، وتابع: هذه العشائر لا أمل يرجى منها، أنا لا أعتقد يا إخوان أنّ هذه الثورة ستنجح، وكيف ستنجح؟ إنّهم في صراع دائم فيما بينهم. يتقاتلون لأتفه الأمور، ثمّ أنّهم قد يحاربون مع الأتراك ضدّ الشريف لمجرد رشوتهم بالمال. علينا أن نأخذ حذرنا من التورط في ثورة تبعد عنا ألوف الأميال، كيف سنساعدهم نحن؟ هذا غير واضح، فقوتنا ليست كبيرة! ثمّ... من سيساعدنا في حال تعرضنا للفشل؟

أيّده رجل آخر يتربع إلى جانبه، فقال:

– هذا الكلام صحيح، إنّ كلّ عمل جمعيتنا ينحصر في تحريض الناس على الأتراك، وجعل الجنود يتركون الجيش، ثمّ أنّنا لم نفكّر يوماً في الحرب ضدّ العثمانيين. إنّ الشريف يدفعنا إلى الهلاك لكي نشغل بعض القوات عنه.

انبرى الشيخ غالب، وهو يجاهد للحفاظ على هدوئه:

– أنتم إذن تريدون البقاء على الهامش، هذا ليس من شيمنا!

فقال حسين محمر الوجه مغضباً:

– هذا ليس هامشاً. ما نفعله ليس هراء. ثورتنا ستقوم في يوم نحدده نحن بالذات، وليس شريف مكة.

– أنا لا أقول علينا إشعال ثورتنا الآن.

– ماذا تقول إذن؟

فقال الشيخ غالب:

– السلاح والمال اللذان سيقدمهما الشريف لنا سيجعلاننا أقوياء. يجب أن لا

نكون بلا حول ولا قوة، ثمّ هناك القبائل التي تؤيدنا.

فسأل حسين:

- اشبيها؟

- لن تبقى معنى إلى اللانهاية، ونحن لا نقدم لها تمرة. يجب علينا أن نقنعهم أنّنا أقوياء كي يتبعونا إلى النهاية.

قال عمر، وهو يريد أن يسبق حسين قبل أن يرد على كلام الشيخ غالب:

- أنا لي رأي في هذا الخصوص...

حدجه حسين بنظرة عدائية واضحة بجلاء، ثمّ أطرق عندما تابع عمر:

- لقد اقترح علينا رسل الشريف أن نقوم باستخدام السلاح، الذي سيقدمونه لنا، بالإغارة على قوافل الجيش التركي القادمة من الشمال، والتي تغادر إلى الغرب. هذا الشيء مفيد جداً، ويعطي ثمرة في حال قيامنا بتشكيل جماعات مسلحة، راكبة، تجوب الجبال.

قوبل اقتراح عمر بالصمت. نظر إلى الشيخ غالب، فألفاه يهز رأسه ببطء إيجاباً. ولكن ما بهم، لماذا هم صامتون هكذا؟ احمرّ وجه عمر، لأنّه حسب أن اقتراحه لا يزيد عن السذاجة بشيء. تململ الشيخ درويش، ثمّ سعل بقوة، وبصق في خرقة، خبّأها تحت فخذه. عمَّ الصمت دقائق، فإذا بمعاون الشيخ غالب يفصح عن رأيه بصوت رتيب لا يكاد يسمع:

- لقد اتصل الشريف حسين معنا لأنه يقوم بذلك مع باقي الجمعيات والأحزاب والعشائر في العراق، وقد اتفق مع عدد منهم، يجب أن لا نقابل ذلك بهذا الشكل الذي تريدونه... لا يمكننا رفض التحالف والانخراط في الثورة حيثما تحدث!

تطلّع عمر في عيني حسين. أراد أن يسبر غوره، ويفهم السبب الذي دعاه لرفض الاتفاق. كان يزوره، يسدد إليه نظرة قاسية وثابتة أخافته. في هذه الأثناء كان الشيخ غالب يعاود الهجوم، ويصف البعض بالجبن. نقل حسين عينيه إلى غالب، فارتاح عمر لانزياح ذلك الثقل عنه. نهض عمر، واستأذن. خرج إلى البستان، وأشعل لفافة تبغ، ثمّ راح يدخّنها في الظلّ. كانت الشمس تنشر أشعتها بقسوة على الكون، وغطس البستان في هدوء الظهيرة الحارة، فلم يكن يسمع سوى صرير

الجنادب وطنين الذباب. تثاءب، ثمّ مسح عينيه، بصق لعابه المر، وأطلق شتيمة فيما تتوجس نفسه من تصرفات حسين، لماذا هو كذلك؟ لماذا يقابله بكلّ هذا الحقد الذي يطفح من عينيه؟ ألأنه من حلب وليس من بغداد، وماذا في ذلك؟ كلّنا أبناء هذه العروبة المسكينة، فلماذا لا يفهم ذلك حسين؟ ... اللعنة عليه!

لكنّ فريدة هي السبب، قد يقاتل حسين من أجلها، وقد يقدم على عمل خسيس. الرجال أمثاله يفعلون ذلك ببساطة.

لذا... كان عليه أن يفتح عينيه جيداً، وسوف ينبّه فريدة، ويبثها مخاوفه. اليوم فقط، لاحظ ذلك، ومتى؟ حين يتمّ البحث في الثورة، فاكتشف حسين أنّ الثورة يجب أن تضرم في هذا البيت، أن يطرد الغريب الذي هو عمر في بادئ الأمر، بعد ذلك لكلّ حادث حديث. هكذا فهم عمر موقف حسين منه. بغير ذلك لا يمكن فهم هذا الرجل القبيح.

أطفأ سيجارته، ثمّ قفل راجعاً. عاد إلى مجلسه، وأسند من جديد ظهره إلى الجدار، الذي كان يمدّه ببرودة عذبة خلل بشرته. كان الصياح على أشدّه بين غالب وحسين. كان حسين يتهم غالباً أنّه يغامر برقاب الناس، بينما ردّ عليه الأخير بنعوت الجبن والكسل، وكادت تحدث قطيعة بينهما والشيخ صامت يستمع من دون أن يحرّك ساكناً. كان يسعل بين الفينة والأخرى فحسب. أسكتهما الشيخ مصطفى، الذي كان ساكناً طوال الوقت. والشيخ مصطفى هذا الرجل في الخمسين ظاهر البدانة أمرد البشرة له عينان كالأزرار، يظلّ مسافراً لمدد طويلة، وعندما يعود من أسفاره يملأ البيت مرحاً، فهو كثير المزاح، ولا يتوقف عن قذف النكات والصفات اللاذعة على الجميع، وفي العادة لا يكون جاداً إلا مع الشيخ.

صاح الشيخ مصطفى، وهو واقف على ركبتيه، بغضب موجهاً كلامه إلى حسين غير آبه للشيخ:

– اش بيكم... شنهوه صار لكم؟ غير قواويد... قنادر! ماكو حيا...!

صمت الجميعن وابتسم البعض. ابتسم عمر بسخرية هذه المرّة. شاهده حسين وهو يهزأ منه، فنفث سماً. تابع مصطفى بلهجته الملحية هادفاً ترطيب الجوّ رغم كلماته اللاذعة:

– شلون تجي هادي؟ قلنا له يابه روح وداعتك لعند رجال الشريف واتفق معهم! راح الرجل وجاء باتفاق... شنهوه صار؟ لازم ناكله؟ ضوجتني يا شيخ! عوفوه لخاطر الله!... اسمعوا! المسألة بسيطة. خليهم يبدأوا ثورتهم أولاً، لن نتحدث الآن قبل الآن. لحد الآن الاتفاق زين. نحن شنهوه قاعدين نفعل، راح يجي يوم نضطر فيه لمحاربة الأتراك، عندها يا شيخ حسين روح أبحث عن مساعدة! أمامنا اتفاق، بموجبه سيقدمون لنا المساعدة. ونحن راح نساعدهم قدر الإمكان... زين.. ألف زين! لما يجي الوقت المناسب راح نستخدمه، وإذا أرسلوا لنا المال والسلاح الآن، فسنوزعه على الناس وننتظر اللحظة اللي بإمكاننا أن نتحرّك فيها من دون أن نكون معرضين لخطر الإبادة. الآن.. شنهوه رأيك.. آه... حسين يابه.. اشبيك ساكت! احكي لخاطر الله؟!...

لم ينبس حسين، فاقترح الشيخ درويش تناول الغداء كي تهدأ النفوس.

لقي اقتراح الشيخ استحساناً من الجميع، فنهضوا، وراحوا يتمطون ومفاصلهم تطقطق، ثمّ خرجوا إلى البستان كي يفسحوا لفريدة توضيب المائدة.

تناولوا الغداء، وهم يغصون ضحكاً من نكات الشيخ مصطفى. كان يروي لهم حادثة جرت معه أثناء سفره الأخير إلى كربلاء، فقد استأجر سريراً عند إحدى العجائز ليبيت ليلته في بيتها. كانت العجوز في السبعين من عمرها، أرملة، فقدت ابنها الوحيد بمرض أصابه منذ زمن بعيد، إلاّ أنّها كانت تعتقد أنّها إذا ما تزوجت من جديد، فستحبل، وتلد طفلاً، يملأ عليها حياتها "ويشيل كبرتها".

كانت نصف مجنونة، فراحت تحدّثه عن مشاريعها وخططها لالتقاط زوج من الحجاج الذين يؤمون كربلاء في عاشوراء. جعلته يسهر معها، حتى انتصف الليل وهي تحادثه.

وعند الفجر، عندما نهض الشيخ مصطفى لأداء صلاة الفجر، وجدها وقد تجمّلت، وارتدت ثياباً نظيفة تفوح منها رائحة العث، وقد شبكت ذراعيها على صدرها وبادرته بفم نظيف من الأسنان:

– أنا جاهزة... فليأت المأذون!

طمأنها، ثمّ أقام صلاة الفجر، وعندما انتهى هرب من بيتها خلسة. قال له

أحد الشيوخ بتهكم:

- كان عليك أن تكسب ثوابها يا شيخ..! فأجابه الشيخ مصطفى:
- ثوابها عند الله وليس عندي.
- قلبك قاس يا شيخ مصطفى.
- يبدو أن قلبك قاس أكثر من قلبي... ما ذنبي أنا يا شيخ محمود؟
- شنوه ذنب البنية؟ هي تريد ولد وأنت، ما شاء الله، متين، خرب ذوقك، هي ليلة على سنة الله ورسوله.
- وإذا كانوا ليلتين؟ لا يابه... وداعة أبوك.
- ليلتين...؟ هذا لصالحك، فستنام عندها دون أن تضطر لدفع الإيجار.
- اسمع . قال الشيخ مصطفى . والله ... سأدفع كلّ ما أملك لأهرب من لسانك ومن فرجها..

فصاح البعض مستنكرين وهم يضحكون، لعنة الله عليك يا شيخ مصطفى!

صلوا العصر، ثمّ عادوا لاجتماعهم. تكلّم الشيخ درويش مطولاً، وحسم النقاش، فقد أيّد الاتفاق، واعتبره لمصلحتهم أيضاً. كان لا يثق بالإنكليز ولا بالشريف حسين، الذي قطع الوعود على نفسه بعدم السماح للإنكليز والفرنسيين باحتلال البلاد، ومع ذلك راح يشرح مزايا الاتفاق مع المكيين بشيء من الحماس. كان يريد أن يطور الحركة المعادية للأتراك وحقنها بدماء جديدة، دماء سائلة ولكنها صلبة كالحديد.

ثمّ وافق الشيخ على فكرة توزيع المال والسلاح على الناس المؤيدين لهم، لحشدهم في الوقت المناسب، وتوجيه الضربة المنتظرة للأتراك حينما تقرع طبول الحرب الهادرة. فالحرب، عليها أن تجر إليها كل الناس، وهم بالطليعة، ويبقى واجبهم الأول تأمين السلاح لهؤلاء الرجال الغارقين في الذل ودفعهم لرفع رؤوسهم عالياً. ولكن... كيف سيحدث ذلك دون التعاون مع الآخرين؟... فالسلاح لا ينبت في الأرض كقصب السكر، ولا يعنقد الرصاص في عذوق التمر في أعالي أشجار النخيل.

2

مر الصيف وانقضى. كانت الحياة في مزرعة الشيخ درويش ترفل بالسأم والتثاؤب تارة، وبضجيج القادمين من بعيد، الذين علقت بثيابهم وعمائمهم رائحة عرق الجياد الحامضة تارة أخرى.

كانت شمس الصيف تسوط بأشعتها المحرقة التربة الصفراء، وسعف النخيل تنوء بثقلها، وكأنّ وهج الشمس ثقيل لا يطاق حمله. وعبق الهواء المشلول بسكون مريب، برائحة زنخة السمك والفطائس. وراح الذباب يطن بكسل في الهواء الرطب، ثمّ يحطّ على اللحم البشري ومؤخرات البغال بسماكة دم، تجعل الأعصاب نزقة متوثبة. إلاّ أنّ دجلة كان يرحب، وهو يسيل ببطء عروس زُفّت إلى شيخ، بالعرقانين الذين التجؤوا إليه، لينعموا ببرودة مائه المصفر. كان يحتضن ألوف الأجساد الهزيلة السمراء بطيبة خاطر، رغم أنّ صمته قد انخرق بضجيج البشر، وبالصياح والسباب، بولاويل العجائز الخرفات اللواتي كن يصحن مناديات أبنائهن خوفاً عليهم من الغرق.

كانت الطرق تخلو من المارة في الظهيرات وعند حلول الظلام في الأمسيات. أصبحت الدروب للكلاب الضالة الجائعة والهزيلة فحسب، أمّا الناس فعليهم أن يجتمعوا في البيوت المسقوفة بسعف النخيل، والتي صارت جدرانها أشبه بجدران الأفران والمواقد.

كان كلّ شيء يشعّ بالحرارة، ويعبق بالرطوبة، حتى الحرب كانت تروح في قيلولة، ولكن الجوع بقي يقضُّ المضاجع المحكمة الإغلاق، بقي يعبث بأرواح الأطفال الشفافة في الأمسيات والليالي المظلمة، التي بخل القمر عليها ببصيص من نوره، فمات الطفل الجائع مشدوداً إلى صدر أمّه هلعاً من وساوس الظلمة، لا هرباً من آلام الجوع المبرحة، التي كان قد اعتاد عليها فيما مضى. وتسيل دموع الأمّ، وهي تكتم بكاءها عن الجموع الهائلة المحتشدة في غرفة واحدة، وقد علا الغطيط وعبق الهواء بروائح العرق والبول وغائط الأطفال والرطوبة وكلّ قاذورات العالم المهيجة لحواس الشمّ، تلك الحواس التي اكتشفوا أنّها من حواس الإنسان الزائدة، التي لا لزوم لها والتي تعتبر بطراً فريداً من نوعه في هذا القن الذي يعيشون فيه.

كان التركي يتبختر، والإنكليزي يكبت غيظاً تملّكه من نتائج معركة "الكوت"

أمّا الناس والجنود، الذين أمسوا لا يختلفون عن بهيمة يلاحقها الذباب، فقد راحوا يجترّون أنفسهم، ويعلكون قاذورات الأمم الأخرى. ولكن... "هذه الحيوانات" سمعت همساً عن ثورة عربية حدثت في مكة، حيث كان الحجاج يؤمون في غابر الأزمان، وقبل التاريخ. قبل أن تخلق الجبال والأنهار والأطفال والقابلات المولدات. قبل أن يخلق السلاح والبارود والمدافع التي تطلق عشرة أرطال من الحمم، وقبل أن تخلق الحروب.

سمعوا أنّ مكة ثارت، كما ثار محمّد النبي، فافترّ ثغر، عن أسنان قليلة، منفردة، متوحدة، سوداء هشة من جراء سوء التغذية والتدخين المفرط، عن ابتسامة باهتة تنز أملاً مسحوقاً. وسمع شيخ عجوز نفسه تسأل... يا إلهي... وهل لهذا الشيء من معنى؟

إلاّ أنّ أخبار الثورة ما فتئت أن بهتت هي الأخرى. سمعوا أنّ الثوار استطاعوا سحق الأتراك في مكة المكرمة وجدة، ثمّ في الطائف، وينبع، ثمّ ما لبثت أن نامت. سألوا: ماذا حدث؟ سأل عمر بنبوك نفسه، وهو يعمل في البستان، نفس السؤال. ولكن... ما من مجيب.

انتصف الصيف في آب. ثمّ انقضى، ومازال عمر يتساءل: ماذا حدث؟ لماذا لم تهب رياح الثورة علينا أيضاً؟ أين هو السلاح والمال الموعودان؟ لماذا لم يصل شيء؟ سفرنا المشحون بالأخطار إلى بدنة، اجتماعنا الطويل بهم، الاتفاق، ثمّ الصراع على الاتفاق الذي بدا بين جنباتنا... ماذا حدث؟

سمع عمر أحد الشيوخ يؤكد:

– هذا هو مدى الثورة العربية المنطلقة من مكة. لقد خدعنا. ليست هناك ثورة ستحرر الجزيرة والعراق والشام كما أشاعوا، بل هناك هبّة، فشة خلق قصيرة النفس لأناس سيكتفون بما هو في أيديهم، بما حصلوا عليه، وجعلوا يتروون في دخول المغامرات للحصول على ما هو أكثر. بصق عمر بنزق، ثمّ داس على بصقته، واستمرّ في التعشيب.

كان يجد متعة وترويحاً للنفس في العمل في المزرعة. كان ينسى فقدان الصبر، وانزهاق الروح. كان يستيقظ كلّ يوم، بعد الفجر بساعات، وهو فعلاً غير

راغب في النهوض، فيسحب نفسه من الفراش، وهو يلعق مرارة ما على شفتيه. ثمّ يتناول قهوته في كوب كبير، في ظلّ إحدى الأشجار، ويروح يدخن بشراهة. بعد ذلك كان يلقي الرفش على كتفه وهو يرفض دعوات فريدة الملحاحة للإفطار، وينطلق إلى أطراف البستان. هنالك كان يقتلع الأعشاب من التربة حول جذوع الأشجار، ويقوم بنكشها بالرفش. ثمّ يقطع الفروع اليابسة، ويقوم بتحطيب ما يقع تحت يده من أغصان وأشجار قابلة للاشتعال. ثمّ يجمعها إلى جانب البيت في وهدة صغيرة. وما إن هبّت طلائع رياح الخريف المغبرة، حتى كان قد أصلح ما فسد من السياج، وجمع تلة من الحطب.

كان عمر قد أبدل سعف النخيل المتيبسة عن سقف الزريبة بغيرها. وأحكم ربطها وتثقيلها، وقام بحفر بئر أخرى، قريباً من الزريبة، ليتمّ سقاية الخيل منها. كما قام بإزالة الرمال من قعر البئر القديمة، وبنى لها رقبة جديدة. كان يقوم بهذه الأعمال برغبة جامحة لإشغال نفسه. أمّا الشيخ درويش، فكان ينظر بارتياح إلى عمر، وهو يعمل.

كان سعيداً لمرآه وهو يعزق الأرض، ويعيد للمزرعة حياتها ورونقها السالفين حينما كان أبو فريدة، ابنه الذي ارتحل مبكراً، يجعل البستان دوحة خضراء وافرة الغلال.

أمّا عندما كانت فريدة تحوم حول عمر، وهو يغرس شتلات الخضار التي استعارها من جار ظريف يسمى قاسم، ويسقيها، وتقوم بمساعدته في اقتلاع الناضج منها، فقد كان الشيخ يحسّ بابتهاج عميق، غاب عن صدره مذ كان شاباً.

كان يتملى الاثنين، وهو جالس على بساط في ظلّ شجرة نارنج، يغمرهما بنظرات كلّها حنان، ويتمنّى أشياء لا يمكنه البوح بها أبداً.

وعندما حلّ الشتاء بعواصفه وأتربته وأمطاره الغزيرة والمديدة، اندسوا في غرفهم غارقين في أعمال كانوا يختلقونها. فقد راح الشيخ يتابع عمله مع أتباعه الظرفاء، الذين كان يفوح منهم عطر الطهارة، وكأنّهم ملائكة، نزلوا على الأرض من سماوات شاهقة لا تمت إلى الأرض بصلة. وكانت فريدة ناشطة في أعمالها المنزلية ومجالسة عمر دون أن تترك يديها بلا عمل. كانت تقص، وتخيط، وترقّع كلّ ما تقع

عليه عيناها من أقمشة وأردية تخصّ الشيخ أو عمر أو أحد الشيوخ الذين كانوا يأتون لبرهة، ثمّ ينطلقون على ظهور بغالهم إلى حيث لم تفكر يوماً ما أن تسألهم.

ولكن الجوّ المفعم بالهدوء والسكينة لا يمكن أن يطول إلى الأبد.

كان حسين يملأ البيت صياحاً وزعيقاً حالما، تطأ قدماه بيت عمه، وتروح فريدة تمسح دموعها التي راحت تزرفها في مواجهة ذاك الرجل، الذي صارت الغيرة تفقده أعصابه لمجرد مشاهدة عمر يجول في البيت كواحد من أصحابه. من أين نزل عليه هذا الحلبي اللعين...؟ ولم لا يطرده الشيخ من بيته... ألا يخاف على حفيدته؟

كان حسين يود القيام بهذه المهمة، فالشيخ يثق بعمر، ولا يبدو عليه الاستعداد لأن يقوم بصرفه. وفي إحدى المرات شاهدها حسين خارجة من غرفة عمر حاملة مكنستها. كانت باسمة وعيناها مشرقتان، وقد تضرّجت وجنتاها بحمرة خفيفة تفضح حبّها، الذي نما، وترعرع خفية. أحسّ حسين بما كان يخاف منه. بما كان يتوجس وقوعه. كانت السماء تفرغ مواعينها بلوحة سائلة غاضبة. والأرض غرقى بسيول جارية لم تقدر الأرض على تشرّبها بعد. وشجرات النخيل الثلاث قد أتمت غسيلها، وأزالت عن سعفها الأتربة التي تعرّفت بها خلال الصيف. وبإصرار أيضاً انسلّ حسين، خلف فريدة. لاحقاً بها إلى غرفتها، ثمّ أغلق الباب. بادرته فريدة وقلبها يخفق بتسارع:

– شنهوه تريد؟ أخرج من غرفتي!

– أنت تتواقحين يا فريدة. ماذا كنت تفعلين عنده؟

– وماذا يهمك أنت؟ هل أنت أبويا؟ اخرج من هنا وإلا صرخت له! فقال لها وهو يصرف بأسنانه:

– هيا... اصرخي له كي أدوسه بقدميّ! الحق عليّ أنا لأنّي لم أتزوجك من قبل. ولكن... أنا أقسم بربي، أنّني سأقتله إن فعلتما شيئاً!

فقالت مستغربة كلماته التي يشدد عليها:

– إن فعلنا شيئاً؟... ماذا سنفعل؟ وداعة جدي اخرج من هنا!

– هل سيتزوجك؟ قولي لي... هل سيتزوجك ابن الزانية هذا؟

اخترقت عينيه بنظرة، ثمّ تحدته قائلة:

– بلى... هو أسرّ لي بذلك، ليس لك الحق في أن تمانع، هذه حياتي وأنا حرّة فيها. أنا أكرهك هل تفهم؟ ... أنا أكرهك كما أكره الخنازير...! وإذا خيّرت بين الموت والزواج بك لفضلت أن أفطس. اذهب وابحث لك عن امرأة قبيحة مثلك..

لم يتمالك نفسه، لم يفكر بذلك إطلاقاً، بل انهال عليها ضرباً بأبرح ما يستطيع. هي التي استفزته، جرحت كرامته، فكان عليه أن يدفع عن نفسه الأذى الذي أصابه في الصميم. ولكن فريدة كانت تدافع عن حبها، عن كرهها، هي لا تحبّ هذا الرجل، أفهمته مرّات عدّة أنّها لا تريده. كان ذلك بالصمت في بادئ الأمر، ثمّ بالنحيب الهادئ الذي تحمرّ الأعين جرائه بعنف. لماذا لا يتركها حرّة؟ لماذا لا يتركها تحبّ، وتكره كما تريد؟

أمسك بخناقها وظهرها إلى الجدار، وفمه قريباً من فمها ينفث فيه روائح كلماته المقيتة:

– لن أبرح المكان بعد اليوم... هل تفهمين؟ وإن شاهدتك تحدّثينه، فلن أوجه لك كلمة واحدة، بل سأذبحه هو. أقسم بربي أنّني سأذبحه!

أطلقها. إلا أنّها بقيت ملتصقة بالجدار، ممسكة به كأنه سيحمي عمر من أذى هذا الشيطان. قال إنّه سيذبح عمر، فارتعدت. خافت عليه أكثر مما تخاف على نفسها. لقد عرف هذا الخنزير كيف يهددها، ليس بنفسها، بل بعمر، هذا الحبيب الصموت الذي فرضت عليه نفسها، فاستجاب إلى ضعفها.

لملمت خصلات شعرها المعتم، ثمّ مسحت فمها بيدها، لا أثر لدم. نسيت دموعها التي كانت تسيل حارة على خديها وقد صبغت بسواد الكحل المذعور.

تابع يقول، وهو يبتعد عنها:

– سأتكلّم مع جدك اليوم. سنحدد موعد عقد القران.

فقالت بعزم:

– لن تنالني!

– سنرى!

– أنا أكرهك أيّها البوم، ولكي تتأكد جيداً أيها الخسيس... خذ!.

بصقت في وجهه وهي تلتحم أكثر بالجدار. رفع يده وصفعها بعنف، ثمّ

استدار، وهو يمسح البصقة، فاصطدم بمرأى الشيخ درويش وعمر وهما واقفان بالباب مندهشين.

دفع الشيخ ابن أخيه إلى غرفته، وأحكم إغلاق بابها، جلس وطلب إلى حسين الجلوس. كان الشيخ بادي الغضب ضابطاً له بقوة كيلا ينفجر، فشاهد حسين يديه ترتجفان بقوة.

– من تحسب نفسك كي تضربها؟

سأل الشيخ وهو يلهث، فأجابه حسين:

– إنها تتمادى مع هذا الذي اسمه عمر، ومن حقي أن أمنعها.

– ومن أعطاك هذا الحق؟ إنّها حفيدتي وأنا مازلت على قيد الحياة. لن أسمح لك أو لغيرك بضربها وإكراهها على فعل ما لا رغبة لها فيه!

ثمّ قال بصوت منخفض، وهو يريد ألا يقطع كلّ الخيوط مع ابن أخيه:

– اضبط نفسك كي تكون مرحباً بك في هذا المنزل.

لم ينبس حسين، فتابع الشيخ:

– يا لك من أحمق...! كيف سترضى بك إذ تسيء إليها هكذا. أنا أفهمك. فأنت ترغب بها، تريد أن تقترن بها... ولكن، لهذا الشيء أصول، عليك أن تتودد إليها. إنّها تمانع، وأنا أعرف ذلك جيداً، ولكن لماذا؟

– قل لي لماذا يا عمي!

– لأنك قاس كالحجر. أنت تريد أن تأخذها بالقوة. ولكن هذه الأمور لم تعد تحصل بهذه الطريقة...

فقال حسين مقاطعاً عمه:

– سأقول لك السبب يا عمي الشيخ، فأنا على معرفة بكلّ ما يجري. لم تكن فريدة هكذا قبل مجيء عمر بنبوك. إنّه السبب، فهو الذي لعب بعقلها، وراح يشجعها على معارضتي. لقد أصبحت أكثر عنداً وحقداً عليّ. أطرده يا عمي أرجوك! ألا تخاف على فريدة أن يحصل لها شيء مشين؟ رجل وفتاة يعيشان تحت سقف واحد، ما أدراك ما قد يحدث من وراء ظهرك.

تغيّر لون الشيخ، وراح يتمتم مستعيذاً من الشيطان الرجيم. جحظت عيناه

وهو يلهث:

- ماذا تقول يا ولد؟... ألا تستحي؟!

- إنّني أقول الحقيقة.

- إنّها حفيدتي وأنا أعرفها جيداً، ربيتها بيدي الاثنتين... إياك وذكر هذه الوساوس وإلا...

لم يتابع الشيخ، صمت، وأطرق مفكراً. هل يمكن أن يحدث ما يقول حسين؟ أم أنه يوصله إلى الحافة كي يحصل على فريدة؟ سمع حسين يقطع عليه أفكاره؟

- زوجني فريدة يا عمي! إني راغب فيها، وصورتها لا تنفك تملأ علي ذهني حينما أكون بعيداً عنها.

- لن أفعل شيئاً يغضب ربي!

فتساءل حسين برجاء:

- وكيف، كيف ستغضب ربك إن أعطيتني إياها؟

فقال الشيخ بحزم:

- لن أجبرها على فعل ذلك إن لم تكن موافقة.

هز حسين رأسه دون أن يتفوه. كانت عواطفه وأفكاره تجول في رأسه بضجيج هائل. إنه يريد الفتاة. بل قل يحبّها. ألا يحق له. بوجهه القبيح كما قالت له منذ قليل، أن يحبّ؟ أن يهوى فتاة هي، قبل كشيء، في مقام ابنة عمه، أي أنّ له حقاً صريحاً عليها؟ كيف انقلبت المفاهيم في هذا البيت؟ وهل الثورات تصيب البيوت وبنات الأعمام والقلوب أيضاً؟ كلّ هذا جرى، وعمر بنبوك ليست له علاقة البتة؟ لن يفلت مني هذا المسخ الحلبي! هذا الصعلوك القادم من الشمال!

كان ما يزال يهز رأسه حينما سمع عمه، يقول متوعداً:

- اترك فريدة في حالها، لا تكلّمها إلا ما لزم، وإن عدت إلى فعل ما قمت به اليوم، أو أسأت إلى عمر، فإني سأغضب عليك، ولن أتوانى عن طردك من البيت إلى الأبد... واضح كلامي؟!!..

حدّق بعمه صامتاً، ثمّ نهض، وعند الباب، قال: حسناً... ثمّ خرج.

ترك هذا الشيء أثراً عميقاً في نفس الجميع، فانكبت فريدة على أعمالها

بصمت مبلّلة العينين. وراح عمر يتحاشى، أكثر من أيّ وقت مضى، الوقوع تحت أنظار حسين المحمومة، مع الإصرار على الدفاع عن الفتاة فيما إذا أعاد حسين الكرة، وقام بضربها.

ولكن حسين أبى أن يسافر، كما كان يفعل في الماضي. عليه أن يبقى بقربها حاجزاً إياها عن عمر، منافساً له إن أراد أن تكون له في المستقبل. إنها الآن تعارض، تحلم بعمر وليس به، أما هو فصابر إلى ما لا نهاية. سوف يأتي اليوم الذي ستقذف فيه نفسها إليه، وتقول له خذني!... متى؟ متى سيحدث ذلك؟ ... بعد رحيل عمر بالتأكيد!.

أمّا الشيخ فقد غرق في حيرة. إنه يريد كليهما... حسين وعمر. سوف يأتي اليوم الذي سيحتاج فيه إليهما معاً. إنّه بحاجة إلى كلّ رجل، ولكن، على كلّ الرجال أن يكونوا متراصين. فالثورة، حين تدق طبولها، سترتد عليهم جميعاً، فماذا إذا كانوا ضعفاء، مهلهلين، منفردين غير مجتمعين.

ولكن أيّة ثورة هذه؟ إنّهم ضعفاء، جماعة من الشيوخ يروحون ويجيئون، يتصلون بالعشائر التي تبدل مواقفها حسب المزاج، حسب الطقس. فهو قد استطاع أن يقنع بعض العشائر بمهاجمة أجنحة مؤخرة الجيش التركي المنسحب من البصرة وحتى بغداد، وقاموا فعلاً ببعض الأعمال. لكن، ما إن تبدّل الوضع العسكري لصالح الأتراك، واستطاع نور الدين بيك ومن بعده خليل باشا دحر الجيوش الإنكليزية في سلمان باك، ومحاصرتها في كوت العمارة، حتّى راحت القبائل تهلّل لانتصارات الأتراك، وتقوم بالهجوم على فلول الجيش الإنكليزي، وعليهم هم، على جمعيتهم، أن تنشط من جديد من أجل إقناع عشائر "عقيل" و"الكروية" وغيرها بالالتزام بما وعدت به.

قال: اللعنة! وهو يحسّ بإحباط ينهش صدره. ولكنّه سرعان ما أصرّ على إزالة التشاؤم عن نفسه، فهو قائد، وعلى القائد ألاّ يشعر أتباعه بأيّ شعور من هذا القبيل. ولكن كيف لا يشعر بالإحباط وجمعيته مسبلة اليدين. إنه يستشعر الحقد الدفين الذي راح يترعرع بين شبابه. لماذا؟ إنه بالتأكيد، بسبب الإخفاقات المتكررة التي راحوا يواجهونها مع العشائر، ثمّ هناك الاتفاق مع جماعة مكة. لو كانت

الأموال والسلاح بين يديه حسب وعدهم، لكان الآن في وضع أفضل. لكان الآن مسموع الكلمة بحزم بين العشائر، وكان سيقوم بثورته في نفس الزمن الذي استطاع فيه الشريف حسين طرد الأتراك من أراضيه، ولكان الآن يحارب الأتراك والإنكليز معاً.

إنه لا يثق بهؤلاء الإنكليز، طبعاً لا يثق بهم، ماذا يفعلون في الهند منذ عقود عديدة؟ وفي مصر...؟ أما الآن... فهم يحتلون نصف العراق، ويسيل لعابهم لالتهامه كلّه، وها هو الشريف حسين يريد إقناعه بأن تعاونه مع الإنكليز ليس إلا دعماً خارجياً من أجل إنشاء الحكومة العربية في الحجاز والشام والعراق.

حسناً يا أبا عبد الله، ولكن أين هو السلاح؟ لقد طال انتظاري والزمن يسبقنا، وها هم الإنكليز يحشدون قواتهم، من جديد، في ضواحي الصناعيات وسابس... يا للمهزلة..!! أصبحوا متفرجين، كلّ أحلام الثورة وطرد الأتراك ومنع الإنكليز من احتلال العراق قد أجهضت، فلو أنّ العراق استطاع طرد الأتراك من أراضيه، فلن يبقى للإنكليز حجة لاحتلال البلاد.

أضغاث أحلام. أضغاث أحلام، قال في نفسه، ثمّ فكّر أنّه لم يبق عليه سوى رفع يديه وانتظار ساعة القدر. أحسّ بحركة إنسان داخل غرفته، التي راحت تغوص في عتمة المساء. أشعلت فريدة مصباح الكاز، وعلّقته على الخطاف المتدلي من السقف. قال لها بوجه مكفهر وعينين جاحظتين:

– اجلسي يا فريدة، أريد أن أسمعك!

جلست بمواجهته، وجمعت ركبتيها بساعديها، وهي تحدجه بنظره ملتاعة. شعر بضعفها وبؤسها، يا للإنسان المسكين...! هل هذه هي أمور الدنيا العظيمة؟ السعادة والبؤس حين يتصارعان؟ هل يستطيع، هو الشيخ درويش، أن يجعلها سعيدة، وهي كلّ من بقي له في هذه الحياة؟ لن يستطيع أحد في هذا العالم أن يمسّها بسوء على الأقل أن يحررها هي إن لم يستطع أن يجسد أحلامه الهائلة. قال لها وهو يقتلع أحلام الثورة والثعلبة الإنكليزية والقرف من العثمانلي والوعود الكاذبة من ذهنه:

– أريد أن أعرف شعورك الحقيقي تجاه حسين. أنت بالغة، تستطيعين أن

تشرحي لي ما يجول هنا... في رأسك من أفكار. هيا... قولي لي. فهو يريدك زوجة له كما تعلمين، وحدث ما حدث بسبب غيرته!

اجتاحت موجة حبّ لجدها كيانها كلّه، ابتسمت، وهي تفرك يديها. كان وجه الشيخ يفيض سكوناً.

- تريدني أن أقول بصراحة يا جدي؟

- بلى.

- أنا أكره حسين.

راح الشيخ يهز رأسه وهو يتفحصها. يا لشجاعة الفتاة، يا لصدقها.. عبرت عن كرهها للرجل بفصاحة. لم تقل إنها لا تحبّه، بل قالت إنّها تكرهه، غير آبهة لما قد يحصل لها، قالتها في وجهه، أطلقتها كما يطلق الجندي قذيفة حارقة كي يعيش هو، رغم أنّها كانت تواجهه، تتحدى غضبه وهمجيته.

قال لها وهو يبتسم لتعابير وجهها:

- ولم تكرهينه.

- لا أعلم.

- على الإنسان أن يعرف لماذا يحبّ، ولماذا يكره!

- هذا ليس ضرورياً في حالتي يا جدي. يكفي أنّني أتوارى عن أنظاره وأختبئ حين يأتي.

- بماذا تحسين وقتها؟

فقالت بحزم وعيناها تشعان باليأس:

- أحسّ بالنفور والاشمئزاز.

ابتسم الشيخ مرّة أخرى، لقد كبرت هذه الفتاة، فسألها:

- هل يجوز أن نكره إنساناً بهذا الشكل؟

- بلى، يجوز!

- كيف؟

- عندما تشعر بالقهر والظلم، حينما ترى إلى استعباده لك وأنت ضعيف لا تملك سوى نفسك التي تحبّ، وتكره.

هز رأسه مرّة أخرى. إنّها صادقة، ألم تشرح له لماذا يكره هو الوالي العثماني وجيشه، أليس هو أعزل اليدين لا يملك سوى أن يكره ويحقد؟ ماذا يفعل الشيخ درويش أكثر مما هي فاعلة؟

يا إلهي... هل يسير الكون وفق قانون واحد لا يتغيّر، إلاّ أنّه يظهر بأشكال مختلفة؟!

– ومن ستتزوجين؟

سألها جدها، فبقيت صامتة برهة وهي مطرقة، ثمّ قالت:

– الشخص الذي أستطيع أن أحبّه، ويحبني.

– وهل لهذا الشخص وجود؟

بقيت صامتة مطرقة، كانت ضربات قلبها تمضي بعنف، حان للقلب أن يجيب. سألها مرّة أخرى:

– هل هو عمر؟

فقالت باستحياء: يمكنك أن تسأله!

– ولكنه متزوج وله أولاد.

– هذا ليس بذي أهمية بالنسبة إليّ، إن أرادني فلن أرفضه.

ربّت الجد على كتف حفيدته العاشقة، ثمّ قال بتودد:

– حسناً، سوف أتحدّث إليه، لن تتزوجا حتى أتدبر أمر حسين. كونا طبيعيين حتّى ذلك الوقت، لا أريد مشاكل في هذا البيت!

ثمّ قال:

– هيا... إنّني جائع.

قالت، حسناً. ثمّ قبّلت وجنتيه، وانطلقت خارجة، وهي ترفرف فرحاً.

* * *

في اليوم الأول من كانون الأول، وصل الشيخ غالب ومعاونه. كانا مبلّلين بفعل المطر الغزير، وقد أنهكا جواديهما. جر عمر الجوادين إلى الزريبة، ثمّ مسح عنهما البلل، وعلّق في رقبة كلّ منهما خرجاً مليئاً بالتبن. وما كان الشيخان

يستريحان، ويجففان ثيابهما حتّى بادرهما الشيخ درويش بالقول بعد أن لاحظ تلهف الشيخ غالب للحديث:

– ماذا وراءك يا شيخ غالب؟

– الإنكليز...

– ما بهم.

– لعنة الله عليهم!

– ماذا تقصد؟

– لقد خُدعنا يا شيخ درويش. أنا والله أشعر بالخجل. كيف حدث وصدقنا ما كانوا يقولون. كنا، في الماضي، نعمل بمفردنا، ندعو الناس للثورة على الأتراك وترك جيشهم، وكنا ندعوهم أيضاً لمعاداة الإنكليز ومحاربتهم، أما الآن فقد خرج الأمر من أيدينا، والوقت أيضاً.

– ماذا حدث؟ ... قل لي بالتفصيل!

خلع الشيخ غالب عمامته، وجعل يمسّد جلدة رأسه الحليقة:

– الجنرال مود، القائد العام للقوات الإنكليزية في العراق، يحشد قوات هائلة في مواجهة الأتراك. إنّه ينوي احتلال بغداد.

إذن، صدق حدس الشيخ درويش وصدق شعوره. سمع الشيخ غالب يتابع:

– قام برشوة القبائل، وهم يقابلون عمله بصمت. لم يعد لكلامنا وقع لديهم. إنّهم لا يريدون محاربة الإنكليز في مؤخرتهم، وقد اكتملت تحشداته، ويتحدّثون هناك عن اقتراب موعد هجومه باتّجاه بغداد لاحتلالها، وهو جاد هذه المرة.

فقال الشيخ درويش وعيناه تفوران:

– إنّهم جادون هذه المرّة إذن....؟ وماذا حشدوا لهذا الأمر؟

– الفيلق الأول بقيادة الجنرال (فوب) والمؤلف من الفرقة الثالثة والفرقة السابعة. والفيلق الثالث بقيادة الجنرال (مارشال) وهو مؤلف من الفرقة الثالثة عشرة والرابعة عشرة. وهناك اللواء السادس واللواء السابع من فرقة الخيالة. وإذا أجرينا عملية حسابية بسيطة، يا سيدنا الشيخ، فسيكون عدد المحاربين المحتشدين يقارب الستين ألفاً.

– والأتراك؟

– وضعهم سيء للغاية. فبسبب عمليات الجيش الروسي في إيران واقترابه داخل الحدود العراقية قرب "خانقين" اضطروا لفرز قوة كبيرة لإخراجهم من هناك، وجعلهم ينسحبون إلى ما وراء خطوط الجبهة عند "همدان"، فبقي الفيلق الثامن عشر يواجه الإنكليز بمفرده على جبهة دجلة. أيّ أنّ نسبة القوى واحد إلى أربعة لصالح الإنكليز.

– يا إلهي... قال عمر، ثمّ صفّر بفمه مذهولاً. كان وجهه مصفرّاً وعيناه جاحظتان، وراح شيء في جنبه الأيسر يرتجف بتواتر سريع. أطلق شتيمة غير آبه للشيوخ المحترمين:

– كذا في أمّهم أخوات الحفيانة.

رفع الشيخ درويش عينيه عن الأرضية، تطلّع إليه برهة، ثمّ أطلق من جديد. كان موافقاً على الشتيمة. جاءت في محلها، لو أنّه في مكان لأطلق سباباً أكثر بذاءة مما يخطر في رأس عمر هذا، ولكنّه لا يستطيع، مكانته لا تسمح له أن يطلق لسانه على غاربه.

في الماضي عندما كان شاباً مندفعاً، ولما يذهب إلى النجف لدراسة الفقه والشريعة بعد، كان يهوى السباب... كان يعشقه، ويطلقه في كلّ مناسبة. كان يذهب إلى سوق الشورجة، ويسير متمهلاً في طريق النهر وطريق الميدان ليلتقط مسبة جديدة، فيضمّها إلى مجموعته. حتّى كاد يؤمّن لكلّ حالة شتيمة مناسبة. أمّا الآن، فكلّ ما يمكنه القيام به، هو إطلاق الشتائم في سرّه، وهو في هذه اللحظة بالذات، يحسد عمر لهذه الأريحية المنطلقة مقابل اشتهاء الشيخ المنحبس.

ولكي يفهم الشيخ درويش الوضع العسكري بشكل أحسن، فرشوا له خريطة، مرسومة باليد، وراح الشيخ غالب يشرح ما عرفه أثناء سفره، هو ومعاونه، في المناطق التي يحتلّها الإنكليز. كان الجيش الإنكليزي قد حسّن ميناء البصرة، فضاعف عدد أرصفة التفريغ والمستودعات، ممّا أدّى إلى تراكم كميات هائلة من المؤمن والذخائر اللازمة للقيام بعملية عسكرية كبيرة، وقاموا بمدّ الخطوط الحديدية من البصرة حتّى الناصرية والقرنة والعمارة، ومن شيخ سعد حتى الجبهة على الضفة

اليمنى، فوصل الخط إلى تلون السن ومنصور.

ويقوم الفيلق الأوّل باحتلال مواقع أمام الصناعيات بالفرقة السابعة فقط. أمّا الفرقة الثالثة والفرق 13 و14 والخيالة، فهي تحتلّ مواقع حصينة على الضفة اليمنى...!

بالمقابل، كان الأتراك يمركزون لواءً واحداً من الفرقة 45 في الضفة اليمنى، والفرقة 51 في جبهة الصناعيات وباقي الفرقة 45 بين الكوت والصناعيات والفرقة 52 بين الكوت وشمران.

هز الشيخ درويش رأسه ملياً، وقال وهو يسوك أسنانه: سيوجه الإنكليز ضربتهم على الضفة اليمنى...!

فقال الشيخ غالب موافقاً:

– بلى يا شيخي، هذا واضح كعين الشمس.

– إذن لماذا أفرغ الأتراك الضفة اليمنى؟

– لا أستطيع أن أبرّر ذلك.

فقال حسين الذي بقي صامتاً طوال الوقت:

– هذا منطقي، فالطريق إلى بغداد يمرّ من الصناعيات، وكي يعمل الإنكليز من أجل ذلك، فعليهم أن يعودوا لاجتياز نهر دجلة، بعد قيامهم بسحق الأتراك المتواجدين على الضفة اليمنى، كي يحموا أجنحتهم وطرق تموينهم.

– إذن. قال الشيخ وهو يزفر. سوف نستقبل الإنكليز بعد مدّة.

– هذا صحيح. قال غالب.

فقال عمر ببطء، وكأنّه يعدّ كلماته:

– ألا يمكن إيقاف ذلك؟ إنّي أموت من القهر، لا أتصور الإنكليز يدخلون بغداد، ونحن نتفرّج، ولماذا إذن ذهبنا إلى "بدنة"، ثمّ قعدنا ننتظر هبوط الثورة علينا؟ هل خرج الأمر من أيدي أمراء مكة؟ أم أنّ الأمر لا يتعدّى الجزيرة العربية وحدها؟ أقول لكم إنّي أموت من الغيظ... اتفوه!

بصق... نظر إلى حسين الذي كان يصدر هسهسة وهو يضحك. كانت تجاويف الجدري تتضخم أمام عيني عمر. حسين يشمت به، يشمت بالجميع. لقد

عارض الاتفاق مع هؤلاء الصحراويين أصحاب الإنكليز منذ البداية عارض، لقد خرج نظيفاً. أما هم... فقد تحمسوا، صدقوهم. حسبوا أنهم، بمساعدة المكيين، يستطيعون إشعال ثورة في العراق، ثورة تجتذب إليها كلّ العشائر الخاملة البليدة. قالوا لهم: (أعطوهم تعليمات غاية في المكر): تستطيعون شراء العشائر بالجنيهات الذهبية التي نرسلها إليكم... اتفوه مرّة أخرى..!

نقّل بصره في الجميع. كانوا صامتين، مرهقين، فيما عدا حسين الذي لم تكف شماتته بعد أن صفع عمر. أحسّ بغثيان قوي يقلب معدته، واشتهى بعنف تدخين لفافة تبغ هائلة. سمع صوت غالب المهزوم يأتيه هادئاً ومتوسلاً:

– ماذا علينا أن نفعل أيّها الشيخ...؟

إلاّ أنّ الشيخ درويش كان بعيداً، كان يلهث بفعل ربو الصدر، وهو مشتت، محكم، كأنّ جبالاً باسقة انهدت على رأسه، فأناخ كتفيه، وقد نسي أنّ أصحابه يراقبونه.

أعاد الشيخ غالب سؤاله محطّماً بعنف السكون الثقيل:

– عيني يا شيخ، شنهوه تبغي نعمل؟

انفرجت شفتا الشيخ، وهمس:

– ضاع البلد يا أصحابي...

أسكتته موجة سعال قوية وضاق صدره وراح يزقزق وهو يلهث. شاخ الشيخ درويش، كبر مئة مئتين، ثلاثمئة عام. وبان أكثر مما مضى، بياض شعره ولحيته، وراحت تجاعيد وجهه ورقبته ويديه تغوص أكثر فأكثر في لحمه.

– كنا سننجح، قبل مجيئهم كنا سننجح. كان الناس ملتفين أقوياء يبغون شيئاً واحداً فقط... ألا وهو طرد الأتراك، وتنصيب خليفة عربي. كان الهدف السامي هو وطن ولكن حر. أما الآن فيتمّ طرد التركي ليحلّ محله الإنكليزي. ألا ترون إلى هذه المهزلة.. قبلة يوضاس هذه.*

هزوا رؤوسهم صامتين. تطلّع الشيخ إلى عمر بعينين مطفأتين، وقال:

– ألا تنجدنا، يا شيخ عمر، بشتيمة...!

* – يوضاس (يهوذا الاسخربوطي): أحد تلامذة السيد المسيح اليهود قبّل معلمه لكي يسلمه إلى أعدائه.

انطلق عمر دون أن يشعر قائلاً:

- لعنة القواويد على فروج أمهاتهم...!!

ثمّ تابع عمر موجهاً كلامه إلى الشيخ درويش:

- يا شيخي... عندنا في حلب مثل يقول: من بيت "كوكه" ما بيطلع مؤذن!

ابتسم الشيخ، وقد بانت على سحنته تجاعيد الألم. كان يقول لهم، أن ينصرفوا إلى بيوتهم فلم يعد هنالك جمعية قحطانية ولا حتى مجرد حلم، كان ينهي بكلمة واحدة كلّ شيء، إلاّ أنّه تردّد، تنازعه الموت وحبّ البقاء. من سينتصر؟ قبل أربع سنوات، عندما أنشأ جمعيته، وراح يعمل بلا كلل حتّى أفنى نفسه، لم يفكّر أنّه سينتهي إلى ما انتهى إليه الآن. كان يرى إلى انتصاره المحتم، وكأنّه موجود، كوجود تلك الشجرة التي تتلقّى صفعات الرياح خارج الغرفة. كان يحلم، في يقظته، بذلك اليوم المشمس الذي سيأتي مخلّفاً وراءه ذلك الليل الطويل بلا نهاية.

ولكن عمر الذي أراد أن يتفوّق على قباحة حسين ونظراته، استبق الشيخ درويش:

- لماذا نحن قاعدون هكذا؟ أرسل إليهم أحداً كي يوقفوا الإنكليز عند حدهم! قد نخرج بنتيجة على أيّ حال، وقد لا نخرج، ولكن نكون قد عملنا كلّ ما بوسعنا.

فسأل غالب الشيخ درويش:

- ماذا يا شيخ درويش؟

فقال الشيخ درويش بسأم طافح:

- افعل كما يقول عمر، اذهب إليهم غداً!

نام الشيخ غالب ومعاونه (الصنم) تلك الليلة في بغداد، وفي فجر اليوم التالي انطلقا غرباً قاصدين مدينة (الوجه) على البحر الأحمر، حيث وصل إلى أسماعهما أنّ الجيش العربي بقيادة فيصل، وصل بزحفه إليها.

3

توقف المطر أخيراً. توقف بعد أن هطل عشرين يوماً متواصلة. كأنّ السّماء انشقّت وما عادت تلتحم إلاّ بابتهال. وعندما انقطعت خيوط المطر النازلة، بقيت السّماء ملبّدة بغيوم كثيفة تنذر، من جديد، بالانسكاب.

يا لسماء بغداد وغيومها وأمطارها وطينها. يا لذاك الجوّ المكفهر الذي يعربد في الصدور على صورة هم منفلت، يا للغوص والتجديف، يا للقهر والدّموع المختلطة، النازلة مع حبّات المطر.

وضع عقالاً على رأسه، ثمّ ألقى على كتفيه عباءة من فرو الضأن، وانطلق خارجاً من بستان الشيخ درويش، وهو يلعن نفسه. سألته فريدة إلى أين؟ فرفع كتفيه وقلب شفته السفلى. هو نفسه لا يعلم، كلّ ما يريده هو الخروج من البستان لترويض ساقيه وعقله. هو يريد أن ينفرد بنفسه. في دار الشيخ درويش أصبح عقله منغلقاً، وكأنّ الجدران كانت تغربل الأفكار، وتترك البائسة منها. فلا تسمح إلا بمرور الأفكار التعيسة التي تزيد من انقباض النفس، وانسحاق الرّوح.

لأوّل مرّة في حياته يسعى للانفراد بنفسه كي يفكّر. أصبح لهذا الخراء مزاج خاص كي يفكّر، ويقرّر، ويضرب، ويجمع. في حلب، كانت الأمور تسير على غير هذا المنوال. كانت الأمور أسهل ولا تعقيد فيها، ربّما لأنّ الحياة أبسط، ربّما لأنّه كان عمر بنبوك بالفعل، وليس عدداً كبيراً من الأشخاص الذين يحملون نفس الاسم كما هو عليه الآن، يضجون في رأسه كما في حمّام "تحت القلعة" يتجاذبونه كأنّه قطعة حلوى. واحد مع، واحد ضدّ، وهذا بين بين. كلّ هذا يجري في رأسه، وكأنّ الدنيا كلّها صَغُرت، وحلّت في ذاك التجويف الصغير الذي يحمله فوق كتفيه.

اللعنة. بصق بقرف شديد، ثمّ مسح الرذاذ عن شاربيه.

في الماضي، عندما يكون مضطراً لأن يأخذ موقفاً مثل: اللبن أبيض، الليل أسود... وغيره، كان يفعل ذلك بيسر شديد، حتّى من دون أن يفكّر، فمثل هذه الأشياء لا تحتاج للتفكير، في اعتقاده، إنّه أذكى من أن يتردد في مثل هذه الأمور، وما خلا ذلك، فإنّه كان يسأل بهية، كان يسألها، كانت تساعده على التفكير، فهي ذاكرته، وعقله، ووجدانه، من دونها كان لا يستطيع شيئاً.

كان يسألها رأيها، وهما منطرحان على الفراش، كانت تقول شيئاً، وهو يقول شيئاً، وما يلبثا أن يصلا إلى جواب مقنع لكليهما، وتكون يدها قد وصلت، هي الأخرى، إلى مبتغاها، من تحت اللحاف.

ولكنه الآن وحيد، في رأيه وحيد، فلا بهية إلى جانبه لتسعفه في الإجابة على كلّ هذه الأسئلة التي تراكمت دفعة واحدة، ولا الشيخ درويش في وضع يمكّنه من مساعدة عمر. بل إنّ عمر شرع يظنّ أنّ عليه أن يفكّر في كثير من الأمور التي ما عاد الشيخ قادراً على حلّها.

الشيخ درويش... يا للهول، كيف يمكن أن يصبح ما آل إليه. كيف يمكن أن ينقلب إلى رجل ضعيف، يائس، مسكون بوهم الخديعة التي أفقدته اتّزانه، وهو، أيّ الشيخ، صاري السفينة الذي تعقد عليه كلّ الحبال، وهو الدفة التي من دونها تضيع السفينة في هذا البحر الهائج بوحشية.

تذكّر عمر سحنة الشيخ، وهو يغوص في وحول الطريق مبتعداً عن البستان. تذكّر وجهه الذي اكتسى حلّة رمادية أشبه برمادية الموت. كان عمر داخلاً غرفة الشيخ بعد سفر الشيخ غالب ومعاونه، عندما رأى إلى كبرته، إلى انسحاقه في ظلمة الغرفة، وحبّات المطر تطرق بقوة على زجاج النافذة، كأنّها تناكد الصمت. كان الشيخ يغور في عباءته، مستسلماً لضعفه، منهمكاً في مراقبة رسومات البساط الصوفي المفروش على الأرضية.

آنذاك، تربّع عمر أمامه، وأمسك براحته الباردة والمرتجفة. يا رب السموات... كيف شاخ بهذه السرعة؟ ورأى إلى الشروخ الطويلة والعميقة التي تفتّحت على شكل تجاعيد في وجهه، وإلى العينين الباهتتين المنطفئتين، وإلى الشفتين الباردتين المزرقتين. هل انتهى كلّ شيء؟

قال للشيخ هامساً:

– ماذا حدث يا شيخ؟ أنت تقتل نفسك... نحن بحاجة إليك، الجمعية وفريدة، وبغداد... كلّنا بحاجة إليك.

تمتم الشيخ، ففهم عمر:

– إنّني أموت يا عمر. انتهى دوري.

- لن تموت بهذه السهولة.

- كفى يا عمر.. أنت لا تفهمني، لقد انتهيت!

- ألا يوجد أمل؟

- لا ...!

- ربّما استطاع الشيخ غالب إقناع الشريف حسين بالضغط على الإنكليز وإيقافهم عند حدّهم، ومنعهم من احتلال بغداد.

فقال الشيخ وهو مغمض العينين:

- لن يستطيع... أنت متأكد من ذلك.

- أنت تبالغ بالتشاؤم يا سيدنا... ماذا حدث، أنت الذي علّمنا الصبر والتفاؤل والوثوق بالآخرين؟

تأمل الشيخ عمر، ونطق:

- خطأي العظيم هو الصبر والتفاؤل والثقة بالآخرين.

صمتا... لم يجد عمر، آنذاك، سوى الصمت سبيلاً لفهم كلّ ما يجري. اللعنة على عقله... إنّه لا يتجاوب معه. لو أنّه يملك حجّة قوية، تجعل الشيخ درويش ينهض من جديد، حججاً مقنعة كالتي يطرحها الشيخ غالب ومحمود وحتى حسين. حكّ رأسه طويلاً من فوق العقال، وهو يغرس خطواته الوئيدة في الطين اللزج. كانت الغيوم ما تفتأ تتجمع بسوداوية فوق رأسه، أين أنتِ أيّتها السّماء الزرقاء؟ كم يحبّ الجوف الصافي، وكم يكره السّماء الواطئة، التي تجعل البعد الآخر في رأسه محدوداً ومغلقاً.

السؤال الأوّل الذي انطرح في رأسه رغم كلّ شيء هو: ما العمل؟

هل ستجيب أنت، أيّها الخرق، يا من لا تفرّق بين يمينك ويسارك، على مثل هذا السؤال الذي لا يطرحه إلاّ الرجال العظام والذي لا يجيب عليه إلاّ المفكرون العظماء؟.. ماذا تساوي أنت أيّها الأبله؟ أيّها الحمار القميء؟ سحقاً للحياة التي عطّلت الشيخ درويش، والذي كان يجيب على مثل هذه الأسئلة ببساطة، والتي وضعتك على هذا الخازوق، وجعلتك تسأل... وتجيب!

لو كانت بهية هنا لاختلف الأمر.. ولكن ماذا كانت ستفعل هي الأخرى؟ هذه

المرأة التي لا تستطيع أن تعمل فكرها إلا وهي ممسكة بعضوك... هل تستطيع، هي أن تقول لي أو أن تساعدني على التقرير فيما إذا كان الإنكليز من الناس الذين يمكن الوثوق بهم؟..

هل تستطيع أن تقرّر ماذا علينا أن نفعل؟ هل علينا فرط الجمعية، ودفع كلّ إنسان للذهاب إلى بيته أم علينا أن نستمر؟ وماذا يمكن أن نفعل من دون مال وسلاح؟ ومن علينا أن نحارب.. الإنكليز أم الأتراك؟ الإنكليز الذين قتلوا عبد المهيمن ووحيد الأسدي وهزمونا في كوت العمارة، ويريدون احتلال بغداد الآن، أم الأتراك الذين أبعدونا عن ديارنا زجراً، ليزجوا بنا في حرب بنت قحبة لا أفهمها ولا أجد لها ضرورة، وقاموا بتجويعنا، وإهانة كرامتنا في تلك الواحة بعد اجتيازنا صحراء النفوذ أثناء عودتنا من "بدنة"؟ أم الإنكليز والأتراك معاً كما يقول الشيخ درويش وكما كان يقول عبد المهيمن قبل أن يموت؟

سحقاً.. يلزمها الله كي يجيب على كلّ هذه الطلاسم! وليس تلك القحبة القاعدة في البيت. مرّ على بيت قاسم، شاهد أمّه تحوم بين الأشجار وهي تبحث عن قطتها، كانت تشتمها وهي تبسبس لها. وقاسم هذا، رجل أعزب يعيش مع أمّه في مزرعة أبيه المرحوم، وهو مزارع جيد استطاع عمر التعرف عليه، واستعارة بعض بذور الخضار، وشتلات الأشجار لغرسها في بستان الشيخ درويش.

- الله بالخير..
- الله بالخير . أجابت العجوز، ثمّ اقتربت من السياج.
- أين قاسم؟
- ذهب إلى البلد ليقعد في القهوة.
- أيّ قهوة؟
- قهوة باب القلعة.
- زين ... بخاطرك.
- أدخل اقعد شوي.
- لا عيني، أشكرك... مرّة ثانية.

ابتعد، وقد قرّر الذهاب إلى المقهى لمقابلة قاسم.

كان دجلة في حالة هيجان، كان يمور بخرير متواصل وقد شابه اصفرار طيني قذر، وكان يجري مسرعاً ساحباً على سطحه الهادر بعض الأغصان والعيدان والكثير من القاذورات وجثة كلب نافق. وكان الزبد يتراقص في تلك الأمكنة التي كان يثب فيها النهر، ولأوّل مرّة، أحسّ عمر بحقد عميق نحو دجلة.

كانت "القفف"، التي اعتاد الناس عبور دجلة بها، ملقاة على الشاطئ وقد تحلّق حولها أصحابها.

سأل عمر الرجل الذي كان يمسك بالمجذاف:

- ماذا حدث، ألن تعبروا اليوم؟

فقال الرجل، وهو يمجُّ دخان سيجارته:

- لا يابه، ألا ترى إلى جنوب دجلة؟ اذهب إلى جسر بغداد!

إلاّ أنّه سار باتّجاه المستشفى الحربي، دار حوله، كان غاطساً في سكينة. حتى الحارس كان نائماً، وقد التفّ بمعطفه، وأسند ظهره إلى الحائط. ماذا حدث للممرضة؟ سأل نفسه. أما زالت هنا تطفح عطفاً على مرضى هذه الحروب؟ هل تذكره، وتذكر لياليهما في قبوه الفواح بالرطوبة والعفن؟

اقترب من الحارس، وهزّه. فتح الحارس عيناً واحدة لا غير. كان أعور. كان غير الحارس الذي عرفه عمر عندما أقام في المستشفى.

- ماذا تريد؟

سأل الحارس بخشونة، وتأفف. فقال عمر:

- أما يزال هذا البيت مستشفى؟

- نعم ... وماذا تريد؟

- الممرضة الشقراء الخرساء، أما زالت تعمل هنا؟

- ولماذا تسأل؟ من أنت؟

- كنت أعمل هنا قبل سنة من الآن.

أجلسه الحارس بجانبه على الأفريز العريض، ثمّ قدّم له لفافة تبغ، وشرعا يدخنان. أعاد عمر سؤاله وهو يتطلّع إلى واجهة البناء:

- ماذا حدث للممرضة الخرساء؟

فقال الحارس بصوته الخشن غير مبال وهو يحتضن بندقيته الشيشخانلي تفنك المشرعة الحربة:

- لقد ماتت!

- ماتت؟

- وشبعت موتاً.

طقطق عمر بلسانه أسفاً. ومن لا يموت؟ كم هو سهل الموت في هذه الأيام!! يا للعجوز الشقية.. لقد أعطته نفسها برقة، كانت تهرع إليه بعد يومها الشاق الطويل، بعد أن تكون قد وزعت حنانها على الجميع، دون أن تلفظ حرفاً واحداً، فهذا ما لم يكن بمستطاعها. يكفي أن تلمس جسد الجريح المحتضر، حتّى يحسّ بدفق الحياة في عروقه، وعندما كانت تندس إلى جانبه ليلاً، كانت تتشرب متعتها برفق وهي تطلق صيحاتها المتقطعة، وكأنّ النساء هنّ أعظم من يعرف المتعة رغم كلّ ما يجري حولهن.

- كيف ماتت؟

سأل عمر، فأجاب الحارس:

- قالوا إنها تسممت، جرحت نفسها بمبضع مسموم. رأيت جسدها المسجى مزرقاً، فلم يستطع الطبيب الألماني إنقاذها.

- الطبيب الألماني؟ ولكن أين الطبيب كمال؟

- لا أعرفه... عندما قدمت، لم يكن هناك أحد بهذا الاسم.

ودّعه، وانصرف.

وصل إلى باب المعظم، فدخله خارجاً إلى شارع الميدان. كان الشارع يعجّ بالجنود الملوثين بالأطيان، وبعدد هائل من البغال العسكرية المحمّلة بالأعتدة والقنابل. وكان هناك عدد من المدافع الـ 98 موهت، من دون سبب، ببعض سعف النخيل المتيبسة.

كان الجنود متجمعين بحلقات أو جالسين يدخّنون، ويتناقشون بملل ينتظرون الإيعاز المكروه للنهوض من جديد، وجرّ الأرجل للنزول مع دجلة للتمركز بمواجهة الإنكليز، فاقترب عمر من مجموعة افترشت الأرض الندية تحت شجرة نارنج، كان

أحد الجنود، الأكبر سناً، يتحدّث بحنق شديد:

– لا تأكل هواء، هذه الحرب لا تعنيني، يكفي أنّهم سحبوني مرّة إلى حرب البلقان، كان ذلك منذ عدّة سنوات، هناك مات الرجال كالذباب، ولم يعد إلى بلده إلا طويل العمر، ولكنّي استطعت أن أبقي على رأسي، وعندما عدت إلى القرية عرفت أني الوحيد الذي عاد من كلّ الرجال، الذين تمّ سحبهم إلى عسكر البيادي، وها آنذا من جديد في الحرب، لعنة الله عليهم، ماذا يريدون من شيخ في الخمسين من عمره. لقد جُنّ هؤلاء العثمانيون، يسيل لعابهم لمجرد رؤية رجل في هذه البلاد، وأنا أستطيع أن أؤكد لكم أن الرجال سوف ينتهون من بلادنا، وأنا لا أعرف بعد ذلك، كيف ستحبل النساء..!؟

فقال آخر، وهو ينفث بكسل دخان سيجارته الغليظة:

– لا تخف يا شيخ، سوف تجد النساء طريقة أخرى لتحبل!

ضحك الجميع، وابتسم عمر، فقال ثالث:

– أنا لا أرى سبباً لكلّ هذا النباح، فالحروب وجدت منذ الخليقة، ويقولون إنّ الرجل الوحيد الذي لم يحارب هو سيدنا آدم عليه السلام، ولكنّه ما إن زاد عدد البشر اثنان آخران حتّى بدأت الحروب. الحرب يا أخواني شيء ملازم للإنسان، قابيل وهابيل تقاتلا رغم أنّ الأرض كانت فارغة إلاّ منهما.

فقال رابع، وكان شاباً نحيلاً وقصيراً، ولكنّه يمتاز بتقاطيع حلوة:

– قابيل وهابيل تقاتلا من أجل المرأة، وقد قتل أحدهما الآخر. لم أعد أتذكر من كان القاتل ومن كان المقتول، ولكنّي أؤكد أنّ المرأة هي أصل المصائب وسبب الحروب!

فرد عليه الثاني بملل أيضاً:

– من أجل أيّ امرأة يقاتل الإنكليز والأتراك الآن؟ من أجل أمّك أيها (البلعوص).

فعاد الرابع إلى القول مؤكداً من دون أن يأبه للإهانة:

– ولكن لابدّ من امرأة وراء كلّ ذلك!

وأنشأ الجميع يتكلّمون بحمية الجنود:

- لا معنى لكلّ هذا الهراء، النساء ليس لهن دخل في هذا!
- المرأة لا تستطيع شيئاً سوى رفع ساقيها!
- كلّ الحق على المرأة.
- هذا ليس صحيحاً، لا تستطيع أن تقول ذلك لمجرد أنّك تحمل شنباً في وجهك!
- المرأة بنصف عقل ونصف دين.
- ولكنّ الشيطان ذكر وليس أنثى.
- بلى، ولكنّه يأتي على صورة امرأة.

سكتوا عندما رفع المسن يده، ثمّ قال:

- لعنة الله عليكم جميعاً. أنتم تتفوهون بالترهات، والله ترهات. أنتم فخورون بكونكم رجالاً ولكنكم تتغوطون في سراويلكم في أوّل معركة تخوضونها...

قاطعه الرجل الثاني قائلاً:

- سأقول لك يا شيخ بماذا هم فخورون.
- بماذا؟
- بأنهم يبولون وقوفاً بينما النساء لا يستطعن ذلك.

ضج الجميع بالضحك مرّة أخرى... فبانت الأسنان المنخورة واللثث المزرقة، وعندما هدأ الضحك سمع جندي من الموصل يؤكد لرفيقه أنّ المرأة هي أصل البلاء، ومفرقة الجماعات قائلاً:

- أخبرني رجل أنهم في حلب، عندما يتزوج الأخ تنشد أخته قائلة:

"خي يا خي   يا ابن أمي وبي
إن إجتك فسفسة المخدة
لا تقسّي قلبك عليّ".

تركهم وقد عادوا للنقاش حول الحرب، كان صوت الرجل المسن الجرش يصله ضعيفاً وهو يقول:

- يا أولاد، اسمعوا من رجل مجرب، الحرب شيء قبيح والسلم...

لم يسمع ما كان يضيفه الرجل. كان هناك عدد من الجنود يغنون وهم

يصفقّون، فغذّ السير في الميدان، وهو يتطلّع إلى المقاهي الموصدة الأبواب على جانبي الشارع، وكانت الحديقة التي يتوسطها حوض مليء بالماء الآسن الأخضر. قد تعرّت أغصان أشجارها، وراحت في سبات باهت.

تذكّر ما قاله قاسم عن شارع الميدان، وكيف كان يعجّ بالحياة قبيل الحرب، فانتابه حزن عميق، حزن على كلّ شيء، على هؤلاء الرجال الذين انتزعوا من هذه المقاهي، وقُذف بهم إلى الثكنات والخنادق. فاضطر أصحاب المقاهي لإغلاقها. ما أحلى المقاهي...؟ كم هي جميلة وبشوشة، كم هي رائعة، الثرثرات ولعب النرد ومقابلة الأصحاب والحكي على الناس...!؟ بصق... إنّ مشكلته التي تؤرق فؤاده هي عدم فهمه لما يجري، لقد أصبحت هذه الحياة كالبحر الهادر المائج، كدجلة كما رآه اليوم، حيث تتقاذفه دون ثبات، إنّه لا يعرف ما سيفعل غداً، ما يفعله اليوم، وما كان في الأمس، أليست الحياة عاهرة؟!

هل ينسى، هل يتناسى كلّ شيء يراه، وكلّ شيء يختبره؟ هل يهجر بيت الشيخ درويش الذي ضاع، وأضاعه معه؟ وماذا هو فاعل بفريدة؟ هل يتركها لهذا الوحش، ويرحل ما دام كلّ شيء أضحى ركاماً من الأخطاء والغموض والخداع والعهر؟ هل انكسار حلم فريدة يعادل انكسار أحلام الشيخ درويش وأمثاله؟ ولكن الشيخ سأله، في ذلك اليوم الذي دخل عليه، سأله من دون أن ينظر في عينيه:

- هل تفكّر بأمر فريدة؟
- بماذا أفكّر يا سيدنا الشيخ؟
- هل تريدها؟

آنذاك صمت عمر، بماذا يجيبه؟ أيقول: لا... أيقول نعم..؟ صمت طويلاً حتّى أنّ الشيخ رفع عينيه إليه متسائلاً، فقال عمر بوداعة وهو يطرد صورة بهية التي حطّت في ذهنه من دون ميعاد:

- بلى يا سيدنا... سآخذها، إنّي سعيدٌ جداً... فهي فتاة طيبة وتستأهل كلّ خير.
- هل ستأخذها إلى حلب؟
- نعم، فأهلي هناك!

– وماذا عن زوجتك، هل هي طيبة؟

– جداً يا سيدنا الشيخ... بهية امرأة مطيعة.

– حسناً. سوف أرى الوقت المناسب لأزفكما إلى بعضكما.

إنّها الحرب يا عمر، إنّها الحرب. تجبرك على ترك بيتك، على ترك بهية وأولادها، وتطيح بك إلى أبعد المسافات، وتطيح برؤوس أصحابك. وإن بقيت على قيد الحياة، ولم تدفن في أرض تمرح فيها الديدان، فإنّك ستقابل أناساً ظرفاء يعوضونك عن أصحابك الذين فقدتهم إلى الأبد. وستأتيك الحرب بهموم عظيمة، وتطالبك بمواقف محددة، وتتطلب منك أعصاباً من حديد، وذهناً مشحوذاً، وتقذف إليك بامرأة ضعيفة هاربة من رجل فظ، وتلعن نفسك في كلّ مناسبة.

ما هذا... كيف تتغيّر السنن والقوانين؟ كيف تتبدل الظروف والأهواء والأفكار، كيف تتحوّل القيم إلى قيم أخرى، والصدف إلى صدف أخرى بلمح البصر؟

انعطف نحو باب القلعة، فوجد نفسه أمام مقهى "وهب" بزواره القلائل.

كان قاسم جالساً على المقعد الخشبي الطويل، وقد ثنى ساقاً، فأراح يده على ركبته، وهو يدخّن بشراهة، ويطفئ بقايا لفافاته في صحنٍ امتلأ بالأعقاب. وما إن جلس عمر إلى جانبه، حتّى قدّم له لفافة تبغ، ثمّ راحا يرشفان القهوة المرة الخفيفة التي قدّمت إليهما في كؤوس من الزجاج.

قال قاسم بصوته العميق من دون أن يبدّل من ملامحه القاسية:

– ماذا حدث لتترك قلعتك، وتأتي إلى قلعتي؟

– زهقت روحي من القعود في البيت، فقلت لنفسي يا ولد انزل إلى البلد! قابلت أمّك عند السياج، وهي تطارد قطتها، فأخبرتني أنّك هنا...

– هذه العجوز الشمطاء.. سأذبح لها قطتها في آخر المطاف!

– لماذا؟

– إنني أكره هذه الحيوانات... لم ترَ سوى فراشي كي تلد فيه ست قطط صغيرة.

ابتسم عمر وهو يكاد يختنق من دخان السجائر الذي عبق بجوّ المقهى. كانت عيناه تدمعان. تابع قاسم متجهماً كعادته:

- هل سمعت آخر الأخبار..؟ ستقع الحرب قريباً...!

- سمعت شيئاً كهذا.

- الإنكليز يحشدون قوات عظيمة، وكأنّهم سيحتلون العالم.

سأله عمر:

- وما رأيك أنت؟ ... من سيكسب الحرب؟

أمال قاسم رأسه ناحية عمر، وهمس:

- الإنكليز طبعاً..

- لماذا؟

- لأنّهم أقوى، جماعتنا صاروا كالديوك المنتوفة.

- ولكن الأتراك استطاعوا احتلال الكوت، وأسروا خلقاً كثيراً فيها.

فقال قاسم، وهو يراقب طوب (أبي خزامة) الهائل والمتوضع أمام باب القلعة:

- لن تقوم لهم قائمة، سترى، الإنكليز سيدخلون بغداد.

صمتا لحظة، ثمّ سأل عمر، وقد عاد شيء ما يعصر صدره.

- وبعد ذلك... ماذا سيحصل؟

- لا يهمني، كلّ ما يعنيني هو ابتعاد هذه "الملّت" عن بيتي. لقد سئمت منهم، إنّهم لصوص أنذال لا يبقون على رغيف خبز، إلاّ ويستولون عليه. أمّا الإنكليز فهم أغنياء ليسوا جائعين كالأتراك.

قال لي رجل من إحدى قبائل سوق الشيوخ، زارني منذ مدّة، إنّهم كذلك، أنا لم أرهم، لم أقابلهم، ولكنّه قال إنّ أحد الإنكليز أعطاه رطلاً من العسل الصافي لمجرد أنّه سقاه ماء.

هل ترى ذلك؟ ومتى كان الأتراك يطعموننا غير روث الحيوانات؟ ... آ...؟

أشعل قاسم سيجارة أخرى، ثمّ تابع:

- انظر، عيني عمر! في هذه المعمعة عليك المحافظة على رأسك سالماً، وليس ذلك فقط، بل عليك أن ترى إلى البعيد، الآتي بعدئذ، ومن ثمّ تستفيد.

فعلاً . قال عمر في نفسه . هذا هو الشيء الذي سينقذ رأسه من الضجيج الهائل الذي يقضّ مضجعه.

الإنكليز، ماذا عنهم؟ ألم يؤكدوا لهم في "بدنة" أنّهم حلفاء مؤقتون كي تنتصر ثورة الجزيرة العربية، وتتخلّص الولايات الأخرى من الحكم التركي؟ ألم يقدموا تعهداً أدبياً بذلك؟! ماذا حصل لرؤوسنا، فلم نعد نصدّق العهود والمواثيق والتأكيدات؟ وماذا حصل للشيخ درويش؟ لو أنّ الشيخ يمهلهم، ثمّ يطالبهم بفعل ما تعهدوا به.

تذكّر عمر قولهم آنذاك، قولهم بأنّ الإنكليز، حلفاءهم، وعدوهم بتقديم السلاح والمال والخبرة العسكرية في حال اندلاع الثورة، وأنّ الإنكليز على استعداد لتقديم الأغذية اللازمة، وحتى الماء العذب المنقول من مصر.

وها هي الثورة قد اشتعلت منذ زمن، ولم تهمد، وها هي كما أشاعوا مؤخراً قد وصلت إلى أقاصي الشمال. إذن.. فهذا معناه أنّ الإنكليز يفون بما يعدون، وهم يساعدون العرب فعلاً، ولم يجرؤوا على إنزال قواتهم في "جدة" واحتلال الجزيرة، لطرد الأتراك منها، بل تركوا العرب يقومون بذلك.

وماذا عن العراق؟ الشيخ درويش يخاف على العراق، ومعه حق في ذلك، ما باستطاعته أن يفعل؟ أن يقود جمعية عزلاء؟ منذ البدء كانت عزلاء. كان الشيخ درويش يعتمد على تحريض القبائل على الإنكليز والأتراك معاً، وهذا ما بوسعه أن يفعل. أكثر من ذلك هو حلم لن يتحقق. ما هو أكثر من ذلك، مغامرة قد تطيح برؤوسنا جميعاً، كما حصل لحركة "طالب النقيب" في البصرة، ومن ثمّ لياسين الهاشمي والعصبة العسكرية.

صدق حسين، ذاك الخنزير اللعين، عندما قال هذا الكلام في ذلك الاجتماع.

وعندما سأل عمر نفسه مرّة أخرى ما العمل؟ أحسّ بنفسه يجيب على السؤال بشجاعة، وهو غارق في جوّ المقهى المغبش بدخان السجائر، وكأنّ وجود قاسم بجانبه قد كشف له عن أعمق الأسرار:

الإنكليز سيحتلون بغداد طاردين الوالي التركي منها وسيقومون، حسب الاتفاق مع الشريف حسين، بتنصيب ملك عربي فيها، ويخرجون بعد توقف الحرب، وهذا عز الطلب، فنحن نريد العنب وليس الناطور!

وماذا ستفعل أنت يا عمر بنبوك؟ ماذا سأفعل؟ تساءل في نفسه، وهو يحسّ راحة تصل حتّى نخاع عظامه من قناعته بصدق الإنكليز، فكم تمنّى ذلك، فهذا هو

الأمر الذي يهدّئ نفسه، ويريح ذهنه.

كم هو أمر عجيب أن يصل الإنسان إلى قرار! إلى فكرة، إلى ومضة تريحه من إجهاد الفكر ولعن النفس، فابتسم ملء شدقيه، من دون أن يشعر، وهو يراقب عدداً من الجنود يلجون المقهى، وهم يصخبون.

ثمّ جالت في مخيلته بهية. كم يفتقدها...؟ ماذا تفعل الآن؟ كم يشتهي أخذها بين ذراعيه، وعصرها. يا لها من امرأة شيطانية تستطيع أن تديم اللحظة إلى زمن مديد، وتستطيع أن تجعل ساقيك ترتجفان ثلاثة أيام متواصلة، وهي إن لم تردعها، تجعلك تفجّر ينابيعك البيضاء الحليبية مرّات ومرّات حتّى يشوبها احمرار الدّم.

صعد الدم بدوره إلى رأسه، فتضرّج وجهه بلون وردي لم يلحظه أحد. كان يحسّ بحيوانه يتحرّك، إلاّ أنّ همّاً صغيراً، راح يعشش عندما مرّ في ذهنه سؤال بسيط: كيف ستقبل بهية زواجه من فريدة؟

نفض رأسه كي لا يفكّر. كان التفكير يرهقه، وهو لا يريد أن يدمي رأسه بأيّ مطرقة، قد يحدث أن تنهال عليه، وجعل يراقب الجنود الجالسين قبالته، وهم يتصايحون مع قاسم والآخرين. كانوا يشربون القهوة، ويدخّنون، يسعلون، ويبصقون، وهم يضحكون ببذاءة.

كان قاسم يوجّه كلامه إليهم، وكان كلّ من في المقهى يستمع:

– أنا فلاح، أنا لست سوى فلاح، أزرع الأرض، وأقطف التمر من العزوق الشاهقة. ولكن... هل تريدون أن أدفن حياً؟.. وداعة أبوكم قولوا لي!

فصاح الجنود والآخرون وهم يتحركون مبدين عطفاً على كلامه:

– لا...

– اتخسى عيوني...!

– احجي يابه احجي!

امتصّ نفساً من سيجارته، ثمّ نفث دخّانه من بين أسنانه، وهو يقول:

– راح يطق عقلي يا شباب، بغداد لم تعد بغداد، أين أيامك يا هارون الرشيد يا أبا الجميع، وأين أيامك يا أبا نواس، والله ... بتنا نشتهي كأساً من العرق لنغسل به الصدأ الذي راح يعشش في الرؤوس.

وما لبث أحد الجنود أن أخرج زجاجة عرق من خرجه، فغص المقهى بالضجيج والأيدي الممدودة، وصفّت الكؤوس، ثمّ دارت، فحدث خلاف بسيط، وسمع أحدهم يوجه شتيمة: خرب مذهبك، لا تبخل علي! ثمّ سمع الشخص نفسه بعد أن أرضوه يقول: آني ممنون... ثمّ صمتوا، ودعوا قاسماً للكلام، فقد كانوا يشتهون حديثه، وينتظرونه وهو المعروف بحكاياته الحلوة المسلية. قال قاسم بعد أن أفرغ كأسه الأولى في حلقه، فملأوها له من جديد:

– قبل حربكم اللعينة هذه، كانت بغداد جنة الخلق. روحوا انظروا إلى شارع الميدان، فالمرء لا يشتهي السير فيه، أين أيام المقهى "سبع" ومقهى "كل وزير" ومقهى" القرئخانة" ومقهى "المميز"؟!

ثمّ امتقع وجه قاسم وهو يصيح، ويحرّك يديه في كلّ الاتجاهات:

وملهى "شانو"... آه من ملهى "شانو السبع" والله كلّ من دخل ملهى شانو سيدخل الجنة، وكلّ من رأى الرقاصات وهن يرقصن سيموت سعيداً من دون ندم. أنتم لم تشاهدوا "رحلو جرادة" ولا "طيرة المصرية"!

وحدث هرج ومرج، وصياح وتصفيق، وسمع سباب بذيء. قال أحدهم وكان يمسك كأسه بيمناه، ويحرّك خصره إلى الأمام وإلى الخلف:

– كيف لم نشاهدهن، خرب عمرك يا قاسم...؟!

فراح قاسم يعدد أسماء الرقاصات بتسارع مع الصياح والزعيق:

– وفريدة استيتية، وحسنى دنكور وفريدة العراطة وبهية سميكة وثريا الجمل وجميلة خاتون وماريكة ديمتري...

ثمّ وقف، وراح يهزّ خصره، وعمر يطالعه بنظراته المندهشة، وهو يقول:

– وحسيبة مكنو... هكذا كانت ترقص، آه يا حسيبة..! آه يا حسيبة...!!

ثمّ شرع أحدهم يدق إيقاعاً بقبضته على إحدى الطاولات، وشرع قاسم والجنود وآخرون يرقصون، وصدحت أغنية "علي يا علي بياع الزيت" بخشونة، وراح عمر يصفّق وسيجارته مضمومة بين شفتيه الممطوطتين.

دارت الكؤوس مراراً عديدة، ثمّ أخرج الجندي قنينة ثانية، وهو يلقى ترحيباً ضاجاً، وقبّله أحدهم في خده المشعر، فاحمرّت الوجوه، وراحوا ينشدون أغنية "على

البيبة والبيبة خده رز بحليبة" ثمّ أغنية "بنت الجلبية عيونك لوزية" و"زوروني بالسنة مرّة حرام". دارت الرؤوس، فجلسوا يستريحون، وهم يلهثون، ثمّ راح قاسم والجنود وعمر أخيراً، يوجّهون السباب البذيئة إلى الحرب والجنود والضباط، فرفع أحد الجنود بندقيته "القباغلي"، فثبت حربتها، وقال غاضباً:

– هذا هو أفضل خازوق للضباط.

فقال آخر يستطرد كلامه:

– الأتراك والألمان معاً.

فقال ثالث:

– لا تنسوا الضباط الإنكليز، فهم أيضاً يمتازون بمؤخرات جميلة.

فأجابه آخر صائحاً بحدّة وهو يغمز بعينيه:

– أبداً الضباط الإنكليز والألمان بيض وشقر، اتركوهم لنا..!

فانهالوا على ظهره يخبطون عليه حتى كاد ينهّد، ثمّ انبرى جندي ذو طبع صامت قائلاً لقاسم:

– كذا وكذا في أمّ الحرب والمتحاربين، اتركونا من الهم والغم، هات حكاية يا قاسم تبهج القلب قليلاً فقد نموت غداً!!

أعادوا ملء كأس قاسم، فرفعها إلى شفتيه، وعبّ نصفها، أمّا عمر فلم يستطع أن يبتلع كأسه الثانية، فقد دار رأسه، وراح يبتسم ببلاهة البغال.

قال قاسم بعد لأي بلسانه الذي ثقل قليلاً:

– ماذا تريدون؟

فصاحوا:

– حكاية!

فقال:

– لعنة الله على الجنود كم يحبون الثرثرة!

فقابلوا كلامه بابتهاج أيضاً، ثمّ صمتوا يراقبونه بأعين نصف مغمضة. قال وقد أشعل سيجارة عمر، وأشعل لنفسه واحدة:

– يا أخواني... كان ولد من أهل الموصل الملاعين، حب الولد بنت الجيران،

وكان يتحادث وإياها من طاقة صغيرة يقال لها في الموصل (الروزنة). بعد أشهر علمت أمها بأمر الطاقة أي (الروزنة)، فطقت البنية علقة إلا أنّ البنية، التي كان الحبّ يشتعل في قلبها، بقيت تمدّ رأسها في (الروزنة) وتتحادث مع حبيبها الملهوف. فلا تهمها علقات أمّها وتهديدها أنّها ستكلم أباها.

أما الأم فقد وجدت الحلّ بعد لأي، فقامت وسدّت الطاقة، وقالت لابنتها:

عالروزنة الروزنة كل البلا بيها...!

فأجابت البنية: واشعملت الروزنة قمتي سديتيها؟

وصار هذا الكلام أغنية حلوة غناها أحمد زيدان في مقهى المميز في ليالي رمضان... ضحكوا، وخبطوا بالكؤوس والقبضات على الطاولات، ثمّ صفّقوا، وغنوا اللازمة ذاتها، وانطلق صاحب الصوت الخشن مرّة أخرى، فأكمل الأغنية، ولما انتهى منها، قاموا إليه، فقبّلوه، ثمّ سكبوا في حلقه كأساً من العرق المكسور بالماء، وعندما انتهى من سعاله وبصاقه، جعل يرضي أصحابه بأغنية حزينة، فجرت الدموع في المآقي، وانطرحت الأجساد، التي تفوح بشتى الروائح، على المقاعد، أمّا الرؤوس فكانت تهتز يمنة ويسرة بألم وحسرة وصمت:

أنا المسيجينة أنا   أنا المظيليمة أنا

أنا الباعوني هلي   بالنوط والوعدة سنة

* * *

دفع باب السياج المصنوع من أغصان الأشجار المربوطة، ثمّ أعاد إغلاقه واجتاز شجيرات البرتقال نحو الباب الخلفي للبيت، حيث طالعته النخلات الثلاث وقد تصاعدت بحماقة نحو السماء المظلمة والمتلبدة بغيوم ساكنة.

ألقى تحيّة المساء على النخلات، فقد أحسّ، لأوّل مرّة، بعطف شديد نحوها في وحدتها هو... لم يعد يتموج، ولم يعد يحسّ بذاك الضجيج الهائل في جوفه، بل مازال يشعر بخدر لذيذ وبدوران سعيد في رأسه، رغم أنّه لم يكمل كأسه الثانية، بل قام، وعن طيب خاطر، بإهدائها إلى قاسم، قبل أن ينطلقا، أحدهما يتكئ على الآخر، في الظلام الدامس، إلى حيث الفراش الدافئ.

مدّ يده في جيب معطفه، وتحسّس عقد الصدف الذي اشتراه من عجوز متحجبة، دخلت المقهى، وراحت تتوسل قائلة:

– أنا تحت شاربك، اشتر مني عقداً، أنا تحت شاربك.

أخذه منها، ودفع قاسم الثمن، فلم يكن عمر يحمل نقوداً، ولكنّه قرّر.. سيعطيه لفريدة. زقزق باب غرفته إلاّ أنّه لم يشعر نحوه بأيّ شعور عدواني، خلع معطفه، ثمّ مدّ فراشه، وانبطح عليه. أخرج العقد، ثمّ أشعل لفافة رفيعة كالخنصر وراح يدخّنها، وهو يتفحّصه. لم يرَ في حياته عقداً بهذا الجمال. إنّه رائع، جميل، أصدافه من بحر الخليج، يلائم جيد فريدة، فهي أيضاً خرجت من البحر، كعروس البحار التي يتحدّث عنها البحارة بشغف. فريدة لا يمكن أن تكون إلا هي، فريدة ليست ابنة اليابسة، ليست كغيرها من النساء، ليست حتى، وها هو يغامر، مثل بهية.

استلقى على ظهره، وتمطّى، كانت النشوة تغمره، فابتسم رغماً عنه، لو لم يكن حسين معسكراً في البيت لذهب إليها، في غرفتها وقدّم إليها هديته، وربّما قبّلها قبلة ناعمة، ولكن المسخ الملعون، صاحب أقبح وجه شاهده في حياته، عكّر عليه مزاجه فانمحت البسمة، ولم يعد لها أثر.

ما دخله هو؟ ما دخل حسين في هذا الأمر. إنّه يريد فريدة، وهي تريده بعنف، والشيخ درويش موافق على ذلك، إذن، فليبلع حسين حنقه، وليرحل من هنا، قبل أن يقوم عمر بنبوك، بما يلزم، قبل أن ينهض، مثل أيّ رجل شجاع في هذه الدنيا، مثل أيّ رجل قوي هيّاب، فيلتقطه بإصبعين فقط، كما يلتقط جرذاً ميتاً، ويقذف به إلى خارج الدار، بل إلى خارج المزرعة.

إلاّ أنّ التقاط الرجل بإصبعين، لم يعجبه، لماذا عليه أن يلوث إصبعيه؟ بل إنّه سوف يركله بقدمه على مؤخرته، ويبصق عليه، ولا بأس إن صفّق يداً بيد في نهاية الأمر.

فُتح الباب ببطء فأزّ كالعادة، ولكن بأزيز متمهل ومتقطع، ثمّ انطبق بنفس الليونة، ولم يبقَ في الصورة سوى صوت حفيف ثياب لا يمكن أن تكون إلا لفريدة، التي كان يخفق قلبه لها بعنف شديد.

تبسّم عمر، ومدّ يده في الظلام ليلتقط يدها. ها هي قادمة إليه. جاءت وكأنها سمعت دعوته لها، بأوضح ما يمكن، ثمّ أحسّ ويده ممدودة، بنشوة اقتراب طيف المرأة من جسد الرجل المسجى، ممتزجة بنشوة أخرى كانت كأسا العرق قد قامتا بفعلها.

أما اشتهاؤه لها فكان عظيماً، حيث شعر بصدره ينغلق، ويصبح غوراً لانهاية له.

اصطدمت يده بالجسد، إلاّ أنّ حركة غريبة ومفاجئة، صدرت فأحسّ بها بيده، ثمّ انكبّ عليه ثقل، منعه من الحركة، ثمّ بيد خشنة تطبق على فمه، فتلبسه هلع عقد لسانه، وعطّل جسده. سمع صريف أسنان ونفساً ثقيلاً متحشرجاً، ثمّ التقط كلمات هامسة: يا ابن العاهرة...! إنّه حسين. حاول أن يقاوم، إلاّ أنّ ثقل الرجل والهلع منعاه من الحركة، صرخ، صاح بكلّ قوته، شتم ولكن بفم مطبق لا ينطق سوى بحرف الميم الذي لا ينجد، ثمّ أحسّ بنصل حاد يحز رقبته، ثمّ يغور فيها، ثمّ يعود إلى الخروج مقطعاً لحم. وانزاحت اليد عن فمه إلا أن حنجرته كانت قد تعطّلت، فلم يسمع خريراً يصدر من خارج فمه.

هل يمكن أن يستحضر الهواء من عينيه؟ من أذنيه...؟ إنّه يختنق، ويأتيه رذاذ الدم كالمطر نافراً من رقبته. لم يفكر في أيّ شيء سوى استحضار الهواء... الشهيق... الشهيق اللعين، الشهيق اللذيذ، الهواء المنقذ، الهواء الحياة، الشهيق اللعين، الشهيق لا يجيء، الهواء المنقذ، الهواء بعيد، مثل قعر بئر، أسوأ من قعر بئر، وأضيئت الغرفة، برق آت من السقف. ها هو الموت يأتي، فشاهد ابنه أحمد، لماذا أحمد؟ أين بهية؟ أين الجميع؟ لماذا لا تأتي فريدة؟ لماذا تتنمل أطرافه؟ عليه أن يتنفس ... الحياة تنسل منه... يجب أن يحدث هذا ببساطة.

قبض بكلتا يديه على رقبته فتحركت حنجرته المذبوحة والمكشوفة، وفجأة راح يلهث، شاهد الشيخ مهلوساً، يرفع يديه ويخفضهما، وفريدة ممسكة بالمصباح ذي الضوء الأصفر الباهت، كانت تبكي، تولول وتقطع خصلات من شعرها الليلي.

"أنا أموت يا فريدة، انظري كيف ذبحني ابن الصرماية!".

* * *

4

دخل الحارس قاعة الاجتماعات في مبنى القيادة العامة للقوات البريطانية في العراق بهدوء، وقال بعد أن شدّ جسده كالوتد، وضرب كعبيه:

– أيّها السادة... وصل الجنرال مود.

ثمّ تنحّى جانباً بحركة أوتوماتيكية، تذكّر بذراع نقل الحركة في آلة بخارية حديثة. نهض الجميع، وهم ملتفون حول المنضدة الهائلة. لم يسمع صوت انجرار المقاعد. لم يسمع همس ولا حفيف ولا صريف، وانشدت الأجساد، وأسبلت الأيدي المعطرة، وانسابت بحركة زئبقية، السراويل الخضراء ذات الشرائط الحمراء العريضة والضيقة.

لم يرتجف أحد، لم يهتز أحد، ولم يتمايل أحد. كلٌ أمام قبعته، ذات التاج المذهب، الموضوعة على المنضدة، بعناية فائقة، تذكر بعناية الإله.

دخل الجنرال الأشقر، ذو الشارب الدقيق الناعم، والوجه الطفولي الجميل. وقف أمام مقعده، راقب الجميع فرداً فرداً، دون أن يتجرّأ أحد على الالتفات. قال بهدوء النبلاء:

– جلوس ... أيّها السادة!

بقيت الأعمدة الفقرية منغرسة في المقاعد كالأقلام. أوصد الباب من الخارج، وران صمت ثقيل على الأسماع لا يبشر بشيء، فقد اعتادوا عليه في حضور الجنرال،

انشغل الجنرال قليلاً بإخراج أوراقه، بمساعدة مرافقه الكابتن، من محفظته، ولما انتهى، رفع رأسه، وأجال عينيه في مرؤوسيه.

إلى يمينه كان جالساً الجنرال "بروكنك" قائد قوات محور الفرات، وإلى جانبه قائد سرب الطيران فقائد فرقة الخيالة، ثمّ الضباط المسؤولون عن الهندسة والنقل البحري وغيرها، أمّا إلى يساره، فقد جلس الجنرال "كوب" قائد الفيلق الأوّل والجنرال "مارشال" قائد الفيلق الثالث وبعض قادة أركان حرب الفرق فرئيس هيئة التموين، وسكّة الحديد وغيرهم من الضباط.

تمتم الجنرال قائلاً:

– خذوا راحتكم أيّها السادة!

تحرّكت الأجساد على الفور، فأخذ كلّ واحد يأتي بحركة تريح عظامه. وقام أحد الضباط بلوي رقبته يميناً ويساراً، حتّى طقّت عظامها، بينما غطس بروكنك قليلاً في مقعده. وضع رجلاً، على رجل ثمّ أشعل غليونه، وراح ينفث سحابات دخانه فوق رأس الجنرال مود بالذات، ماذا بعد؟ ماذا لدى الجنرال مود اليوم؟ هل حان موعد المعركة المنتظرة؟

لقد أتعبهم هذا الرجل، جعلهم يعملون ثماني عشرة ساعة في اليوم الواحد. ومنذ أن استلم القيادة العامة في العراق، جعل يلاحقهم كي يقوموا بأعمالهم المنوطة بهم، وكأنّ الدّنيا ستنتهي بعد أيام. حتّى الجنرالات منهم، حتى الجنرال "مارشال" صديقه الحميم وقائد محور دجلة أصبح آلة لديه، آلة سريعة الحركة، ليس عليها أن تتوقف أبداً أو أن تتباطأ.

ولكن الجنرال "مارشال" يعرف أمر برقية لندن السّرية جداً، والتي بموجبها قام مود بجمع هيئة أركانه الموسعة، وفي ذهنه أن يضع اللمسات الأخيرة على خطته ويدقق في كلّ أمر، صغيراً كان أم كبيراً، فهذه هي عادته، عادة "مود" اللطيف، الثعلب والمقاتل العنيد.

رسم مارشال، بقلمه الرصاص، صورة فتاة جميل، ثمّ راح يظلّلها، وبينما كان مود يتكلّم، ويزف إلى ضباطه خبر وصول برقية لندن، والتي هي عبارة عن ثلاث كلمات لا غير: لا مانع لدينا . نصر، كتب مارشال على ورقته البيضاء فوق صورة الفتاة التي انتهى من تظليلها: "lasta est alla"،* وبينما كان قائد النقل النهري يقدم تقريره، ويذكر بدقة فائقة ارتفاع مياه نهر دجلة، كان مارشال يبحث في ذهنه عن ذلك السر الذي يكتنف صعود مود السريع.

لقد تخرجا معاً من كلية الأركان في كابولي، وسافرا إلى مصر، وعملا في الأركان هناك إلاّ أنّ الظروف أبعدته عن صديقه. فقد أرسل مود إلى جنوب أفريقيا فاشترك هناك في حرب "البوير" التي ذاع صيته فيها. أمّا عندما اشتعلت نيران الحرب في 1914 فقد رفع إلى رتبة جنرال، وقاد الفرقة 13 في معارك الدردنيل

* – باللاتينية: "لقد قضي الأمر". يوليوس قيصر.

والعراق، حيث اجتمعا مرّة أخرى ليعين فيما بعد قائداً للقوات حينما عُزل الجنرال "ليك" عن ذات المنصب، وقف رئيس الهيئة الطبية، وراح يتكلّم بإنكليزية جميلة وأنيقة، ستة عشر ألف سرير جاهز، ولأوّل مرّة أصبح لديهم سيارات للإسعاف، ومراكب أيضاً. أمّا الأدوية فهي مكدسة في المستودعات. ثمّ نهض رئيس هيئة التموين، إنّه يتكلّم ببطء، ولكن بشكل غير مفهوم. الـ "آ" يلفظها "و" والـ "س" يلفظها "ش" وهكذا... احمرّ وجهه مرّة أخرى، كلّما نهض ليتكلم، يتضرّج وجهه كأنّه عذراء تسأل عن عفتها، فلتنزل لعنة الشيطان على وجهه الخجول...!. ولكن الجميع فهموا أخيراً أن الذخائر مكدّسة بشكل وافر، وأصبح لكلّ رأس تركي نصيباً قدره خمسة آلاف رطل من القنابل وخمسون ألفاً من الخراطيش، أصدر مود أمر الجاهزية القتالية، ثمّ سمح للجميع بالانصراف ما عدا قادة الفيالق والفرق وهيئات الأركان، الذين انكبوا جميعاً على خارجة، وراحوا يدققون في خطتهم التي طالما تدارسوها فيما بينهم.

قال مود بوجه جامد لا يتمّ إلاّ عن بأس:

– لن أسمح بارتكاب أيّ خطأ، حتّى ولو كان هفوة بسيطة، تذكّروا ذلك! لن أترك أبله يدمّر خطتي، ويحبط آمالي. إنّنا أمام لحظة تاريخية أيّها السادة، فأمامنا مهمة راودت خيال عظماء التاريخ. إنّها بغداد، هل تعرفون ما معنى بغداد؟ إنّ من سيعمل معي الآن عليه أن يكون عاشقاً، عاشقاً لهذه المدينة، عاشقاً لهذه المرأة التي لم يحلم بمضاجعتها سوى أعظم قادة العالم، وأنا... أنا الجنرال "مود" سوف أكون آخر من يفتحها..!

احتقن وجه الجنرال، واشتعلت عيناه، وراح يلهث، ثمّ أحسّ أنّ سبابته التي كان يشير بها، راحت ترتجف بتواتر مع موجات شهوة عارمة تجتاح صدره وبطنه. استدار ليخفي تهيجه، إلا أنّ "مارشال" اخترق عينيه، وانطبع في ذهنه ما لم يعهده في مود، ربّما شاهده هكذا مرّة أو مرتين، عندما كانا يناقشان مواضيع أخرى، أمّا الآن... وفي هذه اللحظة، فهذا شيء لا يصدق.

هدأ مود، وعاد منكباً على الخريطة، فأحسّ مارشال بسرور خفي يجتاح مود. لعلّه أفرغ شحنته، فحلقت به رجفة سرية إلى عوالم سحرية، تركت أثرها في انشراح

بيّن من صوته وعينيه. ولكن مارشال عاد ليلتقط إصرار الجنرال على عمل معين يراه مناسباً في الضفة اليمنى من دجلة، ثمّ سمعه يقول:

– هنا تبرز أهمية الخطّة، ومن ثمّ أهمية اختيارنا للضفة اليمنى. إنّ نجاح عملية عبور دجلة بعد أن يكون الفيلق الثالث بقيادة "مارشال" قد أتمّ تطهير الضفة اليمنى هي من الأهمية بمكان، بحيث أنّ على الجميع أن يتعاونوا مع مارشال، وكأنّه القائد الأعلى بالذات، هز مارشال رأسه، وهو يمسح خلف أذنه بعادة سخيفة. ثمّ قام مود بتوقيع الأمر الذي قدّمه إليه مرافقه الكابتن، والذي ينص على بدء الزحف الثاني نحو بغداد، والذي سيأخذ منحىً أولياً بالتقدّم نحو نهر الفرات على الضفة اليمنى.

وقع بيد راجفة وكتب التاريخ: 10 كانون الأول 1916.

خرج الجميع، وبقي مود ومارشال. احتلّ مود كرسياً، ورفع ساقيه على آخر. زفر بتنهيدة عميقة، ثمّ راح يتطلّع إلى سقف القاعة المزدان بالنقوش. قال مارشال بصوته الهادئ العميق:

– ألا يستحسن أن أنطلق فوراً إلى مقر قيادتي؟

نظر مود بعطف نحو صديقه العزيز، ثمّ قال بانفعال:

– مهلاً، سنشرب نخب المعركة، ثمّ تكون حراً.

قرع جرساً يدوياً، وطلب من الكابتن إحضار زجاجة ويسكي سكوتش.

رفعا كأسيهما، وتمتم مود بصوت قوي منتصر:

– نخب انتصارنا وبقائنا على قيد الحياة يا عزيزي مارشال!

– نخب انتصارك يا عزيزي الجنرال مود!

شربا نخباً ثانياً وثالثاً، ثمّ أخذ مود ورقة، وراح يرسم عليها خارطة العراق. رسم في منتصفها شكلاً بيضوياً، وقال:

– هذه هي بغداد.

ثمّ رسم دجلة بخطين متوازيين منطلقين من الجنوب، ويخترقان الشكل البيضوي حتى منتصفه. لم يكمل رسم دجلة إلى شمال بغداد، وكأنّ دجلة ينتهي في إحدى حارات بغداد:

- وهذا هو دجلة. انظر إليه بحق الإله يا مارشال... أليس جميلاً، ألا يوحي لك بشيء؟ هز مارشال رأسه، ثمّ عاد يحكّ خلف أذنه، وهو يراقب عيني مود بقسوة، ثمّ تابع، فرسم الضفة اليمنى على شكل ساق طويلة ممتدة جنوباً إلى حيث تصبح أكثر تضيقاً. كذلك رسم الضفة اليسرى.

صمت مود، وراح يراقب الرسم، وقد غاب عن صديقه، ثمّ رسم قارباً طويلاً يبحر في دجلة تتجه مقدمته نحو بغداد، بينما كانت بعض حبّات العرق تتفصد على جبهته، وشفتاه تنضمان، وعيناه تتوسعان وتشعان ألقاً مضطرباً.

وضع القلم فوق القارب، ثمّ حركه صعوداً، فاخترق طرفه المدبب الشكل البيضوي، فعاد مود يلهث، وارتسمت بعض التجاعيد على وجهه، ثمّ افترّ ثغره عن ابتسامة، عندها تطلّع إلى صديقه، فانصعق مارشال.

فهم كلّ شيء، وازداد يقينه عندما سمع مود يقول همساً:

- لن أدخل بغداد إلا على ظهر قارب.

تابع بعد أن هدأت نفسه:

- لن يكون انتصاري كاملاً إن لم أدخلها على قارب يبحر في دجلة وأنا واقف في المقدمة.

- حسناً يا جنرال، سيكون لك ما تريد. دع الأمر لي!

- أشكرك يا مارشال، هذا كلّ ما أريد، هذا أقلّ ما أحلم به، بعدها، فليأخذني الرب. لن أبخل بحياتي، ولكن ليته يمدّ في عمري حتّى تلك اللحظة، فهذه هي سعادتي العظمى، بل قل لذتي الفائقة.. هل تفهمني يا مارشال؟

- أنا أفهمك جيد جداً يا جنرال.

تطلّع إلى مارشال، هل يفهمه حقّاً، هل انكشف سرّه؟ فحسب نفسه مراهقاً يقوم بأعمال لا تخص أحد سواه. قال وهو يدسّ الورقة في جيب سترته:

- هل تعلم يا مارشال، ماذا كانت خطّة الشريف حسين؟... كان يريد أن نترك له العراق، أن نترك له بغداد، كان يريد أخذها مني، فيقتل حلمي الذي أنا بصدد تحقيقه.

- وهل ليديه قوة القيام بذلك؟

- ربما... لقد جمع حوله كلّ الجمعيات السّرية وبعض القبائل وكثيراً من الضباط العرب أمثال علي عزيز المصري وغيره، إلاّ أنّنا هدّدناه بتركه وحيداً في الجزيرة العربية، فتخلى فيما بعد عن هذا المطلب.

- بغداد يجب أن تكون للإنكليز.

فقال مود، وهو يغرس عينيه في مارشال:

- بغداد يجب أن يدخلها الجنرال مود بالذات!

هز مارشال رأسه، ثمّ نهض، واستأذن بالرحيل، وعندما كان يهبط الدرجات الواسعة إلى خارج المبنى، تلقّفته أشعة شمس كانون الدافئة، التي أطلت بنشاط غريب في سماء البصرة. حكّ، مرّة أخرى، خلف أذنه وهو يحسّ بإحباط كبير من جراء فهمه المصعوق لأحلام الجنرال مود.

بعد أربعة أيام، رفع سماعة الهاتف، في مقر فيلقه، وهمس للقائد العام:

- ها نحن نبدأ.

* * * *

طيب يا بهية! حسناً يا ابنة الزيات يا ابنة الحرام! ماذا فعلت كي تسمعيني كلّ هذا الكلام؟ لو كان في قلبك رحمة لخففت عني قليلاً، لوفرت علي صياحك الذي لا ينتهي!

ولكن لماذا قرروا الآن أن يقوموا بصنع الكبة النيئة؟ هذا ليس وقته، إنّه يشعر بنعاس شديد بينما هم يهوون بذراع الهاون في الجرن الرنان إلى جانب رأسه. لو كان يملك غرفة أخرى عالية كفاية، لصعد إليها، وغرق في نوم من دون أصوات، من دون أحلام وكوابيس، ولكن حتّى هذه الأمور لا يتمنّاها المرء إلاّ عندما يحتاج إليها.

توقف **الهاون** وعاد صوت بهية زاعقاً. ثمّ الاثنين معاً، صوت بهية يجأر والهاون يخبط في رأسه، فتتوتر أعصابه فيسدّ أذنيه من دون فائدة، ثمّ أعقب كلّ ذلك صمت مقهور، فسأل عن السبب، إلا أنّه ابتلع شيئاً، فأحسّ بنَفَسِه ينقطع، وراح يختنق. غير مهم، الهواء لم يعد مهماً للحياة، والدليل هو أنّه مازال حياً رغم أنّه لا يتنفس. وهو لا يستطيع أن يفهم لماذا على الإنسان أن يتنفس كي يعيش؟

فتح باباً جراراً في الأرض، أراد أن يختبئ في الأسفل، حيث لا وجود لبهية ولا غير بهية، إلاّ أنّه تراجع غاضاً بصره عن الوحش الذي كان عائماً في الماء الآسن، مغمض العينين، وكأنّه ميت، تغطي جسده الطحالب الخضراء ذات الرائحة العفنة. ارتعد خائفاً. قال يا إلهي! ثمّ قال: ما هذا؟ ثمّ أعاد إغلاق الباب الجرار الذي لم يفهم أين يغيب طرفه حين يسحبه، غاب الوحش عن عينيه إلاّ أنّه بقي في ذاكرته، فشاهده مرّة أخرى... بل شاهد ذاكرته.

أكمل ابتلاع ذاك الشيء، فعاد تنفسه إلى حالته، ولكنّه ظلّ يشعر بملوحة لزجة في فمه. أين فريدة؟ أين وضعتها بهية؟ فتح الخزانة، ولكنّه لم يجد شيئاً. أراد أن يسأل بهية. لعنة الله على بهية كم هي أنانية، حسب أنّه لم ينظر تحت الأرض، فأعاد سحب الباب الجرار، فلم يجد الوحش، بل وجد صبياً أزرق اللون منبسط الجسد يشبه ابنه أحمد، فأعاد إغلاق الحفرة وهو مطمئن.

اجتاحته نوبة سعال قوية وطويلة، فمزّقت عنقه، ولما هدأ، أحسّ بطعم الملوحة إياها مرّة أخرى. وفجأة شاهد وجه فريدة كقرص الشمس ينير عينيه. كان الوجه قريباً، مدّت يدها، وراحت تنقّط الماء في فمه نقطة فنقطة. تابع النظر إليها، فابتسمت له، وراحت تحرّك شفتيها، كأنّها تقول شيئاً. كانت تقول أشياء، ولكنّه لم يكن يسمع، أو يفهم أيّ شيء، فقد عاد ذراع الهاون يطرق بقوة، كأنّه يثبت رأسه على الجدار.

غاب الوجه في العتمة، فقام وتلصص من النافذة، فوجد بهية جالسة في أرض الحوش، منفرجة الساقين، تطعم ابنه حمودة، بينما تربّعت مئات النساء الملتحفات أمامها ينصتن إليها. كانوا قد أزالوا الجدار الغربي للحوش، كي يتسع لكلّ هذا العدد من النسوة. سمع بهية تقول لهن، وهي تحرّك يدها الممسكة بالملعقة:

"اتجوزت فقير، والنومة ع الحصير، اجاني هز السرير، وغناني الله عن شم الهوا". تعالي يا بهية لأقول لك شيئاً حصل معي! ... تعالي يا بهية!

كانت جالسة إلى جانبه على الفراش لا تستر عريها إلا بشلحة كتانية مخرمة. قال لها، وهو يرقب فمها الذي يمضغ قطعة من العلك. جاءه عبير العلك الحرّيف:

– كنت قد اشتريت عقداً من الصدف لفريدة، وعوضاً عن أن تأتي هي، جاء

حسين، وذبحني... ألا تعرفين حسين؟ ... إنه يشبه ذاك الوحش الذي وجدته غاطساً في الماء الآسن تحت الأرض.

فقالت له، وهي تخرج قطعة العلك من فمها، وتدسها في فمه الجاف:

– تزوجت عليّ يا عمر... لماذا فعلتها؟

ثم رآها جالسة في الحوش، تطعم حمودة، فقالت للنساء المتجمهرات حولها:

"جوزي يتزوج، من كيسو بيتخرج، هو بياكل القتل، وأنا عليه بتفرج".

صمتت بهية، فسمع صوتاً لشخص معروف يأتيه من خلف الجدار:

– هجم الإنكليز على الأتراك، حدث ما كان متوقعاً. إنّهم يتقدّمون بسرعة هائلة، إنّهم الآن مقابل الكوت، إنّهم يعملون من الصناعات وحتى دورة الخضيري.

شتم الجميع، وهو يحسّ بظمأ طاغٍ. فتح فمه، فراح المطر يهطل بطيئاً على لسانه الجاف المبيض كالطباشير. كم هو جميل أن تنسكب المياه في فمك لمجرد أن تفتحه. ليس هذا فقط، بل بإمكانك أن تتبول في مكانك من دون أن تنزل سروالك، ومن دون أن تحسب حساباً لأحد. ولا يهمك إن فاحت منك رائحة البول الدافئ أو الرائحة الكريهة لإفرازات أمعائك.

"أهلاً فريدة!". ها هو يراها من جديد، حسبها اختفت أو أنّ بهية خبّأتها. ما أجملها مبتسمة، وجهها بشوش، ولكنّها تبكي. "من أبكاك يا فريدة؟"... "لماذا لا يصدر صوتي حين أتكلم؟" سمعها تقول باكية، وحلقها يغصّ:

– عيوني عمر، أموت أنا... أموت أنا عيوني عمر!

ثمّ شاهد إلى جانبها، رجلاً من الماضي السحيق، كان اسمه (الشيخ محمود)، تعجب لوجوده، كيف أتى إلى هنا؟

سمعه يقول همساً:

– ها قد فتح عينيه... كيف حالك يا شيخ عمر؟ هل تسمعني؟

أراد أن يقول شيئاً، إلاّ أنّهما غابا عن عينيه. أين يختبئان؟ ... بهية اللعينة تلعب معه، راح يبحث عنهما.

فتح كلّ الأبواب، الخزائن والأرضيات، كم هو واسع بيته؟ كيف حدث واكتشف فيه كلّ هذه الغرف والسراديب؟.

إنه أوسع جداً مثل "سراية بيت جنبلاط" عاد متلصصاً عبر النافذة. كانت بهية تقول للنساء وهي تدسّ لقمة كبيرة في فم الولد:

"بيتي وبيوتاتي، يا مستر عيوباتي، فيه باكل وفيه باشرب وفيه بمدمد سويقاتي".

– إنهم يقاومون في دورة الخضيري، لقد أوقفوا زحف الإنكليز. قوة بسيطة من الأتراك تقاتل فرقة إنكليزية كاملة... ما لك يا شيخ درويش غير مبال...؟

"حتى الشيخ درويش؟ أين هو إذن؟" ثمّ ظهر له قاسم مبتسماً، ووصلت إليه رائحة العرق مختلطة برائحة عرقه هو. ماذا تفعل هنا يا قاسم؟ غن لي أغنية كما في ماضي الأزمان. احك لي حكاية تبهجني! أنا صديقك يا قاسم... انظر كيف ذبحني ذاك المفعول فيه... مدّ قاسم يديه، وراح يعبث برقبة عمر. انظر يا قاسم!. اقترب أيضاً شخص غريب لا يعرفه، وراح يتفحص رقبته بعينين راقصتين. قاسم والغريب وفريدة ملتحفة بعباءتها ماذا تفعلون؟ كلّ ما في الأمر أنّ حسين ذاك التيس، ذبحني. ماذا حدث؟ تحدّثوا إليّ.

قال قاسم للغريب:

– ماذا رأيت؟

– إنه يلتئم.

ثمّ، بعد صمت طويل:

– لقد عاش بأعجوبة..

هبط الليل، وانقشع فجأة أيضاً. في جوّ رمادي، شاهد رقيباً تركياً يبربر مع الشيخ محمود:

– ومن هذا؟

– إنه شخص من عشيرتنا ذبحه أحدهم لثأر قديم.

تفحصه الرقيب طويلاً. لقد أصبحت كعاهرات بحسيتا يا عمر، يتفرّج عليك الداخل والخارج يتفحصونك كمهر مولود حديثاً. سمع الرقيب يسأل:

– لا يوجد إذن أيّة أسلحة؟

– كلا..!

فسمع عمر الرقيب مهدداً:

– أحذركم ... إنّنا نعلم عنكم الشيء الكثير. يحدث في هذا البيت أشياء لا نستسيغها. اليوزباشي يقدّر الشيخ، ويحترمه وهو لا يريد أن يتصرّف معه بخشونة.

فقال الشيخ محمود بانكسار:

– لا بأس... لا بأس.

ثمّ خرجا.

بقي بمفرده. إنّه يعرف أين هو، أراد أن يتحرّك، فلسعه شيء في حلقه. كان جسده متلبداً، أمّا رأسه فقد كان مسمّراً على كتفيه بقسوة، حاول أن يدير رأسه، فردعه الألم. كذا وكذا في أمّ حسين، سوف يقتله ولابد. حالما ينهض من الفراش سوف يبحث عنه، ويقتله. أمّا الآن... أين فريدة...؟ لماذا تركوه وحيداً؟ أين وضع بندقيته؟ ماذا يفعل الأتراك هنا؟ لربما عرفوا شيئاً فجاؤوا يتحرون عنه، أو إنّهم يبحثون عنه، فهو فراري أيضاً، هارب من جيشهم العتيد.

دخلت فريدة، ثمّ أغلقت الباب، وبهدوء الملائكة خلعت عنها عباءتها، وقذفت بها إلى البساط، تربّعت إلى جانبه وهي ومشغولة البال، تمسح وجهها بيديها، وهي تتنهد. لم يرها أبداً بهذا الجمال. لم يرها بريئة وحزينة كما هي عليه اليوم، لقد ازداد جمالها، بل قُل، راح يشع عبر حزنها ووجهها الطفولي وعينيها المظلمتين، كما لم يعهدها كذلك أبداً. كم أنت محظوظ يا عمر، والله إنّها تستأهل أن يذبح الرجال من أجلها.

"سوف آخذها يا حسين وألعن أبوك على أبو اللي خلفوك".

سمعها تنشج بصوت مكتوم وجسدها ينتفض، ثمّ راحت تموء، وتشرق أنفها، حرّك يده، فاستجابت، نقلها ببطء وحطّها على فخذها، فتزلزلت الأرض، إثر صيحة أطلقتها وهي واجفة، حملقت في وجهه بعينين دامعتين مذعورتين واسعتين. حاول أن يرسم بسمة ولكنّه لم يستطع. أمسكت يده، وانهالت عليها تقبيلاً. جعلت تبكي، وتضحك. مسح لها دموعها عن عينيها، وهو يتلقى كلماتها المنطلقة دون نسق وارتباط. قالت له، إنّها ماتت وعاشت مرّات ومرّات. قالت له، يا ليتها ذبحت هي وليس هو. قالت له، إنّها كانت ستقتل نفسها لو مات.

فتح فاهه، ونطق: فريدة. نطقها، فلسعته مئات العقارب في حنجرته. فآثر الصمت. إلاّ أنّها اكتفت باسمها، ينسلّ جريئاً عبر مواعين الدم التي لم تبرأ بعد. ألقت برأسها على صدره، وراحت تمرّغه برطوبة العرق وعفونته، لو سكبوا عليها رطلاً من زيت الورد، لبقيت منجذبة إلى هذه الرائحة ذات الملوحة، لبقيت متشبثة بعمر وبكلّ روائحه القذرة.

سمعته يهمس إليها بصوت ضعيف متدحرج:

– ماذا حدث يا فريدة؟

ولما سمعت صدى صوته المكتوم، ضغطت برأسها على صدره أكثر، وأخبرته بما حصل. الشيخ درويش نادى حسين، وأخبره بقضية عمر وفريدة. كاد حسين يجنّ من الغيرة، حسين دخل، متخفياً بالظلام، فذبح عمر، ثمّ هرب. لا أحد يعرف أين هو، شاهده أحدهم في سوق الشورجة، يقولون إنّه يستعدّ للهرب إلى الحجاز، مثل الآخرين. الكثيرون يهربون إلى الحجاز، الجنود والضباط. والإنكليز أشعلوا الجبهة من دجلة إلى الفرات، يقولون إنّهم يزحفون إلى بغداد، والمسلحون يهربون تحت جنح الظلام، يتركون خنادقهم ويهربون، يسيرون ليلاً، ويلطون مختبئين في الأحراش نهاراً، وحسين في سوق الشورجة، وقاسم هو الذي أنقذك يا عمر، فبقيت عشرة أيام نائماً وفريدة تسقيك الماء والسكر، والعسل الرائب الذي جاء به قاسم، وأنت هنا مستلق كالأطفال. لا تدري بما يجري، تفوح منك، روائح لا قبل لأحد على تحملها، بينما كنت تهذي بالوحوش والأبواب الجرارة وبهية، وأتيت عدّة مرّات على ذكر فريدة التي سرعان ما تضرّج وجهها، ورفرف قلبها، فراحت تنتشق روائحك بامتنان، ثمّ جاؤوا بقاسم الذي أبدل ثيابك وسروالك الداخلي، فأصبح المكوث قربك محمولاً ليوم أو يومين، ثمّ عاد كلّ شيء كما كان..

وفي اليوم التالي سألها وهي تسقيه مرق اللحم:

– وماذا بعد يا فريدة؟

– الشيخ درويش صامت. إنّه لا يتكلّم، لا يقول شيئاً، لا يطلب شيئاً. كيف حدث هذا؟.. الجميع يروحون، ويجيئون يسألونه سؤالاً واحد فقط. ما العمل يا شيخ؟ إلاّ أنّه لا يتفوه بشيء، إنّه يتمتم باستمرار، وبيده مسبحته الطويلة، يداعبها بأصابعه

الراجفة. جاء الشيخ مصطفى والشيخ محمود، وكلّ الشيوخ الذين عرفتهم، ولكنّه لا يجيب على أسئلتهم، فراحوا يتناقشون في غرفته. كلّ يوم يصيحون، ويضجون، فقدوا هدوءهم ورصانتهم، ما العمل؟...

- والشيخ غالب؟

- لم يعد من الحجاز بعد، إنّهم ينتظرونه، ولكنهم بدأوا يدعون للهرب إلى الحجاز. يقولون إنّ ثورة الحجاز ثورتهم. أصبحت ثورتهم بعد أن عجزوا عن القيام بمثلها في العراق... والأتراك..

- ما بهم؟ سأل عمر، فقالت فريدة:

- جاؤوا مرّة أخرى، شيء ما جعلهم يشعرون بما يجري هنا.

فقال وهو يمسح فمه بيده بعد أن شبع:

- لقد حلمت بشيء كهذا.

وفي الأيام التالية علم من الشيوخ، الذين كانوا يدخلون غرفته للسلام عليه، بمدى صمت الشيخ درويش، ومدى ترددهم بما يجب أن يفعلوه، أين أنت يا شيخ غالب، لماذا لا تأت؟

فالشيخ غالب، هو الوحيد الذي يستطيع أن يقودهم الآن، بعد أن علم جيداً بنوايا الشريف حسين والإنكليز.

إلا أن حدة الهجوم الإنكليزي، والسقوط السريع للمواقع التركية، وقدوم شيخ آخر (بأخبار أخرى، مفادها أن الإنكليز احتلوا دورة الخضيري، مما أدى إلى حدوث فراغ هائل أمام الإنكليز)، جعلهم يلتفون حول الشيخ مصطفى الذي كان يمتاز بروح قيادية وقوة شكيمة تجعلانه أهلاً لقيادتهم في حال غياب الشيخ درويش والشيخ غالب.

وما إن استطاع عمر التخلص من دوران الرأس الناتج عن فقر الدم حتى تمكّن من النهوض من فراشه ومشاركتهم اجتماعاتهم في غرفة الشيخ درويش، الذي انتقل إلى غرفة فريدة. هناك اتّخذوا قراراً بالسفر إلى الحجاز في اليوم الأول من شباط مع أسرهم، ومن يرغب من رجال العشائر الذين "تعبوا معهم كثيراً".

إلا أنّ عمر رفض الرحيل. قال لهم: ارحلوا أنتم! كيف سيذهب، ويترك فريدة

والشيخ درويش؟ كيف سيذهب، ويترك حسين طليقاً في بغداد دون عقاب؟ اللعنة عليك يا حسين! أين ستهرب من عمر، أين ستهرب منه؟ لقد أصبحت هاجسه الذي راح يقض مضجعه.

وما إن اتفق الشيوخ حتى هرعوا في كلّ الجهات، بعد أن عانق بعضهم بعضاً، وقبّلوا يد الشيخ درويش الباردة بانهزام شديد.

* * *

وقفت فريدة تشيّعه بنظرها. وقفت مستندة إلى عيدان السياج ترقبه، وهو ينقل قدميه ببطء، قاصداً بيت قاسم. كم تغيّر عمر؟ نظرت إلى قامته التي احدودبت قليلاً وإلى رأسه المائل أبداً إلى اليسار. نبشت صورته من ذاكرتها، إلا أنّها لم تكن في مجال مقارنة عمر اليوم بعمر الأمس. بل إنّ عمر الحاضر، عمر الذي يسير ببطء مبتعداً عنها، هو الذي يسبب لها خفقاناً قوياً في صدرها، وليس أيّ عمر آخر سواء كان في ذاكرتها أو في ظلمات أحلامها.

هبّت نسمة باردة قارصة، فشدّت عباءتها، وغطّت رأسها بفروتها. مسحت أنفها المحمر بإصبعيها وهي تعاند نسمة شباط الباردة. لن تدخل حتّى يغيب عن ناظريها. لقد اعتادت عليه، بل قل أصبح عمر جزءاً منها، وأضحت هي متعجبة كيف يمكن أن يسير الآن بمفرده من دون أن تكون بقربه يتكئ عليها.

يا للحبّ الرائع، يا لخفقان القلب للحبيب المتوحد. كم تحبّه!... ذاك الذي كاد يضحي بحياته من أجلها. كاد يذبح بصمت، مثل نعجة مسكينة بسببها. هل يوجد شيء أروع من هذا؟ ورغم أنّه أقنعها، أنّه لن يغيب أكثر من ساعة، أنّه لن يتركها وحيدة، أكثر من برهة، إلاّ أنّها راحت تسبح في الوساوس وخفقان القلب وعرق الجسد في عز الشتاء، لا لشيء إلاّ لأنّه أصبح ملكها، وأصبحت ملكه، أصبحا شخصاً واحداً، لا يمكن لأيّ قوة على وجه البسيطة أن تفصلهما عن بعضهما.

ولج بستان قاسم، مشى على الدرب المرصوف بإتقان. كان السكون يلفّ أشجار النخيل والنارنج المتعانقة بينما كانت سعف النخيل تتمايل بهدوء العجائز لتعانق الغيوم السوداء الواطئة. دفع الباب، فانزاح يئز بحزن، طرقه فلم يجد أحداً.

ولج الدهليز، فوصله صوت قاسم من إحدى الغرف وهو يصيح بأمّه:

- قسماً بالله العظيم أنني سأغرقها في دجلة.. اللعنة على هذه القطط المقرفة!

فسمع صوت الأمّ الرفيع:

- لن تفعل ذلك.. سوف أكسر لك يديك إن لمستها!

- لقد سئمت كلّ هذه القطط... ألا تكفي واحدة؟!

- لا تكفي!

- خرب مذهبك!

- خرب مذهبك!

- اللعنة عليك وعليها!

- اللعنة عليك أيّها الولد العاق.

وقبل أن يدفع عمر الباب، سمعها تبصق في وجه ابنها.

أجلسه قاسم على الفراش الممدود، وهو يمسح عن وجهه آثار بصقة أمّه. وضعت على رأسها خرقة، ثمّ اقتربت من عمر، فلاحظ جحوظ عينيها. اقتربت أكثر وهي تعاينه، ثمّ تمتمت:

- ماذا فعل بك ابن الزانية؟ يا له من ابن حرام.. ابن الفاعلة.

كان الشقّ الملتحم قد رُسم أحمرَ، بعرض الرقبة وقد مال إلى الأسفل، وكان هناك تقيح بسيط في الجانب الأعلى. أمّا الطرف السفلي، فقد انغرس في شعر الصدر الزاحف إلى الرقبة. ابتسم عمر، فبان تشويه الفم. كان شعر اللحية النامي يغطي انزياح الفك السفلي عن العلوي، فالتوت الشفة السفلى، ومال الرأس إلى اليسار.

راحت أم قاسم تصفق يداً بيد وهي تعاين التشوه الذي لحق بعمر. تمتمت تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ثمّ راحت تطلق بعض الشتائم البذيئة التي تخجل عادة من ذكرها النساء. وعندما نظرت في عينيه صدمتها نظراته الغريبة التي سكنت مقلتيه منذ الحادث. شيء من البأس، شيء من القسوة التي لا تجدها إلا عند الرجال الذي قدّوا من حجر.

إنّها تعرف عمر، جاء إليهم مرّات عديدة، ولكنّها لن تصدق أحداً يقول إن هذا الشخص هو عمر بالذات.

زجرها قاسم، فهرعت تحضر قنينة عرق وشيئاً يؤكل. صبَّ قدحين، ثمّ، بصحتك، بصحتك، فكرعا ما فيهما وتمزمزا. أما عمر فقد أراد من شرب قدحه مرّة واحدة، أن يبدّل أسلوب تعامله مع العرق لحاجة ماسة، شرع يحسّ بها أخيراً. التقط قاسم جريدة تركية عتيقة، وراح يلفّ سيجارتين، ثمّ قال:

- كيف حالك الآن؟
- لا بأس، ولكني أبذل جهداً أكبر حينما أتحدّث.
- سيكون الأمر أفضل في المستقبل.

ثمّ غمز بعينيه، واستطرد:

- أصحابنا ... اللآلئ..
- ما بهم؟
- إنّهم يخسرون الحرب.
- هل عندك أخبار جديدة؟

أشعل لعمر سيجارته، ثمّ قال:

- خسر الأتراك دورة الخضيري، وتخلّوا عن منطقة (قرق غازيلر). خسائرهم بالآلاف والرجال عادوا للهرب من صفوفهم. بالأمس أخبرني أحد الفارين أنّ ضفة دجلة اليمنى، أصبحت نظيفة من العثمانيين، بعد أن احتلّ الإنكليز ضفتي نهر الفرات، وقضوا على القوة التركية المتبقية في "دورة بشارة".

- قال لي أحد الشيوخ إنّه إذا استطاع الإنكليز احتلال نهر الفرات فإنّهم سيحاولون عبور دجلة عند "بيت شمران" وستكون بغداد في مرمى مدافعهم بعد حين.

- هذا صحيح... إنّني أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.

قطّب عمر، ثمّ راح يمتص دخان سيجارته بصمت. إنّه يكره سماع هذه التمنيات، فالإنكليز يبقون إنكليز مهما جرى، ولكنّه مقتنع أنّ أقوال قاسم لها ما يبررها رغم كلّ ما يشعر به من إساءة، ورغم شعوره أنّهم هناك في الحجاز يعتبرونهم جحاشاً غبية يمكن خداعها بسهولة.

- فيم تفكر؟

فقال عمر ينفث دخانه الذي يدغدغ حنجرته:

- لا شيء... جئتك لنتدارس معاً أمراً يشغل فكري.

- قل ما هو!

- حسين.

- ما به؟

- أريد أن تساعدني كي أجده. أنت تعرف بغداد جيداً، يقولون إنّه مقيم في سوق الشورجة.

- ماذا تريد منه؟

همس عمر، وهو يرقب الباب:

- أريد أن أقتله!

تبسّم قاسم، وراح يهرش رأسه. هكذا إذن...! الدب الصغير كبر، وأصبح دباً كبيراً، عمر يريد قتل حسين، يريد الثأر لنفسه. صبّ من جديد العرق في القدحين، وراحا يرشفان. قاسم راح يعبّ العرق برشفات سريعة. أمّا عمر فكان يتطلّع إليه بإصرار، وقد شع في عينيه شيء لا يبشر بالأمان. سمعه يكرر:

- سأذبحه بالسكين يا قاسم!

- اتركه في حاله يا رجل!

- أنت تقول ذلك لأنك خائف.

قطب قاسم هذه المرة. تابع عمر:

- إن رفضت يا قاسم، فسأبحث عنه بمفردي وأقتله.

اللعنة عليك يا عمر، كم تغيرت؟ هل تذكر نفسك كم كنت لطيفاً حين تقابلنا أول مرة؟ هل يستطيع قاسم أن يتآمر على قتل إنسان؟ شيء عادي، حسين قاتل، وعلى القاتل أن يُقتل، وحسين ذبح عمر وعمر لم يمت ولكنه عاش بالكاد، ولولا لطف الله لكان الآن مدفوناً تحت التراب، ولماذا عليه أن يرفض مساعدته، فعمر صديق، بل أخ، وهو غير مسؤول عن نفسه لأنّه تبدل هكذا. حسين هو البادئ، والبادئ أظلم، والأظلم في آخر المطاف، ظالم، ودم الظالم حلال.

رفع قدحه، وقال:

– دم حسين حلال، سأشرب نخب تنظيف العالم من حسين.

شرب عمر قدحه حتى الثمالة، كعبه أبيض، فاحمرّت عيناه كأنهما غسلتا بالدم. سمع قاسم يسأل:

– متى؟

– غداً صباحاً.

– لا بأس.. سأكون في انتظارك.

أفرغا القنينة في جوفيهما، والتهما أطباق أم قاسم، ثمّ انطلق عمر عائداً بعد أن تعانقا. غداً سوف يصفي حسابه مع حسين، هذا الكلام ليس من تأثير الكحول في الرأس، بل إنّ كلّ ما عمله هو خدر في الأطراف، وخمول في اللسان، ونشوة عارمة تموج في دماغه وصدره، نشوة يمتلكها لأوّل مرّة في حياته، نشوة تتحوّل إلى شجاعة وشهوة، تتحوّل إلى دفق هائل في العروق.

حاول أن يصفر لحناً جميلاً إلاّ أنّه اكتشف استحالة ذلك. اقترب من سياج بستان الشيخ درويش، وهو يهز رأسه المائل بالتناغم مع خطواته التي جعلها توقع اللحن ذاته. ما الذي جعلك سعيداً يا عمر؟... إنّه قراره بحذف حسين من الوجود! إنّها الشجاعة التي أصبح يمتلكها، والتي جعلته يقرر ذلك.

فوجئ بفريدة تخرج عليه من الظلام، كانت تنتظره في البستان، ملتحفة بعباءتها السميكة، ماذا تفعلين هنا يا فريدة؟ لماذا تقفين هكذا في الظلام؟ البرد شديد؟!

اقتربت منه، أخذت ذراعه، وجعلته يتكئ عليها. تركها تفعل ما تريد، فهمست له:

– تأخرت عليّ يا عمر، تأخرت عليّ أيّها العزيز. راودتني كلّ الأفكار الشريرة. أنا لم أعد أطيق الابتعاد عنك. سأكون ظلّك... خذني معك إلى أيّ مكان ولكن لا تنفصل عني!

ثمّ أطلقت تنهيدة كانت حبيسة منذ عهد بعيد، ووصلت إلى خياشيمها رائحة العرق والبصل والتبغ التي كان ينفثها بقوة. افعل ما تريد، اشرب ما يحلو لك فأنت

رجلي، فأنت فحلي، أنت سيدي وتاج راسي. دلفا إلى غرفته وهي مازالت ملتصقة به. استلقى في فراشه وهو يشعر بلذة دفء الغرفة. أشعلت فريدة السراج، ثمّ اقتربت منه، وقد انسدل شعرها الليلي الفاحم، يحيط بعنقها الذي يفوح بعطر زهر النارنج. تربّعت إلى جانبه، كان ينظر إلى نجم متألق بحرارة، عبر النافذة، بعد أن انقشعت عنه كتل الغيوم الشتائية المكدرة. خلعت له حذاءه، ثمّ راحت تمسح على قدميه الباردتين، فأحسّ بحرارة يديها عبر خشونة قدميه. ثمّ ساعدته في خلع معطفه العسكري، وعندما عاد مستلقياً، يتابع بنظره توهج النجم الذي أحسّ نحوه بمودة كبيرة، شعر بملمس شفتيها على خده وجبهته، ثمّ أعلى أذنه. أغمض عينيه، فسافرت الشفتان إلى جفنه الأيسر فالأيمن. وبينما كانت شفتاها تحومان على وجهه وعنقه تبحثان عن شفتيه المنفصلتين بشكل لعين، اجتاحته موجة رغبة ترن في الرأس. رغبة للحبّ، رغبة للعيش، رغبة تجعله ينسى نصل السكين، وهو يحز رقبته، ويقطّع لحمه. تجعله يكره الحرب البشعة، ورجال العثمانلي، والشوارع المقطوعة بالحبال والرجال، والكذب ولحس البصقة، و"بدنة"، وأخيراً الإنكليز، فالتقطها.

تأوهت لخشونته إلاّ أنّها تعلّقت بكتفيه، وألصقت جسدها به، راحت تتمتم، تبربر، وهو يغوص في اليم المعطر الشهي الذي كانت تعطيه له بكلّ خاطر، بل إنّها كانت تشدّ رأسه كي تلتصق شفتاه، بقوة أكثر، بعنقها وشفتيها.

قالت له، أحبك، قالت، أعبدك، ثمّ قالت اسحقني، ثمّ قالت افهمني، وأخيراً قالت خذني!

وفي الصباح الباكر ساعدته في ارتداء ثيابه، ثمّ غسلت دم عذريتها الذي علق في الفراش. أمسك يدها، وولجا غرفتها حيث كان الشيخ درويش متربعاً، غائباً يعبث بمسبحته وهو يتمتم أدعيته. اقتربا منه، ثم ركع عمر أمامه، وأحاط يد الشيخ الراجفة براحتيه، ثمّ قال:

- يا شيخي... هل لي من وقتك دقيقة؟

فقال الشيخ درويش بصوته العميق الدافئ:

- ماذا تريد يا عمر؟

- أريد أن تكتب كتابي على فريدة... الآن؟

رفع الشيخ عينيه عن الأرض فلاحظ عمر احمرارهما. كانتا دامعتين من دون حياة. كأنّهما ستنطفئان بعد لحظة، أما الوجه فقد انطفأ منذ زمن بعيد.

هز الشيخ رأسه، فركعت فريدة أيضاً. قرأ الفاتحة، تلعثم أثناءها، تلا عليهما حديث الرسول عن النكاح. سألها إن كانت موافقة، قالت: بلى يا جدي، سأله، حدد المهر، عمر لا يملك مالاً، هرعت فريدة إلى صندوق خشبي يخصها، فأخرجت منه ورقة بنكنوت، وسلّمتها لعمر. عمر دفعها بدوره إليها. أعاد الشيخ قراءة الفاتحة، ثمّ أعلنهما زوجاً وزوجة على سنة الله ورسوله. انكبت على يد جدها تغمرها بالقبل، ثمّ عانقته. قبّل عمر يده أيضاً، ثم سمعه يهمس إليهما قائلاً:

- اذهبا الآن واستلقيا في غرفتكما.

خرجا، لم يعودا إلى الفراش، بل أخرج عمر بندقيته، ثمّ أخرج الحصان من الزريبة، وأسرجه. ألقت برأسها على صدره، ثمّ راحت تنشج. حاولت أن تثنيه عن فعلته. قالت له، إنّها تتوجس شراً، وأنّ عليه أن ينسى حسين وفعلة حسين، وأنّها خائفة عليه. إلاّ أنّه أبعدها عنه. اعتلى صهوة الحصان، همزه بكعبيه، فتحرّك، تعلّقت فريدة بالسرج، كانت تتوسل، تبكي، تخاف أن تفقده بعد أن أصبح لها. تعثرت، سقطت ويدها مازالت ممدودة نحوه. ارجع يا عمر! أنا خائفة يا عمر، وداعتك أنا خائفة يا عمر!!

همز كفل الحصان، فراح يعدو خبباً، قاذفاً بحوافره قطع الطين إلى الخلف، منطلقاً بحزم. وعمر يكزّ على أسنانه بعنف غير آبه لتوسلات زوجته الثانية.

* * *

5

- هل يعيش هنا الشيخ حسين؟
- بلى أيها السيد.
- أين هو؟

فأجاب الشيخ ذو الثمانين عاماً، وهو يتكئ على الجدار كيما يسقط من الإعياء:

- قال إنه سيغيب يومين أو ثلاثة، سافر إلى تكريت، أراد أن يودع أطفاله قبل أن يرحل، سمعته يتحدّث مع أحدهم، قال له إنه سيرحل إلى الحجاز..
- حسناً.. حسناً.

تمتم قاسم، ثمّ تطلع متسائلاً في عيني عمر. ماذا بعد... ماذا تريد أن تفعل يا عمر؟!

- اسمع أيّها الشيخ الطيب، هل نستطيع أن ننتظره هنا؟ ... سوف نسافر إلى الحجاز معاً. تفرّس الشيخ في وجه عمر، ثمّ قال له:
- هيا.. لا بأس... أدخلا... أدخلا!

دخل عمر، قاده الشيخ إلى غرفة حسين التي أجّرها له بمجيدي فضة، أمّا قاسم فقد خرج يجد مأوى للحصانين.

استلقى عمر على الفراش منهكاً، لقد أعياه البحث عن سكن حسين، أمضيا يومين في البحث حتى وجداه في أحد أزقة سوق الشورجة الواسع. سألا مئات العطارين والدكانجية وعشرات المتسولين والعسس. وقبل أن يفقدا الأمل قاما بمقايضة بندقية عمر المارتينلي بمسدس كسر ومسدس بَلْدكَ الصغير، فقد كان منظر البندقية الملفوفة يثير الشبهات، وعندما قررا إيقاف البحث والخروج من السوق، أوقفا أحد الصبيان، سألاه عن الشيخ ذي الوجه المجدور. عرفه الصبي: سأل: هل هو بدين؟ فأجاب عمر: نعم!... فقال الصبي، وهو يبتسم زهواً: إنّي أعرفه يا عم. ثمّ قادهما إلى أحد الأزقة وهناك طرق أحد الأبواب، البيت من طابقين ذي كشك خشبي متداع. ولهذا السبب بالذات نقده قاسم قرشاً كاملاً.

هل سيتأخر... هل سيأتي حسين، ذلك الجزار اللعين؟ ولكنّهما مكثا ثلاثة

أيام كاملة دون أن يطل. هل يلحقا به إلى تكريت، أم أنه من الحكمة انتظاره هنا، خصوصاً وأنّه ترك حاجياته لدى العجوز، وأخبره أنه عائد لا محالة لأخذها، ثمّ الرحيل إلى الحجاز؟ إلاّ أنّ عمر أصرّ على الانتظار. أصرّ على عدم الخروج رغم أن قاسماً راح يتذمر من المكوث في الغرفة دون عمل أو ثرثرة أو عرق، فمكثا ثلاثة أيام أخر. كان قاسم يخرج صباحاً، ولا يعود إلا في المساء. كان يذهب إلى مقهى وهب عند باب القلعة يتسقط الأخبار، والثرثرات، ثمّ يعود ليلوكها مرّات عديدة أمام عمر الذي كان قد أمضى يومه منتظراً، قابعاً قرب الباب كالكلب، متوفزاً، قابضاً على مقبض مسدسه، وقد حشاه بسبع رصاصات، يحلم، طوال الوقت، كيف سيفرغها جميعها في رأس ذلك الدب المجدور.

همس قاسم في أذن عمر بعد أن فرغا من إطعام الشيخ العجوز، الذي كان يغص، ويكاد يختنق لدى ابتلاع كلّ لقمة:

– هل ستنتظر عشرة أيام أخر؟ أرى أن نعود إلى بيوتنا. لا معنى لانتظارنا إياه كلّ هذه المدّة. وداعة أبوك، هيا نرحل، لقد سئمت الموضوع، وسئمت حسين!

– لن أرحل حتى أقتله!

ابتسم قاسم بسمة صفراوية، وقال:

– وإن كان قد رحل؟

أحسّ عمر بالسخرية، فامتعض. اذهب أنت إن أردت، فسأقتله بمفردي! وكأنّه لم يسمع، بقي يرقب بؤبؤي عيني عمر. يا للرجل العنيد، من أين جاء كلّ هذا العناد؟ لقد أصبحت كالبغل يا أخ! عشرة أيام، لقد سئم قاسم بينما بقي عمر تيساً أكيداً.

– أرى أن نتركه وشأنه.

قال قاسم، ثمّ راح يلفّ سيجارة كي لا تلتقي عيناه بعينيه المجنونتين. لفّهما الصمت، وتراقصت ظلالهما على الجدران العارية، إثر هبوب نسمة على السراج. أشعل قاسم سيجارته، ثمّ انبطح على فراشه، وراح يمج دخانها بمصات سريعة حتى عبقت الغرفة، راح يرقب وجه عمر المتجهم لعله يسبر غوره. عمر لم يعد مفهوماً. لم يعد واضحاً كما في الماضي، لو كان قاسم مكانه لنسي حسين، خصوصاً أنّه

حاز على ما يريد. أخذ فريدة وانتهى. كسب معركته... يبقى الآن أن يبطح فريدة على الفراش ويغرق في لذة مضاجعتها، أما أن يتركها ويرحل عنها باحثاً عن ذاك المسخ فهذا لم يعد مفهوماً لقاسم. وماذا لو حدث العكس، لو استطاع حسين أن يقتل عمر هذه المرة؟ فإن عمر سيخسر كثيراً. سيخسر نفسه وسيخسر فريدة؟ يا لك من أبله يا عمر..!

– أرى أنك تضيع وقتك.

زاوره بعينيه. إلاّ أنّ قاسماً تابع غارساً عينيه في سقف الغرفة:

– عد إلى فريدة، إنّها في انتظارك. ثمّ إنّك لست في حاجة لقتله، فقريباً سترحلان إلى حلب.

– لن أرحل قبل أن أقابله.

– وماذا ستكسب من ذلك؟

– أنت يا قاسم لا تفهمني، ارحل إن شئت، فأنا لا أستطيع أن أفكّر بطريقتك... ماذا سأكسب ماذا سأخسر؟ لقد أصبحت بليداً. هنا (دق على صدره) يقبع شيء يؤرقني، يضغط على تنفسي. فأنا أختنق، أكاد أموت، أشعر أنّني حشرة لا قيمة لها، ولن أرتاح حتى أقتله، حتى أسمع شخيره وهو يلفظ آخر أنفاسه. هل فهمت؟ أنت لا تفهم أبداً يا... نهض عمر، وهجم على قاسم. التقطه من سترته، وبقوة مدهشة شدّه إلى الأعلى، وبعينين جاحظتين وفم ملتو صاح في وجهه:

– هيا... ارحل عني، لا تريني وجهك بعد الآن!

إلا أنهما تعانقا بعد دقائق، وقاسم يقول:

– لا بأس عليك يا أخي، لن أتركك، اهدأ أرجوك!...

أهدأ. عاد، واستلقى على فراشه، وهو يزفر. لعنة الله على الشيطان.

في اليوم التالي، عاد قاسم مسرعاً وهو يلهث. ماذا حدث يا قاسم؟ انتظر حتى التقط أنفاسه، ثمّ قال لعمر الذي كان ممسكاً بصفيحة ملآنة حتى النصف ببول العجوز المطروح على فراشه:

– الدنيا قايمة قاعدة!

– ماذا حدث؟

– الإنكليز يقتربون من بغداد، لقد استطاعوا عبور دجلة في بيت شمران، وهم الآن يتحرّكون على ضفتي دجلة بقوات هائلة. الفيلق 18 التركي ينسحب أمامهم وقد دخل بغداد أثناء الليل. وهناك قوات تركية أخرى تدخل من الشمال، يقولون إنّ بعض قوات الفرقة السادسة من الفيلق الثالث عشر قد وصلت من إيران. ألم أقل لك الدنيا قايمة قاعدة؟ ... هيا اخرج، وتفرّج! سأبقى هنا... لا تخف، لن يفلت مني حسين إن وصل في غيابك.

فكّر عمر قليلاً، ثمّ شرع يرتدي معطفه. قال قبل أن يخرج:

– أطعم العجوز شيئاً، سيموت هذا الرجل، لا أعلم كيف بقي حياً قبل أن نجيء!

خرج، سار في الزقاق، ثمّ انعطف إلى سوق الشورجة القديم. شاهد بعض العطارين يقفلون أبواب دكاكينهم، وهم يثرثرون. سمع شاباً يقلّد الشيوخ: اللهم سترك، الله يستر..! اصطدم به حمار، وقريباً من الإجزخانة رأى عدداً من الرجال المتجمهرين حول شاويش تركي قوي البنية:

– إذن... فأنتم تهربون.

– لا شيء من هذا، سوف نقاوم، لن نترك لهم بغداد.

– ما معنى لن تتركوها؟

– سوف ترى!

ثمّ انبرى تاجر قائلاً:

– قل لي أيّها الشاويش هل سيقصفون بغداد؟

– ربّما

– لعنة الله عليكم!

ضحك الناس، وهم يرنون إلى الشاويش، فسأل الأخير:

– لماذا نحن؟

أنتم جبناء أكثر من حريمي، هيا أخرجوا إليهم! ماذا تفعلون هنا في بغداد فجأة تصبحون مهذبين وخجولين، كأنّ أحدهم كشف لكم عن عوراتكم.

وفجأة سمعوا زعيقاً غير بعيد عنهم، كان أحد الشيوخ يدبّ متكئاً على عكاز

يفوقه طولاً يجأر بصوت قوي:

– هولاكو... هولاكو...

كان يشبه الشيخ درويش، بل إنّ عمر حسبه بادئ الأمر الشيخ درويش. اقترب الشيخ من الجمع، وقد جحظت عيناه من الهلع، وقال:

– التاريخ يعيد نفسه، ها هو هولاكو قادم، السلام على بغداد، سوف تحرق، سوف تهدّم. دجلة سيسوّد من جديد.

هز قبضته في وجه الشاويش، وهو يلعن:

– اللعنة... اللعنة على آبائكم!

انسحب الشاويش بهدوء، وغذّ السير مبتعداً. تركهم عمر، ثمّ ما لبث أن خرج من السوق. بعد نصف ساعة، كان يدبُّ في شارع الميدان المزدحم بالجنود والرجال والأطفال، إنّه يوم الحشر، الجميع يتحرّكون في كلّ الاتجاهات. المدافع والبغال والجنود المعفرون بالأتربة، والجنود الداخلون إلى المدينة من الشمال والذين لم يتعفروا ولم تسوّد بشراتهم وألبستهم بسخام قنابل المدافع بعد. مرّ بمحاذاة صفّ طويل من العربات، ألقى نظرة على إحداها. كان يقبع في عمقها ثلاثة جرحى يئن أحدهم. التقت عيناه بعينين وحشيتين مبيضتين. ماء. اسقني ماء...! تطلع حوله، عليه أن يجد وعاء... أين؟

شاهد جندياً يحمل مطرة، إلاّ أنّ الجندي ردعه، قال له إنّه سيموت إن شرب ماء، سينزف بغزارة أكثر.

– لماذا لا ترسلوهم إلى المستشفى.

– المستشفيات تغص بالجرحى، لا توجد أمكنة، المستشفى العسكري مليء، (ومستشفى الغرباء) يكاد لا يتسع لقملة. اتركنا في حالنا يا رجل!

سار باتّجاه باب المعظم، كانت دوائر الحكومة تفرّغ من محتوياتها، إنّهم يهربون، ثمّ شاهد عشرات النساء ملتحفات بالسواد يبحثن عن رجالهن، إحداهن كانت تولول، وهي تصفق يداً بيد. ثمّ شاهدها تمزق ثوبها بعد أن قذفت بعباءتها أرضاً، وعندما لم يتجاوب ثوبها راحت تقطع شعرها. هل ثكلت أم رملت؟ .. بصق أراد الهرب من كلّ شيء، اللعنة على كلّ شيء، اللعنة على هذه الدّنيا الحقيرة! بصق

مرّة أخرى.

إنّهم يهربون، تحرّكت العربات الملأى بالوثائق وهي تطقطق، كان بعض الصبيان يتضاحكون، وهم يصفقون، ويغنون "نريه كدرسن يا بيك"* ثمّ راحوا يتراكضون حول العربات، وتجاسر أحدهم، وقذفها بحجر، ثمّ فرّ هارباً.

اقترب منه أحد الشيوخ وقدّم له نصف صموت متيبس. حسبه متسول. أشفق عليه. كان منظره يستدعي الإشفاق هز رأسه شاكراً الشيخ الذي أسرع بالابتعاد وهو يبتسم له. هل فعلاً، يدعو للرثاء؟

سمع همساً قريباً:

- سوف نهرب!

- خرب مذهبك، أين ستهرب؟

- إلى جهنم الحمرا ولكن لن نبقى هنا!

- خرب مذهبك، أينما هربت ستلاحقك الحرب!

- بل سأختبئ في بيت أبي، امرأة أبي ستخبئني.

- خرب مذهبك، أنا أفضّل الحرب على امرأة أبي.

- إنها طيبة القلب، أنت لا تعرفها، أراد يوماً أن تزوجني ابنة أختها.

- خرب مذهبك، ابنة أختها أيضاً، يا لك من مسكين؟!

- لعنة الله عليك... أنت تشعرني بالقرف حينما أتحدّث إليك!

ابتعد عمر وهو يشعر بالقرف أيضاً.

وصل بالكاد إلى قلعة المدفعية. كانت الدنيا قايمة قاعدة. مئات الجنود المنتظرين مئات الأوامر الجديدة، ولكن دون أن ينصاعوا لأمر واحد. كانوا متجمهرين جماعات جماعات، وهم يلوكون آخر الأخبار والإشاعات.

- شوكت بيك أكل خراءه أخيراً.

- يقولون إن قائد الجيش السادس خليل باشا يرتب للإنكليز كميناً محترماً في بغداد.

- الجرب هنا وجيش الأتراك في إيران. أليس هذا ذكاء باهر؟

* – أغنية تركية كانت شائعة آنذاك في بغداد. معناها: "أين أنت ذاهب يا بيك؟"

- يا شباب... يقولون إنهم سيعيدوننا إلى بيوتنا... قولوا إن شاء الله!
- إن شاء الله سيعيدونك إلى فرج أمك.
- هيا يا رجل... لا تكن بذيء الكلام!
- خوش يابه، عندما تكف عن التنفيس.
- انظروا ... انظروا إلى الأتراك كيف ينفردون بأنفسهم!
- لقد أكلوا علقة محترمة.
- بيس ملّت ... بيس ملّت ... هأ .. هأ.. هأ...
- يا شباب، هذه هي آخر الحروب، لن يلبث السلم أن يحلَّ أخيراً، سوف تعودون إلى بيوتكم لتزرعوا أراضيكم، وتضاجعوا نساءكم، تصوروا كم هو رائع. لن تحاربوا بعد الآن، لن تُقصفوا بالقنابل والخراطيش، عندي شعور بذلك، وأنا أراهنكم على صحة هذا الكلام..
- اسكت أيها الفيلسوف اللعين، ما هذا الهراء؟! ألا ترى الإنكليز خلفنا؟
- الإنكليز ليسوا مشكلة.
- كيف ذلك؟
- الإنكليز متمدنون.
- لا علاقة للتمدن بذلك.
- كلّ ما هنالك أنّ الإنكليز يحاربون الأتراك وليس العرب.
- الأتراك وليس العرب... آ؟

ثمّ صاح بملء فمه:

- لعنة الله عليك وعلى الإنكليز وعلى الأتراك.

نهض عريف تركي عن طوب "أبي خزامة". اقترب من الجمع. قبض على الرجل الذي لعن الأتراك، وأدخله القلعة. صمت الجند، وهم يرقبون ذلك بأعين حائرة، فابتعد عمر عنهم عائداً إلى سوق الشورجة بعد أن وجد مقهى وهب مقفلاً.

دلف إلى الغرفة، فألفى قاسماً وقد علا غطيطه. أشعل السراج، ثمّ خرج ليستطلع أمر العجوز. كانت غرفته تسبح في العتمة المغبشة للغروب وقد عبقت برائحة بولية حامضة، بينما تسمع بوضوح حشرجة مكتومة من حنجرته. ما يزال

حياً.

لم يأت حسين. عاد إلى غرفته، خلع بنطاله العسكري، ثمّ دسّ مسدسه الكسر تحت المخدة، واستلقى على فراشه الصلب. ما رأيك يا عمر... ما رأيك بكلّ هذا الذي يجري؟ هل من الضروري قتل حسين؟ أحسّ أنّ موضوعه الذي يشغل فكره أصبح سخيفاً. قتل حسين لم يعد شيئاً ذا أهمية. كيف أخذته الحمية بهذا الشكل؟

الجرح في رقبته قد التأم، والجرح الذي كان ينزف داخله توقف عن النزيف. إنه يشعر بذلك. يجب عليه أن يرحل من هنا، أن يأخذ فريدة، ويرحل إلى حلب. هذه فكرة لا بأس بها، ثمّ عليه أن ينسى صورة جريح العربة التي أخذت تطارده.

طلب منه ماء، أواه أيها الجندي.. كيف كنت تشعر حينما طلبت الماء. وعيناك، أيّ بؤس رهيب يصدر عنهما. لماذا نظر في عينيه؟ إنّهما تلاحقانه.

وكيف كانت عيناك أنت يا عمر حينما كان يذبحك حسين؟ حينما كان يحز بسكينه جلدة رقبتك الناعمة؟ انتابته رجفة عنيفة خضّت كيانه، وانتصب شعر جسده. كم يعذبه ذلك، هل سيرتاح إذا ما قام بقتل حسين؟ هل سيغيب ذلك الإحساس بالذل والمهانة إن فعل؟ هل سيزول التشوه العنيف من رقبته وفكه؟ على الأقل، إن قتله، ستستوي النفس إن لم يستوِ الجسد. سمع صوت الباب الخارجي ينصفق، فتوفزت أعصابه، ونشف فمه، وتسارعت أنفاسه، وتسارعت دقات قلبه، عرقت يداه، ثمّ أحسّ بخوف هائل في صدره. وتسارعت أفكاره، مدّ يده، والتقط المسدس، وهو يكزّ على جزء من أسنانه، لقّمه وهو يرتجف، وأحسّ بالعرق يسيل من صدغيه. خبطات الأقدام خارج الغرفة تنعكس على جسده. أوقف لهاثه، وازدرد ريقه. طقّت حنجرته وآلمته. هل يقتله؟ لا يقتله؟ لن يقتله! بل سيقتله! ذباح البشر، ذباح عمر، حسين والإنكليز والأتراك. من أجله ومن أجل العيون البيضاء في العربة. من أجل الرجل المسحوب إلى القلعة، انفرج الباب بأزيز يصمُّ الآذان، ابن الكلبة، واحدة اثنتان، ثلاث، ابن العاهرة، أربع خمس... دوي هائل أعقبه طنين في الأذنين، خرقته صرخة، بل صرختين، وارتطم جسد ممتلئ بالأرض، وجاءته رائحة البارود المخرشة، انتفض الجسد مرّات ومرّات حتّى همد.

سمع صوت قاسم المذعور:

– لقد قتلت حسين، مات حسين، قتلته أخيراً...!

* * *

مات حسين، قتله بسهولة غير متوقعة. عمل بسيط، سهل، انزاحت بفعله مئات الغمامات عن صدره ورأسه. جعل يراقب الجثة السابحة في دمها، أراد أن يبقى هكذا، ينظر إليها إلى الأبد. يغرس عينيه في عيني حسين المفتوحتين، الجاحظتين المرعوبتين. في الماضي، عندما كانوا يطلقون النار على الإنكليز من الخنادق في كوت العمارة، كان يشعر بخوف، بهلع شديد من أن يقتل أو يُقتل، الاثنين معاً، ورغم انه أطلق الرصاص وأصاب إنكليزياً أو اثنين، إلا انه لم يفهم الموت، لم يفهم فعل الإماتة. مات وحيد الأسدي، مات عبد المهيمن، ماتت الممرضة وفي الماضي السحيق ماتت أمه ومات أبوه وماتت امرأة خاله، الذي أخذه ليعيش عنده، وآخرون كثيرون عرفهم ولم يعرفهم، إلاّ أنّه لم يفهم ذلك إلاّ في هذه اللحظة، وهو يقف فوق جثة هذا الكلب حسين، غريمه، عدوه، الذي أراد هذه الحرب، وخرج منها ميتاً.

التأم الجرح في داخله إلى الأبد، ولكن السخافة طبعت كلّ شيء. البلاهة. ما قيمة الأشياء ما قيمة الرغبة؟ كيف يتولد الحقد؟؟ لا تجعلني مظلوماً... تجعلني ... كلّ شيء لا قيمة له، كلّ شيء قابل لأن يكون بلا قيمة ولكن إياك أن تجعل إنساناً يحقد، فهذا سيكون بداية الصعود. شدّه قاسم من ساعده، وأخرجه، وعندما دخلا على الشيخ العجوز وجداه ميتاً، من الخوف مات أم ماذا؟

وعندما عاد إلى بيت الشيخ درويش وأصوات الانفجارات تلاحقهما، وجدا الشيخ درويش أيضاً قد مات. كان ينتفض والزبد يخرج من فمه، عندما كان يسمع أصوات انفجارات القنابل، قبل أن يسلم الروح.

فريدة كانت تبكي، تلطم، تمزق ثيابها، مات الجد العظيم. مات أيضاً وهو يسمع أصوات الانفجارات، مات لأنّ أبواب بغداد انفتحت للإنكليز في تلك الليلة. دخلوها في الصباح عبر باب "المعظم" الذي يعرفه عمر جيداً.

يا للهول، هل كان الشيخ درويش سيموت لو أنّهم لم يذهبوا إلى بدنة؟

الصبية الذين وقفوا يرقبون دجلة في ذاك الصباح قالوا إن باخرة صغيرة

دخلت بغداد وفي مقدمتها رجل أشقر طويل، نحيل، انتصب جسده إلى الأمام وهو يلج بغداد، حقق الجنرال مود حلمه مع معشوقته، ومات الشيخ درويش، دفنوه تحت النخلات الثلاث، وذبحوا على روحه المعزة. الشيخ غالب وصل متأخراً. وصل بعد الدفن وبعد الولوج، ولكنه أكل شيئاً من لحم المعزة القاسي، ماذا حدث يا شيخ غالب؟ لقد تأخرت علينا يا شيخ غالب! مات الشيخ يا شيخ غالب!

هز الشيخ غالب رأسه مراراً، وهو يرقب شعاعاً غريباً ينطلق من عيني عمر الداكنتين. أصبح النظر فيهما يحتاج إلى صبر. من فعل بك هذا؟ كيف استطاع ذلك الملعون؟ إنّني لا أفهم، إنّني لا أفهم شيئاً.

وفي المساء، جلسا متجاورين على المقعد المصنوع من جذع إحدى الأشجار. سأله عمر عن سفره، فقال الشيخ غالب، وهو يهرب بنظره إلى الأفق المغطى بسعف النخيل:

– لا فائدة... الإنكليز غير موافقين. وهم لا يمكن أن يقوموا بعمل لا يوافق عليه الإنكليز. قالوا لي: هل تريد أن تتخلّى عنا لندن؟ وهل هذا معقول؟ لندن تريد بغداد... لندن تريد العراق كلّه... لندن تريد وتريد وتريد! وأنا متشائم يا عمر!. قلت لهم ورجالنا؟... عددنا لا بأس به، كثير من الناس ينتظرون شيئاً، فقالوا: دع رجالك يأتون إلينا، نحن بحاجة إليهم، لدينا لواء عراقي بقيادة علي عزيز المصري... لدينا نوري السعيد، ولكني يا عمر لن أذهب إليهم!

فقال عمر، وقد أشعل سيجارته، وراح ينفث دخّانها في الجوّ الربيعي الجميل، وهو متجهم:

– أنت حر يا شيخ غالب.

– أين الشيوخ؟

– رحلوا إلى نوري السعيد هذا.

– وأنت؟

– عائد إلى حلب. سأرحل أنا وفريدة. ماذا ستفعل يا شيخ؟

– سأعود إلى النجف، سأنتظر هناك فرصتنا، أشعر كأنّني بحاجة إلى العزلة.

ودّعه. تعانقا، وربّت كلٌّ منهما على كتف الآخر، ثمّ رحل غالب ومرافقه، وفي اليوم التالي قايض عمر الحصان بعربة، شدّ إليها بغلاً، قبعت فريدة في الخلف مع المؤونة، ثمّ قاد عمر العربة نحو الشمال.

6

في العادة، يعود الغائب ليلاً. يطرق الباب بهدوء، وينتظر بوجل أن يفتح له. يا لها من لحظة يتوثب فيها القلب، وتتطاير الأفكار، وترتجف الأيدي والشفاه. ولكن فريدة القابعة في عمق العربة، والتي كانت تتطلّع، بعينيها السوداوين إلى فراغ المدينة والأزقة، لم تكن تشعر مرّة أخرى بصحة نظريتها تلك. ها هو عمر بنبوك يعود ليلاً إلى أهله. يقود العربة بيديه الاثنتين الممسكتين بالمرس الخشن المعقود بلجام البغل. كانت تسمعه يهمس للبغل آمراً: دي... دي ولك دي، دون أن يلكزه أو يلسعه بقضيب الرمان الملقى إلى جانبه، ربّما لأنّه يعطف عليه، ولكن متى كان عمر بنبوك قد عطف على البغل خلال كلّ هذه الرحلة، خلال العشرين يوماً التي قضياها راكبين نهاراً نائمين ليلاً، في العربة، دائماً في العربة، وكأنّ الدّنيا كلّها أصبحت تسير على أربعة إطارات خشبية مطقطقة على الطرقات الممتدة بلا نهاية، إلى جميع الآفاق؟

وهي تتحسس، في الظلام الدامس، ظهره بناظريها، ويأتيها صوت حفيف معطفه، كانت تشعر بخوف يجتاح أعماقها، وبدبيب، كدبيب النمل في ساقيها بسبب القعود الطويل واهتزاز ألواح العربة الخشبية.. مم تخاف؟ فريدة الجميلة البريئة تخاف، رغم أنّ عمر بنبوك هو الذي يقودها، يقود العربة، فهي تستشعر خوفها المكتوم الذي راح يعصر صدرها الأبيض البض.

شهقت هواء ربيع حلب الليلي البارد لتطرد خوفها. ليس الآن وقت المخاوف، فلتذهب كلّها إلى الجحيم، فقد احترقت خلفها كلّ الجسور، وغرقت كلّ المراكب، وتعطلت كلّ السبل. لقد مات الجد العظيم. الشيخ درويش مات، دفة المركب قد تحطمت، ولم يعد لها في كلّ هذا الوجود المظلم، المليء بالموت والجوع والقهر والاغتصاب، سوى عمر، عمرها البنبوكي الحلبي. زفرت الهواء الذي شهقته منذ برهة، وعددت في ذهنها مخاوفها.

إنّها الزوجة الثانية لهذا المخلوق. والزوجة الأولى هي بهية التي تحدّث عنها طويلاً، والتي ستقابلها بعد لحظات، ربّما بخجل، وربّما بخوف، من يدري؟ لعلّها بهية هذه وحشة تستحق أن تطرح في إحدى الغابات، وتترك هناك لتموت، وهي تعوي كما

تعوي الذئاب في الليالي المقمرة.

الشيء الثاني هو خروجها من بيتها. لأوّل مرّة تخرج من بيتها لا لتزور أقاربها في النجف أو تكريت أو الفلوجة. بل لتنقذف في سرداب طويل، طوله مسافة عشرات الأيام من السفر، في عربة يجرّها بغل نشيط، ثمّ لتحطّ في عالم غريب وسط أناس غريبين.

الشيء الآخر وليس الأخير أبداً، هو عمر. إنّها تخاف منه، الشخص الوحيد الباقي من ماضيها كلّه، وهي الآن تجتاز معه العتبة نحو المجهول، نحو الخوف. لماذا تخاف منه؟ مطّت شفتيها، وقد أسندت رأسها إلى قبضتها، فتوقف عن الانشلاح هنا وهناك، وراحت تفكّر. رجلها الوحيد في هذا العالم لم يعد مفهوماً. أساءت له الحياة. بدلته. حسين هو السبب وأمور أخرى أيضاً. قد تكون الحرب، وقد يكون ذلك الجنون الذي عمّ كلّ شيء، ولكن حسين هو المسبب الأعظم. لعنة الله عليه وعلى هيئته. كم كان مقرفاً، ولكنه كان وسيبقى طيباً لولا ظهور عمر الذي خطفها منه، ثمّ... ثمّ قتله من دون رأفة، من دون أن يطرف له جفن، كم تغير عمر !!...

عندما عادا من بغداد، عمر وقاسم، كانت فريدة تنتف شعرها، كانت تولول على جدها، فلم تأبه ولم تكن في مجال مراقبة ذاك الإشعاع الذي راح يشعّ من عيني عمر. ولكنّها في اليوم التالي، عندما دفنوا الشيخ بعد أن غسّلوه بالماء الحار والصابون، وسدوا شرجه بقطعة كبيرة من القطن. وبينما كانوا قد تجمعوا حول السماط الممدود في الظلّ ينهشون بقرف لحم المعز. طرفت عينيها نظرة غريبة غير مفهومة من عمر. وكأنّه يناديها، تطلّعت إليه. يا إلهي... فتوقف فكاها عن المضغ، وجحظت عيناها، وراح العرق يتصبب من صدغيها، هاج قلبها فجعل يخفق كالمهووس.

ماذا جرى له يا ترى؟

قاسم، حين سنحت له فرصة ما، همس في أذنها مسرعاً بكلام، فهمت منه: الرجل ركبه عفريت، كوني على حذر! لم تفهم ما كان يعنيه، إلا أنّ كلمات قاسم تركتها في حالة قريبة جداً من القلق. هل كلّ الرجال الذي تركبهم العفاريت يصدرون

من أعينهم إشعاعات غريبة ومخيفة تجعل الناس يتصلبون في أماكنهم حينما يلتقون بأعينهم؟

أثناء السفر لاحظت أموراً كثيرة جعلتها تجفل، وتقرأ في سرها: قل أعوذ برب الفلق... إحدى هذه المرّات عندما كانت تعبة، فغفت. كانت قد اعتادت على اهتزاز العربة الرتيب وطقطقتها. كانت تحلم. بماذا كانت تحلم؟ أكيد أنّها نسيت، الذي حدث أنساها حلمها، ولخبط كيانها وهدوءها. فجأة، بينما كانت نائمة أحسّت بخوف رهيب يجتاحها وبقلبها يخفق، خفقاً لم تعهده من قبل. أحسّت بسيول العرق على جبهتها وصدغيها ورقبتها. فتحت عينيها، فشاهدت عمر ينظر إليها بعينين داكنتين حمراوين. انكمشت على نفسها. وكادت تطلق صيحة ما، إلاّ أنّه أدار رأسه، وراح ينهر البغل: دي... دي ولك دي.

هذا الشيء تكرّر ثلاث أو أربع أو خمس مرّات.

ولكن هناك حوادث أخرى حدثت، حوادث طمأنتها، وجعلتها تثق أكثر بعمر، جعلتها لا تقوى على مفارقته، وتحسّ بخوف شديد إن هو تركها بمفردها.

كان ذلك بعد أن ناما ليلتهما في "البوكمال". أيقظته، كعادتها، قبل الفجر، فقام، وشدّ البغل إلى العربة، ثمّ قعد خلفه صامتاً، بينما عادت هي إلى القبوع في القهر عند طرف العربة الخلفي. وسرعان ما انتصف النهار، واشتدّت حرارة الشمس، إلاّ أنّه كعادته بقي صامتاً، يقود العربة، مضيقاً عينيه مائلاً رأسه إلى اليسار. ومدخناً سجائره بشراهة عجيبة... من أين أتاه الصمت؟ لماذا غدا صموتاً كقطعة حجر لا حياة فيها. كانت لولا رائحة دخانه وجَمْجَمته من حين لآخر لنسيت وجوده. في الماضي، كان يحدّثها عن بهية، عن أولاده، وعن تلك المدينة الخرقاء التي اسمها حلب. كان يحدّثها أيضاً عن طفولته، عن الحارة بجدران بيوتها العالية.

قال لها ذات مرّة، كان ذلك قبل أن يذبحه حسين:

– يا فريدة... يا فريدة، أنت طيبة جداً، هل تعلمين لماذا؟... لا تعلمين؟... لأنّك نشأت يتيمة. أنا أيضاً تيتمت باكراً. مات والدي وأنا في الثامنة، وكانت أمّي قد ماتت وأنا في الثانية، لم أعرفها، ولكنّي أعرف رائحتها. عندما كنت أحفر بئراً، أنتظر بفارغ الصبر لأصل إلى عمق خمسة أمتار. حينها يلذ لي أن أقعد حيث أنا وأتنشق

الرائحة الطازجة للتربة، إنّها رائحة أليفة ومحببة إليّ. ربّما هي نفس رائحة أمّي، وربّما من أجل ذلك كنت أقوم بهذا العمل، حفر الآبار.

قالوا لي إنّ أمّي ماتت، حسناً... وهل هذا صحيح؟ عقل الطفل لا يمكن أن يحتمل ذلك. كيف لي أن أعلم ما هو الموت. أنا حتى الآن لا أفهمه، فكيف بطفل صغير. ولذلك كنت أبحث عنها. كنت أتفرّس في وجوه النساء في سوق المدينة بحلب في وقفات الأعياد، حينما تزدحم السوق بالنساء الملتحفات كان هذا العمل يمتعني، ويجعلني أشعر بحالة غريبة.

فأنا حر. أبحث في كلّ الوجوه، عن وجه واحد يلائمني. هل حدث لك أن اخترت وجه أمّك أو أبيك؟ أنا كنت أقوم بهذا الاختيار. إذن أنا حر في أن أحتفظ بوجه أمّي كيفما أريد. ولكن ذلك لم يكن يحدث، ولا حتّى مرّة واحدة، فكأنّي أعرف وجه أمّي ولكن بشكل مبهم. فلم أكن أجد وجهاً واحداً يلائم تلك الصورة المبهمة والعزيزة. تلك الصورة المألوفة والمغبشة في آن واحد.

هل تفهمين يا فريدة؟ أرجوك أن تفهميني، فأنا لا أستطيع أن أكرر هذا الكلام مرّة أخرى.

في إحدى المرّات، ذهبت إلى سوق المدينة، كان ذلك في وقفة عيد الأضحى. كانت "السقطية" مهرجاناً لّلحوم، كان النّاس يدوسون مرحين على الأحشاء والدماء المسفوكة والجلود المسلوخة حديثاً. أمّا الذبائح فقد كانت معلقة بكلابات في واجهات الدكاكين وأصحابها يصيحون عليها بأصوات زاعقة راعدة. وقفت مشدوهاً ساعة كاملة. وأنا أحملق، وازدرد ريقي. كانوا يأتون بالخراف عشرات، عشرات، وما إن يصل القطيع حتى تسرع أيدي الجزارين، بسم الله، الله أكبر، وبحركة بارعة تشرخ رقبة الخروف الصغير الذي كان يلعب قبل برهة. بسم الله، الله أكبر. ثمّ "فستق، خروف، فستق، خروف" ماذا تقولين يا فريدة؟ أنا أعرف قصة النبي إبراهيم وابنه، أنا أعرفها جيداً. شيخ الكتاب سردها علينا مئات المرات، ولكن النفس تتقزز من رؤية شقة الخروف التي هي بطول يد الإنسان معلقة على كلاب، من جهتي، كنت أشعر بالغثيان.

ماذا كنت أقول؟ ... نعم، تركت السقطية، وجعلت ألج الأسواق الضيقة، حتّى

وصلت إلى سوق النسوان. هناك رحت أبحث في الوجوه. نساء من جميع الأشكال، وسط الحرائر والألوان الزاهية. وجوه الباعة لم تكن تهمني رغم أنّها كانت تستدعي السخرية. لم أعرف كم من الوقت مضى عليّ وأنا أحملق في وجوه النساء. وجوه غريبة متنوعة، منها السمين المدور ومنها المتطاول الشاحب. صبايا وعجائز. فتيات نحيلات في الخامسة عشرة ونساء بدينات في الأربعين. ولكن ... جميعهن يختلفن بصورهن عن الصورة القريبة إلى النفس المدفونة في الرأس. وفجأة شاهدتها. خفق قلبي واحمرّ وجهي. عرفت ذلك من الحرّ الشديد الذي بثّ أشعر به. كانت امرأة في الخامسة والثلاثين أو في الأربعين، ملحفتها جديدة، تنضح برائحة زكية محببة إلى النفس. كانت تتفحص قطعة قماش شفّافة ولينة، أمّا يد المرأة فقد أضفت على النسيج جمالاً ساحراً. كان الوجه أبيض جميلاً يشعّ بالصبا. يذكرني بشيء، ولكنّه لا يشبه ذاك الشيء. التصقتُ بالمرأة. كنت في العاشرة، فلم تهتم لفحولتي المبكرة، تبعتها إلى كلّ الدكاكين التي توقفت عندها. كانت تنظر إليّ فتراني لا أرفع عيني عنها فتبتسم. وعندما خرجت من السوق، مشيت بجانبها، وكأنّها مغناطيس وأنا إبرة. مشينا طويلاً، ثمّ سألتها أن أحمل لها رزمتها. سألتني بعد أن وافقت، عن اسمي وعن أمّي. قلت لها إنّها ميتة وأنّها تذكّرني بها. وصلنا إلى بيتها. كان في حي لم أدخله في حياتي أبداً. بيوت مصفوفة وأزقة بعرض ثلاثة أقدام لا أكثر. أدخلتني عبر الباب، فأصبحنا في حوش صغير مشمس يعجّ بالورود. كانت الشجيرات مزروعة في براميل خشبية، وتكاد لا تجد طريقك عبر البراميل تلك. إحدى هذه الورود كانت على هيئة كرة بيضاء مطعمة باللون الوردي. شيء جميل أليس كذلك؟ هذه المرأة تعيش في جنة حقيقية. ليس ذلك فقط، بل السكون هو الشيء الآخر الذي أطاح بعقلي. سكون عجيب جعلني أتسمّر كالأبله وسط الورود، وأنسى نفسي، فهذه الأشياء لا وجود لها في بيت خالي، الذي يعجّ بالنساء والأطفال والعويل. بعد قليل شاهدتها قادمة إليّ من دون ملحفة ومن دون سواد، اللون الأسود لا يلائم لا وجهها ولا جسمها ولا هذه الورود التي كانت تحيط بها من كلّ جانب. قادتني من يدي، فغسلت لي وجهي القذر ويدي، ثمّ جعلت تطعمني شيئاً حلواً وأنا لا أبرح عيني عنها. كنت أهبل من دون نقاش، وكيف لا وقد فتحت لعيني أشياء أخرى تسرح فيها.

قلت لنفسي: يا ولد... إياك أن تبدو كالمسطول... قل لها شيئاً. فقلت لها إنّ رائحتها طيبة، وإنها تذكرني بأمّي التي ماتت وأنا مازلت صغيراً. قلت لها إنّني أحسّ وكأنّ أمّي إلى جانبي، وأنّها تختلف عن جميع نساء خالي الذي تركني أعيش في بيته بعد أن مات والدي. سالت الدموع من عيني المرأة. جذبتني إليها، وضمّتني وقد أقعدتني في حجرها. بقيت هكذا ساعة، وأنا ألمس جسدها كلّه، وأتنشق رائحتها. كانت هي أيضاً تتلمس جسدي، وتشم رائحتي، وكأنّها فقدت ابناً وتراه فيّ. بعد ذلك جذبتني إلى فراشها. استلقينا ونحن متعانقان. لم تعد تبكي، بل جعلت تلهث، المهم، لن أشرح لك كلّ شيء يا فريدة، فقد حدثت أمور لا يمكن شرحها.

كنت أجي إليها كلّ أسبوع، وفي كلّ مرّة كانت تبكي أولاً، ثمّ تروح، وتلهث حتّى يكاد يغمى عليها، وبعد عدّة أشهر ظهر رجل بدين كان مسافراً في تجارة. قالت إنّه زوجها، كرهته، وأحسست بشيء ينهش صدري، إلا أنّني غادرت دون رجعة.

في ماذا كانت تفكر؟ كيف شردت هكذا، فراحت تستعيد أقواله الماضية، لكأن هذه الأقوال وتلك الأحاديث التي كانت تستمع إليها بشغف هي الشاهد الوحيد على عمر الطيب، اليتيم، الذي عشقته، ومضت معه إلى آخر الدنيا؟

ولكن... ما معنى هذا الصمت كله؟ نظرت إلى ظهره المحني ورأسه المائل، فتذكّرت ما حدث لهما بعد خروجهما من "البوكمال". كان ذلك بين الصالحية والميادين. كان عمر يقود العربة بصمت، وكانت، وهي مستلقية مغمضة العينين، منتعشة بنسمات المساء، التي راحت تهبّ بعذوبة. فجأة، توقفت العربة. طال وقوفها. فتحت عينيها، ورفعت جذعها، ونظرت. كانت هناك عشرات الجثث الملقاة على جانبي الطريق. جثث لأناس كانوا يوماً أطفالاً ونساء وشيوخاً.

ما هذا... يا إلهي؟!! صرخت فريدة. نزل عمر من العربة، وراح يتجوّل فيما بينها، وقد سدّ أنفه بإصبعيه.

نزلت فريدة أيضاً إلاّ أنّها قرفصت، وراحت تتقيأ. ذبح الجميع ذبحاً، الرجال مشروخي الأعناق والأطفال أيضاً، طفل في السنة الأولى من عمره مذبوح من الأذن إلى الأذن، كان جاحظ العينين ملطخاً بالدم المتخثر المتجمد المعفر بالتراب. مع ذلك شاهد عمر بسمة غريبة تجمّدت في سحنة الطفل. ربّما حسب الرجل الذي شرع

في ذبحه أنّه يريد مداعبته. على بعد أمتار من الطريق كانت هناك امرأة أرادت الهرب، إلا أنّ أحدهم سارع بتحطيم جمجمتها بفأس. توقف أمام جثة فتاة، كانت عارية كما ولدتها أمها. منفرجة الساقين سال من بين فخذيها دم وردي اختلط بمني رجل أو عدة رجال. ثم طعنت في صدرها الأبيض أكثر من عشر طعنات، كانت الفتاة جميلة جداً شقراء الشعر، لم تبلغ بعد الخامسة عشرة.

ماذا حدث؟ من هؤلاء؟ من ذبحهم؟ بصق عمر بعنف ثلاث مرات، ثمّ جمع قبضتيه بقوة، كأنّه يريد تحطيم أصابعه، أو تحطيم رأس ما. استلّ مسدسه من حزامه ثمّ عاد إلى العربة. حمل فريدة، التي أنهكها التقيؤ، ووضعها بخشونة في العربة. رأت في عينيه ووجهه. عادت عيناه تشعان بذلك الشيء المخيف، إلا أن فريدة أحسّت بالطمأنينة تعود إليها وسط هذا الجوّ الملآن بالفاجعة، ساط البغل، فتحرّكت العربة بين الجثث التي كانت العقبان، تنتظر محلقة الوقت المناسب للانقضاض عليها. سألته من الخلف:

– ماذا حدث؟ هل سنُذبح؟

لم يجب إلا بـ" لا" شديدة قوية مغضبة.

بعد نصف ساعة، وحين غطست الشمس خلف الأفق، شاهدا ثلاثة فرسان من الأتراك واقفين أمام رجل مبطوح على الأرض وهم يدخنون. أوقفوا العربة. أمسك أحدهم بلجام البغل، وراح الآخران يدوران حول العربة. أمر أحد الجنود عمر بالنزول بينما راح الآخر يتفرس في وجه فريدة. قال له الجندي:

– من أنت؟

فأجاب عمر بتجهم وهو يرقب الرجل الموثوق بالحبال:

– أنا عمر بنبوك من حلب.

– وهذه المرأة؟

– إنها امرأتي.

اقترب الجندي من عمر، وراح يتفحص وجهه ورقبته. سأله وقد رأى إلى الشرخ الملتحم في الرقبة:

– من فعل بك هذا؟

- أحدهم.

- هل أنت جندي؟

- أنا مسرح من الجيش. عندي أوراق تثبت ذلك.

أبرز له الورقتين. تطلّع الجندي إليهما، ثم أعادهما. تفرّس فيه طويلاً ثم قال:

- أنت أرمني أليس كذلك!

- كلا... قلت لك إنّني من حلب. اسمي عمر. أنا مسلم.

هز الجندي رأسه. لا مجال هنا للمناقشة مطولاً، فهذا الرجل المشوه يزعجه بشيء لا يعرف مصدره. تطلع الجندي إلى فريدة وقال موجهاً كلامه إلى عمر:

- أريد أن تبول هنا، أمامي!

- لن أبول أمام أحد، فأنا لست حيواناً.

اغتاظ الجندي، إلاّ أنّه كان يبعد عن عيني عمر باستمرار. قال وهو يسوط حذاءه العالي بغصن رفيع من الخيزران:

- إذن أنت أرمني، وتخفي ذلك.

فهم عمر مقصد الجندي، حسناً سيبول أمامهم. سوف يريهم أكثر من عضوه هؤلاء الكلاب. حلّ رباط البنطال، ثمّ أخرج عضوه، وجعل يعرضه على الجنود الثلاثة، ولكن لم يبل، فقد أبت مثانته أن تطرد ما فيها. أشار الجندي بيده، واستدار. رفع عمر بنطاله، ثمّ صعد إلى العربة. قال يسأل الجندي:

- ومن هذا الرجل؟ لماذا هو موثوق هكذا؟ هل شاهدتم زبه؟

فأجاب الجندي وهو يترك لجام البغل:

- هذا ليس شغلك، ارحل من هنا قبل أن نضعك إلى جانبه.

إذن... هم الذين ذبحوا الشيوخ والنساء والأطفال. عرف ذلك بومضة سريعة عبرت ذهنه، ثمّ تأكد من ذلك من رذاذ الدم المنثور على ألبستهم. كانت سحناتهم أيضاً تنبئ بذلك، وخصوصاً أحدهم الذي ما يزال يتفحص فريدة بعينين شبقتين. لم يكفه. ابن الحرام، تلك الفتاة ابنة الخمس عشرة سنة. قال لهم:

- هل تريدون خبزاً؟

ثمّ، وبحركة سريعة أخرج المسدس من طيات البطانيات، وأطلق، دون أن

ترتجف يده، على رأس الجندي الذي اقترب ليأخذ الخبز. ثمّ أطلق على صدر الثاني الذي تجمّد بفعل المفاجأة. أما الثالث الذي حاول أن يصل إلى بندقيته فقد أصيب في ظهره بطلقتين. بأربع رصاصات ثلاثة رجال أنجاس. ثلاثة قواويد لم يجدوا سوى أطفال كي يذبحوهم، كيف واتته الشجاعة هكذا؟ مطّ شفتيه، وكأنّه قرف. نزل من العربة، وعينا فريدة الجاحظتان ترقبانه، كأنّه إله سقط من عليائه. لم تكن مصدقة. لماذا قتلهم؟ ربّما حتّى لم تفكر آنذاك في الأمر، بل إنّها تفكّر الآن، الآن وهي قابعة في العربة التي تطقطق بعنف في شوارع المدينة المظلمة، تركوه يذهب، رغم أنّها أحست آنذاك أن أحد الجنود يتطلّع إليها بنظرة شيطانية، جعلتها تدق كالمسمار في خشب العربة، جعلتها تقرأ كل سور الله القصيرة في (جزو عم) إنها تفكر، تركوه يذهب فلماذا قتلهم؟ آنذاك خافت أكثر، أصابها ارتعاد خفي في كيانها: إنه ليس عمر. ورحمة جدي إنه ليس عمر، الذي نزل من العربة، فتفحصهم، ولما وجد أن أحد الجنود، وهو الذي أطلق رصاصة واحدة في صدره، كان ما يزال يتنفس، عاد ووضع المسدس في صدغه، وأطلق الرصاصة الخامسة.

فكّ وثاق الرجل، وأنهضه. لم يكن مصدقاً، إلاّ أنّ شعوراً بالامتنان وضعفاً شديداً جعلاه يتأتئ، ويضم يديه إلى صدره، ويروح يطلق كلمات الشكر والعرفان، ثمّ هجم على يد عمر، التي أطلقت الرصاص منذ برهة، وجعل يقبّلها وهو ينشج.

– ماذا حدث أيّها الرجل؟ لماذا أوثقوك؟

فقال الرجل وهو مازال ينشج، ويتمخط:

– كلّ ما هنالك يا سيدي أنّني كنت... آه ... إنها قصة طويلة. طويلة جداً. دعنا نهرب من هنا. لابدّ أنّهم سيأتون! جنود آخرون، ويكتشفون ما فعلت يا سيدي. دعنا نهرب كرمى لله. أنا مدين لك بحياتي!

التقطا بنادق الجنود القتلى وأحذيتهم، وما كان في جيوبهم، ثمّ ربطا الأحصنة إلى مؤخرة العربة، وساروا يغوصون في عتمة الصحراء بعد أن أفسح عمر للرجل مكاناً إلى جانبه.

تذكّرت فريدة. تذكرت كيف انعطفوا مبتعدين عن الطريق، فراحت العربة تنط، وتتمايل، وعمر يحاول أن يناور كي لا تسقط عجلات العربة في حفرة قد يصبح

اقتلاعها منها صعباً للغاية. أما هي فقد بقيت تتقيأ وتتقيأ. كل شيء يدعوها للتقيؤ. أيّ سفر هذا يا فريدة، لعنة الله على معدتك يا فريدة. لماذا لا يتقيأ عمر مثلها. قام بقتل ثلاثة جنود، ولم يتقيأ، أمّا هي، التي تابعته وهو يقوم بفعلته، فقد تهيجت معدتها، فأخرجت كلّ ما فيها حتّى عصارتها، ولكنّها نسيت أن تخاف حينئذ. ماذا كان سيحدث لو أنّهم ضبطوا، أو لوحقوا، وقبض عليهم؟ بعد ذلك شعرت بخطورة ذلك. أمّا حينها، فقد انشغلت بمعدتها الرخوة واستغرابها أفعال عمر. ولكن ماذا فعل عمر؟ كلّ ما هناك أنّه ثأر لأولئك الأطفال والنساء والشيوخ. كلّ ما هنالك أنّه حرّر أناساً كانوا سيفتكون به. ولذلك فإنّها، رغم خوفها الشديد من أن يقبضوا عليهم، تحسّ براحة هائلة في قلبها، مفادها أن عمر ليس سوى إنسان شجاع وشهم، عمر ليس جباناً، ليس جباناً أبداً، لذلك فهي تحصر فكرها في معدتها.

هذه هي حلب، هذه هي أخيراً، ولكنّها لم تكن تميز شيئاً سوى الظلام الكالح. أيّ استقبال هذا الذي يجري لك يا فريدة؟ حتّى القمر غاب في هذه الليلة، حتّى الشموع والفوانيس قد أطفئت. كلّ شيء ينام في العتمة نومة بائسة، نومة تبدو لها، وكأنّها أبدية.. أبدية. بزغ القمر من الأفق فضياً لامعاً. وما لبثت الأصقاع أن لمعت أيضاً تعكس شعاع القمر، تناغمه، تشاركه بصمت في جوقته الليلية. لم يكن يسمع سوى طقطقة العربة ونخير الخيل والبغل وصوت إقياء فريدة، وثرثرة ذاك الرجل الغريب الذي كان يغدق على عمر امتنانه وشكره، لأنّه خلصه من تلك الحيوانات القارضة.

نهر عمر الرجل قائلاً له:

– اسكت، اسكت يا ابن القحبة. لو كنت أعلم أنك ثرثار بهذا الشكل لما خلصتك منهم!! ومع ذلك لم يصمت الرجل، فبينما كانت فريدة تقاوم خروج أحشائها عبر فمها، كان الرجل الغريب يثبت أنه قادر على إطلاق الكلام رشاً بدون توقف:

– يا سيدي الكريم، أرجوك، قل لي اسمك أرجوك، أنا مدين لك بحياتي، أنت الذي أنقذت إنساناً مسكيناً لا يعدو أن يكون أباً لطفل صغير. أنا الذي أجلس إلى جانبك يا سيدي الكريم. وبما أنك أنقذتني، فسأكون ساعدك، سأكون حاميك إلى أبد الآبدين. ولكن ما بها هذه المرأة؟ إنها تتقيأ منذ ساعتين دون توقف. انظر ما بها يا

سيدي. هل أنظر ما بها؟ لعلّها في حاجة إلى مساعدة... هل هي زوجتك؟ نعم يبدو أنها زوجتك يا سيدي، وبما أنّها زوجتك فإنّني مدين لها أيضاً. أنا خادمكما، أطلبا مني أيّ شيء، لبن العصفور مثلاً، فسآتيكما به فوراً. أنت يا سيدي، لا تدري كم أحبّ وأحترم أيّ شخص لمجرد أنّه ساعدني يوماً ما، لمجرد أنّه تركني أتكئ عليه لحظة واحدة، فكيف بإنسان أنقذني من بين براثن الوحوش. نعم وحوش حقيقيون يا سيدي. أنت منقذي، شكراً يا سيدي، ألف شكر لك ولعائلتك الكريمة، أبوس الرب الذي خلقك يا سيدي. اطلب من أيّ شيء، لماذا لا تتركني أقود البغل بينما تذهب أنت لترتاح، هناك في الخلف مع زوجتك يا سيدي؟ أنت منقذي... أنت منقذي يا سيدي، فإذن أنت أبي وأمّي وكلّ ما لي في هذا الوجود. اسمع أيها...

فقاطعه عمر منرفزاً:

– اسكت أيّها الرجل، اسكت يا شيخ، اسكت أيّها اللعين، ماذا حدث لك؟

– ولكن المرأة.. زوجتك يا سيدي، إنّها لا تتوقف عن التقيؤ. يمكننا أن نتوقف قليلاً. هيا، أوقف العربة لترى إلى زوجتك ما حصل لها. سوف تموت المرأة، وبما أنّها زوجتك، أيّ أنّها زوجة منقذي من تلك الوحوش البرية القذرة، فإنّني أرثي لها، أشفق على أمعائها. أرجوك يا سيدي توقف أرجوك. لم يعد هناك ما يستدعي الإسراع، ثمّ إنّ الظلام يمنعنا من الرؤية، ولن يلحقنا أحد في هذا الوقت.

كاد عمر أن يوقف العربة لولا أنه لمح مخيماً إلى الأمام منهم.

كانت الخيم تسبح في العتمة، متجاورة، طويلة الشكل، مثل طير هائل مفتوح الجناحين، من إحداها يشاهد بصيص ضعيف باهت، اقتربوا من المضارب شاهدوا رجلاً أو اثنين يخرجان من الخيمة الكبيرة المنورة بالبصيص، ويقتربان من العربة.

– من أنتم؟

سأل أحد الرجلين. فقال عمر:

– نحن مسافرون. أضعنا طريقنا في الظلام، والمرأة مريضة هل نستطيع أن نبيت الليلة عندكم؟

– لا بأس. تعال لتتكلم مع الشيخ.

ترجّل عمر، وسار مع الرجل باتّجاه الخيمة. سأله عمر قبل أن يدلفا إليها:

- من هو شيخكم؟

- مشعل الجربا، نحن فخذ من شمر.

في الداخل، كانت الخيمة واسعة جداً. ملأى بالرجال المستلقين والمدخنين. ألقى عليهم السلام فجاءته عاصفة من التحيات. أجلسه أكثرهم وجاهة إلى جانبه، بعد أن صافحه، ثمّ عادوا يسلمون عليه فرداً فرداً؟

قال له الرجل الذي عرف أنه الشيخ مشعل:

- السلام عليكم، أهلاً وسهلاً بكم. من أنتم؟

- أنا عمر بنبوك من حلب. ومعي زوجتي ورجل آخر وجدته في الطريق.

- من أين أنتم قادمون.

- نحن قادمون من بغداد، تركناها بعد أن دخلها جيش الإنكليز.

- نعم... وصلني النبأ البارحة.

لاحظ عمر أن الجميع متلهفون لتلقط الأخبار، فكلّ المعلومات التي تجمّعت لديهم لا تعدو أن تكون أقوالاً بسيطة وغير شافية جاء بها أقوام رُحّل أثناء مرورهم بمضارب العشيرة.

قال عمر للشيخ وهو يشعل سيجارة التقطها من أحدهم:

- أومر أن يأخذوا المرأة إلى إحدى الخيم فهي مريضة ولا تتوقف عن التقيؤ.

فنهض شاب، وغاب خارج الخيمة، وهو يطلق أوامره ذات اللكنة البدوية الصرف.

فرشوا لفريدة في إحدى الخيم التي تحتلها النساء، ثمّ مددوها على الفراش إلا أنها أبت أن تتناول رائب اللبن أو غيره مما قدموه لها، بل راحت فوراً في نوم عميق يساعدها في ذلك سكون الصحراء المخضوضرة بفضل الربيع. أما الرجل الغريب فقد تقوقع في إحدى زوايا الخيمة المظلمة صامتاً يستمع إلى الأحاديث.

قال الشيخ متسائلاً:

- هل صحيح أن بغداد أصبحت خراباً بعد أن خرج منها الأتراك؟

فقال عمر:

- لم يحصل شيء من هذا. ولكن الإنكليز دخلوها. أمّا الأتراك فقد غادروها

مسرعين، وهم يتجمّعون في مكان ما إلى الشمال خوفاً من وقوعهم في أسر الإنكليز.

– اللعنة على بيّهم!

فسأل عمر محاذراً:

– من هؤلاء؟

– الأتراك جاء وقتهم. هل سيصل الإنكليز إلينا؟

– لا أعلم.

قال عمر ذلك وهو يشعر بارتياح، لأنّ الشيخ سبّ الأتراك، فهم إذن في أمان، خصوصاً وأنّ الأحصنة الثلاثة لابدّ أن تثير لدى الشيخ تساؤلاً ما.

صمت الجميع. كانوا يدخّنون بشراهة عجيبة، مكونين غمامة كثيفة من دخان السجائر التي ما كانت لتخف رغم ما كان يتسرب منها إلى الخارج. تطلّع عمر إليهم، كانت الوجوه متسربلة في العتمة لا تبين منها سوى ثقوب بيضاء هي عيونهم المحدّقة المتسائلة. أحسّ بدوار خفيف وبنعاس يزحف إلى جفنيه. هل يحكي للشيخ ما جرى لهم عند المغيب؟ إلا أنّ الشيخ سارع، وسأل:

– من فعل بك هذا؟ أشار إلى رقبة عمر.

– أحدهم حاول ذبحي في بغداد. كان يريد الحصول على امرأتي، إلاّ أنّ المرأة أنقذتني، ولما شفيت، بحثت عنه، وقتلته. أليس هذا من حقّي أيّها الشيخ مشعل؟

سمع الشيخ يقول ببداهة:

– طبعاً... طبعاً.

ثمّ سمع همهمة بين الرجال الآخرين، ويمكن أنّه لاحظ أيضاً إعجاباً واضحاً بما فعله. لماذا قال لهم ذلك؟

ماذا كان ينوي؟ تابع عمر:

– أراد قتلي فقتلته. كنت أقيم في بيت الشيخ درويش حينما حاول ذبحي.

– من هو الشيخ درويش هذا؟

– شيخ القحطانية.

– شيخ القحطانية نفسه؟ إنني أعرفه جيداً، ولكنّنا لم نتقابل منذ سنوات. ماذا كنت تفعل في بيته.

– كنت أساعده في عمل الجمعية، وقد زوّجني حفيدته.

قوبل كلام عمر بالترحاب من شيخ شمر وأعوانه. كانوا سعيدين بوجود نسيب الشيخ درويش وحفيدته، ذاك الرجل المحبوب لدى العشائر، والذي سمعوا أنّه يجمع حوله كبار القوم من أجل طرد الأتراك من العراق. وعندما أخبرهم عمر أنّ الشيخ قد مات، استولى وجود حزين على سحناتهم، وعادوا يدخّنون بصمت. إلاّ أنّ ذاك الحزن سرعان ما امّحى بعد أن قدم عمر حصانين هدية إلى الشيخ مشغل الجربا. خرج الجميع كي يتفرجوا على الحصانين، على ضوء القمر الذي ازداد توهجه. ربّت الجميع على الخيل واكتشفوا (رغم أن ذلك غير ممكن حدوثه في الليل) أن أحد الأحصنة هو فرس جميلة ممشوقة، فأخذها الشيخ، ثمّ عانق عمر بشدّة، وربّت على ظهره، وهو يشعر بامتنان كبير، ثمّ أمسك بساعده، وابتعد به عن الرجال الآخرين الذين كانوا قد أحضروا مشعلاً، وراحوا يتفحصون الحصانين والفرس و... البغل.

قال الشيخ مشعل وهو يتطلّع إلى وجه عمر، الذي راح يوحي بأقسى القسمات:

– قل لي يا أخ عمر، ماذا حدث وما تريد مني؟

أخبره عمر كيف أنّهم وجدوا جثث النساء والأطفال والشيوخ على جانبي الطريق، وكيف أنّهم قد ذُبحوا كالنعاج، وكيف أنّ حفيدة الشيخ درويش قد أصابها مرض التقيؤ من جراء رؤية هذه الفظائع. ثمّ كيف أنّهم قابلوا الجنود الثلاثة وقد أوثقوا رجلاً، ربّما كانوا ينوون ذبحه هو الآخر. ثمّ أخبره بهدوء أنه قتلهم جميعاً بخمس رصاصات، وحرّر الرجل ذات، واستولى على الخيل والبنادق، ولم ينسَ أيضاً أن يستولي على أحذية الجنود القتلى ونقودهم ووثائقهم، تطلّع إليه عمر. كان الشيخ يمرّر راحته على لحيته، وهو يستمع. ها قد تورط الرجل مع الأتراك. هذا الرجل الذي يتحدّث عن قتله للرجال والجنود كما يتحدّث أحدهم عن وجبة تقيأها منذ دقائق.

هل يمكن لمشعل الجربا شيخ عشيرة شمر أن يرى في ما فعله عمره بنبوك أيّة غرابة؟؟

قال الشيخ مشعل وهو يطيل الأحرف الصوتية:

– إن ما رأيته أنت وحرمتك في الطريق، هو أمر عادي.

– ماذا... عادي؟ وكيف هو أمر عادي؟

– إنّهم من الأرمن. إنّ الأتراك يقومون منذ عام بتهجير الأرمن من أرضروم إلى صحراء سورية والعراق، وأثناء سوقهم يقومون بقتلهم والخلاص منهم.

صمت عمر، وجعل يحكّ قذاله. اللعنة. هذا الأمر لم يخطر بباله قط. كيف يمكن أن تتحوّل الدّنيا كلّها إلى ذبح ونحر. أيّ عصر ابن حرام هذا. وماذا فعل الأرمن؟ إن كان ذبح الناس شيئاً عادياً، فإنّ كلام الشيخ هذا غير عادي.

أحسّ بضيق في الصدر، وألم شديد في الرأس. أراد أن يعتذر كي يترك الشيخ، ويذهب إلى النوم، ولكن الشيخ مشعل سأله:

– وماذا عن ذاك الرجل الذي وجدته موثوقاً مع الجنود؟

– ماذا به؟

– أليس أرمنياً؟

– لا اعلم شيئاً عنه. إنّه مجرد رجل ثرثار لا يهدأ لسانه لحظة. أنت تراه صامتاً ولكنه ليس كذلك. فقال الشيخ هامساً:

– عليك أن تتفحص عضوه؟

أغاظه طلب مشعل، إلاّ أنّه فهم نواياه، فإن كان الرجل أرمنياً فإنّهم سيرفضون بقاءه لديهم هذا الشيء هو من الأمور التي يصعب فهمها. قال عمر:

– إنّه عربي فهو يتحدّث بالعربية أفضل مني.

– هذا ليس عذراً، فهناك من الأرمن رجال يتحدّثون بالعربية أفضل من الرصافي. كنت مرّة قرب "البوكمال" عند الشيخ ابن محمد سليمان من عرب القارة، عندما قبض الأتراك على رجل يدّعي أنه عربي من بيروت. كان يتحدّث العربية بطلاقة وبلكنة أهل المدن، ولكنّه أرغم على الاعتراف أنّه أرمني هارب من التهجير.

– وماذا فعلوه به؟

– لا أعلم.

وبعد قليل قال وهو يتثاءب:

– ربّما ذبحوه وربّما لا... هذه الأمور تحدث عندنا بكثرة هيا... اذهب، وافحص رجلك هذا، فأنا لا أريد أن يقولوا إنّني آويت عندي الأرمن الكفار.

تردد عمر. مشى خطوة، ثمّ توقف. ثمّ مشى، ثمّ توقف. وماذا لو خرج من الفحص بنتيجة أنّ عضو الرجل لم يمس؟ لعنة الله على هذه القلفة التي أصبحت إزالتها جواز بقاء في هذا القمّيل. ألم يفحصه الجندي ذاك؟ ألم يكن ذلك من أحد أسباب قتلهم؟ أحسّ بعطف شديد نحو الرجل، رغم أنّه كان يكره لسانه الذي يمكن أن يلتف حول القلعة ثلاث مرات.

أخذ الرجل، وابتعد عن الخيمة حيث كان الرجال يذهبون، فراداً فراداً كلّ ربع ساعة، ويقرفصون لدقائق. أخبره بحديث الشيخ مشعل. أصبحت رقبتك معلقة بعضوك أيّها الرجل، هيا أبرزه لأرى!

فقال الرجل، وهو يرتعد، ويئن، ويتأتئ:

– سامحك الله يا سيدي، نعم، أنت سيدي وماذا ترى غير ذلك؟ أنا خادمك، سأبقى خادمك ولكن أبعدني عن هؤلاء، إنّهم ليسوا أتراكاً، فلماذا يدققون في أزبابنا. أرجوك يا سيدي نعم... لا... بل نعم. أنا غير مختون. لعنة الله على والدي كيف أنّهم لم يقتلعا عضوي كلّه، من جذوره، لعنة الله على هذه الحياة، كم هي قاسية!

ثمّ تابع، وهو يبكي، ويشهق:

– الحياة حلوة يا سيدي، بل إنّها أصبحت أحلى عندما أنقذتني من القتلة... نعم... أنت الذي أنقذتني، فلماذا تدقق الآن في هذه الأمور. لعنة الله على عضوي، سوف أسحقه بين حجرين إن شاء الله.. هذا إن بقيت حياً. آه يا سيدي فأنا أعتمد عليك..

فقال عمر، وقد عيل صبره بنزق شديد:

– بماذا تموء أيها الرجل، وهل ترى أنني سأتركهم يطردونك أو يقتلونك؟... اسمع. اذهب إلى العربة، واستلقِ فيها حتى أوافيك، هل فهمت، إياك أن تتحرك!

تركه عمر، وابتعد. وجد الشيخ مشعل جالساً في الخيمة ينتظر. اقترب منه وقال بصوت مسموع أراد أن يُسمع الآخرين أيضاً:

– طلع الرجل مسلماً. شكك ليس في محله يا شيخ مشعل. إنّه رجل طيب.

قال الشيخ: زين. وهو غير مصدق.

في الصباح، اضطر عمر لإهداء الشيخ مشعل الجربا بندقية لقاء عدم قيامه هو أو أحد أعوانه بالتحقق من إسلامية الرجل.

صعدوا إلى العربة. قبعت فريدة في مكانها، وقد عاد إلى وجهها لونه النضر. أمّا الرجل فقد انكمش إلى جانب عمر لا يقوى على رفع رأسه، ثمّ تحرّكت العربة وسار أمامها فارسان، أرسلهما شيخ العشيرة كي يرافقاهم عبر أراضي "النقارة" و"الجبور" و"الدليم" إلى دير الزور.

من أجل ذلك، من أجل كلّ هذا يبقى عمر الحبيب الأوحد. إنها (وهي تغوص مع العربة في شوارع حلب المظلمة) تتذكّر كلّ تاريخ عمر المعروف لها. منذ اليوم الأول لمجيئه لزيارة جدّها الشيخ درويش، وحتّى هذه اللحظة المترجرجة المطقطقة كما هي العربة. إنّها لا تلوم حبيبها، ولماذا تلومه؟ ورغم أنه بات يمتلك عينين مرعبتين غامضتين، إلا أنّه بقي ينضج ألقاً خاصاً تحسّه هي وحدها. قد ترتعد في بعض الأحيان حين تلتقي أعينهما أو حين تراه صدفة وهو ينظر إليها، ولكنها بعد ذلك تستكين، تحسّ أنّ العالم الهمجي هذا مصدود عنها، ولهذا . أقول لهذا فقط. فإنّ مخاوفها تبقى لا قيمة لها عندها، حينما تشعر بحضوره وبتلك القوة الهائلة التي يشعرها جسده، والتي واتته وهو بعيد عنها، في بغداد يكمن لحسين، ويقوم بقتله.

ولكن... وا أسفاه! لماذا لا يبقى الرجال خجولين، لطفاء وساحرين، لماذا لا يبقون أطفالاً؟؟

حينها، ترك الرفش الذي كان يعزق به الأرض في بستان جدها، قرفص وقد أسند ظهره إلى السياج، ثمّ أشعل سيجارة، وقال لها:

– تلك المرأة التي كانت تذكّرني بأمّي، احتلّت عقلي. كنت في العاشرة، ولكن كنت أفكر فيها، وأحلم بها، وكأنّني رجل في الثلاثين. عطرها، رائحة عرقها، ملمس ثيابها الداخلية الحريرية الملونة، مؤخرتها الرجراجة، لحمها الأبيض الناعم، كلّ ذلك أفقدني عقلي، وأنا أعيد تذكره في ذهني، وأنا مستلق بين أبناء خالي الكثر في فراش واحد.

كنت أشتم زوجها الذي عاد من أسفاره، وأنا أتذكر لهاثها وتأوهاتها التي كانت

تطلقها ونحن مستلقيان في فراشها في ذلك البيت الساكن ذي الورود. لماذا كانت تلهث وتتأوه كما تلهث وتتأوه نساء خالي من خلف الشرشف الذي كان يقسم الغرفة إلى غرفتين (بيت خاله غرفة واحدة فقط يا فريدة).

لم يكن النعاس يأتيني إلا عند الفجر. عندما يتوقف ذلك المؤذن العجوز في جامع "البكره جي" عن الغزل بصوته الهادئ الجميل، بصوته الحنون، وكأنّه كان يبكي فراقاً ما، أو كأنّه يعشق الله فعلاً والله يصده. كان يبكيني ذلك المؤذن. كم كان صوته جميلاً يمسّ القلب، ويجعلك تتذكرين. لا أتذكر أبياته، ذاكرتي تشبه خرقة عتيقة. كانت كلماته "سبحان الحي القيوم" إيذاناً بإنهاء حفلات خالي مع نسائه خلف الشرشف. كان لخالي ثلاث زوجات. حريم كامل. كان يشتهي أيضاً، لجعلهن أربع، ويردد ذلك مراراً. كان فراش النسوة بجوار فراش الأولاد الذي كنت أنام فيه. أما فراش الخال فهو دائماً خلف الشرشف. "علية" و"خديجة" و"أسوم" عندما كن يفرشن لنا بعد العشاء مباشرة، كانت إحداهن تبقى مع خالي الذي بلغت فحولته حداً لا مثيل له.

تبدأ الحفلة بعد أن يقوموا بإطفاء لمبة الكاز. أما الاثنتان الباقيتان وأنا فكنا نقبع في الظلام، مرهفي السمع نتابع الحفلة بصمت أو مع بعض التنهيدات. كنّ يحسبنني نائماً، وهذا ما كنت أجاهد من أجل إقناعهن به. كنت أشخر قليلاً، ثمّ أتوقف لأستمع جيداً إلى أصوات انصفاق اللحم على اللحم. هل تحبين مثل هذا الحكي يا فريدة؟ إن كنت لا تريدين سماع مثل هذه الأشياء فسأتوقف في الحال، فأنت فتاة في كلّ حال!... حسناً لا مانع لديك رغم أن وجهك يزداد احمراراً. دام ذلك سنين عديدة، كنت خلالها أقضي الليالي، وأنا مسمّر بين أجساد عشرة من أبناء الخال في فراش واحد (الله وحده يعلم كيف كان الفراش يتسع لنا جميعاً) استمع إلى حفل خالي الليلي أولاً، وأنا أتصور في ذهني أشكالاً مختلفة لما يحدث، ثمّ كنت أستمع إلى تنهدات اثنتين منهن مستلقيتين غير بعيد عني، ثمّ يأتي مؤذن جامع البكرة جي ليمحو كلّ ذلك، ويجعلني أبكي، وأتذكّر، وأتحسر. حتّى جاء ذلك اليوم الذي سمعت فيه لعنات وشتائم الخال. ماذا حدث؟ سمعتهم يتحدّثون، ويتناقشون حول مصيبة كبيرة أصابت خالي. ما هي هذه المصيبة؟ صبراً يا فريدة، سأقول لك. لقد جاء دم الطمث لهن جميعاً وفي وقت واحد. بعد ذلك فهمت إنها الدورة الشهرية

عندكن عندما جاءت لابنة خالي فزغردت إحدى نساء خالي ولم تترك أحداً إلا وأخبرته بذلك، رغم أن البنت كانت تذوب خجلاً.

لنعد إلى موضوعنا، أصبحت الدورة لدى الثلاثة تظهر في وقت واحد، وتختفي في وقت واحد أيضاً. إنّها مصيبة. خالي وأنا أعرفه. صبر شهراً أو شهرين إلا أنّه كاد يفقد عقله. خمسة أو ستة أو سبعة أيام دون نكاح؟... يا للهول. أصبح مختل المزاج، عصبياً، ينرفز لأبسط هفوة. جعل يضربنا، ويشتم أبينا. لعنة الله على تلك الدورة وعلى دماء الطمث، أصبحت أتحسب لقدوم موعدها، وأدعو الله في سري أن يوقف تفجر مواعين الدم في مهابلهن، ولكن الله لا يستجيب لمثل هذه الأدعية، فما إن يأتي الموعد حتّى ينزل غضب الله والخال على رؤوسنا جميعاً بما فيها رؤوس النساء. وسرعان ما أوجدن الحل الذي يرضيه، ويحسن أخلاقه، ويسدّ فمه. لقد زوجنه امرأة رابعة، يأتيها الطمث في موعد آخر. كان حلّ المشكلة بسيطاً، من قال إنّ النساء غبيات كالنعاج؟!

أقاموا عرساً جميلاً. لبس خالي طربوشاً أحمر وهذب شاربيه. بعد منتصف الليل، جاء مخموراً، فأدخلوا عليه العروس ذات الخمسة عشر ربيعاً. في تلك الليلة بكت الفتاة، وجعلت تصرخ، وهي تتمنع. حدث ذلك في الليلة التالية أيضاً تحت سمعنا وبصرنا. كنت أعطف على الفتاة (كانت تكبرني بسنتين فقط).

كنت أشتم خالي ومزاجه النكاحي، إلاّ أنّ صراخ الفتاة وعويلها منعاه من عمل شيء، فكنت أسخر من خالي. بعد عدّة أيام دخلت إحدى زوجاته. جلست على صدرتها، وفتحت له ساقيها، فاستطاع أن يتزوجها. وما إن علمنا بذلك حتى راحت نساء خالي الأخريات وأبناءه وبناته يرقصون ويغنون ويزغردون. أما أنا فقد حسبت أنني طعنت في قلبي، فقد أحببت الفتاة، وتمنّيت أن تبقى كما هي.. إلى الأبد.

وضعت زوجة خالي الجديدة على الرف، فلم تكن تستعمل إلا في وقت الحاجة، عندما ينقطع خالي بسبب دورة نسائه الأخريات، فقد أعرب عن استيائه منها وعن قرفه من مضاجعة الفتيات الصغيرات اللواتي لا يملكن الخبرة والمعرفة. أمّا أنا فقد كنت سعيداً بهذا الرأي. ليس هذا فقط، بل إنّ نساء الخال أبعدنها عن فراشهن فأصبحت تنام بمحاذاتي. كنت أقضي الليل كلّه، وأنا أنظر إلى وجهها النائم رغم

العتمة الشديدة التي تضيع فيها قسماته، أمّا عندما يتسرّب، من خلال النافذة، ضوء القمر أو بشائر الفجر، فإنّي أرفع رأسي بوقاحة، وأغرق متأملاً وجهها النائم البري.

كنت فتاة ناعمة، تحبّ اللعب معي، من دون صدر أو كرش كما هو حال نساء خالي الثلاث، كنا نلعب في حوش الدار الذي يشبه غرفة من دون سقف. كانت تركض خلفي وهي تنشد وأولاد خالي يصفّقون:

"يا أم الفستان المرقع، صار لك قاعة ومربع، كنت قرعا وحفيانة، يصيحوا لك: ست فلانة".

وعندما كانت نساء خالي ينرفزن من صياحنا ولعبنا، يضربننا ويضربن ضرتهن الصغرى أيضاً. وعندما يأتي دورها لتنتقل إلى خلف الشرشف، كانت تنظر إليّ، وتبكي بصمت، ثمّ تنزوي يوماً أو يومين، وهي تشعر بخجل شديد من فعلة خالي، كما تشعر بألم ممض أسفل بطنها، وفي إحدى المرات وبينما كنا نختبئ عن أعين أولاد خالي أثناء اللعب، التصقت بي بشدّة، ثمّ قالت لي: أنت يتيم، ثمّ جعلت تقبّلني بنهم. أحببنا كثيراً لعبة الاستخباء والتقبيل هذه. كنا نلعبها كثيراً رغم أن أولاد خالي قد ملوا هذه اللعبة السخيفة. أصبحت أبادر فور غيابنا عن أعين الآخرين إلى الالتصاق بها وتقبيلها.

وفي إحدى الليالي، وبينما كنت أتفرس في وجهها كالعادة، شرع مؤذن جامع "البكرة جي" بإنشاد قصائده، التي تسبق آذان الفجر. جاء صوته أجمل وأرق من أيّ مرّة أخرى. غبت عن الوجود. أصابتني نشوة غريبة، وأحسست ببرد شديد. لا أستطيع بعقلي الصغير أن أفسّر ما جرى لي، ولكن صوت المؤذن الحنون، ووجه تلك الإنسانة الرقيقة النائمة، وسكون الكون... كلّ ذلك جعلني أشعر بما شعرت.

"وانظر للوجه الجميل إذا بدا   يلوح لي الشكل الظريف فأطرب".

وفجأة أحسست بيدها تحيط برقبتي وهي تلتصق بي، ثمّ همست وفمها ملتصق بأذني:

- ما بك؟ ... إنك ترتجف. أأنت مريض؟

- لا أعرف ما بي.

مسحت دموعي، ثمّ ضمّتني إليها أكثر، وراحت تقبلني كالمجنونة. قالت لي

وهي تشهق:

- أحبك أنت، وأكره خالك.

غاصت تحت اللحاف، وجذبتني إليها.

بعد ذلك لم نعد نلعب مع أولاد خالي. كبرنا فجأة. أصبحت هي امرأة، وأصبحت أنا رجلاً كاملاً. لم يكن ينقصني سوى الخروج إلى العمل، واللعبة الوحيدة التي كنا نلعبها معاً هي لعبتنا الحلوة عند الفجر على أصداء صوت مؤذن الجامع الجميل.

بعد ثلاثة أشهر ظهر عليها الحمل. لم يفرح أحد. لم يدقوا ويغنوا. كلّ ما فعلوه هو أنّهم برموا شفاههم، وكأنّ إحدى القطط هي التي حبلت. كان خالي لا يأبه للحمل إن لم يكن ذلك ثمرة لعمل نكاحي عالي الجودة. سخرت منهم امرأة خالي الرابعة. همست لي ونحن ملتحمان: الولد هو ولدك، لقد حبلت منك. صعقتني. بقيت أياماً أقلّب الموضوع في ذهني. ثمّ اقتنع عقلي الصغير آنذاك، أنّ الحمل يأتي بعد شيء من هذا الذي كان يجري بيننا وقت الفجر. ماذا عليّ أن أفعل؟ أحسست بالذنب المريع الذي اقترفته.

رحت أشتم، وأسب نفسي طوال الوقت. أنت بلعوص يا ذنب الكلب! يا مشعل الفتن يا خائن يا كومة من الروث! كنت أبحث عن أيّة مسبة جديدة لأقرّع نفسي بها. ورغم أنّها هدأت من نفسي، وقالت لي:

"هذا شيء عادي، فأنا لا أحبّ خالك، ولن يعرف أحد مهما حصل" إلاّ أنّني بتّ أكره المكوث في البيت رغم أنّنا لم ننقطع عن فعلتنا الفجرية يوماً واحداً. طلبت من خالي أن يأخذني معه إلى العمل. فرح بذلك، وأخبر الجميع أنّ عمر أصبح رجلاً، وأنّه سيخرج معه إلى العمل منذ الغد. كان خالي يعمل في حفر الآبار، فورثت عنه هذه الصنعة.

وفي أحد الأيام عدنا من العمل أنا منهك القوى. وما إن ولجنا الزقاق حتى شاهَدَنا بعض أبناء خالي، فركضوا إلينا، وهم يزفون النبأ غير السعيد. لقد ماتت امرأة خالي أثناء المخاض الذي جاءها على غفلة عند الظهر! ماذا... أيّة امرأة خال منهن؟ (كأن جميعهن كن حبالى). لقد ماتت الصغرى... الرابعة. تطلع خالي إلى

الجسد البارد ذي الوجه الأبيض المذعورّ، ثم طقطق بلسانه، وكأنّه كان يتأسف على مصاريف العرس وعلى الطعام والكساء الذي ذهب فيها، ثمّ خرج ليحفر لها قبراً في مقبرة "الصالحين". أما أنا فقد رحت أبكي، وأشهق، ثمّ سقطت مغشياً عليّ.

ألست أنا السبب يا فريدة؟ ... ألست ابن حرام، كيس خيش مليء بالخراء؟ سحقاً لي... أنا المذنب ابن الكلب! ولكنهم قالوا لي، حينئذ، إنه قضاء الله وقدره وأنّها صعدت رأساً إلى الجنة.

هذه هي قصتي مع زوجة خالي الصغرى. لقد أورثتني ألماً فظيعاً في نفسي، وبقيت أشتم نفسي في كلّ مناسبة.

ما هذه المدينة المظلمة يا عمر. كيف تعرف طريقك عبر هذه الطرق التي لا معنى لها؟ لماذا أطفأوا الشموع والفوانيس والقمر؟ كم ينقبض قلبها وهي مازالت قابعة في قعر العربة، من الخلف، والجوع ينهش معدتها، ويخدر جسمها.

نهر البغل الذي جعل يتباطأ صاعداً إحدى الطرق: دي... دي ولك دي، ثم سلّك حنجرته وما لبث أن غاب في العتمة مرّة أخرى، سمعت صوت امرأة تتأوه فجفلت، كان الصوت يأتي من بعيد مختلطاً بأزيز وطقطقة العربة، ثمّ ما لبثت أن غاب. وجدت نفسها تسأل عمر بذعر محطمة صوت العربة الرتيب:

- ما هذا؟ ... ما هذا يا عمر؟

- امرأة جائعة... إنها ملقاة إلى جانب الطريق.

جائعة؟؟ هذه الدنيا لن تستحي أبداً. امرأة جائعة ملقاة إلى جانب الطريق. يا إلهي! كم من الناس الجائعين صادفوا منذ دير الزور وحتى هنا؟ مئات... ألوف.. عشرات الآلاف من العرب والأرمن والكرد. في الشوارع والطرقات. في كلّ مكان، يهجمون عليك مادّين أياديهم، طالبين رغيفاً.. بل لقمة، متوسلين. بعيونهم يتسولون. يبكون. الله يرحمك يا شيخ درويش، كم كنت تعرف من أشياء.

وفي دير الزور، استأجروا غرفة في أحد الخانات.

كان الخان يحتوي على أربع أو خمس غرف تطل على باحة كبيرة شبت في منتصفها شجرة جوز عارية تفتقت أغصانها عن وريقات صغيرة خضراء تشهد على قدوم الربيع. كان الخان عتيقاً تدلف سقوف غرفه في فصول الأمطار.

أفرغوا العربة، ثمّ قام الرجل بحلّ رباط البغل، ومن ثمّ قاده مع الحصان إلى مورد الماء داخل الخان. وفي الحال، استلقت فريدة المنهكة، وراحت في سبات عميق.

خرج عمر إلى الباحة، تمطّى، ثمّ غسل وجهه، وشرب حتى ارتوى. لم يرهقه السفر، فلم يكن تعباً. جلس على مقعد خشبي موضوع إلى جانب باب الغرفة. كانت الغيوم تتجمّع في السماء حاجبة شمس آخر النهار، وكانت النسمات قد انقلبت إلى شمالية غربية باردة، إلا أنّه لم يكن يحسّ بأيّة برودة فيها. على العكس، كان يحسّ بحرارة تنبجس من صدره ولا يعرف لها سبباً. راقب بلاط الباحة الحجري الذي صقلته الأرجل والسنون، ثمّ جعل ينقل عينيه في جمع البشر المتكومين على بعضهم والمستلقين على أرضية باحة الخان. شيوخ ونساء، عجائز يحملون أطفالاً على أيديهم وعلى سيقانهم الممدودة كالأسرة. شيوخ ونساء وأطفال. أطفال كثر. أين هم الرجال؟ أين هم الشباب؟

ميّز العيون الجاحظة والغائرة. بعض العيون تجحظ من الجوع وبعضها تغور في الجمجمة وتتجعّد البشرة من حولها.

ولكن العيون كلّها كانت تراقبه. تتبع حركاته. مئة عين، مئتين... تبرز من الخرق الساترة للرؤوس، واسعة، بيض، يشوبها احمرار متوفز. عيون واسعة خائفة.

الشفاه... مزمومة، متجعدة، لا يتجرأون على فتحها. هكذا أقنعوا معداتهم. أغلق فمك فلن تشعر بالجوع.

ولكنها زمّت لأمر آخر أيضاً...!

قذف عقب سيجارته قبل أن ينهيه، راح العقب يطلق دخانه بخيط متعرج. تحرّك شيخ على أربع. اقترب بهدوء واحتراز وهو يتطلّع إلى عمر. انتشل العقب، وضعه في فمه، ثمّ عاد بنفس الطريقة من دون أن يحيد بنظراته عن هذا الرجل القوي ذي الفم الملتوي. جلس الشيخ، وراح يعبُّ الدّخان من العقب. شاركه شيخان آخران بلذة التدخين.

اقترب الرجل الغريب بعد أن انتهى من سقاية الحصان والبغل. جلس بجانب عمر، ثمّ قال:

- لم يبقَ لدينا شعير.

أجابه عمر وهو ما يزال يتفرّس في وجوه الناس:

- سأبيع الحصان، لا يمكنني جرّه إلى ما شاء الله.

هز الرجل رأسه بإذعان. إنّه يوافق عمر على كلّ شيء يقوله. إنّه يتبعه حتى في أفكاره، رغم أنّه غير مفهوم بتاتاً. سأل عمر:

- من هؤلاء؟

- إنهم من الأرمن يا سيدي.

- ومن أنت؟

تفرسا ببعضيهما. ذات نظرة الرجل، فلم تصمد أمام عيني عمر. قال الرجل:

- اسمي سليم. كنت مسيحياً يا سيدي، من بيروت، هل زرت بيروت يا سيدي المحترم؟... إذن أنا من بيروت واسمي سليم، وكنت مسيحياً يا سيدي... أنا من عائلة محترمة وأبي كان..

- طيب... طيب... ماذا كنت تفعل هنا؟ من أتى بك إلى هنا؟ قال عمر مهتاجاً، فتوسل الرجل:

- هذه قصتي يا سيدي... دعك منها أيها الأخ الطيب. إنها تجعل الحجر يئن يا سيدي...

- قل لي ما هي قصتك، ولا تخف عليّ!..

فرك سليم وجهه بكفيه، فبان الألم يغبش عينيه. قال بروية، وقد أقلع عن الكلام رشاً:

- منذ أكثر من عام. كان ذلك منذ أكثر من عام. ويمكنك يا سيدي أن تقول كان يا ما كان، فلم أعد أتذكر التواريخ أو الأيام. وما حاجتي إليها في هذه الصحراء؟ هنا نسيت أن اليوم أربع وعشرون ساعة. فبت أعتقد أنّ اليوم أكثر من مئة ساعة. لماذا؟ لأنّ يوم الهارب والخائف يمرُّ ببطء شديد. تصوّر ذلك يا سيدي! نهارك طويل، طويل، بلا نهاية، وأنت تركض، وتختبئ، وتكذب، وتسرق طعامك. حدث معي ذلك. لماذا؟ حسناً. كان أبي رجلاً مثقفاً، يعرف وجهاء كثراً، يأتون لزيارته، كان محبوباً، يقرأ كثيراً. درس في باريس، كان يملك صحيفة في بيروت، هل

تعلم ما هي الصحيفة يا سيدي؟ عفوا... حسبتك تعلم. إنها الجريدة. أوراق طبعت عليها أخبار وآراء. كان أبي يكتب في هذه الصحيفة أو قل الجريدة. ماذا كان يكتب؟... كلّ شيء. عن الناس والوجهاء وأخبار العسكر وعن الحروب وأخبار الأستانة. هل قرأت جريدة يوماً ما يا سيدي؟... كلا...؟ لا تؤاخذني على سؤالي السخيف هذا!. إنّني أبدو سخيفاً في بعض الأحيان. بعضهم لا يقرأ الجريدة، بل يلفُّ بها سجائره. إنه شيء مشابه، الجريدة دائماً مفيدة. المسلمون يتجمرون بها والمسيحيون يمسحون بها دبرهم بعد التغوط.

إنها مفيدة دائماً كما قلت لك. نعود إلى موضوعنا. في أحد الأيام جاء رجال الجندرمة، وألقوا القبض على والدي، كما ألقوا القبض على بعض موظفي الجريدة بعد أن أغلقوا المكاتب، ووضعوا عليها حارساً.

لماذا؟... حسناً... لأنّ والدي (كما فهموا ذلك فيما بعد) ينتسب لحزب ممنوع ويكتب في الجريدة أخباراً سياسية ممنوعة. قلت أخذوا والدي. إلى أين؟... لم نعرف. ذهبنا نتوسط عند أصدقائه. هل تعلم يا سيدي، أنّ معظم أصدقاء والدي قد ألقي القبض عليهم أو هربوا؟ نعم... لم أجد واحداً بإمكانه مساعدتي. ليس هذا فحسب، بل إنّ الجندرمة جاءت إلى بيتنا. وضعتنا في ثلاث عربات. أنا وإخوتي وأخواتي وأمّي وعمتي وزوجتي وطفلي وزوج أختي وطفليهما. لم يتركوا حتى الخادمة المسكينة. وضعونا في ثلاث عربات، من دون أن نعرف شيئاً إلى أن يقودوننا.

ماذا حدث يا سيدي، لماذا تحملق بعينيك هكذا؟ إنّك تخيفني يا سيدي...! حسناً سأتابع.

سارت العربات بنا. كنت لا أعرف ماذا أفعل. هل أهدئ من روع أهلي، أم من روعي؟ ولكن سأقول لك يا سيدي، كلّنا كنّا نبكي، ونعول، حتى أنا يا سيدي.

في حمص، اختفت إحدى العربات. رحنا نصرخ، ونبكي، ونتوسل، إلاّ أنّ الجنود الذين جاؤوا لحراستنا، راحوا يكيلون لنا الضربات والشتائم. لم نصمت، بل رحنا نبكي بصوت خافت، وفي حلب اختف العربة الثانية.

يا إلهي يا سيدي (جعل سليم يبكي كالأطفال) لو كنت تعلم عن العربتين أيّ شيء فأنا أعلم، إلى أين أخذوا الباقين من أهلي؟ هذا ما جعلني أجن.

في حلب أركبونا في قطار بغداد. كنت أنا وزوجتي وطفلي واثنتان من أخواتي. في القطار اقتربت من أحد الحراس، وأعطيته نصف ليرة ذهبية، ثمّ سألته إلى أين يأخذوننا؟ وماذا يريدون أن يفعلوا بنا؟ رقّ قلب الرجل، فقال لي، إنّنا في طريقنا إلى "أرضروم" لأنّنا منفيون. هل تعلم يا سيدي أين هي أرضروم هذه؟ إنها بعيدة، بعيدة جداً. سألته لماذا ينفوننا، ونحن لم نفعل أيّ شيء يغضب الله والسلطان، رفع ابن الكلب كتفيه، ومطّ شفتيه، ثمّ أغلقهما، حسناً... سألته برجاء حار عن أخبار أهلي، عن العربتين الأخريين. تطلّع إلى الجهتين، ثمّ همس لي أن الآخرين قد نفوا إلى أماكن أخرى، ولا يعلم عن هذه الأماكن أيّ شيء.

في اليوم التالي أنزلونا في محطة "عرب بيكار" سلّمونا هناك إلى مخفر للشرطة، حيث وضعونا في عربة مع رجلين آخرين، ثمّ قادونا عبر طريق محفرة إلى بلدة سروج، وهي مركز قضاء. هناك وضعونا في خان كي نبيت ليلتنا، وفي تلك الليلة حدث شيء رهيب. هل تعلم يا سيدي؟ شيء رهيب. انظر كيف أرتجف (عاد سليم للبكاء) ليتني مت، ليتني نمت، ولم أفق، حسناً يا سيدي، لا تنهرني. سأسرد عليك كلّ شيء، ولكن أرجوك ارأف بحالي، فأنا إنسان محطم، حطّمني أولئك الأنذال، لعنة الله على أبيهم. منهم لله... منهم لله...

– قل ماذا حدث؟

أمره عمر. مسح سليم عينيه بيده فاختلط بلل الدمع بوسخ الوجه فتأطرت العينان بالسواد. قال سليم:

– أنت رجل قوي يا سيدي، ليتني كنت مثلك. كم أحسد الأقوياء، لأنّهم يولدون هكذا. أمّي ولدتني ضعيفاً نحيلاً وجباناً. قل لي يا سيدي هل الأقوياء يخلقون هكذا أم يصبحون أقوياء فيما بعد؟.. حسناً، لا تنظر إليّ هكذا، فأنت تخيفني.. سأتحدّث... سأقول لك ماذا حدث في تلك الليلة. جاءوا، فتحوا باب الخان، وهم يضحكون، ويشتمون، أخذوا زوجتي وأختي. كنّ يصرخن، يتوسلن، مددن أيديهن نحوي كي أخلصهن من أوباش هذا العصر. ماذا كان بمستطاعي أن أفعل؟ فقط التقطت الطفل من يدي امرأتي، واحتضنته، وكأنهم سيأخذونه هو الآخر. شرعت أبكي. مددت يدي أيضاً، ولكنهم صفقوا الباب خلفهم، والنساء يصرخن، ويبكين.

حملوهن على أكتافهم، ورحلوا بهن.

جعلت أبكي طوال الليل، وأهدهد طفلي، قام الرجلان الآخران بتهدئتي، قعدت أنتظر بزوغ الفجر لأعرف أيّ شيء عنهن.

- وفي الصباح؟؟ سأل عمر فاقد الصبر، فقال سليم، وهو ينتفض:

- في الصباح يا سيدي؟... آه، ليتني مت، ليتهم قتلوني أولاد الحرام، أخرجونا، أنا والآخرين والطفل. وضعونا من جديد في العربة. أين النساء؟... توسلت إليهم، قلت لهم، اقتلوني، واتركوا النساء.

كانوا يضحكون. أولاد القحبة، كانوا يضحكون، عندها ربّت على كتفي أحد الرفقاء بحنو، ففهمت المصيبة.

- ماذا فهمت؟

- إنّهم اغتصبوهن، ثمّ ذبحوهن.

فصاح عمر بقوة:

- وماذا فعلت أنت؟

ارتعشت الوجوه المكومة بجانب الجدران، وبان القلق والترقب في عيونها. رفع سليم يديه وكأنه يحمي نفسه من لكمة قد يوجهها إليه عمر، فقال بصوت هامش خنوع:

- قبعت في العربة، ورحت أبكي.

- يا ابن الكلب، يا ابن القحبة. صاح عمر، ثمّ نهض. أمسك سليماً من خناقه، دفعه إلى الحائط، وراح يصفعه بقوة، وهو يبربر:

- تقول قبعت في العربة، أي ابن صرماية أنت، لماذا لم تقتلهم؟ يا جبان يا حقير، أنت أحقر منهم... يغتصبون نساءك، ويذبحونهن وأنت تبكي... ومازلت تبكي... ماذا أفعل بك..؟! (توقف عمر عن صفعه، واكتفى بخبط جسمه على الجدار) آه يا قواد... أمّك زنت بك!!

كان سليم يتوسل إلى عمر في نفس الوقت:

- يا سيدي... يا سيدي أرجوك... ارأف بحالي، ولكن.. نعم، أنا أستحق الشنق، كنت أعزل، كانوا ستة حراس. ماذا أفعل يا سيدي...

ثمّ تجمّد الرجل. شاهد شعاعاً رهيباً، ينطلق من عينين واسعتين فتجمّد في مكانه. أيّ سر هذا؟ لم يعد يسمع شتائم عمر، ولا يحسّ بصفعاته. لم يعد يشعر سوى بثقل هائل يقبع عليه، فيجمّده في مكانه. وعندما تركه عمر، انهار، وسقط عند قدميه. لم يفق من ذهوله إلا بعد ساعة. ماذا حدث؟ هل ما رآه صحيحاً؟ أية قوة تسطع من عيني هذا الرجل؟ قوة لا يعرف مثيلاً لها. عمر بنبوك... من هو عمر بنبوك هذا؟ هل هو وحوش، أم ابن آدم مثلنا؟ ولماذا تجمّد في مكانه، كأنّه تحوّل إلى حجر لا روح فيه، كيف حدث ذلك؟ ولكنّ الرجل، ثار بسبب ما أصابه من جبن حينها... ولكن، أيّ ابن أمه سيقوم بقتل ستة حراس مدججين بالسلاح؟ هل سيفعل ذلك عمر بنبوك؟ ... هذا الإنسان سيفعل دون شكّ، كان هذا الإنسان سيقتلهم لا محالة!

اللعنة عليك يا سليم... اللعنة عليك!

تسربلت مئات الأعين، التي كانت تحدّق فيه، في عتمة الغروب. تلمّس جسده، ثمّ نهض، سار نحو العربة، صعد إليها، ثمّ استلقى، وحاول أن ينام دون جدوى، بقي طوال الليل يفكّر بما حدث. راقب النجوم حين تتقشع عنها غيوم الربيع. بكى وغضب، وخجل، وعضّ على سبابته. وما إن زحف الفجر رمادياً حزيناً، حتى قام، فشدّ البغل إلى العربة، ثمّ أيقظ عمر وزوجته.

قاد سليم العربة صامتاً لا يجرؤ على الكلام. كان يلقي نظرات سريعة على وجه عمر الصامت الغضوب. وعند السوق راحوا يبحثون عن بعض المؤونة. كانت الحوانيت مغلقة، أمّا الدكاكين التي أشرعت أبوابها، فقد كانت فارغة. لا يوجد خبز، لا يوجد جبن، لا يوجد... لا يوجد شيء. وما إن يوقف سليم العربة أمام دكان، ويترجّل ملتقطاً النقود الورقية أو القضية، التي غنمها عمر من جيوب الجنود القتلى، حتى تتجمّع عشرات الكائنات الحية التي لها هيئات بشرية، وتروح تتسوّل من فريدة أيّ شيء يؤكل.

من مال الله... أعطيني خبزاً الله يعطيك... ابني يموت جوعاً... اكمك... اكمك، هبز، هبز (صبية أرمنية تصيح: خبز خبز)، فرغور موتيون...

كانت فريدة تراقب الحشود التي تهرع إليهم، ممدودة الأيدي، بصمت. كانت

تبكي بصمت، تنسلّ دموعها من عينيها، وتتعرّج نازلة إلى شفتيها بصمت أيضاً. وفجأة امتدت طفلة صغيرة قذرة الملامح إليها.

صامت الأم بالأرمنية: آرغيرتسور... آرغيرتسور.

كانت الطفلة تفرفح، تزعق باكية ومخاطها الأصفر، يسيل من منخريها يلوث فمها. تراجعت فريدة في العربة، ثمّ انكمشت على نفسها. غطّت وجهها بيديها، ثمّ رأت أن تسدّ أذنيها ففعلت، ثمّ استدارت إلى عمر. كان يهزّ رأسه متجهماً. هذه هي الحال الدّنيا يا فريدة. الحرب، الحرب، الحرب والجوع. ماذا يستطيع سوى أن يهز رأسه، وكأنّه فهم ما تقصده بدموعها ونظراتها جعل يهز رأسه فقط.

قالوا لهم: في المدينة لن تجدوا لقمة واحدة... اذهبوا إلى القرى!

ساروا من جديد، تلاحقهم الحشود أو تلاحقهم النظرات الدامعة والجائعة، أو تلاحقهم الأيدي النحيلة المنكمشة على العظام، أبكي يا فريدة! لقد ذهبت إلى غير رجعة أيام بستان الشيخ درويش! تغيّر كلّ شيء حتّى عمر تغيّر، حتّى الناس تغيروا، وتبدلوا. فقد فهمت ما كانت تبربر به الأم الأرمنية. خذي ابنتي كي لا تموت من الجوع، خذيها، وأطعميها! تطلّعت مرّة أخرى إلى عمر. كان يراقب الناس بصمت، وأعصاب رقبته مشدودة قاسية ظاهرة للأعين. كان يرى إلى جثث النساء والأطفال، الذين ماتوا من الجوع، وقد تركت في الطرقات تتفسخ. شهقت فريدة فهمس سليم بخجل:

– يا سيدي المرأة. المرأة يا سيدي!

بقي عمر صامتاً، ظلّ صامتاً طوال الرحلة. مع من يتكلّم؟ مع فريدة؟ وماذا سيقول لها؟ إنّه، هو أيضاً قد صدم. وهو أيضاً يفور في داخله؟ إنّها فتاة مدلّلة. الحياة هي هكذا ويجب عليها أن تتقبّلها على علاتها؟

لا.. حتّى أنّه غير مقتنع بهذا الكلام، غير مقتنع أنّ الأرض قاسية هكذا، مميتة، تجذب البشر إليها كي تذلهم، وتحطّمهم بهذا الشكل. هذه الأرض يعرفها جيداً. لقد حفر فيها آباراً كثيرة، بقدر شعر رأسه. إنّها طيبة، هو يعرفها على حقيقتها، خصوصاً عندما يحفر إلى عمق ثلاثة أذرع أو أكثر، قد تغدر في بعض الأحيان، قد ينهال التراب على من يدقّ في أحشائها، ولكنّ آمنة في معظم الأوقات،

يحسّ الإنسان فيها براحة عظيمة لا يعرفها في مكان آخر.

الأرض طيبة، تعطي الماء، والزرع، ويعود إليها الإنسان معززاً مكرماً، فتستقبله بعز وإكرام، الأرض أمّنا الكبيرة، فلماذا أصبحت قاسية هكذا، لماذا يحدث ما يحدث؟

يا فريدة... يا فريدة لا تظلمي أمّنا الأرض، ليست هي السبب، فهي لا تضن على أبنائها بشيء، ولكن الأمور أصبحت واضحة، إنّهم الغرباء، إنّها الحروب، قواويد أولاد قحاب!

ولكن عمر يتكلّم في بعض الأحيان، عندما يقابلون دوريات الفرسان الذين يجوبون الطرقات باحثين عن الفارين وقطّاع الطرق. كان يتحدّث إليهم بالكلمات اللازمة، ويبرز لهم ورقتيه، فيتركونهم يمرون بسلام.

مرّة سألوه: ومن هذا الرجل؟

فقال لهم: اتركوه... إنه مجنون!

صدّقوه، وتركوهم في سلام.

ومرّة أخرى سألوا عن الحصان، ثمّ فكّروا أن يأخذوه. جيش السلطان يحتاج إلى الخيل. إلا أنّه رشاهم بورقة بنكنوت. طريقة جميلة تسري في كلّ الأوقات، ولكنّه فكّر: إن لم يقبلوا فيستلّ بندقيته، وسيرديهم قتلى، ولكنّهم وفّروا عليه رصاصاته.

فقط في مثل هذه الأحوال كان يتكلّم، أما في غيرها فقد كان صامتاً، كما هو الآن، يقود العربة في طرقات حلب المظلمة، والتي بدأ الفجر يبزغ عليها رويداً رويداً، وفريدة قابعة في مؤخرة العربة، تراقب أشباح الحيطان والأكشاك والأبواب المغلقة، تراقب انحناءة ظهره وهو يتمتم في أوقات متقطعة: دي... دي ولك دي.

البارحة، وعندما توقفوا للمبيت في العراء بعد أن فقدوا الأمر في الوصول إلى "دير حافر" قبل حلول الظلام، شاهدوا عشرة فرسان يقتربون منهم خبباً. التقط عمر بندقيته، ثمّ لقّمها، وقذف إلى سليم بالأخرى. قال له من بين أسنانه:

– دافع عن نفسك أيّها الرجل! أما أنا فسأدافع عن نفسي وعن المرأة.

توقف الفرسان بعيداً عن العربة، ثمّ اقترب قائدهم وهو يلوح بيده. سأل عمر بصوت عال:

- ماذا تريد؟

فقال الرجل وهو ما يزال يلوح بيده:

- من أنتم؟

- نحن مسافرون إلى حلب.

- هل أنتم جنود. سأل الفارس، فأجاب عمر:

- لا..

ترجّل الرجل، وقد أبقى بندقيته على حصانه. اقترب من العربة. كان يرتدي ملابس معدنية، وقد اعتمر طاقية عسكرية. توقف أمام العربة. ابتسم وقال:

- هل أخفناكم؟

- من أنتم؟

- نحن أصدقاء. كثير منا من حلب. هل أنت حلبي؟

- نعم، اسمي عمر بنبوك.

- من أين أنت قادم؟

- من بغداد.

- هل أنت هارب من الجيش؟ إنك ترتدي معطفاً عسكرياً.

صمت عمر. أنزل بندقيته، ثمّ اقترب من الرجل. كيف سيقول له إن كان هارباً أم لا؟ أراد أن يعرف من هؤلاء قبل أن يعترف بأيّ شيء. سأله عمر:

- وأنتم؟

- نحن فرارية. نعيش كما ترى في البراري، نسرق طعامنا من الجيش التركي، إنّهم يسموننا قطّاع الطرق. حسبناكم عثمانلية فجئنا نسرقكم. وبما أنّكم لستم كذلك فأنتم أصدقاء. وإذا كنتم جائعين أطعمناكم، هل تحتاجون لأيّ شيء؟

تطلّع عمر في سليم، فانتفض الأخير، وقال:

- لا بأس إن كان معكم خبز زائد.

- يوجد طبعاً... قال الرجل بحماسة، ثمّ استدار، وانطلق عائداً. توقف بعد هنيهة، وقال لعمر:

- الأفضل أن تبعدوا عن الطريق العام. تعالوا إلينا خلف هذه الهضبة. سوف

نحرسكم. نام عمر وفريدة في العربة، بينما ظلّ سليم سهران يثرثر، كعادته، مع قطّاع الطرق. أخبرهم بقصته من أولها، ولكنّه كذب عليهم. قال لهم، إنّه كان مربوطاً بالحبال عندما أخذوا زوجته وأختيه، ولم يحلوا قيده إلا عندما وصلوا إلى "أورفه". ثمّ راح يسرد عليهم بحماسة ما كان يخاف قوله لعمر بعدما ضربه في خان دير الزور. فقد أوجد لنفسه تبريراً كي يستمرّ في سرد قصته، حينما كذب عليهم وأوحى لهم أنه لم يكن جباناً، فقد خاف من أن يقوموا بضربه كما فعل عمر.

قال لهم إنّه بعد سبعة أيام من السفر، وصلوا إلى مدينة محاطة بسور عظيم ولها أربعة أبواب وعلى كل باب مخفر شرطة للحراسة والتفتيش. إنها سجن كبير. إنها "ديار بكر" هناك أخبره شاويش في أحد مخافر الشرطة، أنه منفي إلى "أرضروم" وبما أن أرضروم أصبحت مهددة بالاحتلال من قبل الجيش الروسي، فإنّهم سيبقونه في ديار بكر. ولكن المشكلة كانت العناية بطفله. ماذا عليه أن يفعل؟ إنّه كلّ من بقي له من عائلته. وضعوه في سجن ديار بكر هو وابنه. بعد يوم أو يومين، التمس مدير السجن كي يخرجوه من السجن، فهو ليس سجيناً بل منفياً ولذلك يملك الحق في أن يعيش في غرفة يستأجرها في أحد الخانات، وبسبب الطفل وافقوا على طلبه.

استأجر غرفة. كان يملك بعض المال. ثمّ تحسن حال الطفل، بسبب ما شربه من حليب، فتوقف عن الزعيق والبعيق، إلا أنّ المال سرعان ما نفد. بحث عن عمل، ذهب إلى إحدى المطابع، فهو يفقه في هذه الأعمال، إلا أنهم حسبوه أرمنياً فرفضوا تشغيله. فكّر طويلاً ماذا عليه أن يفعل؟ هل يهرب؟ والطفل؟ هل بإمكانه الهرب وهو يحمل الطفل؟ مشكلة، والله مشكلة يا إخوان!...

ديار بكر، إنها تشبه القلعة بأسوارها. ولكنها قلعة سوداء، كلّ شيء فيها أسود، لا يبشر بالأمل. فأسوارها وبيوتها بنيت بالحجارة السوداء، وطرقاتها، رصفت بنفس الحجارة أيضاً. إنها بؤرة الموت. ولكنّهم أسموها "قلعة الدماء" أيضاً. لماذا؟ كيف لماذا؟ ألم تسمعوا بالذي كان يجري في ديار بكر؟

كانت المدينة تعجّ بالحشود الحاشدة. فبالإضافة إلى المبعدين والمنفيين. كانت هناك أعداد هائلة من النازحين والمهجرين. مدينة صغيرة محاطة بالأسوار، أصبحت تعجّ بالبشر مثل النمل. الطعام متوفر ولكن الأمن لا. الإنسان ثمنه برغوت

في وقت الشدّة. فقد جاءت جائحة كنّست المئات. قالوا إنّها الحمى النمشية.

حرارة وبثور حمراء ثمّ... الموت. أصيب الطفل بالحمى. ارتفعت حرارته وجحظت عيناه، ثمّ راح يرتجف، كأنّه في عزّ الشتاء. جعل يصبّ الماء البارد على رأسه طوال الليل. حَسِب أنّه ميت لا محالة. إلا أنّ الطفل سلم والحمد لله.. لم تكن الحمى النمشية، بل حمى عادية إلا أن سليماً ورث منها إيماناً راسخاً بأن ابنه سيعيش، فعاد يفكر بالهرب من جديد. سوف يحمله على كتفيه وسيطوي البراري على قدميه. هكذا قرر. ولذا بدأ يضع الخطط تلو الخطط للهرب.

في تلك الأثناء وعى أمراً آخر. الأرمن. يا إخوان، شيء يشيّب شعر الرأس، خصوصاً وأنّ الناس هناك كانوا يشكّون أنّه أرمني. خاف على ابنه. من ناحيته طظ في حياته، لا تهمه حياته بل حياة الطفل، فقد كانوا يذبحون الأرمن كالخراف. وصل إلى سمعه أن الأتراك في ولاية تبليس كانوا يجمعون الأرمن في متابن ويسدون أبوابها بالتبن ويضرمون النار فيها فيموتون اختناقاً واحتراقاً. وفي "موش" قاموا بتقتيل الأرمن، رمياً بالرصاص وطعناً بالسكاكين، أما الحكومة في ولاية سيواس فقد استأجرت قصابين، نعم قصابين، بأجرة يومية لذبح الأرمن. كان أفراد الدرك يصفّون كل عشرة من الأرمن على حدة ويرسلونهم واحداً بعد الآن إلى القصابين، الذين كانوا يذبحونهم ذبح الغنم. هل تسمعونني يا شباب؟ أخوكم هذا سمع، ورأى مثل هذه الأعمال. لعنة الله عليّ؟ الله أعلم كيف لم أجن. كانت هناك فرق تُسمى "بالمتطوعة" أي أنّهم متطوعون... تصوروا!

هؤلاء الملائكة، كانوا يربطون الأرمن رجالاً ونساء، ويلقونهم من أماكن عالية إلى الأسفل. حدث مثل هذا في ديار بكر أيضاً.

– فقد أصبح الخان الذي كنت أعيش فيه مكاناً لتجمع النازحين. رجالاً ونساء وأطفالاً. جوع، مرض، قذارة، وخوف. وفي كلّ صباح كانت تحضر عشرات العربات، يركبون النازحين فيها، ويأخذونهم إلى خارج المدينة، كنت أحسب أنّهم يأخذونهم إلى مكان آخر. ربّما إلى مدينة أخرى... ربّما ليسكنوهم في خيم أو ما شابه ذلك. كان كلّ شيء يبشر بالاطمئنان. سائقو العربات، الحراس، رجال الخان وساكنوه. كلّ الوجوه لم تعبّر إلاّ عن الحنو والاطمئنان. ولكنّنا فهمنا بعد ذلك ما وراء

حركة النقليات هذه، كانوا يأخذونهم إلى خارج المدينة، ويطلقون عليهم النار.*

كانوا يذبحونهم بالجملة. هناك في مكان ما بين قصر السلطان مراد وبين نهر دجلة. يا إلهي يا شباب يا إلهي، إنّني أمرض حين أتذكّر هذه الأشياء!

وحدث ما كان سليم خائفاً منه. فقد وصل أحد رجال الدرك إلى الخان، واستأجر غرفة ليوم أو يومين. كان ينظر إليه نظرة ملعونة. استوقفه مرّة، وسأله:

– من أنت؟

– أنا سليم، من المنفيين السياسيين. أنا من بيروت.

– يبدو أنّك أرمني، ألست من جمعية الطاشناق أو الهنشاق؟

تجمّد سليم في مكانه، أيّة صفاقة هذه، أقسم له بالله ورسوله وبالعذراء أنّه ليس أرمنياً، أخرج الدركي كماشة وقرّبها من فم سليم، قال له إنّه سيحطم أسنانه، وسيقتلع أظافره إن لم يعترف، ثمّ أمره أن يبرز ذكره. (يا شباب... يا شباب، كم مرة اضطررت لإبراز ذكري!) وعندما وجد الدركي أنه غير مختون، غير مطهر، اقتنع تماماً أنّ سليماً ليس إلاّ أرمنياً يستحق الذبح. أمره بالخروج أمامه من الخان. سارا في الطرقات، وفجأة (من حلاوة الروح) وجد سليم مخفر الشرطة، الذي كان يرتاده يومياً لإثبات وجوده، أمامه مباشرة، ركض، ودخل إلى المخفر. لحقه الدركي. وهناك استطاعوا إقناع الدركي أنّ الرجل ليس أرمنياً رغم أنّ ذكره لم يمس.

جرى له مثل هذا الحادث عدّة مرّات، فاقتنع أخيراً بأنّ عليه أن يهرب فوراً.

– وفي فجر أحد الأيام، حملت طفلي ومتاعي، وخرجت من أحد الأبواب. لم يرني أحد. سرت وسرت وسرت. هذه قصة طويلة أيضاً، وها هو الفجر قد طلع أخيراً، وبعد قليل سيستيقظ سيدي وزوجته. إنه سيدي نعم، هو الذي أنقذني من الذبح. قلت لكم يا إخوان إنّني هربت من ديار بكر. مررت بقرى كردية عديد، كانوا يطعمونني فلم يكن معي فلس واحد. حتى، عندما حاول بعض الرعاة سرقة ملابسي لم ينقذني منهم سوى بعض الأكراد المتطوعين الذين كانوا ذاهبين إلى جبهات الحرب مع روسيا. عبرت الخابور بمساعدة عربي من عرب "البقارة" فوصلت إلى مخيم في محل يدعى "طابان" على ضفاف نهر الخابور. جاء إليّ رجل وسألني من أنا، قلت

* – قصة ديار بكر وما كان يجري فيها، مستوحاة من مذكرات فائز الغصين شيخ عشيرة اللجاة وقتئذ. م. الناشر

له إنني عربي ومسيحي من بيروت وأن الطفل طفلي وإننا نموت جوعاً وتعباً. أدخلوني على رئيسهم، كان هو "مسلط باشا" المعروف، رجل أكابر طيب القلب له عدة زوجات أرمنيات، كما أن مخيمه أصبح ملجأ للفارين.

حكيت له حكايتي كلها، كان الرجل يبكي من فرط تأثره. عرض علي فوراً أن يزوجني إحدى بنات عشيرته وينصب لي بيتاً من الشعر، على أن أعلن إسلامي. وافقت طبعاً. ما رأيكم يا إخواني...؟ حسناً... أنا الآن مسلم ولكن على قول المثل: أسلمت سارة لا أكثرت الإسلام ولا قللت النصارى. أسلمت أنا على يد مسلط باشا، فانتقوا لي امرأة أرملة وزوجوني إياها دون مهر. أدخلوني عليها، فإذ بي أجد نفسي أمام امرأة بدينة سوداء تبلغ الأربعين من عمرها. يا إلهي... هذه والله وقعة جميلة...

ولكنها كانت مربية جيدة، فهي تعتني بطفلي الآن.

كيف وصلت إلى هنا؟ ... حسناً، مهلاً يا إخوان. طلب مني مسلط باشا أن أرافق عدداً من الأرمن، من النازحين والهاربين من فتك الأتراك. كان علي أن أرافقهم حتى إحدى واحات البادية، حيث تخيم بعض العشائر الصديقة. كان علي أيضاً أن أحميهم من بطش الدرك. وبينما كنا سائرين في الطريق العام إلى دير الزور وإذ بثلاثة فرسان من الدرك. أخبرتهم إنني صهر مسلط باشا وإنّه يوصي أن لا يصاب هؤلاء بأيّ أذى، هزّ أولاد الزنى رؤوسهم، ثمّ ودون أن يستمعوا لتوسلاتي استلوا خناجرهم، ونزلوا بهؤلاء الأرمن المساكين ذبحاً وتقتيلاً. كانت هناك فتاة صبية شقراء في الخامسة عشرة. تركوها للنهاية أغمي عليها وعليّ. أفقت بعد ساعة فإذ بي أراهم يغتصبونها الواحد بعد الآخر، ولما فرغوا، قام أحدهم، وجعل يطعنها بمدية شبرية. كنت أبكي، وأصرخ، أوثقوني بالحبال، وجرّوني معهم، وعند مفترق الطريق إلى دير الزور. وقفوا ينتظرون أحداً ما. ولكن ذلك الأحد لم يأت، بل وصل سيدي هذا في عربته. طلبوا منه أن يبرز ذكره أيضاً، (يا لهم من هواة أنذال) إلاّ أنّه قتلهم.. قتل الثلاثة بلمح البصر، يا له من شجاع. بمفرده قتل ثلاثة من الدرك المسلحين. هل سبق، وشاهدتم مثل هذا العمل من قبل؟

صاح قطاع الطرق:

- لا... لا...!

- نعم... نعم...!

- هذا عمل جميل.

- إنّهم يستحقون ذلك أولاد الكلب.

- لعنة الله على فروج أمهاتهم.

- وأنا أيضاً سألقّنهم درساً...

ومن فرط حماستهم، خرجت طلقة من إحدى البنادق. فأحدثت دوياً مكتوماً استيقظ على أثرها الجميع.

وضعوا البغل أمام العربة، ثمّ أطعموا عمر وزوجته خبزاً وجبناً.

اقترب سليم من عمر بحياء، ثمّ راح يبربر، وهو يعبث ببندقيته:

- يا سيدي، لا تؤاخذني يا سيدي. أنت رجل شهم، ولكنّك علمتني أشياء كثيرة. أرجوك أن لا تؤاخذني. لديّ طلب أعرضه عليك، ولكنّني أخجل من نفسي، نعم، أنا خجلان...

- قل ما تريد ولكن من دون كلام زائد...

- حسناً يا سيدي... كيف أقول، لا أعلم، بل أعلم، اسمع يا سيدي، أرجوك... ليس لي أهل، بقيت وحيداً، بل عندي طفل وزوجة سوداء... أنت لم تسمع القصة حتّى النهاية، حسناً، إلى أين أنا ذاهب؟ لن أذهب إلى بيروت، أرجوك.. اسمعني جيداً، لقد قرّرت أن أبقى مع قطّاع الطرق هؤلاء... إنّهم قومٌ ظرفاء، لقد فوجئت بظرفهم، إنّهم طيبون، لقد أحببتهم، وهم أحبّوني، لذلك سأبقى معهم، لقد وافقوا على ذلك، ولكن تلزمني بندقية وحصان، وأنت لست بحاجة للحصان، قلت لي في دير الزور إنّك ستبيعه، وإنّك ستتخلّص منه، أعطني الحصان يا سيدي، وأعطني هذه البندقية، فأنا...

زفر عمر، ثم قاطعه قائلاً:

- حسناً... حسناً، يا لم من ثرثار لعين، بل أنا الذي سأتخلص منك، خذ الحصان، وخذ البندقية لست بحاجة إليهما.

إلا أنّه اقترب من سليم وعانقه. شدّه سليم إليه، وهو يبكي لسبب يعلّمه جيداً. ها هو منقذه يرضى عنه. ارتاح بين أحضان عمر، أراد أن يطيل العناق، إلاّ أنّ

عمر دفعه بخشونة، ثمّ ودعهم، وساق العربة.

وها هو الآن يوقف العربة. شيء ما اختلج في صدر فريدة. طرق الباب الخشبي العتيق، فتردد الصوت في الطريق وفي الأزقة، ورفع رجلان وامرأة رؤوسهم وهم قابعون في إحدى زوايا طريق الماوردي، حيث ناموا ليلتهم مفترشين الأرض جائعين، متبلدي الجلد والإحساس، ثمّ زقزقت مجموعة من العصافير، وطارت مذعورة، وزعق غراب أسود موشى بالأخضر، اعتاد على سكون "سوق الصغير" الذي خيّم منذ زمن طويل.

7

عاد عمر بنبوك زوج بهية بنت الزيات. حدثت المعجزة، وعاد. على عربة يجرّها بغل منهم قبعت في مؤخرتها امرأة أسطورية الجمال، لم يرَ أحدٌ من تفوقها حسناً أو جمالاً.

قالوا إنّ رجلين وامرأة، جائعين، شاهدوهما يصلان قبل طلوع الشمس، وكأنها . أي الشمس . خجلت من ركوب السماء، حين أبصرت المرأة. لم يقولوا إنّهم شاهدوهما عائدين ومعهما طعام أو شراب أو غنائم أخرى تذكر، ولكن الذين سمعوا الرجلين والمرأة يتحدثون قالوا، إنّهم سال لعابهم حينما رأوا البغل، وراحوا يتشهّون ذبحه والتهامه.

أقوال أخرى سرت بملل ودوار في الرأس.

بينما كان عمر بنبوك يحارب في بلاد لا يعرفها إلا الله، حدثت معركة رهيبة بالسكاكين، أمسك رجل أشقر ذو لحية طويلة، يرتدي ثياباً نظيفة ويضع على رأسه طاسة حديدية، أمسك عمر بنبوك من شعره، بطحه على الأرض ثم ذبحه من الوريد إلى الوريد، كما تذبح الخرفان. كاد يموت، إلا أن حورية، ذات عينين واسعتين سوداوين، بيضاء البشرة، هبطت عليه من السماء، فأنقذته من موت أكيد. قالوا، إنّ عمر بنبوك كافأها على ذلك، فتزوجها.

الذين لم يصدّقوا، نزلوا إلى "سوق الصغير" وجعلوا يتفحصون العربة ويتلمسونها بخشوع. بعضهم راح يتشممها. وبعضهم الآخر وجد نقطة زيت في قعر العربة، فجعلوا يحدّقون إليها، وكأنّها، لن تلبث أن تصير إلى بركة الزيت فيستطيعون، أن يعبّوا منها، ويشرقوا حتّى يشبعوا. إلاّ أنّ الذين بحثوا في روث البغل، الذي أطلقه مع بعض الأصوات المنافية للحشمة قبل أن يدخلوه إلى البيت، وجدوا بعض حبّات الشعير، غير المهضومة، فالتقطوها، ثم قاموا بغسلها بمياه السبيل المتدفقة من الجدار الخلفي للمسجد، ثمّ علكوها بلذة، وابتلعوها، وهم يحمدون الله على هذه الوليمة التي حصلوا عليها بعد جهد جهيد بمناسبة عودة عمر بنبوك وزوجته الحورية!.

وجاءت بعض النساء فقعدن، وهن ملتحفات، بجانب العربة. ثمّ سرت إشاعة

(صحيحة مئة بالمئة) تقول إنّ عمر بنبوك، عاد من الحرب مصطحباً امرأة لا هي من الإنس ولا من الجن، ليست بشراً بل ملاكاً، نزل من السماء، تستطيع شفاء المرضى والمذبوحين وإملاء بطون الناس الجائعين.

أما روث البغل، فقد سرق، نشر تحت شمس نيسان حتّى جفّ، ثمّ وضع في قصبات (لعتذر لفّه على شكل سجائر) ودخّن عوضاً عن التتن. ثمّ امتلأ الطريق الماوردي بالناس. رجال سمعوا بالشائعة، فهرعوا. شيوخ عضّهم الجوع. نساء يحملن أطفالاً يشبهون أشجار التين في الخريف. رجال بلا عمل ولا قوة. دون طعام منذ يومين، نساء حوامل سافر أزواجهن إلى الحرب قبل سنة ونصف. صبيان وبنات لا يقوون على اللعب. عمال مصابغ الخيوط الذين أطفأوا النار تحت حللهم منذ زمن بعيد. الجحاشة والبغالة والعربنجية. معزلو القناة والكهريز المكشوف وبعض مؤذني المساجد. مرضى من كلّ الأجناس وبكلّ الأمراض، وبينما كان هؤلاء جالسين أو متربعين، نائمين أو مثرثرين، سمعوا زعقة رهيبة، ارتجفت لها أوصالهم، وعقدت ألسنتهم، وأفغرت أفواههم، صادرة من الداخل، من بيت الزيات بالذات، إلاّ أنّه لم يمرّ وقت طويل حتّى عادوا إلى حالتهم الأولى، غير آبهين لأيّ سبب ومن أطلق تلك الصرخة اللعينة القوية، التي لم يسمعوا مثلها منذ سنين طويلة، منذ أن عرفوا أنّ الدّنيا لا تخلو من المآسي.

قعد الناس يومين، ثمّ تفرّقوا، تفرّقوا حاملين متاعهم الذي أحضروه من بيوتهم ليتكئوا، أو يفترشوا، أو يلتحفوا به، حاملين أكياسهم وأباريق التشطيف المعدنية. تاركين أوساخهم وروائحهم وبصاقهم، ومراحيض مسجدي سوق الصغير والسليمانية مسدودة، وقد امتلأت بالبراز والبول فاحت روائحها في فضاء سوق الصغير الشاحب.

هل كان ما سمعوه كذباً وادعاء؟ هل هو إشاعة، كالإشاعات الأخرى التي تقول إنّ الحرب ستنتهي قريباً، وأنّ حكومة ولاية حلب ستوزع الخبز والزيت على الناس من دون حساب؟

إحدى النساء استطاعت ولوج باب بيت الزيات، وخرجت ترغي، وتزبد. ماذا قالت:

– هل سيطعموننا؟

– بل هل سيذبحون ذبيحة بمناسبة عودة عمر بنبوك كما فعل آل الداخل؟

– ماذا سيفعلون بالبغل؟

– من هو عمر بنبوك هذا؟

– هل قابلت تلك المرأة التي هبطت من السماء؟

– هل قال متى سيصل الإنكليز إلى حلب؟ يقولون إنّهم في فلسطين الآن!

– هل عرف عمر بنبوك أنّ زوجته بهية كانت ترفع ساقيها في غيابه؟

– من ذبح عمر بنبوك؟ قولي لنا لماذا أنت صامتة؟

– هل أصابك الخرس، لعنة الله على وجهك كم أنت شمطاء؟

– اسكت أيها النحس! كيف سيذبح عمر بنبوك البغل، وأنت موجود؟

– قولي لنا يا امرأة، هل تستطيع المرأة فعلاً، شفاء المرضى؟ فابني أصابه النشفان، ونزل صرمه. رفعت المرأة يديها، ثمّ ولولت. صمتوا، وابتعدوا عنها كي تتنفس. انتظروا دقائق حتّى استعادت أنفاسها وأعصابها. وضعت يديها على خصرها ثمّ قالت:

– أولاد حرام، يا لكم من مجانين! لقد عاد الرجل وهو جائع والمرأة أيضاً كانت جائعة. إنّها خجولة هذه المرأة، لقد رأيتها جالسة في إحدى زوايا البيت لا تتكلّم. إنّها خائفة. إنّها ضرّة بهية. لقد تزوج عليها زوجها. كان في العراق، وجدها هناك، إنّها جميلة جداً، لم أرَ في حياتي امرأة بهذا الجمال. اطعموا الرجل والمرأة. بهية هي التي أطعمتهما، فأمّ ربيع مريضة، إنّها طريحة الفراش منذ شهر كامل. قالوا لي إنّها تبصق دماً، وجهها أصفر، مثل البقس. لم أرها هكذا من قبل. كنتهم همست في أذني بأنّها قد تموت قريباً.

والعراقية لا تستطيع أن تشفي أحداً، ولا حتى حماة زوجها، بل إنّها كانت جالسة مثل القطة لا تتكلّم، تنظر إلينا بعينين سوداوين واسعتين، ورغم جمالهما، فإنّهما تشعّان ذعراً وخوفاً. لا أعرف لماذا هي هكذا. مم تخاف؟ لم أسأل هذا السؤال للأسف، كم أنا بلهاء، كنت دائماً أضع الأسئلة التي أودّ طرحها في رأسي، ولا أنسى واحداً منها، ولكنّني كبرت، وخرّفت، لم أستطع أن أسأل نصف الأسئلة التي كنت قد

فكرت بها.

إذن هكذا... وبعد أن أكل الرجل وارتاح، خطر له ابنه البكر الذي اسمه أحمد سأل بهية عنه. أين ولدنا الكبير يا بهية؟ بكت بهية، وبكت أمّها، ثمّ راحت تسعل، وكأنّ شيئاً علق في حلقها. وتلوثت شفتاها بالدم الأحمر، إلاّ أنّ عمر بنبوك أعاد سؤاله مرّة ومرّة وأخرى. أين الولد يا بهية؟ قامت كنتهم عائشة، وهي ابنة أبي حديدة وزوجة ربيع الذي يحارب مع الأتراك، والذي ملأ قبوهم بالأطعمة، قامت وربتت على كتف الرجل، إلا أنّه دفع يدها بخشونة. قالت له عائشة: الأعمار بيد الله والولد أعطاك عمره. مرض بمرض غريب، ثمّ مات. إلا أنّ عمر بنبوك الذي كان قد ذبح في رقبته فمال رأسه إلى اليسار والتوى فكّه، ولم يعد ينطق بشكل سوي، والذي غارت عيناه، ودكنت وأصبح النظر فيهما شيئاً ليس بمستطاع البشر، قام من فوره، فخرج إلى الحوش، أمسك برأسه بكلتا يديه، وأطلق صرخة رهيبة، هزت كيانهم، وجعلت حماته تنتفض في فراشها، واهتزت لها أركان البيت، وتجمّدت النساء، واصفرّت وجوههن، كما بالت بهية في لباسها، ثمّ سجد الرجل، وراح يبكي، وينتفض، ولم يستطع أي ابن أبيه أن يقترب منه، أو يتكلّم معه، ثمّ قام في الليل، ودخل غرفة عائشة، وأغلق على نفسه بالدرباس، وهو حتى الآن على هذه الحالة، لا أحد يجرؤ على سؤاله أو طرق الباب عليه. وفريدة الجميلة قابعة في إحدى زوايا البيت مذعورة خجلى، تجول عيناها الجميلتان في الجميع، رافضة التكلم أو تناول الطعام.

هل عرفتم كلّ شيء؟ هيا غوروا من هنا، دعونا نرى عرض أكتافكم. ليس هناك من ذبائح أو طعام أو دواء لمرضاكم. إنّ الرجل مثلكم، يحتاج إلى دواء... هيا.. ارحلوا عن هنا! ارحلوا قبل أن تتفسخوا!

سمعوا كلامها، ورحلوا مكسوري الخاطر، بعد أن هيجوا معداتهم بتصوراتهم الخرقاء. تصوروا أنّ عمر بنبوك سيقوم بذبح البغل، وسلخه. وإخراج أحشائه، ثمّ كان سيدخل سيخاً طويلاً في شرجه، وسيخرجه من رقبته، ثمّ كان سيحمله، وكانوا سيساعدونه في حمله إلى النار حيث يشوى، وسيقوم عشرة رجال بتدوير جسد البغل الهائل على النار، كي يتمّ شواؤه على أحسن حال. كما تصوروا أنّهم سيلتقطون أرغفة الخبز، وسيقومون بدهنها بدهن البغل الذي يسيل مدراراً عوضاً عن أن ينقط

في النار، فيضرمها بشدّة، فسال لعابهم وإفرازات معداتهم وجميع غددهم إيذاناً بوصول اللحم المطحون. أو حتى غير المطحون. بل المبتلع فحسب ممّا أدّى إلى أن يشعروا بأوجاع لا قِبل لهم على تحمّلها في بطونهم، وهم يحملون متاعهم وأباريقهم وأطفالهم ويرحلون، وقد شعروا بوهن عظيم في أجسامهم، فقد أُحبطوا في كلّ حال، وازداد شعورهم بالجوع، فقرّروا التوجه فوراً إلى مزابل الجيش التركي، حيث لابدّ أن يجدوا شيئاً يؤكل، وخصوصاً ثكنة بانقوسا وثكنة الألمان، أو محطة المسلمية حيث تجيء كلّ يوم القطارات المحمّلة بالجنود والقادمة من الأستانة لنقل الجيش السابع الذي قرروا أن يعسكر في شمال حلب، ليحميها من شيء غير مفهوم حتى الآن لجميع السكّان. ربّما ليحميها من قطّاع الطرق، الذين تضاعفوا بسرعة في الأشهر القليلة الماضية، أو ربّما تحسباً لأيّ طارئ بعد أن سمعوا أنّ بغداد قد سقطت بأيدي الإنكليز، أو ربّما لأنّهم أيضاً قد أصبحوا على مرمى حجر من مدن فلسطين، على كلّ فهذه الأمور تحتاج إلى صبر طويل، ولا أحد يظنّ أنّه سيعيش إلى تلك اللحظة ليرى اليوم الذي ستتوقف فيه هذه الحرب اللعينة التي جعلت الناس يجوعون، ويمرضون، ويهلكون، التي جعلت الناس يموتون جوعاً أو بسبب التيفوس، وذلك المرض اللعين الذي اسمه (الهيفة أو الهيصة أو الهيضة) أو شي من هذا كلّه، أو الحمى النمشية أو الكوليرا وذلك المرض الذي يصيب الناس، بعد أكل الجرذان، التي أصبحت تباع في سوق الجديدة في أحسن المحلات، حيث يعرضونها متفاخرين بطرق صيدها وحجمها. انسل عمر من غرفة عائشة عند الفجر. كان يشعر بضغط هائل في مثانته، وبجوع حاد في معدته. دخل إلى المرحاض ثم إلى المطبخ. لم يجد شيئاً يؤكل. شرب كوباً من الماء ثم خرج إلى الحوش. كان الهدوء هو الذي استهواه بعد أن عانى في اليومين الماضيين. مات ابنه أحمد مات. يا لها من قساوة. ماذا سيفعل؟ أشعل سيجارة رغم ألم الجوع وطعم الحموضة في فمه. يحرق دين هذه الدنيا. مات أحمد. ها هي صورته تبدو واضحة في ذهنه. إنّه يلعب. ينط، يتشاجر مع أخته، يدور في بيتهم في البكرة جي عند "قرمي ليك" وهو يقلد أولاد الحارة الأكبر منه سناً:

زاد عليك يا معلولة، على رأس أنفك تالولة.

زاد عليك يا معلولة، على راس أنفك تالولة.

يا له من ماضٍ سحيق. انتشلوه من الشارع وهو عائد إلى البيت بعد أن قام بحفر بئر لأحد الزبائن. ومنذ ذلك اليوم اختل كل شيء في هذا العالم. يا له من تاريخ. سحقاً له. نشق دخان سيجارته بعنف. مات ابنه، مات أحمد. بكاه. ارتاح كثيراً بعد أن ذرف الدموع، بعد أن صرخ صرخته التي هزت أركان البيت وكادت حنجرته تنخلع من مكانها. ولكن... كم يبدو البيت باهتاً. وهو قادم حسب إنه سيرتاح، سيشعر بالأمان، وسيتخلص من تلك الحرارة التي يشعر بها تنبعث من جسمه بتدفق. سليم فعل خيراً. إنه الآن مع أولئك القوم الظرفاء. معتلياً صهوة حصانه وبيده بندقيته، يقتل بها من يشاء من هؤلاء الأنذال، بينما هو، حسب أنه يحتاج إلى أربعة جدران، حسب أن البيت في حاجة غليه. لم يكن يعلم أن أحمد قد مات. لم يكن يعلم...!

أحس بنفسه ينهار، أحس أن عينيه أوشكتا أن تفجرا مواعين دمعهما. رفع يديه وصفع نفسه. ابن كلب... أنت ابن كلب..! نهض، داس على عقب السيجارة، ثم نزل إلى القبو. كانت بهية وعائشة مستلقيتين في فراش واحد. تتنفسان بانتظام، وقد انحسر اللحاف عن فخذي بهية السمينتين. وقف فوقها يراقبها. اكتشف خصلة بيضاء في غرة شعرها. لماذا شابت المرأة؟ ربما بسبب موت أحمد. يا لها من شهية، نائمة، صامتة، ماذا شعرت عندما دخل ومعه فريدة؟ لقد شاهدها تحملق فيه. تفحصت وجهه ورقبته وعندما رأت إلى عينيه الغائرتين الداكنتين لم تحتمل إطالة النظر فيهما. رأى كيف راح الخوف ينسل إلى عينيها وشفتيها. رأى إلى خلجات جسدها اللدن. أنه يعرف أنه قد أصبح مخيفاً. قاسم والشيخ غالب هما أول من اكتشف فيه ذلك، ثم فريدة وسليم وبهية وأخيراً ابنه حمودة وابنته سلمى اللذان راحا يبكيان، ويخبئان وجهيهما بعيداً عنه.

قرفص بجانبها، وبقي يتأمل وجهها وساقيها. وفجأة، فتحت المرأة عينيها. شيء ما أيقظها. تطلعت إليه برعب. انكمشت على نفسها. توسلت بعينيها. مدّ يده. التقطها، حملها، ونهض بها، صعد بها درجات القبو، وقلبها يخفق بتسارع رهيب. ماذا سيفعل؟ إلا أنّ يديه أجابتاها على ذلك. كانتا حنونتين على جسمها. صعد بها

إلى غرفة عائشة دخل، وأغلق الباب بقدمه، وضعها على الفراش، ثمّ استلقى إلى جانبها. أحست بغريزتها إنه يريدها، انفرجت شفتاها عن ابتسامة مصفرة بلهاء، سمعت لهاثه، الرجل يلهث عندما يريد، تعرف ذلك جيداً. أمسكت رأسه بكلتا يديها، وبحثت عن شفتيه في لجة لحيته. لم يعد هناك شفتان منطبقتان أو منفرجتان. بل هناك انفراج أصابه فالوج. احتارت أيّ من الشفتين تلتقط. لم تدم حيرتها طويلاً، بل أغرقت وجهها في وجهه، وراحت تهمهم، وتتمتم. غاب الخوف، وانفجر الشوق. كم اشتاقت إليه، إلى يديه، إلى لهاثه وشهقاته، كم من الزمن مضى، كم عانى، كم عانت، وها هو الآن بين ذراعيها، أقوى مما كان.

وفجأة التقط لباسها، وخلعه بعنف، ثم قذفه إلى العتبة. أمسكت يده، ووضعتها حيث يجب أن تكون دائماً. شهقت المرأة، كزت على أسنانها، ثمّ أطلقت صيحة أرادتها عالية كي تسمعها تلك المرأة الغريبة التي أتى بها.

اسمعي أيتها الضرة! اسمعي شهقاتها... شهقاتها... أنينها، عمر... عمر... آه يا عمر!. كم تغيرت؟ عندما وصل خافت منه، ارتعدت، كم يتغير الرجال في الحروب؟ عمر أصبح شخصاً آخر... ولكنه الآن بين يديها. جذبته، أخرجته، إنه صلب، في كلّ حياتها لم تره هكذا صلباً، شهقت مرّة أخرى لصلابته.

ألا يستحق ذلك؟ ... وعندما ولجها صاحت مرّة أخرى. أيّ امرأة ضاجة هذه، تحسبها ستموت من المضاجعة، تعض على شفتيها، تعض كتفيه وأذنيه. تعض شعره. تكز على أسنانها، تئن تموء، تطلق صيحات قصيرة خافتة، وصيحات طويلة عالية. وعندما قذف أوّل مرّة تشبثت به وهي تخور، وفي المرة الثانية حسب إنّ روحها تطلع من جسدها، وفي المرّة الثالثة كانت تشدّ شعرها كأنّها تريد تقطيعه... فصفعها كي تهدأ.

أشعل سيجارة، وراح ينفث دخّانها بصمت، دسّت وجهها تحت إبطه، وراحت تتشمم رائحة عرقه الحامضة. كان يفكّر، وأثناء التفكير، كانت صورة ابنه تأتي، ثمّ تغيب. كان يحاول أن يلائم ذهنه مع وضعه الجديد. صحيح أنّه فكّر في ذلك في الليلتين اللتين قضاهما موصداً على نفسه الباب في غرفة عائشة، إلا أنّه الآن، وجد أن من الضروري أن يتلاءم. ماذا سيفعل؟ كان قد فكّر في ذلك، ولكنّه لم يصل إلى

نتيجة. هل يعمل؟ وماذا سيعمل؟ الدنيا تغيرت، وحفر الآبار أصبح شيئاً من الماضي. إنه لا يستطيع أن يعود إلى ثقب الأرض، لا يعلم مصدر ذلك، سبب ذلك، ولكنه لن يستطيع، منذ الآن، أن يعاود النزول في الأرض كما في الماضي. عليه أن يكون على السطح، ولكن عليه أن يجد عملاً، وإلا، كيف سيعيل هذا الحشد الكبير من النساء والأطفال؟!

كيف كانوا يعيشون؟ لم يجد أثر للفقر في هذا البيت، ليس كما في الخارج. استدار ونظر إلى شعر بهية الفاحم، كانت ما تزال غارقة في رائحة عرقه ورائحة البغل العالقة فيه.

كانت تفكر هي أيضاً، ها هو عاد إلى ملكها، رغم أنّه جاء بامرأة أخرى. من هي؟ كيف عرفها؟ هل يوزعون النساء على الرجال في الخنادق، كما يوزعون الخراطيش وأرغفة الخبز المتعضمة؟ كيف جرح؟ الرجال الذين يرحلون إلى الحرب إمّا أنّهم لا يعودون أبداً، تنتظرهم بفارغ الصبر، ولكنهم لا يعودون، أو أنّهم يعودون وهم مثقوبو الأجساد أو مشرومو الأعناق، مثل عمر، مثل ربيع، مثل وحيد الأسدي، أو يعودون محطمي الأنفاس أو مجانين أصابهم هوس الخنادق... على كلٍّ، سوف تفهم كلّ ذلك منه فيما بعد. المشكلة الآن هي تلك المرأة، التي ستقاسمها عمر. أحسّت بالغيرة، أحسّت بالنبض في صدغيها. تنهدت. كيف ستراه نائماً معها، كيف ستراها ملتصقة بزوجها؟ تنهّدت مرّة أخرى. اللعنة!

ولكنّه أتى على كلّ حال، عاد إلى البيت، أصبح في بيتهم رجل، صحيح أنّه ورث من الحرب وجهاً مشوهاً، صحيح أنّ عينيه قاسيتان مرعبتان، إلاّ أنّه، ها هو، مستلق إلى جانبها بعد أن ركبها، فأحست بلحمه يخترقها، ليس كما في الماضي بل كفحل نادر، كمخلوق ليس كمثله مخلوق أبداً، ولكن، هل سيعلم شيئاً عن علاقتها بابن الورد قبل أن يعود صالح من الحرب؟ خفق قلبها بشدّة. صالح... أين أنت؟ لقد وعد أن يحميها...!! استيقظ الجميع، فسُمِعَت طقطقة القباقيب في الحوش.

* * *

– تعال يا ولد، تعالي يا بنت... هيا تعالا!

جفل الطفلان، واحتميا خلف أمّهما.

– تعال يا ولد... هيا أعطني بوسة. أنا أبوك يا ولد. كن شجاعاً، لا تكن جباناً مثل أختك أعطني بوسة! هيا...!

انفجر الطفلان بالبكاء، شيء ما يبعدهما عن أبيهما. ظهرت تغضنات على بشرة وجهه، فشاهدت النساء تأثره من هرب طفليه منه، لقد مرّت عدّة أيام من دون أن يستطيع إعادة الألفة بينه وبين الطفلين.

كانوا جالسين في غرفة أم ربيع. عمر وزوجتاه وعائشة. أم ربيع مستلقية في فراشها تسعل، وتبصق. ترك طفليه لحالهما، فصمتا، وهما قابعان خلف أمّهما يسترقان النظر إليه بخوف، سألته أمُّ ربيع، بعد أن توقف سعالها، وهي تشير إلى رقبته، أرادت أن يخرق صمته الذي دام أياماً، فسألته:

– من فعل بك هذا يا أبا... (أرادت أن تناديه بأبوته ولكنها آثرت عدم تذكيره بابنه) من فعل بك هذا؟ الإنكليز أيضاً؟

ما هذا السؤال؟ كيف سيشرح لها موضوع حسين؟ تطلّع إلى فريدة الصامتة، ثمّ قال:

– نعم...!

– ربيع ابني أيضاً أصيب بجرح عميق في صدره قرب القلب. الله لطف، أنقذوه في آخر لحظة.

– ماذا حدث له. قلتم إنه عاد وتزوج عائشة، ثمّ رحل من جديد. لماذا لم يفر؟

فقالت بهية:

– لقد أصابه حظ في الحرب وفي الحب، ألا ترى؟

ضحكن. سأل عمر:

– كيف ذلك؟ فأجابت بهية:

– أرسلوه إلى بلاد بعيدة اسمها اليونانستان بعد أن شفي من جرحه الذي أصيب به في خنادق "جنق قلعة" وهناك، حيث الحرب أهدأ استطاع أن يأسر إنكليزياً، فكرموه وجعلوه أونباشياً. أعجبته القصة. أعادة الكرة، فأسر إنكليزياً آخر.

كان ضابطاً هذه المرة، فجعلوه جاويشاً، وأعطوه حصاناً وعشرين ليرة ذهبية، ثمّ أرسلوه إلينا في إجازة، خلال إجازته زار بيت أبي حديدة وهو والد عائشة وصاحب الدار الذي كان يعمل فيه قبل الحرب، كان الرجل مريضاً، فمات وهو عندهم، وقبل أن يموت رجاه أن يتزوج عائشة ابنته، فقد كان ربيع قد خطبها قبل الحرب إلا أنّ أشياء كثيرة منعتهما من الزواج. وها هو الآن متزوج من عائشة، إلا أنّه تركها ورحل. عاد إلى اليونانستان، بعد أن ملأ القبو بالأطعمة، وأعطى عائشة عشر ليرات ذهبية كي نعيش بها إذا ما فرغ القبو.

– وهل فرغ القبو؟

سأل عمر، وهو يلفّ سيجارة، فأجابت بهية:

– نعم، ولكن هذه حكاية أخرى، قبل أن يأتي ربيع من الحرب، وكنا نعتقد أنه قد مات، فقد قام أحد رفقائه بإخبارنا أن ربيع قد قتل في إحدى المعارك في "جنق قلعة" فبكينا كثيراً، وأذن له مؤذون جامع سوق الصغير، قبل أن يأتي، وصل صالح من العراق، كان مسافراً مع أحد العقداء الذي نسيت اسمه. آه... كان اسمه العقيد زهدي، وبينما هو في حلب، أقصد صالحاً، ماتت زوجته فكرية.

– هل ماتت. يا لها من امرأة طيبة.

صاح عمر بأسف وهو يضرب يداً بيد، إلاّ أنّ بهية استمرّت وفريدة وعائشة وأم ربيع يستمعن إلى القصة، وكأنّهن يسمعنها لأوّل مرّة.

– نعم، ماتت بمرض التيفوس، ذلك المرض الذي حصد الآلاف من الناس، هنا يموت الناس كالذباب ولكنّه، ولله الحمد، كان إلى جانبها عندما أسلمت الروح وحزن عليها الرجل، وكان عليه أن يكون في أوتيل بارون في مساء نفس اليوم ليلعب الشطرنج مع الضباط هنا. العقيد زهدي أحبَّ أن يتباهى بصالح كما تتباهى القرعة بشعر أختها، أخبره صالح أنّه ليس على ما يرام، وأنّ زوجته قد ماتت، إلا أنّ العقيد رفض عذره، وأرغمه على اللعب، فخسّر ربيع نفسه أمام أحد القادة فغضب العقيد غضباً شديداً، لأنه خذله أمام أصدقائه، فضربه. هرب صالح من العقيد وجاء إلينا فخبأناه.

بعد مدّة، توقف البحث عنه، فاشترى حماراً، وراح يشتري، ويبيع الحطب

والفحم، ويطعمنا. مرّت شهور، راح خلالها صالح يعمل بالسياسة. تعرف إلى عدد من أصحاب دعوة التحرر، رجال يلبسون الطرابيش، ويقرأون كتباً إفرنجية. وبينما كان يغتسل في حمّام "برهام باشا" قبض عليه نقيب في الشرطة، ووضعه في السجن. إلا أنّهم اشترطوا عليه، إن عاد للعب الشطرنج معهم في أوتيل بارون. فسيعيدونه إلى بيته، وهكذا كان. أفرجوا عنه، ثمّ سرّحوه من الجيش، وجعلوه موظفاً في البلدية كي يصبح أفندياً. فلا يمكنه أن يختلط بهؤلاء القوم إن لم يكن أفندياً.

انفرجت أسارير عمر. يا له من داهية صالح هذا. عاد إلى تجهمه، ثمّ قال:

– صالح في حلب؟ ... لماذا لم تقولوا لي؟ يا لكن من نساء..

انبرت أم ربيع قائلة:

– لم تترك لنا فرصة. كنا نخاف أن نقول لك مرحباً!

– حسناً وبعد ذلك؟ ماذا حدث؟

– كنا نعلم أن الناس يموتون من الجوع بينما القبو عندنا ملآن بالأطعمة، كان الناس يأتون إلينا عشرات عشرات يسألوننا شيئاً للأكل. شيوخ ونساء وأطفال. والحاضر يعلم الغائب، والذي لا يعلم أصبح يعلم. أصبحنا في مشكلة عويصة. لم يبق إنسان من سيس لترسيس إلا وجاء يطلب طعاماً أو صدقة.

لمن ستعطي لتعطي. وفي إحدى الليالي. وبينما كنا نائمين أنا وعائشة وأمّي وولداي وحسن ابن صالح. سمعنا حركة في الحوش. لكزت أمّي وعائشة، من تراه يكون؟ كان القمر بدراً. اقتربنا من النافذة وإذ بعدّة رجال ينزلون من السطح. متنا من الخوف، رحنا نرتجف، ونرتجف. لقد قلب علينا الحرامية. دخلوا إلى غرفتنا فرأونا متكومين على بعضنا، سألونا وبأيديهم الشبريات عن الرجال. قلنا إنّه لا يوجد أيّ رجل في البيت. خذوا راحتكم، ولكن لا تلمسونا! أخذوا راحتهم، ولم يلمسونا، وأخذوا أيضاً الليرات العشر التي كانت مع عائشة. كان القبو فارغاً عندما نزلنا إليه في الصباح. لم يتركوا لنا قطعة خبز صغيرة نسكت بها الأولاد. حتّى أنّهم سرقوا بعض الكتب التي تركها عندنا خلوق أفندي، وهو صديق لصالح من رجال التحرر، قرر أن يخبئ كتبه الإفرنجية عندنا حينما فكّر بالهرب من بيته.

– وصالح؟... أين كان؟

- في بيته، ردّت بهية مستغربة سؤاله . لقد توقف عن مساعدتنا بعد أن أصبحنا نملك الذهب وقبونا مليء. فقط كان ترك لنا ابنه كي نتونس به، ويلعب مع الأولاد. أرسلنا حسناً إليه نستدعيه. جاء، ورأى وجوهنا المصفرة. ماذا سنفعل الآن؟ سألناه . هز الرجل رأسه، وقال إنّه سيطعمنا، رغم أنّه ما يزال يعاني من ذلك النقيب، وفهمنا أنّه يلاحقه، ويحصي حركاته بعد أن وشى به الحاج صالح خوري بأنه يصادق رجال التحرر، ورجالاً يسمون الاشتراكيين.

- ماذا؟

- اشتراكيين... ثمّ تابعت . وأنّ الأتراك قد يقبضون عليه من جديد، ويبعدونه بسبب تلك التهمة.

أشعل عمر سيجارة أخرى، فقد لاحظ كيف كانت أمّ ربيع تتمتع باستنشاق غمامات الدّخان التي كان يطلقها، وذلك بسبب إقلاعها عن التدخين بعد إصابتها بالسل، سأل بهية:

- وكيف تدبرتم أمركم؟

- في نفس اليوم أرسل إلينا طعاماً مع أحد الأصدقاء، عرفته بصعوبة. كان الرجل يعرج بسبب قصر في إحدى ساقيه، قطع له إصبعان من إحدى يديه أيضاً. متجعد الوجه، خالي الفم، كان مصاباً ببعض الجروح. الله وحده يعلم كيف عاد من الحرب. حزنت عليه، طلبت منه أن يأخذ رغيفاً، فأبى، ودعا لك بطول العمر. هل تعرف من هو؟ إنه وحيد الأسدي؟

صاح عمر مقاطعاً بهية:

- ماذا؟ ... من؟... ماذا قلت؟

- وحيد الأسدي. ردّت بهية، وقد أجفلها صياحه، أفاق حمودة الذي غفا على صوت أمّه المحايد.

وحيد الأسدي... هنا... في حلب، حيّ ...؟؟

- نعم.. تأتأت بهية.

- يا إلهي. ماذا أسمع؟ هذا غير معقول! كان معنا في كوت العمارة، ثمّ فقدناه أثناء القصف الإنكليزي. لقد حزنا عليه كثيراً وكنت أشعر... أقصد ... (لم

يستطع أن يقول إنه يشعر بالخجل لموته) هيا أكملي... أكملي!!

– حسناً . قالت بهية بصوت خافت، وهي تراقب وجه زوجها الذي بشّ قليلاً . كان وحيد الأسدي يجيء كلّ يوم، فيعطيني بعض الأطعمة، ولا ينسى أن يدعو لكما بالعودة وطول العمر، سألته عن معرفته بربيع، فقال، إنّه التقى به في الأستانة، في محطة حيدر باشا، وأنّه عرّفه بنفسه، ثمّ هرّبه في ميدان اكبس، وأنّهم، أيّ الأتراك كانوا سيأخذونه إلى فلسطين ليحارب الإنكليز هناك. بعد مدّة، زارنا صالح. كان قد نحف. عرفت من وجهه وعينيه، أنه يقلّل من إطعام نفسه، كي يطعمنا. كان يرتدي طقماً إفرنجياً وطربوشاً، إنّه أفندي من الأفندية، وقد أصبح أكثر وسامة بسبب نحافته.

ابتسمت بهية، وغمزت بعينها لعائشة، ثمّ تابعت:

– عائشة اكتشفت ذلك.

لم يستسغ عمر النكتة. نهرها بعينيه، فقالت وقد لاحظت أن فريدة قد نامت:

– لم يدم ذلك طويلاً. فعائشة تذكرت شيئاً.

– ماذا تذكرت عائشة؟ ماذا تذكرت المرأة؟ يا لكنّ من بلهاوات!!

غيّبت عائشة وجهها بين يديها، وراحت تنتفض مهسهسة بضحكة، أما بهية، فأجابت وهي تغالب ابتسامة عريضة:

– تذكرت أنّ أباها أخفى ما كان يملك من نقود تحت إحدى بلاطات بيتهم. قال لها وقد أحسّ أنّه ميت لا محالة: يا عائشة، لقد أخفيت نقودي تحت إحدى بلاطات البيت. ابحثي عن البلاطة بعد موتي. كما أنّه قال لربيع قبل موته: تزوج ابنتي، وخذ نقودي والمدار!

كان وجه عمر يتذبذب بين الاندهاش والعبوس. لاحظت ذلك بهية، فأكملت:

– أرسلنا حسن كي يحضر أباه. جاء صالح مسرعاً وقد حسب أن شيئاً طارئاً قد حدث، فقد اعتاد على أن نطلبه في وقت المصائب فقط. حكينا له ذلك، ذهب هو وعائشة وحسن.

جعلوا يبحثون عن البلاطة حتى المساء من دون جدوى. في اليوم التالي ذهب هو ووحيد الأسدي فقط، وفي الظهيرة، عادا بصندوق صغير، ملآن بالقطع

الذهبية. عدّها صالح، فوجدها خمسين قطعة. سأل صالح عائشة: ماذا تريدين أن تفعلي بالذهب يا عائشة؟ فقالت له: إنّه مال ربيع، مالنا جميعاً، مال أمّي وأخواتي اليتامى، خذه، وخبئه عندك فإبقاؤه لدينا خطر علينا.

عاد القبو إلى الامتلاء، ولكن ليس كما في الماضي. فحتى بالذهب لم تعد تستطيع شراء الطعام، الحرب تأكل الأخضر واليابس. حلب لم تعد كما كانت. الناس هنا يموتون جوعاً. ترى إنساناً يسير مستنداً إلى الجدران. وبعد قليل يسقط وهو يتوسل، يمدّ يده إلى الناس. ولكن الآخرين جائعون أيضاً، وهم سيسقطون بعده بلحظات، ولا يلبث ذلك الشخص أن يروح يئن بخفوت، ثمّ يصمت. يبقى جسده مسجى يوماً أو يومين، تفوح رائحته، تأتي عربة البلدية، فتحمله لتدفنه في مكان ما.

سأل صالح مرّة عائشة إن كان يستطيع أن يطعم بعض الجوعى بذهبها. كان يقصد وحيد الأسدي وأسرته. قالت له إن ذلك يسعدها، فقلبها، وقلبنا جميعاً يتقطع لمرأى طفل يموت جوعاً. نحن لا نستطيع شيئاً. كيف يمكنك أن تعطي؟ شاهدت مرّة امرأة تسقط أمام مسجد السليمانية، وضعت ملحفتي، وتأبطت رغيفاً. دسست الرغيف تحت ملحفتها. شاهدني آخرون، هجموا علينا. لم أستطع العودة إلى البيت لئلا يعرفوا أين أسكن، صعدت إلى طريق العريان، وعدت عن طريق "الألمه جي" هل تعلم ما شاهدت؟ لقد سرقوا الرغيف من المرأة بعد أن داسوها بأقدامهم.

الجوع كافر.. الجوع كافر يا عمر!

نهض عمر وهو يدمدم مقلداً زوجته:

- الجوع كافر... الجوع كافر... ذهب، جوع، الأخضر واليابس، قحبات... مجرد قحبات، يحرق دين...!

نكش فريدة مغضباً لسبب غير مفهوم، انتفضت المرأة، وكأنّ عقرباً قرصها. أشار إليها أن تلحقه وعيون النساء الأخريات تلاحقه. زمّت بهية شفتيها من الغيظ، فقد أصابها في صميمها. ها هو يتركها الليلة ويأخذ فريدة. فريدة... من أين جاءت هذه المخلوقة؟ إنها تعكر مزاج بهية، احمرّ وجهها، وراح قلبها ينتفض بسرعة. أحسّت أمّ ربيع بحال ابنتها أطلقت تنهيدة، ثمّ أغلقت عينيها، وبعد برهة انتابها سعال شديد.

كان يا ما كان، في قديم الزمان، كان هناك شاويش في الجيش العثمانلي. اسم هذا الشاويش هو "الأرغلي". كان يقود فرساناً أقوياء هيابين، يزرعون الرعب بين الرجال والأهالي. كانوا ذوي وجوه سمر وشوارب سود فاحمة. يصلّبون على صدورهم أحزمة الخراطيش، وهم من أصحاب الألسنة البذيئة.

كان يا ما كان، كانت مهمة الأرغلي هذا وأصحابه هي التقاط الفراري من الجيش، كانوا عندما يسمعون أحداً قد عاد إلى أهله، يطبون عليه، فيحتلون الأزقة وينصبون الحبال، ويصعدون إلى الأسطحة. ثمّ كان الأرغلي يطرق الباب أو يقوم بكسره. ثمّ كان يبحث عن الرجل في الأقبية والسقائف وفي الآبار، وفي بعض الأحيان، كان يلاحق الهاربين في القناة، فيهبط هو وجنده حاملين المشاعل، فيغوصون في المياه الحلوة، ملوثينها ببصاقهم وسبابهم، وما يلبثون أن يخرجوا من آبار بيوت أخرى، مبليين كالجرذان.

الأرغلي، الأرغلي، التقط حسين الأزرق، ومحمد ومحمود وعبدو الأشرم، وأخذوا أولاد الصباغ والفتال والقضيماتي. ولكنهم فهموا أخيراً الطريقة المثلى لإرضائه. اكتشفوا أنه يستطيع أن يغض النظر. ويغمض العين، صاروا يعطونه ليرة أو ليرتين، فيسكت، سكت عن أولاد الزيتوني والسباهي والساكت والسنجقدار والبيرقدار، وسكت عن كلّ من يستطيع الدفع. وعندما هبط كالصاعقة على أحد بيوت "فرمي ليك" وجد الهارب من الجيش صبحي سيريس يتزوج ابنة عمه علية. ملأ الأرغلي جيوبه ودعا للعروسين بطول العمر ونكاح مديد. وما إن خرج من العرس حتى تنفّس العريس الصعداء، بعد أن اصفرّ لونه، وخارت قواه، وانقطعت بذرته.

ولّي يا ولد ولّي! اجا عمك الأرغلي
براغيد صغار ما بياخد بدو دهب عثمانلي!

وفي صباح اليوم التالي لحديث بهية الطويل، والذي سهرت بعده وهي مستلقية في فراشها إلى جانب طفليها وعائشة، تنصت إلى أيّ حركة قد تحدث في الغرفة الأخرى، غرفة عائشة التي أصبحت غرفة عمر، مرهفة السمع، علّها تلتقط صوت شهقة أو غنجة أو مصة أو عضة. وعندما لم تسمع سوى شخير طفليها وسعال أمّها، جعلت تتصور عمر راكباً فريدة، فراحت تحسّ بغصة طويلة في

بلعومها، لم تنفك عنها إلا عندما نشجت، واهتزت وتمنّت موتها أو موت فريدة، وفي ذلك الصباح بالذات سمعوا طرقاً قوياً على الباب. من يريد تكسير بابهم وعمر موجود؟ استيقظ عمر، دسّ نفسه في جلابيته ليستر عريه، ثمّ خرج تفوح منه روائح عرقه وعرق فريدة، ومنيه وإفرازات فريدة. صاح في الدهليز بصوت خشن:

- صبراً... صبراً يا ابن الكلب!...

فتح الباب. ماذا رأى؟ رأى رجلاً عسكرياً ذا شاربين فاحمين هائلين، وكرش هائل يندلق بليونة، ثمّ رأى عشرة رجال يشبهونه يقفون خلفه متأهبين، ممسكين حبالاً وبنادق وكلبشات. هجموا إلى الداخل. أمسكوه. أفلت نفسه، ثمّ ضربهم. ضربوه. كلاب. أنذال، لصوص، قتلة مجرمين... ماذا أيضاً قال لهم؟ بعضهم سال دمه من أنفه، وبعضهم الآخر تلقى رفسة، كرفسة بغل، فقعد منكمشاً مقطوع الأنفاس. ماذا جرى أيّها الحيوان، توقف!... ضربوه بأخمص بندقية. سقط على الأرض والدم يسيل من قحف رأسه. وضعوا ماسورة البندقية على رقبته، ثمّ أمروه أن يهدأ. هدأ أخيراً.

ربطوه بالحبال، ربطوه من كتفيه حتى أخمص قدميه، كأنه سيقّطع الحبال ويأكلهم، أبقوا فوهة البندقية على عنقه، كانوا يخافون من ذلك الشيطان الرجيم.

ولكن قصتهم لم تنته بعد، هجمت عليهم فريدة، التي كانت قد نسيت نفسها فلم تتستر وجدت أمامها مكنسة خشنة، حملتها، وراحت تكيل لهم الضربات بقرمتها. اتركوه أيها الشياطين! اتركوه أيها الأبالسة! كيف يمكن لامرأة يفوق جمالها ورقتها كلّ تصور أن يصدر عنها ذلك. فنجرت أمّ ربيع وبهية وعائشة أعينهن لهذا المنظر. كان الجنود يحمون أنفسهم بأيديهم متضاحكين غامزين بأعينهم. امسكها الشاويش الأرغلي. وعندما كان يحاول انتزاع المكنسة من يديها، لمس جسدها من تحت الثوب الفضفاض، فجحظت عيناه، يا لهذا الجمال، من أين أتيت أيتها المرأة؟ تلمّس جسدها كله. جسده احتكّ بها.

كانت تقاوم، وكان يضمّها، سقطت المكنسة منذ زمن بعيد، أصبحت تريد الابتعاد عن يديه، ولكنّه كان يضمّها، كان يشمها، حملها الملعون، رفعها إلى كتفه. أراد أن يسير بها إلى إحدى الغرفتين، وفجأة شاهد عيني عمر. تسمّر في مكانه. ما هذا؟ ما هذا صاح الأرغلي. نظر الجنود الآخرون إلى عمر، إلى عينيه، ماذا

يجري؟ أيّ وحش هذا إنّه ضبع، وحق الإله ضبع!

تسمّر الجميع، والجنود جميعاً، وتسمّرت بهية وعائشة، بينما اختفت أمّ ربيع. كان صوت الأرغلي هو الوحيد الذي كان يبعق، اقتله، اقتله يا كلب! ماذا جرى لك؟ إلاّ أنّ حامل البندقية لم يستطع. تيبست أصابعه. وكأنّه ميت، سقطت من يده البندقية، وفجأة جاء صوت أمّ ربيع الذي أضعفه دخان التتن والسل:

– اترك المرأة! اتركونا، واخرجوا وإلا قتلتكم. هيا يا كلاب!

استدار الأرغلي فوجد أم ربيع تعني ما تقول، كانت توجه بندقية إلى ظهره. من أين أتت بها هذه العجوز؟ من أعطاها بندقيته؟... أفلت فريدة من بين يديه فهبطت عن كتفه، بعد أن شاهد الجميع فخذيها الأبيضين ولباسها الأصفر، ثمّ هرعت بهية وعائشة إلى عمر، وجعلتا تحلان وثاقه، وما هي إلا لحظات حتى كان عمر يلتقط بندقيته من حماته والأرغلي وأصحابه، ينسلون خارجين عبر الدهليز.

وما إن انصفق الباب حتى سقطت النساء، ترتجفن من الخوف الذي زال. إلا أنّ فكرهن كان يعمل في اتّجاه واحد. أيّ شيء هذا الذي جعل الجنود يتسمرون هكذا في أرضهم؟ ما هذا الذي صدر عن عيني عمر؟ كيف يمكن تصديق ذلك؟ ولكنّهن رأين... ولكن من سيصدق ذلك؟

بعد قليل عاد الطرق على الباب، طرقاً عادياً، ذهب عمر، وفتح الباب حاملاً بندقيته. من أنت؟ ماذا تريد؟

– أنا الشيخ حسن، مؤذن المسجد، الأرغلي موجود في مسجدنا وهو يطلبك.

– ماذا يريد؟ قل له أن يذهب إلى الشيطان!

– لا أستطيع يا سيدي عمر، إنه الأرغلي وليس واحداً آخر. أرجوك تعال وقابله.

– حسناً، أنا قادم... قال عمر ثم صفق الباب. ماذا يريد هذا الكلب؟ ترك بندقيته، وأخذ المسدس ثبّته تحت جلابيته، وخرج. هرعت فريدة وبهية تمنعانه إلاّ أنّه صفق الباب، ومضى إلى جامع سوق الصغير.

دخل وهو محاط بالجنود، لم يفكر كيف أتته الشجاعة، هكذا عليه أن يتصرف وكفى، لم يصْفر، ولم يجف حلقه، ولم يبلع ريقه، كلّ ما فعله أنّه سار

وفوهات البنادق تحيط به، كأنّها ترحب به. كانوا خائفين، هذا شيء آخر، هذا شغلهم أما هو فليس له علاقة بالخوف، زمن الرعب قد ولّى، ألم يجعلهم يتغوطون في سراويلهم قبل قليل؟

– ماذا تريد؟... سأل عمر ومن حوله ثلاثون فوهة بندقية؟

تطلع الأرغلي إلى عمر وأصحابه بالتناوب. كان يحتاط من النظر في عيني الضبع. قال وهو يبدي حزماً:

– أنا من يجب أن يسأل وليس أنت! هل أنت عمر بنبوك؟

– آي...

– من أين أنت قادم؟

– من بغداد.

– كنت في عسكر البيادي أليس كذلك؟ لماذا عدت؟

– لأنني أصبت. انظر! ألا يكفي ما تراه في رقبتي ووجهي كي تعلم أنني كنت جريحاً؟

انظر! هل أنت أعمى...؟

سمع الأرغلي ورفاقه الإهانة بوضوح، اتسعت عيناه، إلا أنّه عاد وضيقهما. سأل الأرغلي بصوت أرق:

– هل سرحوك؟

– نعم!

– هل تستطيع أن تثبت ذلك؟

– نعم!

– كيف؟

– لدي وثيقة من القيادة في بغداد، من العقيد زهدي بالذات. ها هي!

أخرج الوثيقة المهترئة والمسودة من جيبه، وقدمها للأرغلي. عاينها هذا طويلاً، قربها من حزمة الضوء الساقطة من النافذة. تيقن أنه غير متأكد من صحة الوثيقة إلا أنّه أعادها. الأرغلي شكّاك فظيع، حتى مثل هذه الوثيقة لا تمنعه من أخذ حاملها وإعادته إلى الجيش.

- اجلس!

جلس عمر إلى يمين الأرغلي مسنداً ظهره، المشبع بالدم النازف من رأسه إلى الجدار. فكر الأرغلي طويلاً، ثم تفوه:

- لماذا تصرفت هكذا؟ كان علينا أن نكون لطيفين مع بعض؟

- أنا لم أبادر. أنتم دخلتم كالوحوش. كان عليك يا شاويش أن تسألني، كما فعلت الآن، قبل أن تهجموا، وتحاولوا لجمي، أنا مسرّح من الجيش كما ترى، فلماذا أهرب منك؟

- حسناً... حسناً. قال الأرغلي، ثمّ تابع. انتهى كلّ شيء، ولكن أريد أن أقول إن نساءك شجاعات خصوصاً التي جاءت بالمكنسة. من تكون بالنسبة لك؟ هل هي أختك؟

اللعنة عليك يا أرغلي، فهم قصده، لن ينفكّ الأرغلي عن عمر!

- إنها زوجتي، حرمتي.

- آه....

قال الأرغلي متفاجئاً، خلع عمرته، وراح يحكّ قذاله. فكّر، إنه يريدها، المشكلة أنّه لا يستطيع أن يساوم عليها، فلو كان هذا الوحش، رجلاً بسيطاً لساومه عليها، ولكن الأمر مختلف معه. ربّما قبل ربّما وافق.. قال بتردد:

- آ... أقصد، إذن زوجتك!

- نعم ... . ثمّ رفع من حدة كلامه. اسمع يا أرغلي، إياك أن يخطر ببالك شيء، لن تحصد مني سوى الندم.

حرّك الأرغلي يده، فخرج الجنود، بقيا بمفردهما. أخرج الأرغلي كيساً مليئاً بالليرات الذهبية. خشخش بها قليلاً، ثمّ قال:

- حسناً، إنها زوجتك، طلّقها، وخذ ثمنها!

بماذا يهرف هذا الكلب؟ سوف أريه!

....

- ماذا؟... هل تفكر. سأعطيك ثمنها مئة ليرة ذهب عثمانلي.

آه يا فريدة كم أنت خارقة الجمال، كم أنت غالية! مئة ليرة؟ لقد ذُبحَ من أجلك

وهذا الكلب يدفع مئة ليرة ذهبية.

- كف عن هذا يا أرغلي!

- مئتين!

- كدنا نقتل بعضنا قبل قليل يا أرغلي، أمّا الآن فنحن جالسون كأصدقاء يا أرغلي، دع عنك هذا أيّها الجاويش!

- ثلاثمئة!، يا لك من شيطان، ألست جائعا؟!

لن يكف اللعين. وبهدوء أخرج مسدسه الملقم، اقترب، وسدّده إلى جبهة الأرغلي الذي أبدى هدوءاً وندماً، لأنّه صرف جنوده إلى خارج المسجد. قال عمر هامساً:

- اعقل، وإلا قتلتك في هذا المكان الجميل! ابحث لك عن امرأة أخرى!

ابتسم الأرغلي ابتسامة صفراء، وأعاد كيس نقوده إلى جيبه، هزّ رأسه وكأنّه أقر أخيراً بهزيمته، ومن قال إنّ الأرغلي يهزم؟

- حسناً يا عمر بنبوك... اذهب وفكّر. أنا لا أريد أن أقتلك وآخذ المرأة. بإشارة من إصبعي أستطيع أن أجعل ثلاثين رصاصة تثقب ظهرك. ولكني لست خسيساً إلى هذا الحدّ. اذهب وفكّر!

أعاد المسدس إلى مكانهّ وخرج. سار بين الجنود، ثمّ غاب عنهم بعد أن انعطف عند نهاية جدار المسجد إلى طريق الماوردي، ورغم أنّه كان يتوقع أن يطلقوا عليه من الخلف، إلا أنّه لم يستدر إليهم، بل كان يعد من الواحد إلى المئة. كان قد وصل إلى الخمسين عندما شاهد النسوة يقفن على الباب بانتظاره، فدلف إلى الداخل وهن يلحقنه كالمسطولات، امتطى الأرغلي وجنوده صهوات جيادهم، وانطلقوا وقد قرروا أن يعودوا بعد أيام.

* * *

أين أنت يا صالح؟ يا صالح أين أنت؟ لم لا تأتي؟ لقد أكدت له النساء أن صالحاً كان يمر عليهم مرة في الأسبوع على الأقل. أو كان يرسل وحيد الأسدي في الصباح الباكر، وقبل بزوغ قرص الشمس. كي ينقل إليهم ما تيسر له شراؤه من

أطعمة. ولكن ماذا حدث؟ لا صالحاً ولا وحيد الأسدي يجيئان! حتى أنه أخذ ابنه حسن كي ينام عنده لأسبوع أو أسبوعين، ولذلك لا يستطيع عمر الآن إرسال من يبحث عنه.

ليس عليه إلا أن يقعد هنا. في هذا البيت المليء بالنساء، يستمع إلى ثرثراتهن، إلى غمزهن ولمزهن وضحكهن، إلى تمتماتهن وغيرتهن. نعم، إنه يقوم بحراسة هذا الجيش من النساء دون أن يقول لهن إنه يحرسهن من ذلك الكلب الذي اسمه الأرغلي، ولذلك فهو لا يستطيع أن يخرج ليبحث عن صالح.

أين أنت يا صالح، لماذا لا تأتي؟... لعنة الله على شاربك!

ولكن طين عمر ازداد بلة. فلا يكفي أنه ينتظر صالحاً على أحر من الجمر، ويقوم بحراسة نسائه البلهاوات، ويراقب بصمت صراع حمودة مع أخته، وصراع بهية الصامت مع فريدة، تدعمها في ذلك تلك العاشقة الولهانة عائشة خانم. التي تروح تعدّ الأيام حين تغيبها منتظرة زوجها المصون. كلّ ذلك لا يكفيه، فتغيم السماء وتهبُّ عواصف شديدة، حاملة غباراً احمر من الشرق، فتعتم الدنيا، ويصبح الجلوس في الحوش مستحيلاً، حيث تشكّلت طبقة رقيقة من الغبار، تنطبع أقدام المرء عليها حين يدوسها.

ثمّ بعد ذلك بيوم واحد، انفتحت مزاريب السماء، فهطلت أمطار شديدة، وكأنّها خجلت من نفسها، وقرّرت أن تمحو ما فعلته بأناسها الطيبين، أبناء حلب الكرام، المستترين في البيوت أو المحتلين شوارعها، حفاة، عراة، مصابين بدوار الرأس، أو بإسهال الأمعاء، فغسّلتهم تغسيلاً، فجعلوا ينقطون ماء أحمر، يثير الأعصاب.

انقضى يوم ماطر آخر، لم يأت صالح ولم يشرّف الأرغلي (باشا). وهو قابع في غرفة واحدة مع أربع نساء وطفلين، يدخّن سجائره بشراهة، عابقاً الغرفة بدخانها الكثيف، حتى أنّ حماته كادت تختنق، فقد انتابتها نوبة من السعال الجاف، ثمّ بصقت دماً احمر مقرفاً. يا لهذا القعود! لقد كره كلّ شيء، خاصة في المساء، عندما ينهض للنوم، تلحقه ذات الحظ السعيد، الذي دورها اليوم، مثل خاله الكريم تماماً. كيف حدث وأصبح مثله. كان يكرهه، فأصبح مثله. كم يكره حياته. أكيد أنه سيموت وينتن، أو ينتن ثمّ يموت. منتظراً صالحاً والأرغلي مشاهداً بصمت كيف أن بهية

كانت تنهض، حين يكون دورها، ماضغة علكتها بصفاقة، ناظرة إلى فريدة بخبث، وكأنها تغيظها، بل إنها كانت تغيظها فعلاً، وعندما، ترغمه، في غرفته، على إتيانها، فإنها تروح تشهق، وتصرخ، تتأوه، وتنفلق، وكأنّها سوف تفطس لا محالة، إلاّ أنّه كان ينهرها لتسدّ حلقها، فتهدأ قليلاً، ثمّ تعود إلى سيرتها الأولى، غير آبهة بالآخرين، المستلقين في الحجرة الأخرى، بل كلّ ما كانت تريده، هو أن تسمع ذات الحسن والجمال، فريدة الزائدة عن اللزوم.

يا لها من فاجرة هذه القحبة، إنه يعرفها منذ تزوجها. هكذا دائماً، تقوم بإثارته أولاً، ثمّ تخلع لباسها، وما إن يلمسها حتى يكون قد تلبّسها عفريت، تصرخ وتئن، تتأوه، وتهمهم، إنّها فضيحة، يعرف ذلك تماماً، ولكنها لذيذة... لحمها بض... ولكن... لعنة الله عليها، كم هي فاجرة، لا تخجل، إنه يخجل، في الصباح التالي يخجل، ولكنها لا تأبه، لا يهمها شيء، لا نظرات أمّها، ولا غمزات وابتسامات عائشة ولا إطراقة فريدة التي تكون قد خجلت عنها.

أما عندما يكون الدور لفريدة، فهو مأتم لبهية، مأتم يجعل بهية تزفر، وتنفخ حتى الصباح، تحاول التقاط أيّ صوت أو إشارة عبر الحائط، تلعن، وتسب فريدة وأم فريدة.

آه يا فريدة، كم أنت ناعمة، كم أنت خرساء، بكماء. لا تأوه ولا صراخ، ولا عويل ولا ولاويل ولا رائحة علكة ولا لحم بض. باردة جامدة، تخاف أن يصدر عنها همهمة أو هسهسة، تخجل من نفسها ومن خيالها، تطفئ الشمعة، وتغلق فمها. عندما يكون معها يتمنّى بهية، وعندما يكون مع بهية يتمنّى فريدة. اللعنة على الاثنتين! وعندما ينتهي يكرههما كليهما. يكره حياته وسوق الصغير والأرغلي الذي حبسه بينهن. يكره الترك، وحسين، والإنكليز ورياح الخماسين... اتفوه!!

أشرقت الشمس فجاء الأرغلي. جاء ليخلصه من بين أفخاذ زوجتيه، وليخلصه من نظرات تلك التي تنتظر زوجها، وهي تتنهد، وتزفر. لقد أعطاه وقتاً طويلاً للتفكير. فكّر عمر جيداً. لقد توصل إلى نتيجة: من يريد أن يفكر جيداً عليه أن يتواجد مع عدد هائل من النساء، أو عليه أن يتزوج أكثر من واحدة... أو عليه أن يقعد في البيت حينما تهبّ رياح الشرق الحاملة للغبار... فكّر، ثمّ جاء الأرغلي.

- ماذا؟... هل فكرت؟
- طبعاً فكرت!
- وماذا كانت النتيجة؟ إياك أن تقول إنّك غير موافق!
- فشر يا أرغلي! أريد ألف ليرة.
- ماذا؟
- ألف ليرة ذهبية. اجمعها، وتعال يوم الجمعة، تعال بمفردك، سأعطيك إياها مقابل ألف ليرة.

تفرس الأرغلي جيداً في وجه الرجل، ماذا يخطط هذا المسخ؟ المسألة ليست نظيفة يبدو عليه أنه داهية. دخل الشك والخوف قلب الأرغلي. ولكنه قال:

- أنت لا تمزح أليس كذلك! سأعطيك خمسمائة فقط.
- ألف ليرة إن أردت فأهلاً وسهلاً، سأتخلى لك عن زوجة وليس عن بغلة. تعال بمفردك، لا أريد أن تحدث تجريصة في الحارة. سأكون قد طلقتها حتى يوم الجمعة.

لم يقتنع الأرغلي، ولكنّه تمنّى في نفسه أن يقتنع، صافحه، ورحل. إلى يوم الجمعة إذن.

كان يوم الثلاثاء، حينما لبس سروالاً وقمصلة نظيفة، وخرج، إنّه سعيد، فلأوّل مرّة يضع خطّة، يفكّر بها، يجعلها هاجسه. ورغم أنه وحيد، يعمل بمفرده، يضع خطّته بنفسه، إلاّ أنّه لا يشعر بأيّ خوف. ممن يخاف؟ من الأرغلي؟ سوف يفعل كذا وكذا بأمّه!

إنّه حر الآن، الأرغلي لن يعود قبل يوم الجمعة، ومن اليوم وحتى يوم الجمعة، عليه أن يقابل صالحاً. مع صالح يستطيع أن يتكلّم بحريّة. إنّه يحتاج إليه. لن يحدّثه عن كلّ خطّته، لن يقول له إنّه يخطط لقتل الأرغلي وخلاص البلد منه ومن شروره. ولكنه يريد من صالح أن يسمعه، أن يتركه يتكلم عن الظروف التي تركه فيها منذ أن ترك له ورقتين موقعتين من العقيد زهدي، تفيدان أن عمر بنبوك قد سرّح من الجيش، منذ أن ترك له الورقتين، ورحل. انعطف نحو شارع العريان، ثمّ سوف النحاسين. كانت المحلات مغلقة إلا من عجوز قعد أمام سندانه وجعل يدق

بمطرقة خشبية لوحاً من النحاس الأحمر. حمد لله لأن السوق مغلق فهو لا يحتمل طرقات مئات المطارق على النحاس الرنان. إنّه يصم الآذان.

خرج إلى شارع الخندق الجديد، ونزل باتّجاه باب الفرج. كثير من المحلات مغلقة توحد ربّها. بعض الدكاكين مفتوحة وأصحابها جالسون يتثاءبون، عجائز وأطفال. عجائز وأطفال على الجانبين. قاعدون ومستلقون، معفرون بالأتربة من قمم رؤوسهم وحتى أخمص أقدامهم، لعنة الله على حلب! كيف تقعد كالقحبة المقهورة، ضاجعوها، وسلبوها؟ هذا ليس كلاماً يا عمر. لعنة الله عليك أنت، لولا نقود أبي حديدة لما كنت ماشياً الآن.

هأ... هأ... ضحك في سره. الأرغلي سيأتي بكيس ملآن بألف ليرة ذهبية. هذا شيء عظيم، ولكن هل ستنجح الخطة؟ عليه أن يجد صالحاً، أين أنت يا ابن العم؟ أين أنت أيها الملعون؟

اجتاز "جلة معروف" فأصبح في "العقبة". وجد باب بيت صالح موصداً، فدّقه. كانت هناك عشر من النساء الملتفحات بالسواد، يجلسن في الزقاق، تطلعن إليه، عاينه. تابع طارقاً الباب بقبضته دون أن يأتيه صوت من الداخل. ترك الباب ووقف يتفرج على النسوة. اللواتي سرعان ما خبأن وجوههن. تابع النظر إلى تلك الكتل السوداء. سألهن جميعاً:

- هل تعرفن إلى أين ذهب صالح بنبوك؟
- ...
- احكوا... ماذا حدث؟
- ...
- هل تعرفن صالح بنبوك؟

لم يسمع أيّ صوت، وكأنه سيلتهمهن، لم تتجرأ إحداهن على الكلام. سار وهو يتطلع إليهن، ثمّ خرج من الزقاق. أسند ظهره إلى الجدار، وراح يلفّ لنفسه سيجارة. يا لهن من بلهاوات، يجلسن كأنّهن أكياس زبالة. ماذا سيفعل؟ هل جرى له أي شيء؟ وابنه حسن؟ ... اتفوه!

أشعل سيجارة، وجعل ينفث دخانها. كان يفكّر.. هل يذهب إلى بيت وحيد

الأسدي؟ لا بأس.

مرّ رجل طويل في الستين من عمره. كان يحمل باكورة من دون أن يتكئ عليها أثناء سيره، فقد كان قوياً وشبعان. توقف الرجل، وجعل ينظر إلى عمر. رفع عمر عينيه إلى الرجل. ماذا يريد هذا المهندم؟

- هل تبحث عن أحد؟

سأل الرجل، فقال عمر:

- ابحث عن ابن عمي صالح بنبوك، هل تعرفه؟

- لا ... ماذا كان يعمل؟

- يقولون إنه أصبح أفندياً وهو يعمل في البلدية. بيته في ذاك الزقاق.

صاح الرجل:

- آ... الشطرنجي أليس كذلك؟

- آه... الشطرنجي، نعم، أين هو؟

- أعرفه، ولكن الله يعلم أين هو؟ لم أره منذ أشهر.

- اللعنة! منذ أشهر؟

- نعم... تعال.. اسأل الحاج أحمد لبنية فهو سيعرف بالتأكيد.

لحقه عمر. دخلا من جديد في الزقاق، وصلا إلى مجمع النسوة الساكتات نهرهن الرجل:

- هيا... هيا... قوموا من هنا، ماذا تفعلن؟

لم يتحركن. قال لعمر:

- رحل الرجال، فبقيت النساء... الله يأخذهن!

نهضت واحدة، واقتربت، وقد أحنت ظهرها. قالت تسأل الرجل بصوت أشبه بمواء القطط:

- حاج محمد... حاج محمد، أعطني برغوداً الله يعطيك... حاج محمد...

استدار الرجل. رفع الباكورة، وضربها بها على مؤخرتها. الله يأخذكن... الله يأخذكن!... أمسكت المرأة مؤخرتها بكلتا يديها، وعادت تجلس إلى جانب رفيقاتها.

- هذا هو بيت الحاج أحمد لبنية. دق الباب واسأله! أنا ذاهب.

- انتظر . قال عمر، ثمّ أخذ منه الباكورة. رفعها متهيئاً لضربه على رأسه. انعقد لسان حاج محمد، أمره عمر قائلاً:

- وزع على النسوة البراغيد!

حسبه يمزح، ابتسم الوجه الأحمر فبانت أسنانه القوية. بعد قليل محا ابتسامته وأذعن، أحس بضعف شديد أمام عمر ونظرات عمر. اخرج من جيب قمبازه مجيدياً فضياً وقذفه إلى حيث يجلسن أمام بيت صالح. أعطاه الباكورة، وقال له:

- الله يعطيك العافية.

أسرع الرجل خارجاً من الزقاق، من دون أن يتطلع إلى النسوة اللواتي رحن يتلمّسن المجيدي بأصابعهن. وعندما غاب الرجل اقتربن من عمر. إذن فالرجل ليس متسولاً، هذا المشوه المذبوح في رقبته، ليس مثلهن، وإلا كان قد شلح الحاج محمد نقوده، وأخذها لنفسه. قالت التي ماءت منذ لحظة والتي مازالت مؤخرتها تؤلمها:

- يا خيو... يا خيو، نحن ننتظر الأفندي أيضاً، ولكنه ليس هنا. لم يأت منذ زمن بعيد.

- لماذا تبحثن عنه؟

- كان يعطينا الذي تيسر.

هز عمر رأسه:

- هيا ارحلن ... هيا ارحلن، أين رجالكن؟ ... هيا ارحلن!

استدارت النساء، كن يهمسن:

- مات الرجال.

- في الحرب... في سفر برلك، سفر قز القرد.

- الله يحن عليك يا ابني، الله يحن عليك.

عشر نساء بملاحف سود ابتعدن عنه وهن يسرن بوهن. إحداهن كانت تمسك بالمجيدي بقوة، وإحداهن وضعت يدها على مؤخرتها، وثالثة استدارت وهي تشيعه بنظرات لا بأس بها.

طرق باب بيت الحاج أحمد لبنية. انتظر قليلاً، فسمع صوت قبقاب خشبي صادح، سألته صاحبة القبقاب من خلف الباب:

– مين؟ مين أنت؟

حمحم عمر، ثمّ سأل:

– الحاج أحمد لبنية موجود؟ قولوا له ابن عم صالح بنبوك على الباب!

رحل القبقاب، فعمّ الصمت، حتى العصافير قد رحلت، لا تسمع ولا زقزقة واحدة. بحث بنظره على الجدران العالية فلم يجد أثراً لعصفور، حينما تصيب المجاعة الناس، تموت العصافير أيضاً. في الماضي، كم كان يحبّ العصافير والزهور. أصوات العصافير لا تسمع إلا في الهدوء والسكينة، ولا يمكن سماع الزقزقة في الضجيج، إنه يهوى السكينة، يهوى العصافير وزقزقتها، أما الآن، فالسكينة موجودة، تعمّ البلد. أمّا العصافير فغير موجودة. أراد أن يصفر لحناً، إلا أنّه تذكّر استحالة ذلك بعد أن ذبحه الكلب حسين. الحمد لله أنّه قتله، وانتقم لنفسه. لو لم ينتقم ويقتله لكان الآن أشبه بخرقة رثة أو روث جاموس، ولكان الآن غير قادر على رفع رأسه بين الناس وبين أهله.

أحسّ بسعادة لأنّه قتل حسين، لأنّه قتل ثلاثة من الجنود المجرمين، ولأنه الآن يخطط لقتل الأرغلي. هكذا، ببساطة شديدة، كما حدث وقتل الجنود.

كم تغير، إنّه يشعر بنفسه قد تغيّر، إنّه يشعر أنّه قادر الآن على قيادة جيش كامل لقتل الأتراك ولقتل الإنكليز أيضاً إن جاءوا. هذا هو الحل الصحيح، لقد اكتملت خطّته الآن، يا إلهي يا شيخ درويش كم كنا بسطاء، كم كنت لطيفاً يا شيخ درويش، كيف لم يخطر ببالك أن تؤسس جيشاً يقتل ويدمر ويحرق، بل قعدت تستجدي، تنتظر، ترسل الرسل إلى بدنة وإلى الوجه، وهناك كانوا يتخلون عنك بكل طيبة خاطر، يتخلون عن عراقك للإنكليز، يبيعونك لهم، وماذا كانت النتيجة، دخل الإنكليز بغداد، ودفناك يا شيخ درويش، وتشتت أصحابك، واشتروا عشائرك..

إن لم يجد صالحاً، فهذا لم يعد مشكلاً بتاتاً، لقد اكتملت خطته الآن، أمام بيت الحاج أحمد لبنية الذي لم يفتح الباب حتى الآن. لم يعد من الضروري رؤية صالح، كل ما هنالك أنه سيترك له خبراً. هذا يكفي لأنه قرر أن ينقل أهله إلى بيت عائشة، هناك سيكونون في أمان، أما هو، فقد وجد الحل، وجده بشجاعة، فسوف يقوم بقتل الأرغلي يوم الجمعة القادم عندما يأتي ليشتري فريدة بألف ليرة، ومن ثمّ

سيدفنه في حوض زرع أم ربيع الواسع، سيبسمر باب البيت، ويرحل إلى قطّاع الطرق في دير حافر.

انفرج الباب، وخرج رجل في السبعين أو في الثمانين. كان يرتدي شلحة كتانية ولباساً طويلاً من قماش الخاصة الأبيض المصفر، حافي القدمين، يضع على رأسه منديلاً مهلهلاً عتيقاً، رحّب به الحاج أحمد، ودعاه للدخول. اعتذر عمر، وسأله عن صالح. قال الحاج أحمد وقد بان التعجب على صفحة وجهه المجعدة:

- من تريد؟ من هو صالح بنبوك؟

- ابن عمي صالح بنبوك، لعنة الله عليه، الذي يسكن قريباً منكم.

- صالح بنبوك؟ ... صالح بنبوك؟..

جعل الحاج أحمد يتذكر... من هو صالح بنبوك هذا؟

- جاركم صالح، أبو حسن، ألا تعرفه؟

جاءه صوت المرأة صاحبة القبقاب من الداخل تذكر الحاج أحمد:

- صالح يا حجي... صالح يا حجي! ماذا حدث؟

- آه... صالح... قال الحاج دون أن يتذكر بعد.

- نعم صالح، هل عرفته؟

- لا... ومن أنت؟ أنا لا أعرفك!

- أنا ابن عمه عمر، أين هو؟

- لا أعلم! ربّما ذهب إلى الحرب، إنهم يأخذون جميع الرجال. اخذوا ابن منيرة، هل تعرف ابن منيرة؟

- أعوذ بالله... قال عمر وقد عيل صبره. سمع المرأة تصيح من الداخل:

- يا أخي الرجال خرفان، لقد أصابه الخرف منذ عدّة أشهر، إنّه لا يتذكر اسمه. إذا أردت أن تعرف شيئاً عن صالح أفندي اذهب إلى الحانوت على ناصية الشارع، قبل جلة معروف، قال عمر: الله يشفيك. ثمّ أسرع خارجاً من الزقاق.

كان باب الحانوت الخشبي مغلقاً، طرق باب بيت الحانوتي، فخرج إليه. عرّفه بنفسه، لم يكن الحانوتي قد خرّف بعد. هز رأسه، وقال له إنّه سيأخذه إليه. لبس الرجل صاية عتيقة، ووضع طربوشاً باهتاً، وخرج. سارا عبر باب إنطاكية وبعد

خمس دقائق وصلا إلى الكلاسة، ثمّ انعطفا إلى اليسار، وجعلا يصعدان خراق الجلوم. بعد عدّة انعطافات، وصلا إلى باب خشبي. قال الحانوتي، الذي لم يعد يبيع شيئاً منذ زمن بعيد، وهو يشير إلى الباب:

– هنا ستجد صالح أفندي، وإن لم يكن هنا، فهم الوحيدون الذين بإمكانهم أن يقولوا لك أين هو... هيا... إلى اللقاء، تشرفنا!

رحل الرجل فطرق عمر الباب، بعد ثوان جاءه صوت امرأة صبية:

– من أنت؟ ماذا تريد؟

فأجاب عمر، وقد طلعت روحه:

– أريد صالح بنبوك، ثمّ قال في نفسه: أمّك على أبوك!

– من أنت؟

– أنا ابن عمه عمر بنبوك.

جرى نقاش طويل للتأكد من صحة كلامه، اشترك فيه حسن ابن صالح، والباب مازال موصداً، سئل عن أسماء أولاده، ومن هو الأكبر ومن هو الأصغر، ومن هو الميت ومن هو الحي. سئل عن اسم زوجته، وأين كان. وعن اسم ابن صالح وعن اسم زوجته وهل هي حية أم ميتة. بعد كلّ ذلك تأكدت المرأة، وتأكد الصبي مع قليل من الشكّ أنّ الرجل الذي يقف بالخارج قد يكون عمر بالذات.

فتح الباب. يا إلهي، ما هذا؟ كيف يعيش صالح هذا؟ ثلاثة درابيس على الباب. ومن هي هذه المرأة؟ على كلّ ظهرت له من دون حجاب، وبجانبها حسن. فغر فمها لمنظر الرجل، أمّا حسن فقد جحظت عيناه. لم يعرف ابن عم أبيه. كادا يغلقان الباب لولا أنّ عمر دفعه، ودخل، ثمّ أغلقه. في الحقيقة خافت زينب، وخاف الصبي. إلا أنّ عمر، الذي كان يعرف قضية وجهه ورقبته، واعتاد عليها، تصرف بشكل عادي، سار في الحوش النظيف، ثمّ جلس على كرسي من القش. قال كي يهدئهما:

– أعرف ما يخيفكما ويدهشكما. لقد جرحت في الحرب وتغير منظري. هذا كلّ شيء، هذا كلّ شيء!

عرفه الصبي. أعلن ذلك بفرح، فغابت زينب في المطبخ، وصنعت له القهوة.

راقبها وهي تروح وتجيء. راقبها وهو يرتشف من القهوة، ويدخّن سيجارته. لعنة الله عليك، مرّة أخرى، يا صالح! أنت لا تضيع وقتك سدى، من أين عرف هذه المرأة الشقراء، اللطيفة التي تشبه الأجانب؟ ما علاقته بها؟ هل تزوجها، أم ماذا؟ ولكنه لم يسألها هذه الأسئلة، سألها فقط، أين صالح؟

أخبرته أنّ صالحاً مسافر في عمل مع والدها، وأنّهما قد يأتيان في أيّة لحظة، فقد تأخرا على كلّ حال.

هزّ رأسه صامتاً، ارتشف باقي القهوة حتّى الطحل، منذ زمن بعيد لم يذق طعم القهوة. دخّن سيجارتين أو ثلاث، قال لها ما يلي بالحرف الواحد:

- لأسباب لا داعي لذكرها الآن، اخبري صالحاً أنّ النساء والأطفال سيسكنون بيت أبي حديدة لن أكون معهم، بل سأبحث عنه بنفسي في المستقبل لأنّني أريد أن أقابله. أين يبيت؟ هنا أم في العقبة؟

- في بعض الأحيان هنا، وفي أحيان أخرى في العقبة عند جلة معروف، وأخرى في مكان ثالث، قال، حسناً. ثمّ نهض، مسح على رأس الصبي، وسأله:

- ماذا؟ هل ستبقى هنا دائماً. الأولاد يسألون عنك؟

رفع الصبي كتفيه، وابتسم. ودّعهم، وانصرف. لم يفهم وضع صالح، الرجل غاطس في شيء غير مفهوم. رفع هو الآخر كتفيه، وهمس في سرّه: الدنيا أصبحت هكذا، ماذا كنت تظن يا ابن القحبة؟

عاد إلى البيت وهو يقلّب خطّته في ذهنه. هل يدفن الأرغلي في حوض زرع أم ربيع، أم يضع جثته في العربة، ويقوم بدفنها خارج المدينة؟... سؤال حيره. نسي بسببه أن يزور وحيد الأسدي.

في البيت وجد الأمور مقلوبة. لقد تلاسنت بهية مع فريدة. ها قد بدأتا. عائشة أيدت بهية، أمّ ربيع وقفت على الحياد. فريدة دخلت غرفة عمر، ودربست على نفسها الباب. سمّتها سراقة الرجال. طُقّي، موتي! ولولت بهية وشدّت شعرها، ثمّ بصقت في وجه فريدة. ماذا حصل؟ تركتكم ساعتين فنهشتن بعضكن بعضاً!

لم تعد الواحدة تكلّم الأخرى. رغم أنّهما امتثلتا لعيون عمر المرعبة. الضرة مرة يا عمر ولو كانت عطيّة.

في اليوم التالي ذهب إلى الكلاسة من جديد، أراد أن يزور وحيد الأسدي. إلا أنه ذهب بعد فوات الأوان. قالت له زليخة وهي تبكي: مات وحيد، أصيب بإسهال شديد، ومات. كان ضعيفاً فمات بسرعة. على كلٍّ، كان يتمنّى موته. كان يبكي في الليالي من دون سبب.

هز رأسه، وربّت على كتفيها. كانت واقفة على ضلفة الباب بذل، وحولها جيش من الأطفال، عاد إلى البيت، وهو يشعر بحنق. وجد بهية وفريدة وقد تصارعتا. ضرب الاثنتين، بكيتا بكت عائشة أيضاً رغم أنه لم يلمسها، لعنة الله على النساء، ثمّ حبس نفسه في غرفته.

نجحت خطّته. كان قد نقل النساء والأطفال في ظلمة الليل إلى بيت أبي حديدة. أخبرهن أنّه مضطر لذلك بسبب ملاحقة العسس له، وهو يخاف أن يتكرر الذي حدث عندما جاء الأرغلي، وأنّه لن يبيت معهن بل في بيت آخر كما يفعل صالح "أفندي"، وأنه سيمر عليهن من وقت لآخر، ولكنّه لا يريد أن يسمع أنّ بهية وفريدة تتقاتلان، ثمّ عاد إلى البيت عند سوق الصغير، وجلس ينتظر الأرغلي.

جاء الأرغلي بمفرده، أدخله، وأدخل فرسه السوداء، أجلسه، ثمّ تأكّد أنّه جاء بمفرده، كان حليق الوجه. معطراً كالعرسان، هيا يا فريدة كوني جاهزة! هيا إنّ الرجل ينتظر! ببساطة كان يخدعه، ولكن الأرغلي خبيث. كان قد فتح قراب مسدسه، عيونه عشرة عشرة على عمر وعلى حركات عمر.

استأذن، ودخل غرفته. هناك كانت البندقية ملقمة، ومن ثقب صغير صنعه في خشب النافذة، أطلق على رأسه. خرّ الأرغلي، ارتعش قليلاً، ثمّ هدأ. دفنه في حوض الزرع. انتظر حتّى حلول الظلام، فامتطى صهوة الفرس، ثمّ أخرج البغل، وأطلقه في طريق الماوردي، ثمّ انطلق باتّجاه دير حافر.

8

توقفت عربة الحنتور، ذات الغطاء الجلدي الأسود، في شارع الكلاسة، عند مفترق خراق الجلوم، ونزل منها رجل نحيل يلبس طقماً وقميصاً أبيض وربطة عنق، ويضع على رأسه طربوشاً أحمر، نقد الحوذي أجره وصافحه، ثمّ انسلّ في الخراق بسرعة. لم يتوقف الرجل ليمعن النظر في القمر الذي اكتمل، وحوّل منتصف تلك الليلة الربيعية الجميلة إلى أشبه بنهار فضي تتلألأ فيه النجوم بكسل، ولم يتوقف ليستنشق الهواء العليل المشبع بروائح حبوب الطلع الذي كان يهبّ برفق، ولم يأبه لزعيق الوطواط الذي راح يدور فوق رأسه بذعر، بل استمرّ طارقاً بلاط الخراق بحذائه، ينفث أنفاسه بقوة، حتى وصل إلى ذلك الباب الذي كان قد تسمّر أمامه عمر بنبوك مجيباً بنزق على أسئلة زينب والصبي.

إنه صالح، صالح بنبوك، لاعب الشطرنج الماهر، عامل النسيج في معمل الحاج سامي صائم الدهر سابقاً، الجندي في جيش السلطان، الذي فقد السمع بإحدى أذنيه في معارك كوت العمارة، والذي رافق العقيد زهدي إلى حلب، ثمّ هرب منه، بائع الحطب، ثمّ الموظف في بلدية حلب الموقرة، وأحد أعضاء حلقة الأستاذ عبد الجليل الشلاح الاشتراكية و... حبيب زينب الرائع.

نقر بالسقاطة على الباب، وإذ بالباب يفتح فوراً قبل أن يرفع يده عنها. استغرب كيف حدث هذا، هل كانت زينب جالسة خلف الباب، تنتظره؟ نعم بالتأكيد.

لقد وصل أبوها أولاً، في الليلة الماضية، هكذا اتفقا، أن يسافرا في عربتين مختلفتين احتياطاً لكلّ طارئ، وأن يرحل الأستاذ عبد الجليل الشلاح قبل صالح بيوم واحد، وذلك أيضاً من باب الاحتياط، وعندما وصل وطرق الباب، أفاقت زينب وهرعت. من أنا؟ أنا أبوك! فتحت الباب، واحتضنته. ماذا حدث، لما تأخرتا؟ لقد خفت عليكما! أين صالح؟ ثم قالت بهلع، ماذا حدث له؟

. لا تخافي يا ابنتي سيأتي غداً، في عربة أخرى!

احتضنته زينب بقوة، التصقت به، دفنت وجهها في رقبته، اشتمت رائحة عرقه المالحة. سقط طربوشه على الأرض. رفع رأسها، وجعل يتملى وجهها على ضوء القمر. ما هو الفرق بين القمر ووجه زينب؟ هل هناك فرق أصلاً؟ لا... إنه

يتذكّر تلك الليلة التي جاءت إليه فيها، تودعه خلف ذات الباب. كانت معذبة، ناحلة، متنهدة. كانت تشعّ تحت قبّة السّماء، المرصعة بالنّجوم. عندها أحسّ أنّ القمر قد ترك السماء، ونزل إلى الأرض، عندها أحسّ أنه قذر، لأنّه يهرب منها. من يهرب من القمر سيسقط في الظلمة.

من يهرب من زينب، ستحلّ عليه اللعنة! لعنة من؟ لا يعرف! ... بل يعرف أنّ زينب بين يديه. شهران من دونها، شعر أنّه قد فقد روحه. لعنة الله على السياسة. من اجتماع إلى اجتماع.. كلام... وحكي، التحرر، العرب، العثمانيون، الإنكليز، وأمم أخرى جاءت إلى هذه البلاد، وكأنّ أنهارها من عسل ومجاريها من لبن، بينما هو بعيد عن زينب بعيد عن هذه المخلوقة الرقيقة، ابنة الباريسية، وابنة عبد الجليل الشلاح، الذي يذوب لسانه، وهو يتحدّث عن الفقراء والجوع والأوبئة، الذي يتكلّم ويتكلّم عن مجتمع من دون حروب ومن دون استعمار، مجتمع جميل أخاذ من دون مرض وجوع وقهر وما إلى ذلك من مفردات يسودّ لها القلب. مرّر يده على شعرها ثمّ على رقبتها. أيّة نعومة هذه؟ كيف يخلق الله أمثال زينب بسهولة...؟ وراحت يده تسبح على ظهرها. من دون رادع، من دون مانع، ثمّ اكتشف أنّ لها عموداً فقرياً ذا فقرات ناتئة، ولكن كيف يمكن لزينب أن يكون لها عموداً فقرياً وهي بهذه الليونة العجيبة؟ وهل هذا سؤال يا مسطول؟... خجل من نفسه، فدسّ أنفه في شعرها، أنفه سعيد. سعيد جداً، فهو يستنشق نوعين من العطر حرصت زينب على التطيب بهما، عطر البنفسج وعطر الياسمين. ولماذا الاثنين معاً؟ ألا يختلط عليه الأمر؟ لا يهم، فعندما جاء أبوها، وعلمت أنّ صالحاً سيصل في الليلة التالية، قضت نهارها كلّه وهي تحضر نفسها، سخنت ماء في أحد القدور، ثمّ قعدت في المطبخ، واستحمت. جففت نفسها، ثم لبست فستاناً جميلاً يحبّه صالح. فتحت قارورة صغيرة تحتوي على عطر البنفسج، ومسحت رقبتها به. ثمّ نسيت ما فعلت، لم يكن عقلها معها، فأخذت زجاجة صغيرة أيضاً فيها عطر الياسمين، سكبت قليلاً على يديها ومسحت بها جبهتها وخلف أذنيها وتحت إبطيها. قد يخطر بباله أن يشمها هنا أو هنا أو هناك، عليها أن تحتاط، ولو كانا متزوجين، لعطرت أيضاً نهديها، إنها لا تستحي من ذلك، فهي تحبّه، وهو يحبّها، إنّها ملكه وهو ملكها.

ماذا حدث؟ طال وقوفهما عند الباب متعانقين، رفع رأسها مرّة أخرى. قبل ما بين عينيها، ثمّ ابتعد عنها.

جلس على إحدى درجات السطح الحجرية وجعل يتأملها واقفة. شاهدته يغرس فيها نظراته، تحرّكت، فقد أحرجها، دارت على نفسها، وكأنّها ترقص المازوركا. فستانها جميل، طويل فاتح اللون مزركش. يتقمصها، يبرز قوامها، بينما الشعر المنسدل على الكتفين، يشع، يعكس بشقرته لون القمر ذهباً، دارت مرّة أخرى، ثمّ ركعت أمامه من دون أن يبين تضرّج الوجنتين، إلا أنّ شعاع الحياة تدفق من عينيها. كم هي سعيدة... الحياة رائعة، لأنّها تحبّه، لأنّه يحبّها.

أمسكت ركبته بيديها، ثمّ أراحت رأسها عليها. همست وهي تطلق زفرة حبيسة:

– كم أنا سعيدة يا صالح، كم خفت عليكما، ولكنك هنا الآن، أرجوك اسمعني جيداً... أنا أحبّك أنت إنسان رائع، لماذا لا تعرف أنك إنسان رائع؟..

ابتسم دون أن تراه. ليس رائعاً ولا شيء، ولكنها هي الرائعة، هي المهذبة اللطيفة الجميلة. إنه فقط يجاهد من أجل إسعادها. يجب أن تكون سعيدة، فهي تستأهل ذلك، لو لم تكن الحرب، لتزوجها، وأسكنها في بيته، هو وهي وحسن في بيت واحد، آه... كم سيكون ذلك جميلاً: لعنة الله على الحرب ما أوقحها!

هل ستنتهي؟ هل ستدوم طويلاً؟ إن دامت طويلاً فلن ينتظر، بل سيتزوجها، رغم أنّه هرب من البلدية، هرب من سهرات أوتيل بارون، هرب من ذلك النقيب الذي يتمنّى أن يلتقطه "بالجرم المشهود". وما هذا "الجرم المشهود" أيها النقيب العزيز؟ لن تلتقط سوى قندرتي وحق الله!

لاحظ انتظام أنفاس زينب، لقد نامت على ركبته، مسّد برفق شعرها المنسدل، إلا أنّه لم يأت بحركة أخرى كي لا يوقظها.

في أحد أيام آذار المتقلب دخل صالح بيت الأستاذ عبد الجليل الشلاح. نقر أولاً على باب غرفة زينب، ثمّ سأل: مسموح؟ أطلّ عند العتبة بابتسامة عريضة مطت شاربيه. خلع طربوشه ثمّ جلس على الأريكة بجوار زينب. لمّت قماش التطريز، ثمّ اقتربت منه حتى لامسته. كانت بسمته قد أصابت زينب بالعدوى، فابتسمت هي أيضاً، بانت أسنانها البيض كأنها من عالم سحري آخر.

– هل تعلم أنك تبتسم بطريقة لطيفة جداً؟

قالت زينب وقد لامس كفّها خده، قبّل يدها، ثمّ سأل:

– يا له من اكتشاف؟ ومن أين عرفت؟

– تبدو ساحراً وأنت تبتسم. تبدو زير نساء. ألم تقل لك إحداهن ذلك من قبل؟ أكيد أن واحدة قد وقعت في غرامك بسبب ابتسامتك هذه. ولكنك تكثر من العبوس، لماذا؟ في الماضي عندما جئت إلينا للمرة الأولى مع خلوق أفندي. ثمّ جئت بمفردك لتخبرنا أنّ الأتراك قد قبضوا عليه، كنت عابساً، وكأنّ أحدهم قد هزمك في لعبة الشطرنج. أليس كذلك؟

ضحك صالح بصوت خافت. مال إليها ثم قبلها في شفتيها قبلة سريعة وقد تضرج وجهه، ثم قال:

– أنا لا أعرف نفسي متى أعبس ومتى أبتسم.

– كيف لا تعرف نفسك؟

– ببساطة لا أعرف. كثير من الناس يقولون ذلك رغم أني أكون..

– أنا أعرف! قاطعته زينب، فهز رأسه كي تتابع، فقالت:

– لاحظت أنك تتجهم عندما تفكّر. مثلاً، عندما تلعب مع والدي، ألاحظ ذلك بوضوح، وأيضاً عندما تتحدّثان في أمور جادة كأحاديث القناصل في أوتيل بارون أو أخبار طازجة عرفتها من أحدهم حول ثورة أهل مكة أو غيره... أقول عند ذلك أراك عابساً ومتجهماً. أما ما خلا ذلك فأنت هادئ السحنة، لست بعابس ولا بمبتسم. هل فهمتني؟ على كلّ حال، ذلك لصالحي بالطبع، فلو أنك أكثرت من الابتسام، فإنّ واحدة أخرى لابدّ أن تخطفك مني. أراح يده على كتفها، وراح يعبث بأذنها الصغيرة وقال وهو يغمز:

– الحمد لله على ذلك، فأنا لا أريد أن أفتقدك.

ثمّ ضحك، وتابع:

– ومن هي التي ستقع في غرامي من بسمة واحدة سواك؟ النساء في هذه الأيام لا تقع في غرام رجل بل في غرام رغيف خبز. على كلٍّ، والدك في انتظاري، هل هو مستيقظ؟

فقالت، وقد تضرّجت وجنتاها:

آه منك؟ تريد أن تهرب بحجة والدي. أريد أن أعرف أيّها المبتسم الساحر، يا زير النساء العظيم، ألا تقابل بعض الفتيات في بيوت القناصل التي تزورها؟

كان يفتح الباب حينما همس لها:

– آه يا عصفورتي، لو تدرين كم أحبّك!

أسندت رأسها على يدها مستسلمة، فكان وجهها يطفح بدفء الحب.

أغلق الأستاذ كتابه، ثمّ دعا صالحاً للجلوس. تنبّه إلى سعادة شفافة تنبع من عينيه. كان الأستاذ سعيداً بدوره. فابنته زينب غالية على نفسه. لقد تعذبت. تعذبت في فرنسا أحبت ولداً مشطوطاً، وكان ذلك حبّها الأول، ولكنها صدمت. أما الآن فقد عرفت من تحبّ، إنّها تحبّ صالحاً. لقد عرفت البنت أن تختار، من يريد أن يراها سعيدة، وهو يراها كذلك فعلاً. في البداية، حاول صالح الهرب منها، أحسّ الأستاذ بذلك، إلا أنّه لم يكن بإمكانه التحدّث معه. كيف يمكن أن يأخذه على طرف، وأن يسأله فيما إذا كان يريد زينب أم لا؟ كان سيبدو سخيفاً حينها. خصوصاً وأنّ صالحاً أصبح ساعده الأيمن، مساعده الوحيد. رجل عاقل لطيف المعشر وكتوم. رجل صبور لا يهدأ، ولا يكل. هذا ما كان يبحث عنه الأستاذ عبد الجليل. كيف حدث ووجد خلوق أفندي صالحاً؟ كأنّه قدّم بديلاً عنه قبل أن يقبضوا عليه. الأستاذ خلوق إنسان ذكي، يعرف ما يريد، كان يفهم الأستاذ بتلميح بسيط. صحيح أنّ عليه أن يشرح الأمور لصالح بأناة وصبر، ليس كالأستاذ خلوق، إلاّ أنّه، بعد ذلك، يتشكّل كالحجر ولا قوة على هذه الأرض يمكنها أن تمحو قناعاته بعد ذلك.

– هل هناك أخبار جديدة يا صالح؟

أشعل صالح سيجارته، ثمّ قال:

– البارحة وصل كولونيل ألماني من الأستانة. عسكري متعجرف لم أرَ مثله أبداً. جلس في صالة الأوتيل، ووضع رجلاً على رجل، وكأنّه يريد أن يري الموجودين نعل حذائه. أول الأمر لم يتكلّم، قلت لك إنه متعجرف جداً. ضرب الساقي لأنّه قدّم له القهوة من دون سكر. بعد ذلك طلب أن يقربوا له كرسيه كي ينظر إلى لعبتنا. كنت ألعب مع قائم مقام تركي ضخم الجثة. كان لاعباً ممتازاً،

كلّفني ساعة زمنية كي أطيح به. بعد أن انتهت الجولة، قعدنا صامتين. لم يجرؤ أحد على الكلام. لا أعرف لم يخافون هذا الدبّ المتعجرف. حتى الأتراك امتنعوا عن التحدّث إليه. إلاّ أنّه فرض نفسه. استدار نحو القائم، وقال له بتركية بشعة:

- إذن خسّرك هذا الهمجي!

قال عني همجي. غطست في كرسيي وأنا غاضب من دون أن أجرؤ على الردّ، تساءلت فيما إذا كان أحدهم سوف يدافع عني أم لا. قلت لك إنّه كولونيل. حتى القائم مقام كان يخشاه. لا أعرف لماذا! وعلى العكس. ابتسم القائم مقام، وكأنّ معنوياته ارتفعت بهذه الشتيمة التي وجهت إليّ. هل أبدو همجياً أيّها الأستاذ؟... طبعاً لا، هم الهمجيون. منذ أن انتقل الأميرالاي من حلب إلى دمشق، ومنذ أن توقف القنصل البلجيكي عن ارتياد الأوتيل، وأيضاً القنصل الأمريكي بسبب حرب الغواصات، التي تشنها ألمانيا ضدّ البواخر القادمة من أمريكا، أقول منذ ذلك الوقت أصبح الأوتيل وكراً للذئاب والمجرمين، لم أعد أطيق الذهاب إلى هناك يا أستاذ، أرجوك أن تعفيني من ذلك!...

ابتسم الأستاذ عبد الجليل، وأشعل غليونه، وقال:

- إن أردت أن تتوقف فلن أمنعك.

- أريد طبعاً، إنّني لا أتهرب، ولكن الذي حصل يجعلني أتوقف.

- وماذا حصل؟ أكمل يا صالح!

- طلب مني أن ألعب معه.

- أن تلعب مع... هذا الحيوان؟

- نعم فلم أستطع التهرب.

- أيه... وماذا فعلت؟

رفع صالح يديه باستسلام، وقال:

- لعبت معه. جلس مكان القائم مقام، وأخذ الأحجار البيض دون قرعة. لم أتمكن حتى من الاحتجاج قلت لنفسي يا ولد انتقم لنفسك منه، افعل كذا وكذا بفرج أمّه... عذراً يا أستاذ فأنا غير مهذب في مثل هذه الظروف.

جعل الأستاذ عبد الجليل يحوص في مقعده. قال وهو يمتص أنفاساً متلاحقة

من غليونه:

– حسناً ... معك حق، وماذا فعلت؟

– بدأ اللعب، هاجم أخونا بالحصانين والفيل، لعبة بسيطة ألعبها وأنا نائم. حسب أن طريقة لعبه تتناسب مع مكانته، أعطيته بيدقاً، ثمّ أعطيته بيدقاً آخر. تقدّم الرجل. سمحت له، وبضربة واحدة هددت له الوزير.

– وماذا فعل؟

أشعل صالح سيجارة أخرى من عقب الأولى. دفع كرسيه إلى الخلف ووضع رجلاً على رجل. يحق له أن يفعل ذلك، قال بحيادية، وكأنّ شيئاً لم يكن:

– جمع الكولونيل رأسه بين يديه، وجعل يفكّر، احمرّ وجهه. تحرّج من وضعه. سمعنا سهسكه وهمسات شامتة. طلبت فنجان قهوة، ورحت أدخّن، وأرتشف قهوتي. جاءتني شجاعة غريبة. عندما تأكّد تماماً أنه سيخسر وزيره، ومن ثمّ ملكه، رفع رأسه، وتفرّس بي بغضب شديد. هذا الرجل مجرم حقيقي. تصوّر أنّني خفت منه وقلت في نفسي إنّه ينوي شيئاً، إلاّ أنّه سوف يكون مُحرجاً أمام الجميع إن نفّذ ما في ذهنه الآن. وبينما نحن صامتون، هكذا، جاءني صوت النقيب حكمت. ذاك الذي يلاحقني:

– عدت لألاعيبك يا صالح أفندي؟

قالها السافل بالتركية. أراد أن يفهم الكولونيل. إذن... لقد وقعت في حيص بيص يا صالح استدرت نحو النقيب، وقلت:

– لم تنته اللعبة بعد. الكولونيل يعرف أنّني لا أغشه، ويعرف كيف ينقذ وزيره. ثمّ قلت للكولونيل أليس كذلك يا سيادة الكولونيل!

ومددت يدي، والتقطت فيله الأبيض، وجعلته يهدد وزيري. كان الكولونيل يراقب حركاتي باندهاش من دون أن ينبس. فها أنا أنقذ أحجاره، وأجعله يهددني. أزحت وزيري... هل تتصور اللعبة يا أستاذ؟... حسناً، أزحت وزيري، ثمّ أخذت بنفسي وزيره، وجعلته يأكل حجري. استمريت باللعب هكذا لوحدي، والكولونيل مندهش، حتّى أطحت بملكي، فجعلته يربح الجولة. نهضت، أخذت فنجاني، ثمّ جلست بعيداً عنهم. خسرت الدق إلاّ أنّني كسبت كرامتي. تحسّنت أحوال الكولونيل

فجعل يتحدث مع القائم مقام وهو لم يزل يرمقني بنظراته تلك. لم ينسني ابن الحرام. كان يبغي إخافتي، فأنا همجي في رأيه.

دسّ النقيب حكمت سيجارته بين شفتيه، ثمّ جاء، وجلس بجانبي. وضع يده أمام فمه، وراح يهمس إلي:

– لقد أنقذت نفسك أيّها الملعون. اسمع. إنّنا نراقبك، وقد توصلنا إلى ما يدينك.

فقلت له:

– إلى ماذا توصلتم؟

فقال وهو يكز على أسنانه:

– لقد علمنا أنك تجتمع ببعض الناس، وأنّك تحرّضهم ضدّ جهاد المسلمين!

فقلت له: لماذا لا تقبض علي إن كنت متأكداً مما توصلت إلى معرفته؟

فقال:

– لن أتسرع، سوف تأتي ساعتك قريباً.

عندما نهضت، وخرجت من الأوتيل والنقيب حكمت والكولونيل الألماني يشيعاني بأنظارهما، هز الأستاذ عبد الجليل رأسه الأبيض، قصير الشعر، وهو يمتص دخان غليونه، ثمّ قال:

– أرى أنّك في ورطة يا صالح أفندي، إلى أيّ اجتماع يشير النقيب؟

فقال صالح متفكراً:

– أظن أنه كان يشير إلى الاجتماع الذي نظّمه ذلك التلميذ لزملائه، وذهبت أنا إليه، وتحدّثت فيه عن قرب الخلاص.

وافقه الأستاذ، ثمّ قال:

– عليك أن تختفي عن أعينهم. أظنّ أنّ عليك أن تبتعد عن البلدية وأوتيل بارون، وأن تهجر بيتك!

بعد ذلك اختفى صالح. انشقّت الأرض، وابتلعته، إلاّ أنّهم سرعان ما نسوه. فقد سقطت بغداد، ولم يعد أحد يرتاد أوتيل بارون ليلعب الشطرنج.

* * *

هناك شيء غير مفهوم بتاتاً. غير مفهوم على الإطلاق. بل هناك عشرات الأحداث والأخبار والشائعات، المنفردة وغير المترابطة، التي تجعل عبد الجليل الشلاح وغيره من الهاربين والملاحقين والمثقفين لا يعرفون كيف يقررون ما هو الصحيح وما هو الخطأ، ولا يستطيعون أن يتنبأوا أو أن يتوقعوا ما الذي سيحصل غداً، وما الذي هي مقدمة عليه هذه الدنيا المشتعلة منذ أربع سنين حتى الآن.

سمع عبد الجليل الشلاح عن صالح، عن أحد الضباط في أوتيل بارون، عن أحد القادمين من الأستانة، عن أحدهم يهمس في وزارة الحربيّة، أنّ قوات الأمير فيصل قد احتلّت مدينة الوجه الواقعة غير بعيد عن الحدود الجنوبية السورية، وأنّ الأمير أصبح يهدد فعلياً خطّ حديد الحجاز، وأنّه قد يزحف في المستقبل على معان.

وسمع الأستاذ أنّ الإنكليز هم الآن في العريش، وأنّهم يمدّون الخطوط الحديدية، ويحشدون الجيوش رغبة منهم في الهجوم على خطّ غزة . بئر السبع. كما نقل إليه صالح أفندي أنّ الوضع العسكري للأتراك في بغداد لا يحسدون عليه، وأنّ ثورة عاصفة قد حدثت في روسيا، فأطاحت بالقيصر، وأنّ الجنود يتركون الجبهة ويرحلون إلى بيوتهم.

وليس هذا فقط، فالأقوال والإشاعات كثيرة، و يمكن حصرها في رأس واحدة:

أمريكا تستعدّ لدخول الحرب. ألمانيا تحرّض المكسيك على أمريكا. ألمانيا تفجّر البواخر القادمة من أمريكا في طريقها إلى أوروبا بواسطة الغواصات. لويد جورج في لندن أصبح كالفأر المحاصر. إيطاليا دخلت الحرب، الإنكليز يتفسخون أمام سالونيك. الروس احتلوا ارضروم. الإنكليز احتلوا بغداد...!

ماذا؟ هل سقطت بغداد فعلاً؟ يا إلهي!

وانتقل هذا الخبر من أفواه القلة إلى الشارع. بلع أحد الجائعين ريقه، ومطّ رقبته، واجتمع ألوف الناس على سفح هضبة ثكنة بانقوسا، يبحثون عن الخبز العسكري والأخبار، إلا أنّهم عادوا دون هذا ودون ذاك.

الأتراك يكذّبون النبأ، ولا يلقون الخبز. ورحل صالح بنبوك إلى بيت القنصل البلجيكي، بناء على طلب الأستاذ عبد الجليل الشلاح، فعاد بنبأ جديد وهو أن أحمد جما باشا قام بنفسه بالإفراج عن بعض المعتقلين، لا لشيء إلا ليعيد الثقة الضائعة

بينه وبين أهل البلاد، وأنّه جمع بعض رجال الدين في دمشق، فألقى فيهم خطبة حماسية لم يستمعوا إلى مثلها منذ ثلاثة قرون، عن وحدة الشعوب الإسلامية وعن محبة الأتراك لأخوانهم العرب، وصاح قائلاً: إن جنكيز خان، لا يمت إلى الأمة الطورانية بأيّ صلة.

هأ.. هأ.. هأ.. ضحك الأستاذ عبد الجليل ضحكة لم يضحك مثلها منذ أن اختفى عن أعين العسس، ثمّ قال لصالح: لعنة الله عليه ما أخبثه، ثمّ أشعل غليونه وترك صالحاً يدخل غرفة زينب كي يقوم بتوكيد حبّه الشديد لها، وجعل يفكّر:

نحن لا نملك شيئاً. لا نملك صورة واضحة بالرغم من كلّ هذه الأخبار التي تصلنا رشاً، والتي أصبح صالحاً مختصاً بها. ماذا فعلنا وماذا نفعل؟ ماذا سيحدث؟

كلّ ما هنالك أنّنا حلقة، أعضاؤها لا يتجاوزون العشرة. خلوق أفندي هارب في مصر، آرتين وزوجته في بيروت. اثنان أو ثلاثة في السجون، ماذا عندنا؟ ماذا؟

العدد يهم، بل الفعل، التأثير، والسمعة. بعدد أصابع اليد إلا أنهم يعملون، يجمعون تلاميذ المدارس، عمّال المطابع، عمّال سكّة الحديد. ويتحدّثون إليهم. في الماضي كان يصمون آذانهم. أمّا الآن فإنّهم يهزون رؤوسهم موافقين. فقد يهزون رؤوسهم كم يودّ أن يأتي اليوم الذي يصير باستطاعتهم فيه إنزال هؤلاء إلى الشوارع، كما كانوا يفعلون في فرنسا، إضرابات، احتجاجات، صياح، صراخ... كلّ شيء، أمّا الآن فالخوف يمنعهم، محقة الجندرمة وفصائل التجنيد والتحصيل تكبلهم. الجوع والأمراض تسحقهم. ولكنّه يشعر أنّ الأمور تتغيّر. إنّه يحسّ بذلك. أين أنت يا أستاذ خليل عوض. أمازلت في بيروت، أم أنّ جمال باشا سجنك أو نفاك إلى الأناضول؟

عليه أن يرسل صالحاً أو يذهب هو. لابدّ أن يتصل مع الناس. حان الوقت. اليوم وإلا فلا. الوقت يمرّ بسرعة، والأحداث تتسارع. لا يمكن لصالح أن يقوم بذلك بمفرده. سوف يسافر هو بالذات سيأخذ معه صالحاً. يجب ... يجب..

فتح باب غرفته، ونادى صالحاً. دخل صالح وشفتاه ممتقعتان. قال له الأستاذ وهو يبعد عينيه عن شفتيه:

– ألا ترى معي أنّ لأوضاع في سورية وصلت إلى مرحلة مهمة من التطور، وأنّه لابدّ لنا من سبر آراء الحلقات والحركات والأحزاب الأخرى؟

انتظر صالح قليلاً قبل أن يجيب. كان يريد أن يخرج من تأثير طيف زينب، وملمس زينب وقبلات زينب. مسح وجهه وفمه بكفيه، ثمّ جعل يلفّ سيجارة من تبغ باريشا الشهي. كان الأستاذ قد أراح ذقنه على قبضته ناظراً إلى صالح.

قال صالح وهو لم يزل يلفّ سيجارته:

– كل الأمور تدل على أنّ الأتراك في ضائقة كبيرة، وأنّ الأهالي بدأوا يفكرون بالخلاص. الشيء غير المفهوم حتى الآن نوايا شريف مكة والإنكليز.

أهه... صالح يعبر جيداً عمّا يريد قوله. سأله مرّة أخرى:

– هل نستطيع بقوانا الضعيفة أن نحرّك الناس؟ يجب على الناس أن يتحرّكوا، خصوصاً وأنّ الأتراك أصبحوا في وضع سيء، وأنّ الحصاد على الأبواب.

– بصراحة يا أستاذ. لا نستطيع. أنت تعلم كم من الوقت والجهد بذلا من قبل التلميذ العضو في الحلقة كي يستطيع جمع ستة أو سبعة من زملائه. ثمّ هل تعلم كيف كنا نتحدّث؟ همساً يا أستاذ؟.. همساً. أمّا عمّال المطابع الذين جئنا بهم إلى بيتك في ساحة التنانير، فقد كانوا ثلاثة فقط، وقد كانوا خائفين إلى حدّ أنّهم كانوا يتطلّعون إلى النوافذ والأبواب باستمرار. أنت كنت هناك، ولمست ذلك بنفسك.

هزّ الأستاذ رأسه طويلاً، ها نحن نصل إلى النتيجة المنطقية. صالح رجل ممتاز، إنّه يفكّر، الشطرنج مفيد جداً.

– إذن... ماذا تعتقد؟

– علينا أن نكون ضمن تيار معارض قوى. نقوى نحن ويقووون هم. نحن جدول صغير. ولكن الجداول الصغيرة تصنع نهراً جارفاً إن هي اجتمعت.

ابتسم الأستاذ عبد الجليل، يا إلهي! كأنّ خلوق أفندي هو الذي يفكّر، ويتكلّم. إنه يتذكّر كيف كان خلوق يلح على اللقاء مع العربية الفتاة. كان يقول: يا أستاذ هذه الجمعية مع التحرر وتكره الإنكليز والفرنسيين، إنّهم على صواب، دعنا نلتقي بهم، إنّهم يختلفون عن اللامركزيين!

– اسمع يا صالح... قال الأستاذ عبد الجليل . لقد توصلت بنفسك إلى ما كنت أفكّر به، إنّنا متفاهمان مئة بالمئة. ولذلك، فأنا أقترح أن نسافر معاً إلى بيروت، ثمّ إلى دمشق، وقد نصل إلى القدس، المهم، علينا أن نستمع إلى خليل

عوض المحامي وإلى كلّ جماعة لم يبطش بها جمال باشا بعد.

- وكيف سنتوصل إليهم؟

- عن طريق خليل عوض ورفاقه.

- وإن لم يعد موجوداً، أقصد إن كان جمال قد فعل به ما فعل بالآخرين.

نفث الأستاذ عبد الجليل دخان غليونه، ثمّ قال:

- لا تفقد الأمل يا صالح، سنرى في حينها!

في اليوم التالي استقلا قطار رياق، ورحلا. لم يقل لأحد إنّه مسافر، بل جاء بابنه حسن من بيت أم ربيع، وتركه ينام في بيت الشلاح، لكي تأنس زينب به، كما طلب من وحيد الأسدي أن يشتري الأطعمة لزينب ولأم ربيع والآخرين.

نزلا من القطار في محطة رياق المزدحمة بالجنود والقطارات العسكرية وصناديق الذخيرة المتروكة في العراء. كان الليل قد عتم منذ ساعتين، وكان نظام التعتيم مفروضاً بشدّة، فلم يستطيعا متابعة السفر إلى بيروت. وجدا عربة مفتوحة فاندسا فيها، إلا أنّهما لم يجدا مكاناً يتسع لهما إلا بعد جهد. كانت العربة ملآنة بالجنود. منهم من كان نائماً ومنهم من كان مستلقياً، يتحدّث بصوت خافت إلى جاره. كانت السجائر المشتعلة تلمع بين برهة وأخرى، فتبين أنوف أصحابها وشواربهم ولحاهم الكثة.

استلقى الأستاذ عبد الجليل على القش المفروض على الأرضية الخشبية، وغطّ من فوره في نوم عميق، حتّى إنّه شخر.

لم يستطع صالح أن يغفو، فقد كانت رأسه تؤلمه وأذنه اليسرى تطن، لا يسمع بها سوى نبضه. أخرج رغيفاً من الخبز وقطعة جبن، وراح يمضغها، فقد كان جائعاً، يستشعر مرارة التدخين في فمه. سمع أحدهم في الظلام يسأل:

- ماذا تأكل يا أخ؟

جاءه صوت الجندي خشناً ومحايداً، بلع لقمته، ولم يرد، ثمّ قضم قطعة خبز أخرى. قال آخر بصوت رفيع كصوت الصبيان:

- هناك من يريد أن يأكل خراءه في الظلام كي لا نشاركه. لماذا لا يتكلم؟ هل فقد لسانه؟

- عليك اللعنة بل إنني أشمّ رائحة الجبن!

- بلى إنّني أشم رائحة الأقدام.

- لماذا لا يتكلّم؟

فعلق ثالث، كان صوته يدل على أن فمه بدون أسنان:

- هذه عادة تعلّمناها جيداً، كلّ جندي يقوم بسرقة شيء إضافي يقوم بالتهامه ليلاً.

- ولكنني أشمّ رائحة الجبن، فمن أين أتى به؟ إنّهم لا يقدّمون الجبن إلا للضباط.

- اخرسوا إذن! ربّما كان ضابطاً.

- ضابط؟ اللعنة! بما تتفتق يا أخ. ماذا يفعل ضابط في هذا الإسطبل؟

- هل جننت، وهل سيأتي ليتفرّج على جمال مؤخرتك؟

كان صالح يستمع وهو يأكل ويبتسم، فقد استهوته أحاديث الجنود، منذ كان في "كوت العمارة" لم يستمع إلى شيء من هذا، بلع لقمته، ومسح شفتيه بظاهر يده ثمّ أشعل سيجارة كان قد لفّها في القطار.

أبقى عود الثقاب مشتعلاً لبرهة، فبانت للعيان سترته وربطة عنقه، فسمع تصفيرة أطلقها أحدهم، ثمّ ساد صمت تتخلّله أصوات شخير النائمين.

في الصباح أيقظهم صوت بوق يزعق بتثاؤب. نزلا من العربة، وجعلا يتفحصان بدلتيهما. كانتا متجعدتين وسختين علقت بهما عيدان القش. لاحظ صالح كيف كان جنود عربته يراقبونهما باحترام أو بسخرية.

غسلا وجهيهما مع الجنود، لم يتكلما سوى مع جندي في الثلاثين، أطلق لحيته بعد أن عجز عن إيجاد وسيلة لحلاقتها:

- إلى أين يأخذونكم؟

فقال الجندي وهو يلتقط البراغيث من لجّة شعره:

- الله أعلم يا أستاذ.

فقال له الأستاذ عبد الجليل برقة، وهو يتفحص عيني الرجل الحمراوين وشعره المتلبد من القذاره:

- أنتم ذاهبون إلى غزة!

وسّع الرجل عينيه، ثمّ بدأ يلتقط البراغيث من لحيته هذه المرّة، وقال:

- ومن أين تعلم يا أستاذ؟ نحن هنا منذ ستة أيام ولا نعرف شيئاً.

فقال صالح مازحاً:

- إنّه والي غزة.

وقف الجندي باحترام محنياً ظهره، لا يدري إن كان كلام صالح صحيحاً أم لا.

سارا مبتعدين عن المحطة، فهبت عليهما نسائم تخلو من روائح عرق الرجال والزيوت وبخار الماء. وجدا عربة فارغة، فاستأجراها إلى بيروت.

ما إن اجتازت العربة "عالية" وولجت بيروت حتى شاهدا الكارثة. جحظت عيناهما، وفغرت أفواههما، ماذا حدث لبيروت، أيّة عروس كانت، وأيّة مصيبة قد أصابتها؟

كانت هناك بعض الجثث لفقراء ماتوا وهم يبحثون عن لقمة يسدون بها رمقهم. جثة، جثتان، ثلاث... عشرون... يا إلهي! الجثث في كلّ مكان يمرّ فيه الإنسان، فيسدّ أنفه ويتابع، بعد أن يكون قد ألقى نظرة سريعة. ثمّ شاهدا عربة البلدية تحمل الأجساد التي التقطتها من الشوارع ورائحة التفسخ تفوح منها بقوة.

ما هذا؟ سألا معاً وكأنهما جوقة واحدة. استدار الحوذي وجعل يراقب وجهيهما. وعندما صدّق انطباعهما، رسم بشفتيه من دون أن يتكلّم:

- الجوع... الجوع يا عمي!...

هزّا رأسيهما معاً أيضاً، ثمّ قال صالح بمفرده: يا إلهي... سحقاً!... حسب أن الوضع هنا، مثل حلب أو أفضل من حلب، إلا أنه لم يتصور أنه أسوأ بكثير! لماذا بيروت؟ ماذا حدث؟ ماذا حدث بأرتين وزوجته؟ أسئلة وجد أنه من الصعب الإجابة عليها فصمت، كانا قابعين في مقعد العربة صامتين، كانا متجهمين، فلم يشعرا كيف توقف الحوذي أمام بيت من طابق واحد، في نفس هذا البيت، كان صالح في يوم من الأيام مع أرتين، هذا هو بيت المحامي خليل عوض، الرجل الذي تخرّج أيضاً من فرنسا، ويعتنق أفكاراً تتطابق مع أفكار الأستاذ عبد الجليل الشلاح.

طرقا الباب، ففتحت لهما امرأة عجوز في الثمانين. كانت أمّ الأستاذ خليل، عرفها الأستاذ الشلاح ولكنّها لم تعرفه.

– الأستاذ خليل موجود؟

تفرّست المرأة بهلع في وجهي الأفنديين وفي ملابسهما المتجعدة.

– ماذا تريدان منه؟

– أنا صديقه عبد الجليل الشلاح.

– الأستاذ خليل غير موجود إنّه لا يعيش هنا!

– وأين يعيش إذن! سأل الأستاذ عبد الجليل إلا أنّ المرأة عادت تتفرّس فيهما بنظرات متفحصة كانت تشكّ، فقد اعتادت على ذلك. هل يمكن لهذين الرجلين أن يكونا من عملاء جمال باشا؟

قال صالح بصوته الهادئ:

– قولي لنا أرجوك، نحن أصدقاؤه وقد جئنا من حلب خصيصاً لنطمئن عليه.

أطرقت المرأة، وجعلت تعمل ذهنها، هل تحكي أم لا؟! قالت للأستاذ بتردد:

– اقسما بالله أنكما من أصدقائه!

أقسم لها الأستاذ، ثمّ أقسم صالح وقد أحسّا بشيء من الأمل.

– أقسما أيضاً بيسوع المسيح!

أقسما أيضاً به. كان صالح يزفر من منخريه، وهو يكبح نفسه. لقد حسب أنها ستدعوه ليقسم بيهوذا أيضاً، عندها ابتسمت المرأة عن لثتها البيضاء ودعتهما للدخول. ما ألطفها هذه الجدّة، لقد جعلته يقسم بيسوع المسيح أخيراً.

احتلوا كراس عالية من القش. بقوا صامتين لدقائق والمرأة ما تزال تتفحصهما. قالت لهما وهي تبدي أسفها بتعابير وجهها:

– اعذروني يا أولادي، الدنيا ليست بخير، هل شاهدتم ما يجري في الشوارع؟ إنّني خائفة على ابني خليل وعليّ أن أحميه، جاؤوا منذ ثلاثة أشهر، وطلبوه من جديد. كادوا يأخذونني عوضاً عنه...

هزّ الأستاذ رأسه وهو يقول:

– معك حق يا خالة، معك حق... أين هو الأستاذ؟

- ليس هنا.

- نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، ثمّ سأل صالح:

- وأين هو؟

نهضت العجوز وأتت بورقة وقلم. طلبت منهما أن يكتبا: من هما وماذا يريدان من الأستاذ خليل عوض.

قام عبد الجليل بذلك. طوت المرأة الورقة، ثمّ غطّت نفسها بعباءة إسلامية. رسمت على صدرها علامة الصليب وخرجت. عادت بعد ساعة. جمعت يديها على صدرها بأدب جم، ثمّ قالت:

- حضرتك الأستاذ عبد الجليل... يا عيب الشوم! لم أعرفك، يا لي من عجوز حمقاء، ألا ترى كيف كبرت وأصبحت خرفانة. أعذرني يا أستاذ أنا آسفة كثيراً.

صافحتهما وكأنها تلتقي بهما للمرة الأولى، ثم دعتهما لدخول إحدى الغرف للاستراحة حتى حلول المساء.

خلعا ثيابهما، واغتسلا وهما يشعران بالامتنان لهذه الدعوة. إلا أنّها لم تتركهما يرتاحان بسهولة. طرقت الباب، ودخلت، ثمّ جلست على سرير الأستاذ عبد الجليل وجعلت ترغي:

- شايف يا أستاذ شو صاير بها الدنيا، بيروت فارغة من أهلها، وجمال باشا فرض عليها الحصار.

كما يقول خليل بسبب الجمعيات، والبلدية عم تلمّ الناس مثل الزبالة... يا له من ابن حرام. هل تعلم أنّه شنق صديقنا العزيز الأستاذ جرجي حداد؟ كسّر ايديه ابن الزانية، ابن الواطية، إلهي ينتقم منه!

- نعم... نعم... قال الأستاذ عبد الجليل.

- متى ستنتهي هذه الحرب الوسخة يا أستاذ؟

- قريباً يا أمّي قريباً.

نهضت المرأة رغم أنها لم ترد أن تقوم وهي تدمدم:

- قريباً؟!! أنا لا أرى ذلك، لن تنتهي الحرب، حتّى تنهي كلّ الأحياء الباقين

يا أستاذ...!

في المساء جاء أرتين، كانت مفاجأة فعلاً، قبّل بعضهم بعضاً، وتعانقوا. كيف هي سانتوس؟ ماذا تفعل زينب؟ كنا ننتظركم منذ زمن عيد، الطريق غير مأمون والبريد مقطوع! لقد أصبحت أكثر رشاقة يا أرتين.

فقال أرتين الذي نحل كثيراً:

– حقاً! العمل كثير والطعام قليل. هيا فالأستاذ خليل في انتظاركما!

خرجا يتبعان أرتين عن بعد. الاحتياط واجب. قبل ساحة البرج انعطفوا في أحد الزواريب، ودلفوا إلى بيت من طابقين. صعدوا إلى الطابق الثاني حيث كان الأستاذ خليل الذي شاب شعره كله في انتظارهم.

* * *

– تركيا تخسر الحرب، هذا أكيد، أما العرب فهم يحملون السلاح لأول مرة ضد السلطنة العثمانية، لا لشيء إلاّ ليؤسسوا دولتهم العربية المستقلة عن تركيا. لم تعد اللامركزية وضعاً يمكن القبول به. مستحيل، لقد تغيرت موازين القوى في المنطقة!

قال عوض خليل ذلك، وهو يحرك يديه، كعادته، ويفركهما ببعض، ويحرّك عينيه بطريقة لطيفة محببة، تجعل المستمع يشعر بألفة نحوه. سأله الأستاذ عبد الجليل:

– وكيف هي موازين القوى الآن؟ كيف أصبحت؟

– لقد خسروا بغداد، هذا ليس شيئاً قليلاً، الإنكليز يشنون حربهم الآن على ثلاثة محاور، المحور الأول هو محور بغداد دير الزور بقيادة الجنرال مود. المحور الثاني هو العريش القدس، أما المحور الثالث فهو قوات الشريف حسين التي استقرت في الوجه، وتتأهب للانقضاض على درعا.

رسم خليل عوض خريطة المنطقة وعليها المحاور الثلاثة. رسم دائرة وقال:

– هذه هي دمشق. الهدف هو دمشق!

– إذن، فأنت تعتبر قوات الشريف حسين محوراً إنكليزياً . قال صالح.

ابتسم خليل عوض ثم قال:

– نعم، وهو ينفذ سياسة إنكليزية.

أشعل عبد الجليل غليونه، وقال:

– وهل يعلمون ذلك؟ هل يعلم الشريف حسين بذلك.

– منذ مدّة، ونحن نجري الاتصالات مع زعماء التحرر. ورغم أنّ الوضع صعب وجميعنا ملاحقون، ونعمل في الخفاء، فقد استطعنا الالتقاء. هذا شيء ليس بالسهل، أظنُّ أنّ الوضع في حلب مشابه للوضع في بيروت ودمشق، خصوصاً وأنّ كثيراً ممن نلقاهم محكوم عليهم بالإعدام تصور هذا!

– وبِمَ خرجتم من هذه الاجتماعات؟

راقب خليل عوض صالحاً يشعل سيجارته، ثمّ قال:

– الشيء الوحيد الذي خرجنا به هو اجتماعنا على التخلص من استعمار العثماني وإنشاء دولة عربية مستقلة غير مهيمن عليها من أيّ دولة أجنبية مهما كانت.

– هذا شيء جديد. وما هي الطريقة؟ قال الأستاذ عبد الجليل، فقال المحامي:

– اختلفنا على الطريقة وعلى الزمن.

ضحكوا. سعل صالح من التدخين، واحمرّ وجهه كالشوندرة المسلوقة. تابع خليل عوض:

– هل نتعاون مع الإنكليز أم لا؟ بعضنا قال نعم، وبعضنا آخر رفض لأن مثل هذا التعاون قد يوقعنا تحت نفوذ دولة أجنبية فيصبح الوضع أسوأ مما كان. تصوروا أصحاب العربية الفتاة . وهم يرفضون باستمرار التصريح بأنهم ينتسبون لهذه الجمعية ويقولون إنهم غير منظمين في حزب . يقفون ضدّ التعاون مع الإنكليز.

فقال الأستاذ عبد الجليل:

– وهذا ما أعرفه عنهم.

– عم ولكن الأمير فيصل والأمير زيد هما من أعضاء نفس الجمعية، وقد قام نسيب البكري نفسه بإدخال فيصل فيها، تصوروا ذلك! إنهم لا يعرفون أيّ شيء،

ويرفضون أن يقتنعوا بالأقوال التي تسربت إلينا عن أنّ الإنكليز والفرنسيين يحضرون شيئاً غير سعيد بالنسبة لمنطقتنا.

– مثل ماذا؟ سأل صالح.

– الأمر مبهم حتى الآن وغير دقيق، ولكن الأقوال تستدعي البحث والتحميص، قلت لهم ذلك في الاجتماعات، إلا أنهم لم يقتنعوا . ثم أضاف . نحن لا نثق بالإنكليز يا أستاذ.

– ونحن أيضاً! قال الأستاذ عبد الجليل وهو يبتسم ثم سأل:

– هل يعني هذا أنّ الصلات مقطوعة بينكم؟

– لا، إنّنا ننسق مع بعضنا البعض من أجل ثورة مسلحة في سورية. تصور ذلك... سوف يزداد الضغط على الجيوش العثمانية في سورية من المحاور الثلاثة، فيهبّ كلّ من حسين الأطرش والعلي ونوري الشعلان وعودة بن تايه وهنانو والضباط العرب الموجودين في الجيشين الرابع والثامن، فنقطع الطريق على انسحاب العثمانيين، ونستلم السلطة قبل وصول الإنكليز، وأنا أقول قبل وصول فيصل أيضاً... هكذا نفكّر يا أستاذ!

نظّف الأستاذ عبد الجليل حنجرته بجمجمة، ثمّ سأل:

– وهل لديكم القوة لعمل ذلك؟

– بعضنا يقول نعم، أمّا الآخرون فيقولون لا. لماذا؟ لا أعرف السبب لهذه اللا! أعتقد أنهم يريدون انتظار الأمير فيصل. الفكرة واضحة. فيصل يحرر دمشق ويصبح ملكاً فيها. الناس يقضون على الملكية بينما نحن لا نستطيع أن نعيش دون ملك.

– تقصد روسيا؟

سأل صالح الذي عرف ذلك من أحد القناصل بحلب، فأجاب خليل:

– نعم والحكومة الروسية أعلمت حلفاءها في الانتينيت أنها ستستمر بتعهداتها.

همهم الأستاذ عبد الجليل ساخراً:

– يا لهم من شرفاء!

فقال الأستاذ خليل، وهو يفرك عينيه بقفا يديه:

– هل تعرف؟

فقال الأستاذ عبد الجليل:

– ماذا؟

– أصحابنا البلاشفة الذين عرفنا بعضهم في باريس!

– ما بهم؟

– اشتركوا بنشاط في إسقاط الملكية. إنهم يدعون للخروج من الحرب ولكن الحكومة الجديدة رفضت ذلك، وأعلنت عن استمرارها. والآن... ما هو الوضع عندكم في حلب؟ كيف هي حال حلقتك يا أستاذ عبد الجليل؟

بصق الأستاذ نقط النكوتين التي امتصها من غليونه، ثمّ راح ينظّفه. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة، فسمعوا أصوات صافرات العسس في الشوارع الفارغة، ثمّ دوّت إطلاقة بندقية من البرج. أطفأ أرتين مصباح الكيروسين، ثمّ عاد ليجلس صامتاً في مكانه. همس بعد لأي، وكأنّ أحدهم قد يسمع حديثه من الشارع:

– قد يكون هذا جائعاً سطا على أحدهم.

لم يجبه أحد. سمعوا خطوات سريعة، ثمّ صوت سعال مكتوم. كأنّ أحدهم يكاد يختنق. اقترب أرتين من النافذة، إلا أنّه لم يميّز شيئاً في العتمة المفروضة على المدينة. همس صالح، وكأنّه يريد إقناع نفسه:

– أصبحت بيروت مخيفة يا رجل!

علا صوت سعال الرجل المختبئ في الظلمة الحالكة. كان يحاول كتم سعاله بيده دون جدوى، ثمّ راح يئن، وبعد قليل جعل يتقيأ، سمعوه يهمس لنفسه: أنا أموت يا أمّي. آه أنا أموت...! ثمّ وصلت إلى أسماعهم أصوات الصافرات من جديد. إنّهم يبحثون عنه هؤلاء الشياطين، سحقاً لهم. همس صالح:

– ألا يمكن إنقاذه؟

فأجابه خليل عوض بصوته العميق:

– لا فائدة... إنّه يموت، أصابوه في رئته على ما يبدو، ثمّ إنّ الدّم سيكشف البيت إذا ما أدخلناه. همد الرجل، وتوقف سعاله وهمسه، وبعد قليل وصل ثلاثة

فرسان فوجدوه جثة هامدة تسبح في دمها.

قال الأستاذ خليل عوض بعد أن رحل الفرسان جارين الجثة على طريقة "السحل":

– هيا لنسترح! لقد انتصف الليل، لم يعد لي مزاج للكلام، ماذا تراه قد فعل المسكين؟!

* * *

بعد ثلاثة أيام من الأحاديث المستمرة ليلاً ونهاراً ي ذلك المنزل السري للأستاذ خليل عوض قرب ساحة البرج، بين كل من خليل عوض وعبد الجليل الشلاح وصالح بنبوك وأرتين استنتجوا جميعاً أن حلقة الأستاذ عبد الجليل غير نشطة ومنغلقة على نفسها وليست لها أية صلة بما يجري في البلاد. صحيح أن حلقة الأستاذ المحامي خليل عوض متفككة، وقد انحلّت بسبب قمع جمال باشا إلاّ أنّ مؤسسها وعدد نشطائها يعملون في اتّجاه سليم وهو تكثيف صلاتهم مع أصحاب دعوة التحرر من جميع اتجاهات وجميع الأحزاب مثل اللامركزية الإدارية والعربية الفتاة والمنتدى وبعض الضباط المحسوبين على جمعية العهد وغيرها، بغية قطع المرحلة الأولى من عملهم ألا وهو تحرير الدولة العربية من الاستعمار العثماني والحفاظ عليها، فيما بعد، بعيداً عن أطماع الدولة الأجنبية مهما كانت هذه الدولة. وفي اليوم الرابع انتهى خليل عوض إلى نتيجة مهمة وهو يناقش صالحاً:

– الجميع يريدون التحرر، بغض النظر عن مواقعهم وأديانهم وعشائرهم، بغض النظر عن فقرهم أو غناهم. نحن هنا لسنا بصدد تصنيفهم، فالقمع يقع على رؤوسنا جميعاً. انظر، فنحن نختلف مع جماعة الجبل، إنّهم يريدون المساعدة من فرنسا بالذات، إلاّ أنّهم يبغون التحرر هذا هو الهدف. وهل تعلم يا أستاذ صالح أن الوثائق التي ضبطها جمال باشا في القنصلية الفرنسية، وأعدم بسببها العريسي ورفاقه لا تدين هؤلاء أبداً؟ نعم، كانوا يتصلون بالقنصلية الفرنسية، إلاّ أنّهم كانوا يطلبون مساعدة فرنسا من أجل الحصول على الحكم الذاتي، على اللامركزية ضمن السلطنة العثمانية. العريسي لم يفكّر أبداً باستبدال الاستعمار العثماني باستعمار آخر فرنسي.

هذا مستحيل من وجهة نظري. هذا ينطبق على الجميع وعلى الشريف حسين شخصياً، الذي يتعاون الآن مع الإنكليز. كنّا نودّ أن يقوم بثورته من دونهم. دون أن يثق بهم هكذا من دون حدود. إلا أنّه في النهاية يريد أن يرى نفسه ملكاً على الدولة العربية المستقلة وليس ليرى الإنكليز يحكمونها بأنفسهم، بينما هو قابع من جديد في مكة.

فقال صالح الذي كان يجادله بأعصاب باردة:

- ولكن، كيف يمكن أن نكون أصداء لمالكي الأرض، والأغنياء؟ إنّنا نحبّ الفقراء، أنا أفهم هذا فقط. أمّا الأغنياء فهم أعدائي، وهؤلاء لن يستطيعوا أبداً أن يقنعوني بصداقتهم رغم أنّهم يدعون للتحرر!

حملق الأستاذ خليل عوض بعينيه، ثمّ سأل:

- ولم لا؟

- إنّهم موظفون أو تجار أو مالكو أراض وإقطاعيات، منهم من يتصل مع فرنسا ومنهم من يعدّ الصفقات مع إنكلترا وآخرون يريدون البقاء في السلطنة العثمانية كرمى لذقن الخليفة أو لسبب آخر... هذه بندقة يا أستاذ، وليست ثورة!

- انظر يا أستاذ صالح. سوف أقول لك ما همسوا لي به مرّة. لقد أكّد بعضهم أنّهم سيحاربون في صفوف الأتراك ضدّ الإنكليز إذا ما تأكد لهم أنّ الإنكليز والفرنسيين جاؤوا لاحتلال البلاد.

فقال صالح وهو يتطلع إلى أرتين، وكأنّه يحدّثه هو:

- ولكنّك قلت قبل قليل، إنّ إنكلترا وفرنسا تحضران شيئاً غير سعيد لهذا البلد. حسناً ألم يصل مثل هذا الشيء إلى أسماعهم؟ هل هم طرشان؟

ابتسم الأستاذ عبد الجليل وأرتين. لقد أحرج صالح الأستاذ عوض بحجته. يا لك من ملعون يا صالح، إنّك، في كلّ حال، تخلط يا صالح!

صمتوا قليلاً، إلا أنّ الأستاذ عبد الجليل سحب غليونه من بين شفتيه، وقال منجداً صديقه البيروتي:

- يا صالح... الأمور لا تؤخذ هكذا! هذا العصر هو لنا وليس لنا في وقت واحد.

– وماذا تعني بهذا يا أستاذ . سأل صالح.

– إنّ ثورتنا التي ستقوم في كلّ الدّنيا لم يحن موعدها بعد. ولكنّ ثورتهم التي بدأت في مكة تخصّنا أيضاً. فلا يمكن أن نقعد مكتوفي الأيدي، ونقول إنّها لا تعنينا. إنّها تعنينا، ويجب أن نصادقهم، كي ننجح ولكن على أسس نظيفة. علينا أن ننبههم باستمرار إلى خبث الإنكليز، الذين يبدون لطيفين كالسناجب، رغم أنّي لا أؤمن أنّ أصحاب فيصل سيستمعون إلى تحذيراتنا.

هزّ الأستاذ عوض رأسه موافقاً. حكّ صالح قذاله لحظة، ثمّ هزّ رأسه بدوره. لقد اقتنع أخيراً أو ربّما لم يقتنع بعد، إلاّ أنّه هزّ رأسه مقلّداً الأستاذ عوض، فهو يملك رأساً جميلة، ويهزها بطريقة محببة. فهموا جميعاً أنّ صالحاً لم يقتنع، إلا أنّهم صمتوا. كيف يمكن لصالح أن يتخلّى عن فكرة الثورة، التي ستهبّ رياحها قريباً على كلّ الدّنيا، لتسحق الأغنياء أصحاب المشاريع الحربية، ولتنقذ الفقراء من الحروب والجوع والأمراض السارية، وحتّى من البراغيث والقمل؟

خرق خليل عوض الصمت قائلاً:

– حسناً، ما رأيكم في أن تلتقوا ببعض الأصدقاء من جمعية العهد؟ سوف أرتب لكم بعض اللقاءات قابلوهم وتحدثوا إليهم، ويمكنهم أيضاً أن يدلوكم إلى بعض أعضاء الجمعيات الشرفاء الموجودين في حلب. لن تخسروا شيئاً! بل إنّني أعتقد أنّهم يستطيعون إخراجكم من عزلتكم.

وافق الأستاذ عبد الجليل ووافق صالح، كان عليهما أن يطيلا مكوثهما في بيروت، فانتقلا إلى منزل خليل الريفي.

كان البيت يقع على سفح الجبل المطلّ على بيروت والبحر. وكانت دغلة خضراء تحيط بالبيت المنعزل ذي الطابق الواحد والمبني من الحجر الأصفر النافر. احتلا غرفة واحدة من غرفة الخمس، انتقاها صالح بحيث كانت نافذتها تطلّ على المدينة، وتستقبل نسائم الربيع المشبعة بعبير الصنوبر والبحر.

أيّة سكينة تلفّ محيط البيت؟ ما أجمل الحياة يا ناس؟ ... وكأنّهما ابتعدا عن الأرض ومشاكلها وحروبها، فجعلا يقضيان أيامهما بهدوء منتظرين مجيء أرتين لأخذهما إلى حيث سيجتمعان، ويتناقشان، إلى حيث يجب أن يذهبا كي يخرجا

الحلقة من عزلتها.

ولكن.. كم هي جميلة العزلة، لو كانت معهما زينب لأكتمل الأمر. إنّه قلق عليها. ماذا تفعل؟ أخبر الأستاذ عبد الجليل بقلقه، سأله إن كانت تستطيع أن تدبر أمورها بنفسها. طمأنه أستاذه وهما منحنيان على رقعة الشطرنج تحت شجرة أرز وارفة. زينب شجاعة أنت لا تعرفها جيداً. إلا أن صالحاً لم يتمكن من القول إنه مشتاق إليها أكثر مما هو قلق عليها. خجل من أبيها إلا أنّه عندما ذكر زينب مرة أخرى، أثناء جولة شطرنج أخرى، ابتسم الأستاذ، وحدس اشتياق الرجل لابنته.

طال انتظارهما. ستة أيام وأرتين غائب. المهمة ليست سهلة في كلّ حال. كان هناك قروي بسيط في الستين اسمه نعوم يأتيهما بالطعام والتبغ. سأله صالح عن أرتين ماذا حصل له، لماذا لا يأتي؟

وعدهما أن يسأل عنه في المرة القادمة. إنّه لا يعرفه.

– ومن يطلب منك أن تأتينا بالأطعمة؟

– شخص آخر ، اسمه جميل..

– ومن أين أنت؟

– من الضيعة هذه . وأشار إلى مجموعة من البيوت تقبع خلف ذؤابات الأشجار المتمايلة.

– إنها عدد من البيوت هجرها معظم سكانها. الجوع يا عمي الجوع.

– وأين ذهبوا؟

– منهم من رحل إلى الشمال، ومنهم من رحل إلى الجنوب.

– وأنت... لماذا لم ترحل؟

أجاب الرجل وهو يأخذ سيجارة ملفوفة من صالح، ويضعها خلف أذنه:

– ليس لي أحد أذهب إليه. جمال باشا أخذ الولدين، وأرسلهما إلى الأناضول. كانا في الفرقة 29 المعسكرة فوق الشام. كنت أسافر إليهما متى عنّا على بالي. ولكن جمال باشا خاف من الأكثرية العربية في الفرقة. خاف على ظهره منهم فرحّل الفرقة كاملة إلى الأناضول. أخو الشْلِكّة!

ضحك صالح للمسبة، فتح الأستاذ عبد الجليل عينيه، وتطلّع بعطف إلى

القروي وهو مستلق في سقيفة البيت الأمامية، سأله صالح وهو يلوك ورقة أبرية:

– ومن قال لك إنّ جمال باشا يخاف منهم؟ من قال لك هذا الكلام.

– الأستاذ جميل.

– ولماذا لا يأتي إلينا الأستاذ جميل كي نتعرّف عليه؟

حكّ القروي جبهته، ثمّ أعاد قبعته وهو ما يزال يزمّ عينيه بسبب وهج الشمس وقال:

– الأستاذ جميل لا يعيش في قريتنا، بل في بيروت، اذهب إليه كلّ ثلاثة أيام ليعطيني النقود، ثمّ أصعد إلى القرى لأشتري لكما الخبز والبيض والخضار، هذا ليس بشيء سهل، فلم تعد الأغذية موجودة بين أيدي الناس مثل أيام أول.

– ولماذا تفعل ذلك؟

– كيف لماذا؟

– أقول لأيّ شيء، مقابل أيّ شيء؟ هل الأستاذ جميل صديق أولادك؟

تفرّس القروي في صالح برهة، ثمّ نطق:

– شوف يا عمي. الأستاذ جميل له خير كتير علينا، ونحن ناس بنعرف المعروف وبنقدره. وبعدين أنتم ضيوف الأستاذ خليل. معلمنا، الأستاذ خليل ابن قريتنا وكلّنا نحبّه. وثالثاً، أنتم مو ضدّ الأتراك؟ هذا واجب يا عمي هذا واجب!...

ثمّ اعتلى ظهر حماره، ورحل. فتح الأستاذ عبد الجليل عينيه مرّة أخرى وابتسم. كان يعرف أنّ صالحاً يقتل الوقت. في اليوم التالي وصل أرتين بصحبة أحد الضباط. كان نقيباً في الثلاثين وله شارب جميل وجبهة ضيقة، أضفت على وجهه مسحة لطيفة. كان أسمر ذا شفتين رقيقتين، جلسوا في السقيفة بعد أن تعارفوا. قال أرتين بعربيته المكسرة:

– النقيب فهمي، عربي من دمشق، تكلّموا بحرية أرجوكم!

وبسرعة دخل عبد الجليل في الموضوع. أخبر، أنّهما من حلب، وأنّهما معاديان للأتراك، ويرغبان برؤية سورية خالية منهم، وأنّهما لم يسبق واتّصلا بأحد بأحد منذ أيار 1916. سأل النقيب بصوت خشن لا يناسب تقاطيع وجهه:

– مع من لم تتصلوا منذ أيار 1916؟

– مع اللامركزيين ومع غيرهم من المؤيدين للجمعيات العربية. في الماضي كنّا نلتقي بهم، ونتناقش، كنّا نتفق معهم في بعض الأحيان، ونختلف في أحيان أخرى، ولكن قمع جمال باشا فرّقنا. رحل من رحل واختبأ من اختبأ. نحن نرى أن علينا الآن أن نعيد صلاتنا فالظروف تغيرت وتستدعي توحيد الكلمة.

هزّ النقيب رأسه موافقاً، سأله صالح:

– هل ينتسب النقيب إلى جمعية معينة أم أنّه... أقصد متعاطف فقط مع الجمعيات؟

ابتسم النقيب. أطرق قليلاً، ثمّ قال:

– طلب أرتين أن نتكلّم بحرية... حسن! ... أنا من جمعية العهد، وهذه الجمعية تضمُّ عدداً كبيراً من الضباط العرب، ونحن نعمل في السرّ، ولا نبوح بذلك بسهولة، ولكن، بما أنّ الظرف يستدعي لقاءنا كي يفهم بعضنا بعضاً، فلا بأس إن قلت إنّنا نحتلّ مراكز مهمة في الجيش، ونحن ننتظر الساعة المناسبة للانقضاض وإشعال ثورتنا على غرار ثورة الحجاز. نحن ندعم هذه الثورة ورئيسنا عزيز علي المصري هو القائد الأول للجيش العربي.

سأل الأستاذ عبد الجليل:

– وكيف يمكن أن تقدّموا بثورتكم، هل باستطاعتكم ذلك؟

– نعم، بشرط أن تتحد القيادات تحت إمرة رجل واحد أو هيئة واحدة. فقال الأستاذ عبد الجليل:

– ألا يعتبر الأمير فيصل ذلك الرجل المقصود؟

ابتسم النقيب. أشعل سيجارته، ثمّ طفق يلتقطُ فتات التبغ من على شفتيه. لعلّه يريد كسب بعض الوقت للتفكير بالإجابة. قال بعد أن نشق نفساً من سيجارته، ثمّ نفثه:

– الأمير فيصل يعارض القيام بالثورة الآن؟

تطلّع صالح إلى الأستاذ عبد الجليل مستغرباً قول النقيب، ثمّ سأل من دون أن يدري:

– ولماذا؟

– كلّ ما أعلمه أنّه يريده هذه الثورة حينما يهمّ هو بدخول دمشق. إنّه يطلب منا الآن تعبئة الناس وإرسال المحاربين والهاربين إليه. إنّه يؤكد على ذلك دائماً، رغم أنّ كلّ القوى ترغب بالثورة، وهي مستعدة لها: وحسب علمي فإنّ صالح العلي وحسين الأطرش ونوري الشعلان وهنانو والجمعيات والمنتديات يرغبون بها إلاّ أنّه يوقفهم. الناس سترحب بالثورة، والعوائل تريدها، وتهمس بها... هذا هو الوضع يبدو أنّك ستسأل عن موقف عزيز علي... حسن إنّه في خلاف مع الهاشميين. هناك عدد من النقاط التي يختلف معهم بشأنها، ومنها هذه النقطة بالذات.

زفر الأستاذ عبد الجليل، وقال:

– ألا يختلف معهم حول أسباب أخرى، مثلاً، علاقتهم بالإنكليز؟ فأنا أعرف أنه ذو حساسية خاصة تجاه الإنكليز، فقد كان أسيراً لديهم في مصر ثم أقنعوه بالالتحاق بالثورة.

– نعم . قال النقيب بتردد . لقد التحق بالثورة بعد أن أكدوا له أنه ليس للإنكليز أية مطامع في المنطقة، ونحن في جمعية العهد، نقف بحزم ضدّ الإنكليز وضدّ التعامل معهم. لقد سمعت أنّ الخلاف قد استشرى، وأنّ عزيز يفكّر بترك القيادة لنائبه جعفر العسكري أو لنوري السعيد. إنّه غير مرتاح لوجود بعض الجواسيس الإنكليز الذين يعملون في الجيش كقادة.

ثمّ تحدّثوا عن الدولة العربية التي ستنشأ في حال نجاح الثورة. من سيحكم الدولة ومن أين؟ وإلى أين ستكون حدودها؟ وعن علاقاتها مع الدول الأخرى وغيرها... كان النقيب يجيب عن الأسئلة بثقة كاملة. كان يملك تصوراً رائعاً لما يمكن أن تكون عليه الدولة العربية بعد خروج الأتراك وانتهاء الحرب. إلا أنّ الأستاذ عبد الجليل زفر، وقال:

– ليت ذلك يحدث، ولكن... انظر أيّها الشاب، للإنكليز ظلّ كثيف فرضوه علينا، حتى أنّهم غير بعيدين عن هذه الثورة بالذات. كم سيصدم الناس مما يخبئه لهم الإنكليز! نهض النقيب، وصافح الأستاذ عبد الجليل وصالحاً، ثمّ قال:

– عليّ أن أذهب. يجب أن أكون في دمشق قبل فجر الغد. سوف نؤمن لكم صلة ما في حلب، فجمعيتنا ترحب بالصداقة مع أمثالكم!..

9

جلست بهية وعائشة على كرسيين من قش، وشرعتا بفصفصة بذور البطيخ. كانت شمس الضحى لأحد أيام أيار تشعّ بلذة، ثمّ تنعكس بوهج شديد على السطح الذي اعتادت فيه بهية أن تجالس عائشة، جنباً إلى جنب تتفان قشور البذر وتتهامسان.

وفي الأسفل. كان حمودة يلاعب أخته الكبرى وما يلبثان أن يتصارعا. سمعت فريدة وهي متكومة في غرفتها صوت سعال أمّ ربيع الجاف وشتائم حمودة لأخته:

– يا كلبة، يا غبية أعطني الـ...

– لن أعطيك.

– أنت يا قحبة، أعطني الـ..

فصاحت الجدّة من غرفتها بصوت واهن:

– ماذا تقول لأختك يا صغير الجن؟ سوف أقطع لسانك.

ثمّ قالت بعد قليل:

– أين أمّك؟

فأجابت الفتاة:

– إنّها على السطح مع خالة عائشة.

أرادت أمّ ربيع أن تقول شيئاً إلاّ أنّ موجة قوية من السعال منعها من ذلك. سُمع صوت بصاقها في علبة من التنك، ثمّ راحت تهمهم، وتتأوه.

السل يفتك بها، سوف يميتها لا محالة. فكرت فريدة وهي جالسة في فراشها متكومة على نفسها إلى جانب النافذة. إن ماتت فلن تقوَ على الصمود أمام بهية وعائشة. أمّ ربيع توقفهما عند حدهما في كلّ مرّة يتحرشان بها. شعرت بغصة في صدرها وهي تفكّر بذلك. طردت من ذهنها مسألة موت أم ربيع وشرقت أنفها، هي السبب، هي التي رضيت أن تكون ضرّة لبهية، فتزوجت عمر. ولكنها لم تكن تعرف بهية. كان عمر يقول إنها طيبة. بهية طيبة القلب يا فريدة. بهية طيبة معه وليس معها. اللعنة عليك يا فريدة كيف وقعت هذه الوقعة!

أحسّت بدمعة تنسلّ من عينيها. هي التي أخطأت، ولكن أيّ خطأ هذا؟ إنها تحبّ عمر وعمر يحبّها. هل كان عليها أن تترك عمر، وتتزوج حسين؟ هزّت فريدة رأسها يمنة ويسرة، إنّها ترفض تصور ذلك. إنّها تفضّل أن تبقى مع جدّها الشيخ درويش حتّى تعنس، ولكنّها لن تعطي ظفراً واحداً لحسين. وفي هذه المرة جعلت تهز رأسها وكتفيها إلى الأعلى والأسفل. الأوّل قتله عمر، والآخر قتلته الظروف... اللعنة ... اللعنة!

مسحت عينيها برؤوس أصابعها. كم مرّة فكّرت بذلك؟ كم مرّة اكتشفت أن جدها العظيم درويش قد مات؟ وأنّها كانت من المستحيل أن تبقى في بغداد في بيت فارغ رحل عنه مريدو جدها بعد أن رحل عنه الجد؟ ومع ذلك، هل كان عليها أن تترك عمر يعود إلى حلب!

يا إلهي. إنّها لا تستطيع تصور ذلك، إنّها تحبّ عمر، وهو الإنسان الوحيد الذي بقي لها في هذه الدنيا. لو لم تكن بهية موجودة... لكانت ستبقى سعيدة رغم أن عمر تركها، وهرب ليلتحق بقطاع الطرق.

سعلت أمّ ربيع مرّة أخرى. سمعتها فريدة ينتابها سعال طويل، طويل مريع أشعرها بشفقة عليها. كانت أمّ ربيع محمرة الوجه، منتفخة العروق، ينطبق صدرها بشدّة حتّى تطلق دفقة الهواء البارد عبر شفتيها المنفرجتين الملوثتين برذاذ المخاط والدم. جحظت عيناها عند الدفقة الأخيرة، وانقطع تنفسها لحظة، ثمّ عاد سريعاً قصيراً، وقد جمعت لعاباً مراً في تجويف فمها. مدّت يدها، والتقطت علبة التنك. رفعت رأسها من على المخدة، وبصقت فيها شيئاً محمراً.

ها هي تبصق روحها. إنّها تعرف ذلك. إنّها تموت. على نفس الفراش الذي مات عليه أبو حديدة.

تمتمت:

– يا أمّي... يا أمّي. يا الله هوّن عليّ.

أعادت رأسها إلى المخدة، وفكّرت. لم تعد هذه الدنيا تستحق أن تعاش. فعلاً إنّها تريد الموت. ولكن عليها أن ترى ربيعاً أولاً. هل ستراه؟ هل مات؟ ابنها الذي لم تعد تفهمه. لقد تغيّر. غيّرته الحرب. انقلب رأساً على عقب، ومع ذلك فهي تحبّه.

ومن لم يتبدل؟ صهرها عمر أصبح شيطاناً رجيماً. هذه الحرب تجعل الرجال إمّا أبالسة أو حيوانات مفترسة، أو تجعلهم أشلاء مبعثرة. إنّها تتحسس شيئاً فظيعاً. ماذا فعل عمر يا ترى؟ لماذا جاء بهم إلى هذا البيت؟ هل فعل شيئاً لذاك الذي اسمه الأرغلي؟ عمر ذاق طعم القتل. لقد عرفت ذلك من عينيه المخيفتين، وعرفت منهما أنّه يشتهي القتل أيضاً. عرفت ذلك بعد أن جاء الأرغلي وكاد يقتل عمر.

حسمت أم ربيع أمرها قبل أن تنتابها نوبة السعال التالية: لقد قتل الأرغلي وهرب إلى البادية.

عاد سعال أمّ ربيع يقطع على فريدة جريان أفكارها. أرادت أن تنهض، وتذهب إليها قد تكون في حاجة إليها، إلا أنّها بقيت مسندة رأسها إلى قبضتها تنظر عبر النافذة إلى حمودة وهو يقرص أخته في خدها.

لقد اعتادت على هذا السعال الجاف الذي يقطِّع القلب. سعال أمّ ربيع، ليلاً نهاراً دون توقف. هذا السعال الذي سيقضي يوماً على صاحبته. إنها تعرف النتيجة مسبقاً. ففي الماضي، في بغداد. مات أحد أقربائها بنفس المرض، ظلّ يسعل أشهراً طويلة، ويبصق دماً. وفي المرة الأخيرة انتابته سلسلة طويلة من السعال، فانطبق صدره، ومات.

قرّرت أن تنهض لترى ما بها. تلك المسعورة التي تتشمس على السطح لم تعد تهتم بأمّها. نهضت وصوت السعال يرن في أذنيها. خرجت إلى الحوش. كان حمودة يمزق دمية أخته، بينما هي تنظر إليها من دون أن تمدّ يدها لتنقذ دميتها. هذا الملعون يحتاج إلى تربية. رمقته بنظرة عدائية، ودلفت إلى غرفة الجدة. مدّ الولد لسانه في أثرها. فهو يكرهها لأنّ أمّه تفعل ذلك. قذف الدمية الممزقة بعيداً عنه، ثمّ شرع يصعد الدرجات إلى السطح باعتداد. انحنت فريدة على سرير أمّ ربيع، ومسحت على جبينها. كانت العجوز تهتز، وتنتفض من السعال. نظرت العينان الجاحظتان إلى وجه فريدة الجميل الصافي المرتبك. رأت فريدة ألماً وانسحاقاً عبر احمرار العينين. عرفت أنّ الموت قريب. وأنّ الدّنيا مليئة بالآلام والكره والموت. ظلت تمسح على جبين أمّ ربيع وشعرها، بينما كانت الجدّة تلتقط علبتها لتبصق فيها، فتبعد عينيها عن فريدة.

أحسّت فريدة بغثيان هائل يضرب معدتها. هذه العلبة الكريهة جعلتها تشعر بالقرف. لعاب وصديد ودم، يملأ العلبة حتى منتصفها.

مسحت العجوز الرذاذ الوردي عن شفتيها بخرقة، ثمّ عادت إلى الاستلقاء. كان صدرها يعلو ويهبط، وهي تلهث بسرعة. فتحت عينيها، فالتقتا بعيني فريدة. ابتسمت المرأة الشابة للعجوز بحنان ابنة صبية متفتحة. إلا أنّ العجوز جعلت تمرّغ رأسها في المخدة كأنّها تقول كلّ ما تشعر به من آلام. قالت فريدة لحماة زوجها بصوت ناعم خافت:

- أنت تتألمين أليس كذلك؟ أنا أشفق عليك يا خالة. قولي لي ماذا أستطيع أن أفعل لك!

التقطت العجوز أنفاسها، وقالت بصعوبة بينما كانت تلهث بعد كل كلمة:

- لا شيء... لا تستطيعين شيئاً، إنّني ... أموت يا...

ثمّ حسمت أمرها:

- يا ابنتي.

أحسّت فريدة بعطف عليها، ها هي تدعوها بابنتها، إنّها المرأة الوحيدة في هذا البيت التي تبادلها العطف. ابتسمت، وقالت وهي تعرف أنّها تكذب:

- سوف يزول المرض بإذن الله...

- لا أظن ذلك... أنا أعرف أنّني سأموت.

- لا تقولي هذا... فأنا...

صمتت فريدة. صمتت المرأتان. أرادت أن تقول لها إنها في حاجة إليها. انتظرت أمّ ربيع أن تكمل فريدة ما أرادت قوله إلا أنها نسيت الأمر بعد قليل.

أمسكت المرأة الشابة يد المرأة العجوز، وجعلت تمسدها. سمعتها تهمس وهي تلهث:

- هل سيأتي ربيع قبل أن أموت؟

فقال فريدة:

- إن شاء الله.

- لا أظن ذلك... انتهت الحياة بالنسبة لي، وانتهى كلّ شيء جميل فيها،

حتى احتضان الولد.

- لا تتحدثي كثيراً يا خالة.

- أصبح الموت شيئاً جميلاً. شيئاً سهلاً. ولكنني خائفة.

- مم؟

- أنا خائفة على ربيع، عليكم جميعاً. ليتني بموتي هذا أبعد عنكم شرور هذه الدنيا.

هزت فريدة رأسها. إنها محقة... الشرور محدقة بهم من كل جانب. تابعت العجوز ذات الشعر الأبيض المصفر:

- أنا أموت بالحيلة... بينما أنتم تعيشون بالحيلة أيضاً.

هزت رأسها أيضاً رغم أنها لم تفهم هذا الكلام الحلبي. على الأغلب أنها تريد أن تقول إنهم يتحايلون على الحياة كي يعيشوا. قالت فريدة:

- يجب أن لا تموتي. سيأتي ربيع ولابد.

- آه. كم أريد ذلك. ولكنني خائفة. كيف يمكن أن أستمر هكذا حتى تنتهي الحرب ويعود؟ وماذا لو جاءوا لي بخبره... يا إلهي... وماذا لو مات أحد آخر؟ أنا لا أستطيع الاحتمال، لقد ضعفت يا ابنتي، لم يعد قلبي يحتمل، إن كان هناك من سيموت فلأكن أنا، فهذا أسهل.

غضنت المرأة جبينها، وضيّقت عينيها، وعادت للسعال. كانت فريدة تراقبها بهلع. حسبت أنها ستسقط ميتة هذه المرّة. إلا أنّ العجوز أنهت سعالها، ثمّ بصقت في علبتها، ومسحت فمها بخرقتها، وعادت إلى وضعها لاهثة.

صمتتا دقائق، ثمّ سألت فريدة:

- هل تكرهينني يا خالة؟

- ولماذا أكرهك؟

رفعت فريدة عينيها عن الأرض، وقالت:

- لأنّني ضرة ابنتك.

- لم تعد هذه الأمور ذات أهمية في نظري، أنت يتيمة أليس كذلك؟ لم يعد لك أحد فجاء بك عمر، المهم أن تعيشوا. المهم أن تعيشي. لم تعودي ضرة، بل

شريكة، الدنيا أصبحت في حال أخرى. أصبح الرجال قلّة والباقون مسعورين أنذالاً يقتلون بقسوة. يقولون إنّ الأرمن يبيعون بناتهم بيعاً. هناك كثيرون من أهل البلد يفعلون كذلك أيضاً. يؤجلون الموت قليلاً قليلاً. هذه الأمور لا تفقهها ابنتي بهية. لعنة الله عليها كم هي غيورة على زوجها، ولكن عليّ أن أقول لك يا ابنتي. أنا أعرف بهية جيداً إنّها تعشق الرجال، ليست طبيعية. بصراحة إنها عاهرة دون جدال. إنها لا تمانع بوجودك بشرط أن لا تقربي زوجها. وغيرتها تتأتى من مجرد نومك معه.

آه كم أنا غبية، كيف لم يخطر ببالي أن آخذها إلى الختان حينما كانت طفلة. ولكن... اسمعيني، حتى هذه الأمور، لم تعد تهمني الآن. أنا أعرف أنها تتحدّث مع تلك القحبة التي تسكن في البيت المقابل. لم يعد يهمني ذلك... لم يعد... احمرّ وجه فريدة من صراحة أمّ ربيع. هذه الأمور جديدة عليها. صحيح أنها استاءت كثيراً من براعة بهية في إبراز غنجها ودلالها وفسقها، صحيح أنها كانت تخجل هي نفسها من طريقة معاملتها لعمر، إلا أنّ فريدة كانت تحاول إقناع نفسها أنّ كلّ شيء طبيعي، وأنّ بهية ليست سوى امرأة تدافع عن نفسها أمام ضرة غريبة أحضرها زوجها من بلاد العراق. هذا ما كانت توحي به إلى نفسها، رغم كلّ مشاكسات بهية وعمدها التحرش بها أثناء وجود عمر وبعد رحيله.

أخذت نفساً عميقاً، ثمّ أطلقته بسكون. كانت العجوز تلهث، وتتطلع إليها، لعلّها تريد معرفة ما كانت الصبية تفكّر فيه. عرفت فريدة أنّ أم ربيع تشفق عليها بدورها. بدا ذلك في عينيها، أرادت أن تسألها عن سبب رحيل زوجها المفاجئ. لماذا أحضرها إلى هنا وترك البيت؟ هل هذا بسبب شجارها مع ابنتها أم هناك سبب آخر؟

إلا أن العجوز سألتها:

– أنت لست سعيدة معنا أليس كذلك؟

هزت فريدة رأسها إيجاباً دون أن تنبس. إنها ليست سعيدة، وهي خائفة أيضاً، خائفة من عمر ومن بهية ومن هذه الدنيا المكركبة. خائفة أن تموت أم ربيع، العجوز المسلولة، وتتركها وحيدة مع بهية وعائشة. هي لا تعرف أين عمر. أين هو؟ لماذا لم يأخذها معه؟ أين يعيش؟ ومن فرط خوفها أحسّت ببؤس يجتاح قلبها.

يا إلهي كيف انقلب كلّ شيء رأساً على عقب!

هطلت دمعتان صافيتان على بشرة خديها الناعمة، شاهدتها أمّ ربيع تبكي. يا لها من حيوان بائس. فكّرت أمّ ربيع. يا لها من حيوان جميل بائس.

* * *

عندما صعد حمودة إلى السطح، واقترب من أمّه تحوّل حديث المرأتين إلى همس. أعطته أمّه ملء قبضتها بذراً لينشغل به بعيداً عنهما.

كانت الشمس قد ورّدت وجنتي بهية الرخوتين. وكان لسانها قد مسح شفتيها مئات المرات أثناء أكلها البذر، فأصبحتا ممتلئتين ورطبتين. كانت عائشة تستمع إلى بهية بصمت، وهي تهز رأسها تارة، وتبتسم وتغمز بعينيها تارة أخرى، وهناك في عمق أعينهن، كانت الشهوة لجسد الرجل قد عششت من جراء حديث بهية الشهي، وخيال عائشة الجريء. قبل عدّة أيام، وفي يوم مشمس كهذا اليوم. كانت بهية وعائشة تمدان رأسيهما عبر سياج السطح، وتنظران إلى امتداد زقاق الطويل وإلى أسطحة البيوت. شيء ما من الضجر وكرههن لرؤية وجه فريدة الذي يفوق جماله كلّ وصف، قد دفعهن إلى فعل هذا.

كانت بهية مستاءة. يكفي أن تتخيل، مجرد تخيل بسيط، أن زوجها قد نام مع ضرتها، وأنه ضربها من أجلها، حتى يجعلها ذلك تمتلئ حنقاً وغضباً على فريدة وأم فريدة وعلى زوجها الذي هجر البيت، ورحل تاركاً تلك العراقية البلهاء أمام وجهها.

فجأة جاءهن صوت امرأة متحشرج من السطح المقابل لسطح بيت أبي حديدة امرأة نصف عارية في الثلاثين، متجملة بشكل فاضح ومضحك:

- أهلاً يا جارتي، كيف صحتك يا عائشة؟

لكزت عائشة بهية بمرفقها، وهي تقول:

- الحمد لله.

- سمعت أنك تزوجت ذلك الجندي ابن الزيات، وأنكم جئتم للعيش هنا، ألف مبروك.

- أشكرك يا جارة.

– أين هو الآن إنّني لا أراه؟

– لقد عاد إلى الجبهة. هذه بهية أخته.

– تشرفنا. أنت جميلة يا بهية، وهل أنت متزوجة؟

احمرّ وجه بهية، وقالت نعم. قالت عائشة متضاحكة:

– لقد طفش زوجها، ولا تعرف عنه شيئاً. جلب لها ضرة شابة من العراق، ثمّ رحل. وهكذا بقيت بهية من دون رجل.

– نحن متشابهتان يا بهية . قالت الجارة . زوجي أيضاً رحل ولكنّه ترك لي أمّه. إنّها طيبة القلب تساعدني على الأطفال.

غمزت عائشة بعينها للجارة، وسألتها وهي تلكز بهية مرة أخرى بمرفقها:

– وكيف الشغل، ثمّ تابعت هامسة بسبب مرور شيخ في الزقاق . ماشي الحال أم أنّ هذا العمل في كساد أيضاً؟

ضحكت الجارة بصوت رقيع، ثمّ قرّبت رأسها، وهمست وهي تراقب بهية التي شدّها إليها شيء ما في سحنتها:

– آه... أنا معذورة هذين اليومين، تعاليا لعندي هذا المساء، سأقدم لكما قهوة أهداني إياها أحد الزبائن.

اتفقتا على زيارتها مساء بعد أن تقوما بإعطاء العجوز "شراب السقاوة" الذي من دونه لا تستطيع النوم أبداً بسبب سعالها. وما إن استدارت الجارة، وجعلت تخطو وهي تهز ردفيها، وتراقب عيني بهية حتى شرعت عائشة تشرح طبيعة عمل الجارة لبهية، تضاحكتا بصوت مرتفع، ثمّ غرقتا في العمل المنزلي ومراقبة فريدة بسحنات مقلوبة. إلاّ أنّ بهية أحسّت أنّها مقدمة على شيء غير عادي. شيء لابدّ أنّه سينتزعها من هواجسها وعراكها مع ضرتها وغيرتها منها.

وما إن أذّن العشاء، حتّى نام الجميع عدا بهية وامرأة أخيها. وما هي إلا دقائق حتى كانتا جالستين في غرفة الجارة التي يتوسطها سرير عريض تفوح منه روائح النوم والرجال. كانت الجارة التي سمّت نفسها صبيحة، تصنع القهوة وهي متربعة على الأرض كاشفة عن فخذيها، تتحدّث عن أطفالها وعن حماتها وعن زوجها الهارب من الجندرمة. كان كلّ شيء فيها رخيصاً، نحافتها وثوبها وحمرة

الخدود والكحل الأسود الممدود حتّى صدغيها. كانت أيضاً وهي تتحدث عن الفقر ومصاعب المعيشة وعن ثمن رطل الخبز تحاول أن تبرز لبهية بالذات وفقط لبهية عن طبيعة مغايرة تماماً لطبيعة كلّ النساء اللواتي تعرفهن. إلاّ أنّ بهية كانت تتساءل في نفسها، كيف يمكن لهؤلاء الرجال أن يقتربوا منها، خصوصاً وأنّ المرأة بدت أكثر قبيحة على ضوء فانوس الكاز الذي كان يشعّ نوراً باهتاً على جلدة وجهها وساقيها العاريتين.

أشعلن السجائر، ورحن يرتشفن القهوة، وما لبثن أن غصن في الماضي، ماض بدا لكلّ واحدة منهن أنّه حلم لا أكثر. قالت صبيحة، وقد أضحى صوتها رخيصاً يناسب الظلام الذي يلفهن:

– لا أعلم أين يختبئ، هرب من السطوح. جاؤوا وطرقوا الباب بقوة. بكى الأولاد، وبكت حماتي عندما دخلوا يطرقون الأرض بجزمهم المقرقعة. فتشوا الخزانة والبئر والسقيفة وعندما لم يجدوه، ضربني أحدهم، وهدد بإدخالي إلى غرفة النوم. هئ... هئ هئ حينها خفت، وتضرعت إليه أن يتركني. عندما أتذكر ذلك أضحك. هذا الشيء لم يعد يخيفني. أرجو أن تعذراني. يقولون عني قحبة، وكلّ نساء زقاق الطويل يقاطعنني. وهل يوجد في هذا الزقاق سوى النساء؟ الرجال الوحيدون الذين يطأون هذا الزقاق هم زبائني. هل أخيفك يا بهية بكلامي هذا؟ لا أريد أن أبرر لك أو لعائشة أو لأيّ مخلوق تصرفي هذا، فضميري لم يعد يؤنبني منذ زمن بعيد. ولماذا يؤنبني؟ قلت لإمام جامع "قسطل الحرامي" الذي جاء ينصحني، قلت له أطعمني وأطعم أولادي وحماتي، ثمّ انصحني. صمت الرجل طويلاً، ثمّ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. كان مطرقاً لا ينظر إليّ. ربّما خاف من شيء، أن تضعف نفسه مثلاً.

ارتشفت شيئاً من قهوتها، ثمّ سحبت نفساً عميقاً من سيجارتها. راقبتها بهية. راقبت كلّ حركاتها حتى الصغيرة منها. أرادت أن تعرف فيما إذا كانت تنبسط مع زبائنها، أرادت أن تسأل هذا السؤال، إلا أنّ بؤس المرأة الرهيب منعها من ذلك. وبينما كانت صبيحة تشرح لهنّ حادثة الضرب التي تعرضت لها من أحد زبائنها، كانت بهية تهزّ رأسها، وهي تقارن رغبتها السّرية في مضاجعة رجل، أيّ رجل، رغم

إحساسها بالقرف، بما تفعله هذه المرأة بموافقة حماتها.

إذن، المرأة على حق. إنّها تقول، إنّها تتقيأ في بعض الأحيان من بعض الرجال الذين تضاجعهم. هي قالت ذلك، سمعتها بهية، ولكنّها، لا تتقيأ في أحيان أخرى، ولذلك فإنّها تحسدها. تنهّدت وهي تتذكّر البيك ابن الورد. لم تتذكّر عمر. عمر ليس لها الآن، ثمّ تذكّرت صالحاً، فحقدت عليه. ثمّ تصوّرت رجلاً أبيض بشعر أسود مقصوص ذا كتفين عريضين وشاربين أسودين يدخل عليها في نفس هذه الغرفة. يأخذها بين ذراعيه، ويأمرها أن تترك فريدة لعمر أو تترك عمر لفريدة، وتضجع معه.

سمعت بهية المرأة تسألها، فانقطع حبل أفكارها:

- هل أنا على خطأ يا بهية؟

فقالت بهية وهي تبتسم، وتفرد يديها:

- لا أعلم... رغم أن ما تفعلينه حلو يا صبيحة.

انفجرن بالضحك. حسبتا أنها تمزح. كانت بهية تقول نفس الشيء الذي كانت تفكر فيه. ضحكت هي أيضاً. قامت عائشة، وضربت بهية على كتفها، ثمّ عانقتها. أمسكتها من يدها، وشدتها وهي تقول:

- هيا لقد تأخر الوقت.

فقالت صبيحة وهي تلمس بهية برفق:

- أتركي بهية إن كنت ناعسة. دعيها أرجوك.

وافقت عائشة، فخرجت بمفردها، اجتازت الزقاق المظلم، وبعد قليل كانت في فراشها تحلم بزوجها ربيع الذي طال غيابه.

جلست صبيحة على السرير وجعلت تلفّ لنفسها سيجارة ولبهية. انغمست في عملها هذا وبهية تتطلّع إليها. ها هي العاهرة إذن. امرأة قبيحة بلا ذوق، تتصرف بخلاعة وفي بعض الأحيان بأدب جم. لو لم تكن هذه الحرب، هل كان على صبيحة أن تصبح عاهرة أيضاً؟ سألت بهية نفسها وهي تلتقط سيجارتها من المرأة. لطالما حذّرتها أمّها من التكلم مع أيّة امرأة. قد تكون ساقطة. انتبهي يا بهية، الحياة متنوعة، فيها العاهرات، إياك أن تتحدّثي إلى واحدة منهن، قد تستدرجك إلى شيء

يؤذيك.

أشعلت بهية سيجارتها، ثمّ نفثت دخانها، كمن يدخن منذ سبعين عاماً. أحسّت بلذة نشق دخان السجائر. السكون والغرفة المظلمة، وطيف الرجال وروائح عرقهم وإفرازاتهم جعل طعم الدخان لذيذاً.

قالت صبيحة وهي تسند ذقنها بإبهامها:

– كيف هي الضرة؟

أزاحت بهية غرتها البيضاء عن جبينها وهي تفكر في الإجابة. قالت وهي تنظر إلى البساط الخرقي العتيق:

– شيء يدعو إلى الجنون. شيء لم أشعر بمثله من قبل.

– مثل ماذا؟ هل تشعرين بالقهر، بالغيرة؟

– مثل هذا.

صمتتا قليلاً، ثمّ تابعت بهية:

– أريد أن أقول، إنّني سأكون في حال أفضل لو لم يعد عمر مطلقاً. أما وقد عاد ومعه زوجة أجمل مني فهذا... فهذا...

– ماذا؟

– فهذا يجعلني أحترق. لو لم يعد لكان أفضل.

قالت صبيحة وهي تريد أن تقترب أكثر من بهية:

– يبدو عليك أنّك متأثرة جداً من فعلته. أنا أشفق عليك. أسوأ ما يحدث للمرأة أن يهديها زوجها ضرة.

هزت بهية رأسها توافقها رأيها. تابعت صبيحة:

– الرجال لا يشبعون. معظم زبائني من المتزوجين، هل تنامون في غرفة واحدة.

رفعت بهية عينيها إلى المرأة المتربعة على السرير، ورمقتها بنظرة غير طيبة. بصقت نحو العتبة بقرف وبصوت مسموع، ثمّ قالت:

– لا تقولي هذا الكلام، إنّني أحتقرها، ولا أكلّمها، وعندما يكون دورها فتذهب معه إلى الغرفة الأخرى، فإنّي أكاد أموت من القهر. تعاركنا عدّة مرّات، فقام

وضربني ابن الكلب، كم أنا سعيدة لأنّه رحل، على الأقل لن أشاهده يأخذها إلى الغرفة الأخرى.

سألتها صبيحة وهي تنفث موجات كثيفة من دخانها:

- هل هو طيب القلب؟

- كان... أمّا الآن فقد تحوّل إلى ذئب. أصبح مخيفاً. حينما كان هنا، كنت أرتعد عندما ينظر إليّ، شيء ما بدّله. أصابوه في الجبهة بجرح في عنقه، فتشوّه وجهه، أطلق لحيته، وغارت عيناه، وأصبحتا مخيفتين، لو عاد وحيداً لكنت أحببته، أما الآن... فأنا... صمتت بهية. إنّها تشعر أنّها تكرهه، ولكنها لن تقول ذلك. تنهدت، وشعرت أنّها تخافه أكثر مما تكرهه، صمتتا طويلاً. سمعتا بكاء أحد أطفال صبيحة، وتردد سعال أم ربيع من بعيد، بعد ذلك تردد خطو إنسان في الزقاق. كانت الخطوات تقترب، وتقترب، ثمّ توقفت فجأة، لربما أمام باب البيت، ثمّ جاءها صوت نقر على الباب بقطعة معدنية. نقر صادح تردد في ظلام زقاق الطويل مرّة وثانية وثالثة. غار قلب بهية وتسارعت ضرباته، تطلعت إلى وجه صبيحة التي كانت تبتسم، لقد اعتادت على مثل هذه الأمور. نهضت متأففة، فتحت الباب، وخرجت. نزلت الدرجات الخمسة بخفة، ومن دون صوت. سمعتها بهية تسأل عن القادم، وبعد برهة كانت تقسم لأحد الرجال أنّها معذورة. تعال الأسبوع القادم، لا أستطيع اليوم، قلت لك لا أستطيع، لا تلح، ولكن الرجل ألح. صمتت صبيحة قليلاً، ثمّ أعادت إغلاق الباب، وبهية غاطسة في ظلام الغرفة تتابع ما يجري وما لا يجري. لم يمش الرجل. إنها متأكدة من ذلك. خفق قلبها أكثر وأكثر، ثمّ أحسّت بغصة لذيذة في بطنها وبرجفات في أصابعها. مسحت شفتيها بلسانها، تمنّت شيئاً، هذا الشيء لا يقال، لا يطلب، سمعت صبيحة تصعد الدرجات الخمس مجدداً، فتحت الباب ودلفت، اقتربت من بهية وعلى شفتيها بسمة بريئة وشجاعة، أحاطتها بيديها، وقرّبت فمها من وجهها همست لها بكلّ رقة، وكأنّ صبيحة لم تكن مومساً يوماً من الأيام. قالت لها:

- الرجل يلح، إنه ليس سيئاً، أنا معذورة. هل أتركه يدخل؟

قبّلتها في فمها، ثمّ أعادت قولها مرّة أخرى. كانت تراقب عيني بهية، ولما

شاهدت البؤبؤين يتوسعان والعينين تشعان، قبّلتها مرّة أخرى، وابتعدت.

أواه يا ربي. ماذا سيحدث؟ راحت بهية تتلمّس نفسها وشعرها ووجهها. تطلعت إلى كلّ الجهات. أحسّت بالدم يتجمّع حاراً في وجهها. ثمّ أحسّت بقلبها يهزها بفعل ضرباته السريعة والقوية، ثمّ أحسّت أنّها بلا قوة، وأنّها بلا عظام، وأنّها متعبة وأنّها... فُتح الباب، ودخل رجل، ثمّ انغلق الباب. صبيحة هي التي أغلقته من الخارج، تحرّك الرجل في غمامة الدخان والعتمة والنور الضعيف، اقترب، ثمّ اقترب، ثمّ اقترب. بلعت ريقها، وجحظت عيناه، جعل يحرّك يديه ورجليه، ويقذف قطعه إلى هنا وهناك. رجل، إنّه رجل، مشعر الصدر، يداه كبيرتان، لمسها بيديه، فانتفضت، رفعها، ثمّ احتضنها. اغرق وجهه في صدرها، مدّت يديها تتلمّس عضلات كتفيه، ثمّ سمعت نفسها تئن:

- أواه يا ربي... يا ربي!

* * *

10

حينما صعد ابنها حمودة إلى السطح، كانت بهية تحدث عائشة للمرة السابعة عما حدث لها في بيت صبيحة في تلك الليلة المظلمة. أعطت ابنها قليلاً من البذر وطلبت منه أن يبتعد عنهما. حولت كلامها إلى همس، وتابعت سردها وشرحها وشهقاتها وغمغماتها. عائشة تعرف أنّها سعيدة، تجربتها هائلة، إنّها شجاعة هذه البهية، عائشة لا تستطيع أن تفعل ذلك، فقط بهية يمكنها أن تفعل.

وكم تغيّرت بهية، بعد تلك الليلة، أصبحت أكثر مرحاً، وعادت تمضغ العلك بشهية، وتطلق ضحكاتها وسهسكاتها دون خوف من أن تكشف نفسها لأمّها. حتى أنّ بهية أهملت فريدة تماماً. لم يعد يهمها وجودها معهن رغم أنّها لا تكلّمها. لم تعد تزفر، وتتنهّد وهي مستلقية مساءً تطارد النوم، بل أصبحت تقبّل عائشة التي تنام معها في فراش واحد، وتقرصها، وتثرثر معها قليلاً، ثمّ تنتظم أنفاسها.

أخيراً قالت بهية، وهي تحتضن رأس عائشة:

- همس لي قبل أن يغادر، أنّ اسمه أحمد، وأنّني رائعة.

تضاحكتا، ثمّ قالت عائشة:

- أيّتها اللعينة... أحمد... آ... أحمد باشا!

ثمّ جعلتا تنشدان:

جانم جانم بالتركي أحمد باشا ناطركي

أحمد باشا قدامك شايل بقجة حمّامك

حمّامك تحت القلعة وخدامك ستة سبعة

ترك الولد بذره، وراح يرقص على أنغام أمّه وامرأة خاله، كان سعيداً لسعادتهن. في تلك الأثناء سمعوا طرقاً قوياً على الباب. هرعت فريدة خارجة من غرفة حماتها وقلبها يخفق، مشت مسرعة في الحوش نحو الدهليز، شيء ما جعلها تصدق أنّ عمر هو الطارق، مدّت بهية رأسها من السطوح، وانتظرت ظهور الضيف، سمعت صوتاً خشناً يتردد عبر الدهليز، عرفت صاحب الصوت على الفور استدارت إلى عائشة وغمزتها، قالت لها وهي تلتقط علكتها من عبها، وتدسها في فمها:

- إنّه صالح أفندي.

اجتاز صالح الدهليز وفريدة تركض أمامه، لم تكن متحجبة، احتارت في بادئ الأمر ماذا تفعل، ثمّ لم تعد تهتم للأمر. كان يسألها:

- ومن تكونين أنت؟

أجابت وهي ترمق ياقته البيضاء وربطة عنقه:

- أنا.. أنا... أنا فريدة.

كانت الفتاة جميلة جداً، شعر أسود وبشرة بيضاء باهرة. أحاطت فريدة شعرها بيديها علّها تخفيه عن عينيه، كان صالح يتطلّع مع ذلك إلى شعرها، أحسّ بحرجها عندما أصبحا في الحوش فجعل ينقل عينيه فيه.

- ومن تكونين، قريبة عائشة؟

- لا...

- من تكونين إذن؟

لم تجب فريدة، بل ركضت هاربة إلى غرفتها. ماذا حدث لها؟ قالت لنفسها وهي تغلق باب غرفتها، إنّها بلهاء.

في تلك الأثناء كانت بهية تنزل درجات السطح. رحبت به وقادته إلى غرفة أمّها، وبعد دقائق عرف أنّ عمر قد عاد ومعه امرأة عراقية كان قد تزوجها في بغداد وأنها هي المرأة نفسها خارقة الجمال، التي لم تقوَ على القول إنّها المرأة الثانية لابن عمه عمر بنبوك.

انفجر صالح بضحكة طويلة، سالت الدموع من عينيه. ضحك بصوت عال ثمّ سرت عدوى الضحك بين النساء والأطفال. ماذا حدث؟

قال صالح وهو يمسح دموعه عن عينيه:

- تركته في المستشفى لا حول له ولا قوة. وإذ به يعود متزوجاً بامرأة أخرى.

سألته بهية معاتبة يعلو صوتها صوت سعال أمّها:

- وهل أسعدك هذا يا صالح أفندي؟

عاد صالح يضحك، ثمّ سأل:

- أين هو؟

- نقلنا إلى هنا، ثمّ رحل لا نعلم إلى أين. أجابته بهية، ثمّ أعلمته أنّ عمر مجروح في رقبته، وأنّ شكله قد تغيّر، ويمكن ألا يعرفه إن شاهده.

- وكيف تبدل، أنا لا أفهم ذلك. حسن ابني قال شيئاً كهذا أيضاً.

- سوف تقابله، وتعرف بنفسك.

- وكيف سأقابله؟ على كلّ، أنا في حلب وهو يعرف كيف يبحث عني، ثمّ سأل بعد لأي:

- وهل تحتاجون إلى أيّ شيء؟ وحيد الأسدي أعطاكم عمره.

- نعم... مات المسكين، عمر أخبرنا بذلك، إنّني أقوم بشراء ما نحتاج إليه من سوق "قسطل الحرامي".

خرجوا من غرفة أمّ ربيع، وتركوها تلهث، جلسوا في الحوش، وراحوا يلفون السجائر، ويدخّنون، كان صالح يضحك في كلّ مرّة تخطر بباله قصة زواج عمر للمرّة الثانية. حتّى أنّ بهية ضايقها الأمر فيما بعد. قال صالح وهو يمسح دمعة طفرت من عينه بسبب الدخان أو الضحك:

- لا تؤاخذيني يا بهية، إنّني أضحك غصب عني، لم أكن أتصور عمر يفعلها.

- وماذا كنت تتصور؟ سألته بهية وهي تحدجه بطرف عينها . عمر فعلها، لا تؤاخذني ولكن ابن عمك هذا رجل لعين.

- ليس هذا ما يضحكني، ولكن أن يكون لك أنت ضرة فهذا شيء طريف.

سحقت بهية عقب سيجارتها بحذائها، وقالت وهي تخفف من عدائيتها ببسمة:

- وما هو الطريف فيّ أنا؟ لقد عانيت في الماضي حينما أخذوه إلى الحرب وها آنذا أعاني بعد أن عاد. لا أعرف ما هو الأفضل بالنسبة إليّ، أن يعود عمر أم لا!.

غمزت عائشة لبهية وهي ترد عليها:

- رجل مع ضرة أفضل من لا شيء.

- هأ... هأ.. هأ.. . ضحك صالح، وقال: تصوري أنّ ربيعاً متزوج هو الآخر.

فقالت عائشة:

- فال الله ولا فالك. أنت تضحك علينا يا صالح أفندي.

فقالت بهية لعائشة وهي ترمق صالحاً:

- حقاً أنه يضحك علينا. الحق على رجالنا وليس عليه. هيا ... هيا لنحضر الغداء لأخينا صالح أفندي، وإلا فإنّه سيبقى يقهقه حتى المساء.

ولكنه اعتذر. اخبرها أنه مستعجل ولا وقت لديه. نهض ليرحل. سألته بهية:

- هذه السياسة لا تتركك بسلام، وهل غبت عنا شهرين من أجلها أيضاً؟

استدار نحو بهية، فشاهد فريدة تنزل من غرفتها، وهي ترمقه بخجل. كانت قد وضعت عباءتها على رأسها. سأل بهية مندهشاً لجمال فريدة:

- من أجل من؟

- السياسة طبعاً.

هز رأسه وهمّ بفتح الباب، استدار قبل أن يخرج، وسأل بهية:

- ولكن أين يمكن أن يكون هذا اللعين؟

هزت بهية كتفيها. قالت له، لا تغب طويلاً. ثمّ أغلقت الباب.

غذ صالح الخطا في زقاق الطويل. عليه أن يسرع، فهو دائماً في عجلة من أمره. منذ أن عاد هو والأستاذ عبد الجليل من بيروت ودمشق، اعتاد أن يخرج من البيت صباحاً ولا يعود إلا في وقت متأخر في المساء. على حلقتهم أن تكبر وتتسع، وهذا شيء صعب للغاية. لقد بدأ شيء ما يشعّ في الأفق. شيء ما قادم، إنّها الثورة، والسفر إلى بيروت ودمشق جعل الحلقة تعي ما يجري. ولكن وعي الحلقة بذلك صاحبه وعي بضآلتهم وقلة تأثيرهم على الناس. كيف يمكن إقناع الناس بأهمية انضمامهم إلى الحلقة للعمل من أجل التحرر والخلاص مما هم فيه؟

ثم هناك التنظيمات الأخرى. يا إلهي كم من التنظيمات عرفوا! كلٌّ يعمل في الخفاء، من دون أيّ معرفة بالآخر، بذعر من الآخر. لو كانوا في وضع أفضل لكانوا الآن متحدين، ولكنّ جمال باشا وحاشيته يفتكون بهم، وهذه مهمة أخرى على عاتقهم، أن يتصلوا بهذه التنظيمات التي استطاعوا أن يعرفوها أو يلتقوا بها في دمشق وبيروت، وأن يتصلوا بفروعها في حلب، وهذه ليست مهمة سهلة، إنها صعبة

للغاية، خصوصاً وأن الأستاذ عبد الجليل معروف، وأيّة قلة احتراس قد تؤدي به إلى السجن، ثمّ إلى المشنقة، لذا توجب على صالح أن يقوم بكثير من هذه الأعمال بمفرده، يساعده في ذلك الحلاق يونس وشخص آخر اسمه حمدو. يونس وحمدو يقومان بجمع الناس وصالح يخطب فيهم، إنّه لا يخطب بالمعنى الحرفي للكلمة، بل يتحدّث إليهم عن الأتراك والحرب والثورة. بعض منهم يقتنع والبعض الآخر يحسب أنه قادم إلى وليمة ليسدّ جوعه، وعندما يعرف أنّ الأمر ليس أكثر من اجتماع سياسي ضدّ الأتراك وللخلاص من الحرب والجوع، يروح يتثاءب، ويشتكي الجوع ويشتكي من أوجاع البطن والدوخة، ويقترح بأدب أن يخرج لقضاء حاجة، فيذهب من دون عودة. انعطف صالح نحو قسطل المشط. منذ أكثر من عام أنقذ شخصاً في هذا المكان من اللصوص. أيّ شجاعة جاءته حينئذ؟ في الأمس أيضاً سمع صوت استغاثة في أحد زواريب باب قنسرين. هرع إلى مكان الصوت ولكن متأخراً. وجد رجلاً يتخبط في دمه، وقد سرق، وطعن. كان هناك كثير من النساء والشيوخ المذعورين. سأل من فعل ذلك، إلا أن الجميع صمتوا، فقط صبي اقترب من صالح وحكى له أن شخصين اثنين هجما على الرجل وطعناه ثم أخذا يعبثان بجيوبه. كان وجه الصبي أصفر كالبقس من منظر الدم. عيناه مستثارتان بشكل مريع. هدأ الرجل فجس نبضه فوجده ميتاً. تركه ومضى. استدار قبل أن ينعطف فوجد الصبي يخلع حذاء الرجل عن قدميه. أصبحت الدنيا لا تطاق. نظر إلى جموع النساء الجالسات في قسطل المشط. كلّ الوجوه صفراء متجعدة ونحيلة، كلّ الأنوف مدببة، كلّ العيون غائرة وبيضاء ناصعة. بالكاد استطاع المرور بين الأكوام السوداء. كانت الأيدي تمتدّ واهنة، فتلمس قماش بنطاله. كيف أصبحت يا صالح شاهداً مهماً على ما يحدث؟ أينما ذهبت تقابل النساء المتكومات الملتحفات. في هذا الجوّ عليك أن تناضل وتوسع حلقتك وتجد لها أنصاراً جدداً. يا لك من مناضل يا صالح...!

أين رحل عمر؟ سأل نفسه. ثم خطر له خاطر مزعج. هل يمكن أن يكونوا قبضوا عليه؟ إلا أنّ شيئاً ما أقنعه أن هذا لم يحدث، وسرعان ما عاد إلى سيرته. نسي عمر وبهية وفريدة وعائشة وأمّ ربيع، وجعل يفكر بما فعله يونس الحلاق. هل استطاع أن يجمع أحداً؟

في نهاية قسطل المشط، دخل صالح بلمح البصر أحد الزواريب. كان بعرض ذراع واحد. مشى عدّة خطوات، ثمّ توقف، وجعل يصغي، وعندما تأكّد أن لا أحد يتبعه، اقترب من أحد الأبواب الخشبية المسودّة، وطرق ثلاث طرقات، ثمّ طرقتين. طرق مرّة أخيرة، فانفتح الباب، إنّه يونس الحلاق. دخل، فأغلق يونس الباب بهدوء. سأل صالح همساً:

- كيف الحال؟

- لا بأس، قال يونس، ثمّ أضاف . لقد جمعت لك خمسة.

أفرد يونس أصابع يده اليمنى دلالة على الخمسة، هذا شيء عظيم، خمسة أشخاص دفعة واحدة، ربّت صالح على كتف يونس، ثمّ سأله:

- أين هم؟ سأل صالح.

- في الأعلى.

قال يونس، وجعلا يصعدان إلى المربع، دخل يونس أولاً، ودعا صالحاً للدخول:

- تفضل يا أستاذ!

لعنة الله على هذا اللقب. من أين أتاه؟ إنه لا يناسبه، ولكن الجميع يطلقونه عليه، الأستاذ عبد الجليل، الأستاذ خلوق الأستاذ خليل... إنّهم أساتذة فعلاً، أما هو فيشكّ في أنه يلائمه. في بعض الأحيان يحسب أنّهم يتملقونه، يونس صاحب دكان الحلاقة في قسطل المشط، طيب القلب، في الخمسين من عمره، أغلق دكّانه بعد أن سمع إشاعة، بأنّ الجندرمة يجنّدون من هم في الخمسين أيضاً. يونس هذا لا يستطيع مناداة صالح باسمه هكذا حاف.

- تفضل يا أستاذ!

دخل صالح، فنهض خمسة رجال مرحبين به. كان أحدهم إمام جامع تجاوز الخمسين، تفوح منه رائحة طيبة كزيت الورد. أمّا الثاني فقد كان على نقيض من الشيخ تماماً، كانت تفوح منه رائحة قوية استوطنت بشرته منذ الولادة. رائحة تميز الرجال الذين يعيشون مع قطيع من الأبقار في مكان واحد. وكان الثالث قصّاباً والرابع عامل نول يدوي، والخامس شاباً في الثامنة عشرة، من عمره جلس وهو على

استعداد لأن ينتفض فوراً، ليؤدي لك أيّ خدمة تطلبها.

تربعوا في دائرة على بساط من اللباد. بدأ يونس بالحمحمة، ثمّ قال:

– بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ والصلاة على سيدنا محمّد. أمّا بعد، لقد اجتمعنا هنا لنستمع إلى أخينا الأستاذ... وهو رجل مطلع عارف بأحوال الحكّام والناس. وإن كان لديكم أسئلة تريدون طرحها عليه، فاطرحوها، طبعاً هذا ممكن ولماذا لا...؟ ولكن بعد أن ينتهي من حديثه، وهذا من آداب الحديث التي أوصانا بها الرسول عليه الصلاة والسلام. تمتم إمام الجامع بشيء وهو يهز رأسه، ويسبّح بمسبحته الخشبية الطويلة. استدار يونس نحو صالح، وهزّ له رأسه الحليقة بعناية فائقة.

ابتسم صالح، تطلّع إلى الشاب المتوفز. كأنّ هذا الشاب يشجعه بعينيه، يدفعه للكلام إلاّ أنّ كلّ ما فكّر فيه صالح قد طار من رأسه. في العادة . وهذه العادة بدأت منذ أيام فقط . يقوم بتحضير كلّ كلمة يريد أن يلقيها، وما إن يبدأ بكلمة أو اثنتين حتى تكون الأفكار قد خرجت، وتمّ التعبير عنها. ولكن ماذا حصل اليوم. الجميع ينظرون إليه باستثناء إمام الجامع المطرق. خصوصاً ذلك الشاب الذي يلتهمه التهاماً، ويريد أن يطبع في ذهنه وبصدق كلّ كلمة يقولها. ربّما كان تقديم يونس قد لخبط عليه الأمر. هذا الرفيق يطلق كلامه على سجيته. يأتي بذاته: بسم الله... والصلاة والسلام... هكذا ثمّ هكذا... وينتهي الأمر. آه لو كان صالح مثل يونس، آه لو يستطيع التحدث عوضاً عنه. هذا النضال والأستاذ عبد الجليل يورطانه كلّ ورطة تجعل الدماء، تصعد إلى الرأس، إنّه معتاد على الصّمت، لعبة الشطرنج تحتاج إلى الصمت، أما لعبة السياسة هذه، فتحتاج إلى لسان طويل. اللعنة!...

حمحم صالح، ثمّ التقط طاس الماء، وجعل يمتص منه الماء مصاً. كسب وقتاً، فخطر له شيئاً، فقاله:

– جئت إلى هنا، لأشرح لكم ما يجري في هذه الدّنيا. أنتم تعرفون أنّ عفريتاً قد ركبها. والأتراك أدخلوا بلادنا الجميلة في حرب ضروس مع الإنكليز والفرنسيين...

هز الشيخ رأسه موافقاً. أعجبه تعبير "الحرب الضروس" بينما لاحظ صالح أنّ البقار قد فتح فمه إلى الآخر. قرّر أن يتحدّث بطريقة أخرى. بجمل لا تحتوي على مفردات كالحرب الضروس أو غيرها. تابع قائلاً:

– هذه الحرب ليست في مصلحتنا، إنهم يأخذوننا، ويأخذون أولادنا، إلى بلاد غير بلادنا، فنموت فيها. من أجل ماذا؟

ثمّ سأل مرّة أخرى: ليش؟ وتابع قائلاً:

– لقد حكمنا الأتراك مئات السنين. وهم في كلّ سنة يولون علينا والياً بالمزاد ثمّ يقيلونه ليبعثوا إلينا بغيره، ليقوم بنهبنا أكثر، لأنّه قد دفع للسلطان مقطوعاً أكثر. إنّهم يأخذون الأعشار تلو الأعشار. انظروا إلى هؤلاء الباشوات. إنّهم يعيشون كالأمراء، بينما نحن نموت من الجوع. وأنا قادم إلى هنا رأيت النساء في قسطل المشط جالسات على الأرض يمتن من الجوع بينما الباشا في قصره والسلطان في يلدزه يأكل بأموالنا، ويطعم حاشيته، هل هذا يجوز؟

تطلّع في الوجوه، وهو مندهش، لقد استطاع دولابه أن يدور. كانت العيون تحدّق إليه من دون أن ترف. كان الشيخ وحده مطرقاً، بينما الآخرون لا يأتون بحركة، كيف استطاع أن يقول كلّ هذا الكلام وبهذه الطلاقة؟ إنّه يتقدّم. هكذا فكّر. ثمّ خطر بباله أن يسرد عليهم ما يعرفه عن الباشا والي حلب، لا لشيء إلا كي يروا كم هو فصيح وخطيب، ويعرف الكثير. أراد إدهاشهم أكثر، قال وقد بدأ يحرّك يديه مع وقع كلامه:

– وهل تعلمون يا شباب لماذا ينهبوننا؟ لأنهم يرسلون الأموال والحبوب إلى الجيش الألماني والجيش العثماني، لأنّهم يريدون الاستمرار في هذه الحرب. لأنّهم يعيشون ببطر ليس له مثيل (سأل البقار) أنت تموت من الجوع أليس كذلك؟

– أي بالله. أجاب البقار.

فتابع صالح، وهو يلمس كتفه:

– نعم أنت تموت من الجوع، ولكن الباشا العثماني متخوم من الأكل. هل تعلمون أنّ للباشا رجلاً يشرف على حمّامه اسمه الحراماجي باشا؟ وآخر يقدّم له المشروبات والمربيات هو المعجون أغاسي؟ وشخص يهتم بتدخين الباشا هو التتنجي باشي؟ وهل تعلمون أن هناك من يهتم بثياب الباشا الداخلية هو الشماشرجي باشي، وبمناشفه هو المحرمه جي باشي، وبإبريق التشطيف الخاص به اسمه الإبريقدار آغا؟

حتى أن للباشا مستخدماً خاصاً ليحمل أذناب خيله هو التخشي باشي.

رفع الشيخ رأسه، وتطلّع في وجه صالح، ابتسم. مشّط لحيته بأصابعه، بينما لم يحرّك الآخرون ساكناً. ابتسم صالح للشيخ. إنّه يفهمه، لماذا لم يفهم الآخرون ما كان يحيكه؟ استدار نحو البقار، وسأله:

- هل تفهمون عليّ؟

هز البقار رأسه بالإيجاب، تأتأ قليلاً، ثمّ قال:

- نحن نعرف كلّ هذا، ولكن ما هو الحل؟

هز شخص آخر رأسه موافقاً على سؤال البقار. الحل جاهز عند صالح، ولذلك قال:

- الحلّ هو في التفافنا حول جمعيات التحرر لطرد الأتراك، وحكم الذات وإنهاء الحرب. سأل البقار بتأتأة أيضاً:

- ومن سيحكمنا؟

سأله صالح على الفور:

- وما هو رأيك أنت؟

- أنا لا أعرف شيئاً، كلّ ما أعرف هو كيف أطعم الأبقار، وأحلبها وأنظف تحتها. أنت تقول نطرد الأتراك... مليح.. ولكن عندما أتوا، وأخذوا آخر بقرة لديّ لم أستطع أن أقول لهم، لا. ومن يستطيع؟ أنت؟...

تجهّم صالح. طبعاً لا يمكنه. حمحم مثل يونس الحلاق، بل الأصح أنّه قلّده، ثمّ قال:

- أنت تقول الصدق. الشخص بمفرده لا يمكنه ذلك، نحن نقول، إذا اجتمعت كلّ قوى الناس، فإنّنا سنقول حينها لا بل سنطردهم أيضاً.

- وهل ستعيدون إليّ البقرة؟ كيف سأعيش بعد طرد الأتراك؟ أنا لم أعد أملك سوى زبل البقر. ابتسم صالح، وربّت على كتفه، ثمّ قال:

- لا تيأس يا رجل، دعنا نقوم بالمهمة الأولى.

قال البقار بصوت هادئ دون تأتأة:

- المهمة الأولى على الرأس والعين، رغم أنّني لا أفهم كيف، ولا أعرف كيف

سنعيش لحينها، ولكن هؤلاء الأتراك أقوياء يا زلمة، سوف يشنقوننا على ساعة باب الفرج، ألا تفكر في هذا؟

انتفض الشاب قائلاً بغضب، وهو ينثر الرذاذ من فمه:

– يحرق دين هذه الصنعة، أنتم تخافون على أنفسكم كثيراً، يقولون إنّ أهل الحجاز يثورون الآن، ويقتلون الأتراك، لماذا لا نثور نحن؟

رفع الشيخ عينيه، ورمق الشاب المتحمس، لم يعجبه كلامه كثيراً. وجد أن لديه ما يقوله:

– اهدأ أيّها الشاب. هذه الأمور لا تؤخذ هكذا . ثمّ وجّه حديثه إلى صالح . أريد أولاً أن أفهم من الأستاذ شيئاً محدداً، هل ستقاتلون الأتراك بالسلاح؟

– نعم . أجاب صالح . هذا الاحتمال وارد.

فقال الشيخ:

– حسن، ومن أين ستأتون بالسلاح؟

أخطأ صالح فقال له، إنّ عليهم شراؤه، فقال الشيخ، وقد ارتسمت ابتسامة ذكية على صفحة وجهه:

– أنا لا أملك برغوداً فكيف سأشتري السلاح؟ أم أنّك ستدفع لي ثمنه؟

أحسّ صالح أنّ قوته قد انهارت. شاهد يونس الحلاق يرثي له بعينيه. قال بعد قليل:

– يا جماعة هذه الأمور ليست من اختصاصنا.

– من اختصاص من؟

– القادة!

رأى القصاب أنّها مناسبة ليدخل في النقاش، فقال:

– أية قادة؟ من هؤلاء؟

فقال صالح وهو يضبط أعصابه:

– القادة غير معروفين. إنّهم الرجال الذين يقودون الجمعيات، ويعقدون الصلات، ويشترون السلاح، فسأل البقار:

– ومن أين لهم النقود؟

لم يجب صالح، بل حملق في البقار. سمع القصاب يسأل:

– ما داموا يملكون الأموال فلماذا لا يوزعونها على الناس ليأكلوا؟

– إنّهم إذا وزعوا الأموال، فإنّها سرعان ما ستنفد، أو أنّ الأتراك سيأخذونها من جديد. فلت الزمام من يدي صالح، فراح كلّ واحد يتحدّث كيفما شاء. أحسّ يونس أنّ صالحاً قد نحا بالحديث منحىً غير صحيح، وأنّ الاجتماع يسير نحو الفشل. كلّ اثنين يتناقشان في أمر لا علاقة لهم به. من هم هؤلاء القادة الجدد؟ لماذا لا يأتون، ويقولون لنا بصراحة كيف سيطردون الأتراك؟ وهل يستطيعون؟ الأتراك أقوياء... أنا أعتقد أنّهم لا يستطيعون. يجب إطعام الناس أولاً، ومن ثمّ مطالبتهم بأن يقوموا ضدّ الأتراك. الأتراك سيعبثون بمؤخراتهم. جمال باشا لا يقدر عليه إلاّ الله. الأتراك لا بأس بهم، ولكن جمال باشا لعين. خلصونا من جمال باشا فإنّنا سنرتاح. الحقّ على الحرب. كذا في أمّ الحرب...!

– اضبط لسانك يا ولد!

– ماذا يا شيخي أنا لم أسئ إليك؟

– أنت تكفر وتشتم باستمرار.

– عفواً يا شيخي، دون قصد.

– لعنة الله عليك. أنت ولد بذيء، وزنديق.

نهض يونس، وأمسك بالشيخ:

– طول بالك يا شيخ، حطها في ذقني، الولد ما قصده.

إلا أنّ يونس فشل في تهدئته. خرج الشيخ مغضباً مصفر الوجه. سمعوه ينزل الدرج وهو يلعن الشاب. وما إن عاد يونس من جديد، حتّى اتفقوا على أنّ المهم الآن ليس حمل السلاح والخروج إلى الشوارع، بل التحدّث مع الناس حول فساد الحكم التركي، وجعلهم يتعاطفون مع الجمعيات.

* * *

بعد عدّة أيام من الركض وخفقان القلب وحضور اجتماعات لانهاية لها، عاد صالح إلى بيته قبيل منتصف الليل، كانت السماء مظلمة، حتّى النجوم خفّت

توهجها. كان حزيناً، انعكس ظلام الليلة في رأسه فاسودت أفكاره، أشعل فتيلاً مغموساً في صحن زيت، ثمّ خلع ثيابه، وقذفها في لامبالاة، واستلقى في فراشه. أحسّ بالجوع في معدته، فرفض أن يطاوع نفسه، ويشعل سيجارة. شعر بمرارة في فمه، فبصق عبر النافذة، ثمّ عاد، واستلقى شابكاً يديه خلف رأسه.

اللعنة! هل الحق عليه أم على السياسة؟ هل السياسة لا تلائمه، أم أنّه لا يلائم السياسة؟ لو كان الأمر منوطاً به، لكان اقترح نزالاً بالشطرنج مع أنور باشا أو جمال باشا وانتهى الأمر. أكيد أنّه سيطيح بهما، فترتاح الدنيا منهما. تصوّر ذلك يا صالح، عوضاً عن أن تنهض صباحاً، وتروح تركض إلى هنا وهناك وتتحدّث عن الجمعيات والثورة والجوع و... إلخ مع أناس خائفين مذعورين وهاربين لا يقتنعون بشيء لخطأ فيك أو لخطأ في السياسة، عوضاً عن ذلك تقوم بلعب دق شطرنج مع جمال باشا، فتكش له شاهه، فيعترف لك بحقّك في أن تعيش، وتأكل، وتسير في الشوارع من دون خوف من أن يقبضوا عليك، ويقذفوا بك إلى أقرب جبهة حرب. هذا الحل معقول جداً. شعر بطرافة الأمر وباشتياقه للعب. أين أيامك يا أوتيل بارون؟ حتى قنصل بلجيكا لا وقت لديه. كلّ الدّنيا تغيّرت. بصق مرّة أخرى عبر النافذة، ثمّ تمتم بصوت مسموع: صعب.. صعب... فعلاً الوضع بالنسبة إليه صعب. لو كان الأستاذ خلوق بذاته لهان عليه الأمر. هؤلاء الناس بحاجة إلى رجل مثقف ومتكلم، وليس إلى رجل يهوى الصمت، ولهذا فهو يشعر بحزن وكآبة. اجتماع أو اجتماعان ناجحان أما الباقية فهي فاشلة. لم يستطع حتى أن يقنع الناس بالسبب الحقيقي لجوعهم. بالأمس ذهب إلى بيت الأستاذ عبد الجليل وشكى له الأمر. قال له الأستاذ وهو يضحك:

– ماذا بك يا صالح، أرى أنّك قد نحفت؟

– والله يا أستاذ إنّني أعاني الأمرين. هذه السياسة تحتاج إلى رجل من حديد.

– إنّك كذلك يا صالح.

– ليس تماماً، ثمّ إنّ الرجال لا يتحرّكون. إنّهم جائعون، مختفون عن الأنظار، يعيشون في الأقبية والسقائف والآبار. لقد اجتمعنا مع أكثر من أربعين رجلاً. لم نستطع أن نجذب إلينا سوى ثلاثة.

– هذا طبيعي يا صالح.

– وكيف طبيعي يا أستاذ عبد الجليل؟

– لو يتبعك كلّ من يستمع إليك، لاستطعت تغيير العالم في أسبوع. لن يلحق بك سوى الجسور والشجاع وفاقد الأمل بالطرق الأخرى.

تنهّد صالح، وهو يشعر بالكآبة وبمرارة في فمه. كلام الأستاذ عبد الجليل مقنع جداً. ما إن يستمع إليه حتّى يقتنع، حتّى ينسيه كآبته وحزنه، فينهض في اليوم التالي وهو يعيد في ذاكرته ما يجب عليه فعله خلال النهار. أما في المساء فيعود إلى حالته تلك.

تذكّر زينب إنّها هي الأخرى تنسيه كآبته. تحوّل الحزن إلى فرح رقيق، فينشرح صدره، فيغيب عن كلّ تلك المسائل السياسية التي رغم كلّ قناعاته بها يراها من دون أمل، إنّها تجعله يحلم وسط كلّ هذا الأرق. ابتسم، كانت جالسة إلى جانب ابنه حسن تعلّمه القراءة من أحد كتب الكبار. وكان الأستاذ عبد الجليل قد غفا وعلا شخيره في الغرفة الأخرى، كان يراقبها، يتطلّع إلى قسماتها الجميلة وهي محنية الرأس تتابع ما يقرأه حسن. رفعت رأسها، فوجدته يراقبها. ابتسمت له، ثمّ انكبت مرّة أخرى على الكتاب. بعد قليل شيء ما دفعها للنظر باتّجاهه مرّة ثانية. كان ينظر إليها أيضاً وعلى وجهه ابتسامة وحنو رجل يعشقها. ضحكت هذه المرّة، وقالت له:

– لماذا لا تشغل نفسك بشيء ما، فأنت تربكني.

رسم بشفتيه كلمة أحبّك، فتضرّج وجهها. أرادت أن تنساه إلاّ أنّها انشغلت به وبنظراته، ورغم أنّ الطقس لطيف، إلاّ أنّها تعرقت، كانت تعرف أنّه يراقب قسماتها وكلّ حركاتها، فلم تعد تعرف كيف تلفظ بعض المفردات بشكل صحيح، حتى أنّ حسن انتبه إلى أنّ شيئاً ما يشغل بال زينب.

وعندما نام الصبي، اقتربت من صالح، جلست إلى جانبه على الكنبة، ثمّ أمسكت وجهه بكلتا يديها، وقرّبت وجهها منه. قالت له بصوت هامس مسموع:

– أحبّك يا صالح، أحبّك كثيراً. أو قل إنّني مجنونة بك.

أغمض عينيه، وهزّ رأسه. كم يحبّ هذه الكلمات حينما تقولها له. وهو مغمض العينين! قال لها نفس الشيء. قال لها، وأنا أيضاً. فقالت له، أعبدك يا

صالح من أين أتيت إليّ؟ لو لم تكن أنت ماذا كان سيحصل لي؟

وعندما أراد أن يفتح فمه ليقول لها من أين أتى إليها، أحسّ بشفتيها بين شفتيه. أحسّ بليونة رائعة في فمه، وبأنفاسها الحارة على بشرته. كانت تندمج به بشفتيها، وتجذبه إليها بيديها بقوة. أحاط ظهرها بذراعيه، وجذبها إليه، فسمع آهة تنطلق من فمها إلى فمه. لم يسمعها، بل أحسّ بها وكأنّ الآهة العميقة والقصيرة حطّت على لسانه بعذوبة وحلاوة.

حرّرت شفتيها، وألقت رأسها على كتفيه، عنقها الجميل أصبح في متناول شفتيه، لم يقترب هو، بل العنق اقترب منه، فمرّر شفتيه عليه، يقبّل عاجاً لم يره في حياته، بل سمع عنه. لم يعرف العاج بل عرف عنق زينب، وها هو الآن يقبّله بلطف خوفاً عليه من التهشم.

- يا حبيبي...

همست له وأنفاسها تنطلق حارة متقطعة. بقيا على هذه الحال دقائق، وكأنّهما قد غفوا، وكلّ ما يفعلانه هو حلم في حلم، وفجأة رفعت رأسها، وعادت إلى تقبيله بشراهة، وكأنّها فقدت ضابطاً كان يمنعها من الجنون ولوهلة كاد يحمي نفسه، وكأنّ أحداً يفترسه. قال لها من بين أربع شفاه:

- زينب...!

لم تهدأ. بل كانت قد تشبثت بشعره وخديه وشفتاها تزيدان في فهمهما.

- زينب اهدئي...!

- أوه... لا أستطيع... صالح حبيبي.. خذني أرجوك.

أمسك رأسها، وثبّته، نظر في عينيها، فشاهد ما لا يريد رؤيته، ضمّ رأسها إلى صدره، وهمس لها بصوت ليس له، إنّه متأكد أنّه ليس له:

- لا أستطيع يا زينب لا أستطيع.

- لماذا؟

- لا أستطيع وكفى.

- أنت حبيبي، ليس لي في الدنيا غيرك.

حرّرت رأسها، وثبتت نظراتها فيه. كانت غجرية شقراء بأنفاس متسارعة

وشفتين محمرتين. فيما بعد أحسّت بخجل بسبب ما حدث، احمرّ وجهها من تصرفها، فأطرقت إلى الأرضية وبهدوء رفعت يديها إلى شعرها تسوّيه. سمعته يقول بهمس أيضاً:

- يجب أن نتحلّى بالعقل يا زينب.

كانت تهدأ رويداً رويداً، قالت له من دون أن ترفع عينيها عن الأرضية:

- أصبحت أكره العقل. أنت لي وبين يدي، أيّ عقل هذا الذي يجب أن نتحلى به؟

مدّ يده، ومسّد شعرها. اقترب منها، وهمس مباشرة في أذنها:

- ما رأيك أن نتزوج؟ هل أطلبك من أبيك؟ لن ننتظر نهاية الحرب.

رفعت رأسها، كانت بسمة ناعمة قد ارتسمت في عينيها. ضمّته، وهمست له:

- هل أنت جاد؟

- مائة بالمائة.

- ولماذا انتظرت كلّ هذه المدة؟ هل كان عليّ أن أطلبك أنا من والدي؟

لم يجب بشيء، بل قبّلها قبلة ناعمة على خدها الملتصق به بشدّة. وعندما كان مستلقياً، وقد شبك يديه خلف رأسه يتذكر عذوبة تلك الليلة، سمع طرقاً متواصلاً من عند الجيران، إلا أنّه انتفض بعد قليل بعد أن اكتشف أنّ الطرق على بابه هو وليس على باب الجيران. نهض، ومشى حافياً. اقترب من الدهليز وهو في حيرة من أمره هل يسأل عن الطارق أم لا...؟ تذكّر أنّ السلّم موضوع على السطح، وأنّه باستطاعته الهرب بسهولة إلى بيت الحاج أحمد لبنية فيما إذا كان الطارق من الجندرمة أو النقيب الذي يطارده. سأل، من؟ فجاءه صوت عميق ثخين: افتح يا صالح!.

إنّه عمر بنبوك! عرفه من صوته. فتح الباب، وتلقّاه في حضنه.

* * *

11

راقب صالح شعلة الفتل، وهي تتراقص كلّما هبّت عليها نسمة هواء، أو حركة يد. كان الصمت يثقل على الاثنين، ويجعل صالحاً أكثر انتباهاً لطنين أذنه اليسرى المعطوبة. التقط كيس تبغه، وجعل يلفّ سيجارة للمرة العاشرة. دفع كيسه إلى عمر الجالس صامتاً، وقد أسند ظهره إلى الجدار، وبان خياله، وقد انزاح عنه قليلاً، وجعل يرتجف، كلّما تراقصت شعلة الفتيل.

هكذا إذن. لم يخطر ببال صالح أنّ عمر قام بكلّ هذا، ولم يخطر بباله أن بغداد قد فتحت له يديها، وأشركته في جنونها، ثمّ آذته، وجعلت منه رجلاً آخر تماماً.

هل هي بغداد؟ سأل صالح نفسه. وما علاقة بغداد في كلّ هذا. الشيخ درويش ليس إلاّ نسخة عراقية عن الأستاذ عبد الجليل، وها هما تابعاهما عمر وصالح صامتين في غرفة مظلمة، كلٌّ في موقع، وكلٌّ يعمل، ويفكر بطريقة مختلفة. رفع عينيه إلى عمر، وعاد يراقب وجهه الملتحي ورقبته وعينيه. أراد أن يتذكر صورته القديمة حين تركه في مستشفى جرحى الحرب دون جدوى. هذه الأمور لا يمكن لرأس صالح القيام بها. إنّه يعرف الآن أنّ عمر قد انقلب إلى رجل آخر، إلى عمر آخر. عمر الذي يعرفه لا علاقة له بهذا الشخص الجالس أمامه.

حينما زار بيت المرحوم أبي حديدة غشي من الضحك، حين علم بقصة زواجه الثاني. ضحك أيضاً على بهية. سأل نفسه كيف يمكن لبهية أن تصبر على ضرة تشاركها زوجها. كان يحسب عمر هو عمر. ولكن الأمور ليست هكذا، عاد ونظر إلى عينيه فأحسّ برعب خفي يتملّكه. لماذا؟ لا يعلم شيئاً. ربّما لأنّ العتمة التي لم تسبرها شعلة الفتيلة ضاعفت من قوة تعابير الرجل.

شعر أنّ عليه أن يتكلّم. ما بال عمر صامت! يا إلهي كم تغيّر، حتّى أنّ صمته أضحى أثقالاً ترزح على رأس صالح الذي يطن. ماذا يمكن أن يقول له بعد أن سمع حديثه عن الشيخ درويش وجمعيته التي ديست بأقدام أناس يقولون إنّهم يشعلون ثورة عربية، بعد أن سمع حديثه عن الذبح، وقتل ذلك الكلب حسين . كما قال . ثمّ قتله لثلاثة جنود أتراك، كانوا قد ذبحوا نساء وأطفالاً على قارعة الطريق من

دون رحمة. إلا أنّ الذي استهواه هو تلك الفعلة. قتل الأرغلي، ودفنه في حوض زرع حوش أمّ ربيع. يا لك من شجاع يا عمر، نظر إليه مرّة أخرى، وكأنّه في حضرة ولي. عاين ثيابه البدوية وجزمته العسكرية والعقال الأسود الملفوف على رأسه. أحسّ أنه يحبّه كثيراً، كثيراً. إنّه ليس كربيع، ليس مثله هو. فبينما صالح يرغي ويرغي ترى عمر يبطش بالجندرمة، بالأرغلي وبأمثاله.

- ماذا حصل يا عمر قل شيئاً، أصبحت صموتاً، قل لي هل أنت جائع، أستطيع أن أتدبر شيئاً للأكل.

هز عمر رأسه نفياً، ثمّ التقط كيس التبغ. أطلق نفساً طويلاً وبقوة، وهو يلفّ سيجارته. عاد صالح، وسأل عمر:

- وماذا تفعل الآن؟ أين أراضيك؟

نظر عمر إلى صالح من تحت حاجبيه بعينين ثابتتين وجاحظتين، وقال:

- إنّني أتسكع شرق البلد. أنا وعصابة من قطّاع الطرق. هذا العمل يعجبني كثيراً، الحمد لله أنّني قتلت الأرغلي الكلب، كي أترك البيت لأرحل. هو الذي دسّ أنفه في أموري، كنت قاعداً مع النساء وماشي الحال، ورغم أنّني كنت أحسّ بنزق إلا أنّ الترحال كان آخر شيء أفكّر فيه. هل تفهم عليّ؟ آخر شيء. ولكن الأرغلي جاء ليساومني على زوجتي، لعنة الله على قبره، قتلته وخلّصت العالم من شروره، وقد كان حنوناً.

- كيف؟

- أورثني حصانه وكيس نقوده.

لم يبتسم عمر، بل صالح الذي فعل، ثمّ سأله:

- وهل انكشفت فعلتك، أقصد قتل الأرغلي؟

- انكشفت، إنّهم يبحثون عني. سمعت أنّهم أحرقوا دار أم ربيع بعد أن أخرجوا جثة الأرغلي من حوض الزرع، لقد أقسموا على شنقي في ساحة باب الفرج.

- وماذا تفعل أنت والعصابة.

تجهّم عمر، وسأل بنبرة بطيئة:

- أيّ عصابة؟

– أنت قلت إنّك تتسكع شرق البلد مع عصابة من قطّاع الطرق.

انتهى عمر من لفّ سيجارته، هزّ رأسه مرّات ومرّات، وهو يمسّد السيجارة وينزع من طرفيها التتن الزائد. أشعلها، وجعل ينفث دخانها بلذة. بصق نحو العتبة، ومسح فمه بكم قميصه، ثمّ قال:

– نحن لسنا عصابة، رغم أنّني قلت ذلك. نحن قطّاع طرق، أنا لا أحبّ هذه الكلمة.

– وماذا يسمونكم الأتراك؟

– عصابة.

– معهم حق.

عاد عمر، وتفحص وجه صالح من تحت حاجبيه. بقيا صامتين برهة يدخنان ويسعلان، قال عمر من دون أن يلتفت إلى صالح:

– قلت إنّك من أتباع جمعية سياسية، ما اسمها؟

– إنّها ليست بجمعية، مجرد عشرة أشخاص يقودنا شخص مثقف اسمه عبد الجليل الشلاح. إنّنا نسمي أنفسنا حلقة.

– حلقة؟ وهل تسافرون إلى رجال القبائل لإقناعهم بالتّحرر من الأتراك؟

فأجاب صالح:

– لم نصل إلى هذا الحدّ بعد، إنّنا نجمع الناس في البيوت، وندعوهم لدخول حلقتنا والإيمان بأفكارنا.

– وما هي أفكاركم؟

– إنّنا ضدّ الحكم التركي، ونسميه استعماراً. فنحن نؤمن أنّ على العرب، أن يتحرروا من الأتراك، وأن ينظموا أنفسهم في ولاية واحدة، وليس في كثير من الولايات وهذه الولاية اسمها الدولة العربية، ولذلك فنحن نؤيد ثورة الشريف حسين، لأنّه يقوم بالخطوة الأولى في وطنه.

حكّ عمر ذقنه، وسأل:

– وماذا عن الملك؟

– إنّنا لا نؤمن بالملوك.

– وبماذا تؤمنون؟

– هناك شكل آخر للحكم تحدّث عنه الأستاذ عبد الجليل مطولاً. أظنّ أنّ اسمه الدولة الدستورية أو القانونية أو الجمهورية، شيء مثل هذا، ثمّ إنّ دولتنا ستكون دولة مساواة.

سحق عمر سيجارته، وسأل، وهو يحملق في صالح:

– مساواة! وهل ستفعلون كلّ هذا وأنتم مجرد عشرة أشخاص يقودكم عجوز مثل الشيخ درويش؟ ومن دون سلاح؟

صمت صالح، أحسّ بالخجل. حقاً، كيف يمكن أن يفعلوا كلّ هذا وهم حلقة صغيرة؟ أجاب وهو متردد:

– أنا لا أقول إنّنا سنفعل ذلك هكذا... هوب... دفعة واحدة، ولكنّ الأستاذ عبد الجليل، يقول إنّنا يجب أولاً أن نتحرّر من الأتراك.

فقال عمر متهكماً من دون أن يظهر ذلك:

– نعم، هكذا يقول الأستاذ عبد الجليل، كما يقول الشيخ درويش، ولكن سترون كيف سيأتي الإنكليز ويخلصونكم من الأتراك، إنهم الآن في بغداد، لقد رأيتهم كيف يدخلونها. والله أعلم من سيخرج الإنكليز!

فقال صالح وهو يشدد على كلماته بطريقة تعلمها من الأستاذ خلوق:

– آه... لن يحصل ذلك. هذه نواياهم نعم، ولكن لن يحصل ذلك. هنا توجد جمعيات وأحزاب، العراق ليس مثلنا. وهذه الجمعيات تدعو للتحرر وكثير منها له علاقة بالجيش وبإبراهيم هنانو والأطرش.

أحسّ صالح أنّه يلهث، لقد انفعل، لعنة الله على السجائر وعلى التدخين. صمتا دقائق. كان صالح يشعر أنّ عمر مصيب مائة بالمائة، إلا أنّه عارضه، ربّما دفاعاً أهوج عن الحلقة. هز رأسه مرّات، ثمّ قال:

– اعذرني، أنت تقول شيئاً نخافه، أثناء سفرنا إلى بيروت ودمشق تأكّد لنا أن الجميع يريدون الثورة، إلا أنّهم مكبلون.

– كيف؟

– طلب منهم الأمير فيصل الانتظار، إنّه يريد دخول دمشق محرراً.

قهقه عمر لأوّل مرّة. شيء مثل قه.. قه... قه. حتى ضحكته خرجت مشوهة. مسح على لحيته وشاربيه براحته، ثمّ قال:

- وماذا تنتظر؟

- ماذا؟ ... سأل صالح، فقال عمر:

- أترك هذا الرجل وتعال معي!

- إلى أين؟

- اخرج من البلد يا أخي، سأعطيك حصاناً وبندقية، ستقوم معنا بقتل الأتراك اليوم، أما غداً فسنقتل الإنكليز... هيا...

- لا... لا أستطيع.

لمس عمر ساق صالح، وكأنّه يلكزه، ثمّ قال له:

- أنا لا أريدك أن تموت كما مات الشيخ درويش. هيا... السهل والجبل أجمل. ليسا كالمدينة المتعفنة النتنة، هنا يموت الناس من الجوع ويتعفنون، أمّا نحن فلا نموت من الجوع، أنا أقول لك يا صالح يا ابن عمي، بل نأكل، ونطعم الجائعين.

- لا أستطيع، حلقتنا لها مهام أخرى. نحن نجمع الناس ونوعيهم. نجعلهم يفهمون لماذا هم جائعون ومشردون. سيأتي اليوم الذي ستقوم فيه الدنيا كلّها مرّة واحدة، فينقذ الناس، ويقام العدل فيهم، فتعود البهجة والسرور، رغم أنه يأتيني أوقات لا أستطيع إقناع نفسي فيها، إنّ ذلك سيحصل، بسبب ما نرى، ولكنني مؤمن تماماً أنه سيحصل.

ثمّ قال:

- أنا معك يا عمر، اذهب واقتل الأتراك والإنكليز، أنت على حقّ، وأنا على حقّ.

عادا إلى الصمت. بعد قليل خرج عمر إلى المرحاض، وراح يضجّ في طريقه إليه. فكّر صالح قليلاً، ثمّ غفا. لم يحلم بشيء، كان متعباً جداً، بل استفاق على عمر وهو منحن عليه، ويهزّه من ذقنه.

- ماذا؟

سأل صالح. وصل إليه صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر. فهم أن عمر قد

تهيّأ للرحيل. نهض، وفرك وجهه كي يصحو، سار خلف عمر الذي كان يقرقع بجزمته قال عمر من دون أن يلتفت:

- مررت على النساء. لعنة الله عليهن، أمّ ربيع ستموت قريباً، إن ماتت ادفنوها في جبل العظام. هي طلبت مني ذلك.

- لماذا هل اشتدّ المرض؟

- السعال والنساء الأخريات سيميتونها إن شاء الله.

سأله وهو يغالب النعاس:

- ماذا حدث؟

- بهية وفريدة تتعاركان، أمّ ربيع قالت لي، إنّ بهية تناست فريدة لأيام، وعندما علمت أنّها حامل جُنّ جنونها.

- من الحامل؟

فأجاب عمر بنزق واضح وقد استدار نحو صالح:

- فريدة يا أخي.

وقفا في حوش الدار، بعد دقيقة من الانتظار، قال صالح وقد انفرجت شفتاه:

- مبروك.

- مبروك على إيش، لعنة الله على النساء، لم أعد أطيقهن، قعدت ساعة، ثمّ جئت إليك.

- وماذا فعلت، هل صالحتهن.

- هه.. وكيف؟ بهية مثل الحجر، غارت من حبل فريدة يا لها من سفيهة. رفعتها علقة على رجليها، قلت لها في المرة القادمة سأذبحها إن لن تكف.

آه . تذكر عمر شيئاً، قال لي أحد رجال سوق الصغير، كنت قد قابلته في البرية، قال لي إنّ بهية كانت تعمل عند واحد بيك قليل الحياء، وأنك عندما عدت إلى حلب منعتها من الذهاب إلى الورشة. شكراً لك يا عمر، ولكن قل لي كيف كان تصرفها؟

- وهل قال لك الرجل شيئاً آخر؟

- لا..

- لم يحدث شيء، كان تصرفها على الأصول.

كان عمر يراقب عيني صالح، كان يريد أن يعرف فيما إذا كان يكذب أم يقول الصدق، أما صالح فقد تثاءب عن عمد. أصلح عمر لفّة رأسه، وهو يقول:

- إنها امرأة غير طبيعية، سأذبحها ذات يوم.

ثمّ استدار، ومشى في الدهليز. فتح الباب، ومدّ رأسه يستطلع الطريق. عاد للدخول، وقال:

- لقد جاؤوا، هيا سأرحل، سآتي مرّة أخرى.

أمسك صالحاً من كتفيه، سأله صالح:

- من جاء؟

- رجالي، ثمّ قال مداعباً. عصابتي، جاؤوا ليأخذوني.

تعانقا، ثمّ خرج عمر، مشى في الطريق وهو يقرقع بجزمته العسكرية. وقف صالح يراقبه كيف يمشي، ثمّ كيف التقط عنان الحصان وبقفزة واحدة أصبح على صهوته، كان هناك شخصان آخران، رفع عمر يده يودّع صالحاً، ثمّ انطلق يلحقه الرجلان.

* * *

كان مؤذن الجامع الصغير الذي على ناصية زقاق الطويل يقف على باب الجامع، وقد وضع يده خلف أذنه، ورفع عقيرته بأذان العشاء، عندما مرّ عمر أمامه، تحشرج صوت المؤذن وهو يراقب الرجل، تبعه بعينيه، لم يلقِ عمر السلام عليه، بل تابع سيره باتّجاه بيت أبي حديدة، وعندما اقترب من الباب شاهد المرأة القبيحة ذات الأصباغ الفاقعة تتنصت ممدودة الرأس فوق إفريز سطوحها على أصوات عراك نسائي يجري في البيت الذي يقصده عمر. ماذا يجري؟ كانت بهية تولول في صياح مسموع، وتطلق مسباتها البذيئة، أجابتها فريدة بشيء ما بصوت خافت، فلم تتمالك بهية أعصابها، فراحت تصفعها. نظر عمر مرّة أخرى في وجه الجارة الذي لم يغيبه الظلام تماماً بسبب شعاع نور خافت قادم من مكان ما، فخافت المرأة من نظرته، واختفت على الفور.

طرق الباب بقوة وهو يسمع جيداً ولاويل وصراخ ثلاث نساء، وسعال أمّ ربيع، وبكاء طفليه. طرق مرّة أخرى. حدث صمت مفاجئ، ثمّ سُئل من يكون؟ ثمّ فتح له الباب. وما إن دلف إلى الداخل حتى ظهر رأس الجارة من جديد.

كانت الجارة تعرف ماذا يحدث. ففي صباح الأمس، أفاقت ضرة بهية وهي تلك المرأة الجميلة التي أحضرها عمر من العراق، أفاقت وهي مريضة. دارت الدنيا بها عندما همت بالنهوض من فراشها، تحاملت على نفسها، ومشت إلى المطبخ، وهناك تقيأت، واصفرّ وجهها، وأحسّت بقرف مفاجئ، كما أحسّت باشمئزاز من شيء ما غير معروف. وبسبب خوفها من المرض، لأنّ كلّ من يمرض يموت كما هو الحال مع أمّ ربيع، خافت فريدة من الموت أيضاً.

لم تكن فريدة مريضة، هكذا أخبرتها أمّ ربيع، عندما نادتها إلى غرفتها وسألتها ما بها، سألتها بعض الأسئلة، ثمّ سألتها سؤالاً نسائياً بحتاً. منذ متى لم يأتك الشهر؟ قالت فريدة وبعض الخجل يتلبس وجهها الحلو المحبوب:

– لقد تأخرت كثيراً.

ابتسمت أمّ ربيع ابتسامة تناسب مرضها وهذا الحدث السعيد، ثمّ قالت:

– أنت حبلى يا ضرة ابنتي.

ولكن بهية التي فعلت ما فعلته تلك الليلة عند الجارة والتي ترك هذا العمل شيئاً في نفسها، يشعرها أنّها مازالت امرأة صبية وجميلة ومحبوبة من قبل الرجال، أو على الأقل قد أعجبت ذلك الرجل الذي أسمته أحمد باشا، ولكن بهية هذه فقدت حين سمعت بالقصة كلّ ما بنته، على أثر تلك الليلة، في ذهنها، وأحسّت أنّها قد شاخت، وفقدت زوجها عمر إلى الأبد.

لم تكن تتصور أنّ فريدة قد تحبل، هذا شيء غير معقول، فأمثال فريدة لا يحبلن، ولا يشتركن مع الرجال في صنع الأولاد. لا يمكن لعمر أن يكون له أولاد من سواها. من أين أتت هذه المرأة؟ شيء ما في هذا العالم ينكد عليها عيشتها. قالت هذا الشيء لنفسها مرات عديدة، وهي ترتعد بعد سماعها القصة. وعندما قالت لها عائشة إنّها مجنونة، وطلبت منها أن تتركها في سلام وتنساها، انفجرت بهية في وجه عائشة، وراحت تلعن أبا العراق الذي أتت منه هذه القحبة الحقيرة. يجب أن تعمل لها

عملاً يجعلها تهرب من البيت، إمّا هي وإمّا فريدة. هكذا قررت بهية فانطلقت من فورها إلى ضرتها تهز عجيزتها، مصفرة الوجه تأكلها الغيرة. اقتربت منها، فخافت فريدة، عرفت أنّ بهية لابدّ فاعلة شيئاً ليس مسراً. ومن دون شعور منها، وكأنّها فعلاً قد أصبحت أمّاً، حمت بطنها بيديها، فتلقت رفسة بهية على يديها فقط. ثمّ دخلتا في عراك بالأيدي والأرجل مضت ساعة وساعتين وهما على هذه الحالة. أمّ ربيع كادت تموت من القهر والسعال والدم. يا عائشة افعلي شيئاً! يا عائشة سوف يميتان نفسيهما، لعنة الله على الرجال هم أصل المصائب. أصبح وجه فريدة وساقاها مزرقين. إنها ضعيفة هذه المرأة. ليست كبهية قوية الجسم والأسنان. ولكنها صبورة تتلقّى الصفعات والرفسات بصبر عظيم على الألم. المهم ألا يحدث شيء للذي في بطنها، كانت تحميه، فتكشف وجهها لقبضات بهية. أما هي فقد كان مرادها أن ترفس فريدة في بطنها، لتسبب لها النزيف الذي سيميت الجنين الذي بسببه أصيبت بهية بلوثة في عقلها.

ولكن هذا لم يحدث، فقد سمعن طرقاً قوياً على الباب، ثمّ دخل عمر، وقف قليلاً مشدوهاً في الاثنتين، ودون أن ينتظر ليفهم سبب العراك هجم على بهية المتصلبة من نظراته، بطحها على الأرض، ثمّ استلّ عصاً، وراح يضربها، وكأنها كيس مليء بالتبن. لم يتوقف إلا بعد أن أفقد امرأته الأولى وعيها، عندها سأل أمّ ربيع وهو يرتجف عن السبب، ثمّ فتح الباب، وخرج وهو يبصق. وما إن شاهدته صبيحة يغيب في عتمة زقاق الطويل، حتى نزلت من السطوح، دفعت باب بيت أبي حديدة الذي كان منفرجاً، وولجت الدهليز. على أرض الحوش شاهدت بهية ملقاة من دون وعي، وقد انحسر ثوبها إلى خصرها فميزت صبيحة كدمات زرق على سيقانها ويديها ووجهها، كان ثمّة دم يسيل من رأس بهية، ويتجمع في دائرة حمراء صغيرة على البلاط.

تأوهت صبيحة وجمعت وجهها بين يديها. كان الطفلان يبكيان حول أمهما، وعائشة واقفة، وقد أدهشها ما حصل، ولا تعرف ما تفعل، وأمّ ربيع تسعل وتسعل وتسعل، وفريدة قد سقطت جالسة على الأرض مزرقة الوجه متورمة الشفتين ومنفوشة الشعر.

بقيت صبيحة وعائشة حتى الصباح منهمكتين بإيقاظ بهية، وتضميد رأسها. حاولت فريدة أن تساعدهما رغم كلّ ما حصل لها، إلاّ أنّهما طردتاها إلى غرفتها. رفضت عائشة التي كانت تبكي بصمت على ما جرى لبهية أن ترى فريدة إلى جانبها، لقد أصبحت تكرهها، هي السبب في كلّ ما يجري. في الماضي، قبل أن تأتي مع عمر، كان البيت رغم كلّ شيء أهنأ وأسعد مما هو عليه الآن، إنّها متأكدة من ذلك تماماً. وهذه المرأة الجميلة ليست سوى جنية حوّلت نفسها إلى امرأة جميلة يفتتن بها عمر، فيأخذها، ويتزوجها، ويأتي بها إلى بيته، فتحيله إلى جهنم.

- إنها جنية، بدأت أخاف منها.

همست عائشة لصبيحة وهما مقرفصتان إلى جانب بهية. كان الفجر ينبلج حينها دون أن يتجرأ مؤذن واحد في الحي كلّه أن يبرز رأسه من أحد النوافذ ويؤذن. ولم يكن أحد يطرق بلاط الزقاق بحذائه، ولم يكن هناك ديك واحد، كما في الماضي، ليصيح عند دخول النهار في الليل، لم يكن يسمع شيء، سوى خرير صدر أمّ ربيع النائمة بفعل ملعقة أو اثنتين من شراب السقاوة وتأوهات بهية.

ولكن أيّ شيء هذا الذي يحصل لهن؟ لماذا تغيّرت الدنيا، وتغيّر الناس؟ ماذا حصل؟ كأنّ بومة حطت على شجرة تبن في أحد البيوت، فانقلبت الحياة، ولم تعد كما كانت. كلّ واحدة تتذكّر أيام زمان، أيام الآباء والإخوة والأخوات وأيام الأمهات والجيران والطبل والزمر، شيء ما حصل، ما هو؟

كانت المرأتان تفكّران بصمت، عائشة تفكّر ودموعها لم تجف بعد، ولكن ما الذي يمكن لعقليهما أن يستنتجا؟ هل انتهت الدنيا؟ هل حلّ يوم القيامة؟ أم أنّ شؤماً، عظيماً قد حلّ بالبلاد، وجعل يدفعها نحو شر أعظم؟

هزت عائشة رأسها تنفي شيئاً ما في عقلها، شيء ما لم يقنعها، حاولت أن تزيله من رأسها، فحلّ محله خوف، انقبض له صدرها، وعندما أرادت استحضار ربيع إلى ذهنها علّه يزيل هذه الغمامة عنها، خافت أكثر. الناس إمّا أن يموتوا أو يتبدلوا، وربيع زوجها إنسان.

- بماذا تفكّرين؟

ارتعدت عائشة حينما سمعت سؤال صبيحة المفاجئ. تململت، وقالت:

- إنّي خائفة.

- من ماذا؟

- لا أستطيع فهم ما يحدث، ذنب من هذا الذي يجري؟ حاولت منع بهية حين ركضت إليها قلت لها اتركيها وشأنها، لقد حبلت المرأة، هذا شيء طبيعي. لقد نام الرجل معها، هذا شيء طبيعي أليس كذلك؟

- نعم.

- ولكن ماذا حصل لبهية؟ هي أيضاً فعلت شيئاً، لقد أخبرتني بقصة أحمد باشا.. هذا الذي نامت معه على سريرك، نعم، إنّني أعرف، لقد حكت لي. ذنب من هذا الذي يحصل؟ لقد قالت لي في اليوم التالي، إن كان قد كتب عليها أن تتحمل ضرة في بيتها فليكن. وليس هذا فقط، بل إنّ بهية قد تحوّلت إلى إنسانة أخرى، جعلت تضحك وتغني وترقص، حتى أنّني فرحت لها. وأنا متعجبة الآن، كيف أن قصة الحبل تعيدها إلى غيرتها وبؤسها.

صمتت قليلاً، ثمّ سألت بصوت أثخنه السهر:

- هل هذه الأشياء التي نراها هنا، تحصل في مكان آخر في البلد؟

- تحصل بشكل أسوأ.

- إذن... لماذا تجري الدنيا بالمقلوب؟

نهضت صبيحة، تمطّت، وقد بان القبح أكثر وأكثر على وجهها بسبب السهر. قالت بحكمة إنسانة مجربة عركها الزمن، وجعلها عاهرة تبيع نفسها على باب بيتها:

- الحرب يا عيشة الحرب... هيا ... تصبحين على خير.

سمعت عائشة باب بيتهم وباب بيت جارتهم ينفتحان، وينغلقان، لم تنهض لوداعها، عادت ونظرت إلى وجه بهية، ثمّ غفت في مكانها.

بعد أربعة أو خمسة أيام، أصبح جوّ البيت أكثر طبيعية، وزال التوتر عن فريدة وبهية، حتى أنّ القادم من خارج البيت كان يحسب أن ساكناته يعشن في سلام ومحبة. والحقيقة أنّ فريدة كانت في غرفتها منعزلة عن الأخريات لا تخرج منها إلا لقضاء حاجة، أمّا بهية التي رفعت العصابة عن رأسها، وخفّ الورم الذي في وجهها

إلا من كدمة زرقاء على يمين جبينها، فقد عادت إلى علكتها وإلى الاهتمام بطفليها وأمّها، وكأنّ كلّ حديث عن هذا الموضوع قد تأجل إلى موعد لاحق. ولكن... من يعرف ماذا تخبئ بهية خلف هيئة النسيان هذه؟

كلّ ما تعرفه عائشة هو أنّ بهية ترفض سماع اسم عمر واسم فريدة يذكران أمامها، اذكري الشيطان ولا تذكري اسم عمر! لقد كرهتهما، فلتكن زوجته وليكن زوجها، اللعنة على الاثنين، عمر لن يلمسها بعد الآن. هكذا قرّرت في ذهنها دون قول ذلك لعائشة، سحقاً له ولرجولته. لم تعد بحاجة إليه. هذا الأمر لم يعد وارداً في حياتها، يمكنها أن تقوم على تربية طفليها بصمت. وحين يعود فسترفضه دون نقاش. مكانه عند فريدة. هذا المتوحش لهذا المتوحشة، أمّا هي فلا.

ارتاحت بهية لهذه الأفكار، وفكّرت، لو كان الوضع في البلد طبيعياً لتركته وغادرت هذا البيت، تستطيع أن تطفش إلى أيّ مكان. مكانها ليس عند ابن القحبة هذا سوف تترك له الطفلين، وترحل. لا، سوف تأخذ حمودة، سوف يعمل حين يكبر ويعيلها. بل ستأخذ ابنتها أيضاً، حلمها أن تراها عروساً، لن تتركها للست فريدة الجنية. أصابت عائشة حينما قالت إن فريدة جنية وليست إنسانة.

أمّا وأنّ الدنيا على هذه الشاكلة فستبقى، إلى أين سترحل؟ لا مكان لها إلا هنا. سوف تبقى هنا، وتنسى الرجل وامرأته بل ستنسى كلّ الرجال، لا بأس... هذا هو قرارها. ولكن قرارات النساء، في بلدنا، لا يمكنها أن تدوم سوى ساعة أو ساعتين. فقد اعتادت صبيحة القبيحة بعد تلك الحادثة أن تزور بهية وعائشة كلّ يوم، رغم كراهية أمّ ربيع لها.

طرقت الباب، ودخلت، خلعت ملحفتها، ثمّ جلست على إحدى درجات السطح، لفّت لنفسها سيجارة ثخينة كما يفعل الرجال، ثمّ شرعت في تدخينها وهي تتحدّث عن آخر الشائعات التي سمعتها من رجالها الكثر:

– ألا تعلمون... إن الحالة خراء في خراء...!

– كيف؟ سألت عائشة.

– كيف يا ابنة الأصول؟ أنت قاعدة هنا، ولا تعرفين شيئاً؟ ... اسمعي. شنقوا ثلاثة من الفراري على ساعة باب الفرج، ويقولون إنّ أنور باشا وباقي الأزلام

سيصلون قريباً إلى حلب لتدارس أمر البلاد. ويقولون أيضاً، إنّ الجيوش تصل إلى حلب، وأنّ المسلمية أصبحت تعجّ بالجنود. هل تريدون أن تعرفوا المزيد؟

– نعم . قالت عائشة.

– هل سمعتم بواحد اسمه الأرغلي؟

– نعم... ماذا عنه؟

سألت بهية، فأجابت صبيحة:

– قتله شخص ما في أحد بيوت سوق الصغير وهرب بعد أن دفنه في حوض للزرع. اخرجوا جثته، ثمّ أحرقوا البيت. لعنة الله عليه، ثمّ قالت همساً، كان عندي يوماً من الأيام. تطلعت بهية وعائشة في أعين بعضهما. هكذا إذن. لقد عرفتا أخيراً سبب رحيل عمر عن البيت. ابتسمت عائشة، وهزت رأسها. حسبت صبيحة ذلك بسبب قولها إنّه كان عندها في أحد الأيام. بعد قليل نهضت عائشة، وذهبت إلى المطبخ لصنع القهوة، انتظرت صبيحة قليلاً، ثمّ همست في أذن بهية:

– ممم... أحمد باشا يسأل عنك.

– ماذا؟

– أحمد باشا جاء ليلة أمس خصيصاً من أجلك، راح يرجوني أن أحدثك بالأمر، سيأتي اليوم مساء بعد العشاء. قال لي، إنّه يعشقك. هل ستأتين؟

صمتت بهية، جعلت تفكّر، أحسّت بفرح وبهجة يربكانها، طلبت من صبيحة أن تعيد عليها ما قاله. قالت لها ذلك مرّة أخرى، وهما على هذه الحال سمعتا صوت خطوات عائشة قادمة. قالت بهية بسرعة قبل وصول عائشة:

– حسن، سوف آتي.

شربن القهوة. كانت عائشة تتابع أحاديث صبيحة عن حال البلد، أمّا بهية فكانت مشغولة الذهن، ترتشف قهوتها وابتسامة لطيفة ترتسم على ملامحها.

في المساء، بعد أن نامت أمّ ربيع كالمطروحة، ونام الصغيران، نهضت بهية والتقطت مرآة، وجعلت تكحّل عينيها. أطّرت عينيها بخطوط الكحل العربي الكثيفة، ثمّ مدّت ذؤابة عند كلّ صدغ. لاحظت عائشة أنّ ابنة حماتها تغالي في تجملها، ثمّ راقبتها وهي تمسح خديها بمادة حمراء وتفركهما، ثمّ أحضرت قطعة من الطباشير

فسحقتها وجعلت تمسح بمسحوقها الكدمة الزرقاء على جبينها.

فتحت بهية صندوق عرسها، وأخرجت ثوباً قديماً باهت اللون تفوح منه رائحة الكاز المقاوم للعث. خلعت عنها ثوبها البيتي الطويل، ووقفت تتفحص ساقيها أمام عائشة. كانت آثار الضرب بالعصا واضحة على ساقيها وفخذيها، فالكدمات الزرق قد تخللها لون أحمر غامق، بالرغم من أنّ مساحاتها قد تقلصت، طقت بهية بلسانها وهي تراقب ساقيها. كانت عائشة تقول شيئاً، إلا أنّ بهية لم تكن تفهم، كانت تفكّر، من يصدق أنّ هذا قد فعله عمر بالذات؟ عمر الوديع الذي كان يعود من حفر الآبار مساء وهو منهك، فتتلقفه بيديها، فتريحه، وتخلع عنه ثيابه وحذاءه، ثمّ تغسل له قدميه؟ مسحت الكدمات بمسحوق الطباشير من دون جدوى فاللون الأحمر يُرى عبر طبقة التالك بسهولة.

كانت عائشة تسألها شيئاً، التقطت ثوبها ذا اللون الباهت، وارتدته، سرّحت شعرها الأسود الفاحم بمشط من خشب الصندل، ثمّ تركت غرتها البيضاء تتهدل نحو عينيها فغطّت جبينها، نظرت في المرآة مرّة أخيرة، ثمّ ابتسمت. أعجبها شكلها، ها قد عادت إلى صباها، إنّها جميلة رغماً عن أنف عمر وفريدة. إنّها شابة. صبية في العشرين وليست في الثلاثينيات. المرآة تقول هذا. افترّ ثغرها عن ابتسامة، وقد أبعدت مرآتها، ووقفت أمام عيني عائشة تعرض عليها أعجوبتها.

– ماذا؟

سألت عائشة وقلبها يحدّثها أنّ هناك شيئاً ما. لماذا تجمّلت بهية؟ قالت لها أيضاً:

– أنت جميلة فعلاً لا ينقصك سوى أمير يأخذك على حصانه إلى بلاد الله الواسعة. لماذا فعلت هذا بنفسك؟ هيا اخلعي ثوبك كي ننام، ونحلم بهذا الأمير. ولكن إياك أن تحلمي بأميري نفسه أنا لا أحبّ الضرائر.

ضحكت بهية، ثمّ قامت بحركات إلى جانب فراش أمّها. التقطت علكتها من أحد رفوف المكتبية، ودسّتها في فمها، وجعلت تمضغها بصعوبة في بادئ الأمر. دارت في الغرفة عدّة مرات أمام عائشة التي كانت تراقبها بعينين ناعستين، ثمّ توقفت أمامها. قرفصت، وضمّت رأسها، وغنّت بيتين من أغنية تعلّمتها في صباها:

وبطّلت صوم وصلي بدي أعبد سماكي

وع الجنة ماني رايح ع جهنم أنا وراكي

ثمّ حكت لها ما اتفقت عليه مع صبيحة.

قالت لها عائشة:

- أنا خائفة عليك يا بهية.

قبّلتها بهية في فمها، ثمّ نهضت، لحقت بها عائشة، وهي تردد ذات الجملة. وعند الباب استدارت بهية، وهمست لها:

- آن الأوان لأنكح أمّ عمر.

صمتت عائشة، انصفق الباب، فعادت إلى غرفتها تستطلع أحوال حماتها. كانت خائفة من أن تستيقظ، وتسألها عن بهية. لماذا هي مذعورة هكذا؟ أمّ ربيع لن تستيقظ إلا في ضحى الغد. حتى ولو ضربوا طوب في الحوش فلن تفيق. ولكن ماذا عن عمر؟ ماذا لو جاء؟ أحسّت أنّها شريكة بهية في هذه العملية. ألقت نفسها في فراشها، وحاولت استذكار وجه زوجها. هذه هي عادتها في كلّ ليلة. أما الآن فقد استحال عليها ذلك.

هذا الأمر لم يكن سهلاً على بهية أيضاً. فأمام باب غرفة صبيحة ترددت وكادت تعود إلى بيتها، سألتها صبيحة ما بك؟ قالت لها لا شيء، بل لا أستطيع، سأعود. أمسكتها صبيحة من ذراعها، وأوقفتها. الرجل ينتظر في الداخل. إنّه أفندي جميل الطلعة قوي البنية، إنه لطيف جداً فلا تخافي. أسرعت بهية في مضغ علكتها وكأنّ هذا الأمر سينقذها، أو أنّه سيشجعها على الدخول. سمعت صبيحة تقول:

- ماذا حدث؟ ألم تكوني معه في المرة الماضية؟ انسي عمر وأبو عمر وادخلي إليه، لعنة الله على زوجك. لو تعلمين في أيّ حال شاهدتك بعد أن ضربك. هيا ادخلي؟

دفعتها برفق نحو الباب. أذعنت بهية أخيراً، ودخلت، تمنّت لهما ليلة سعيدة، ثمّ خرجت صبيحة لتنام بين أولادها.

12

بعد أن ذهب عمر عند الفجر، لم يعد صالح للنوم من جديد. بل صنع لنفسه كوباً كبيراً من القهوة، ثمّ قعد يرتشفها، ويدخّن لفائف التبغ. وما إن أشرقت الشمس، وتسلّلت أشعتها إلى الأسطحة، حتّى ارتدى ثيابه، وخرج. استقلّ أحد القطارات من محطة الشام في الجميلية، ونزل في محطة الوضيحي. استقبله أبو زهرة، زبونه القديم حينما كان يعمل في بيع الحطب، بضجيجه المعهود.

إنّه يدعوه بالأفندي. جاء الأفندي، أين كنت غائباً طوال هذه المدة يا أفندي؟ إنّ أبا زهرة يدعوه بالأفندية عشرات المرّات خلال ساعة واحدة، إلاّ أنّه لا يستطيع ولن يستطيع مطلقاً، أن يفهم كيف يمكن لبائع حطب يسوق بغلة أن يصبح أفندياً بين ليلة وضحاها. حاول صالح أن يشرح له الأمر مرّات عديدة من دون جدوى. هذه الأمور لا يمكن فهمها بسهولة. معه حق. معك حق يا أبا زهرة. هذه الأمور يستغربها صالح بالذات، فكيف ببستاني بسيط؟ وما إن دخلا غرفة مفروشة باللبد، حتى خفّ ضجيج أبي زهرة، وقعد إلى جانب صالح، وقال له من دون مقدمات إنّه واقع في ورطة.

- أيّة ورطة هذه؟ هل هي مع الأتراك؟
- لا...
- هل تحتاج إلى نقود؟
- لا...
- ماذا إذن؟ هل صحة الصبي بخير؟ ماذا عن امرأتك؟ ما هي أخبار صورية؟
- هذا هو الموضوع.
- ما هو ... قل شيئاً!

قال صالح بنزق واضح. أطرق أبو زهرة ثم زفر. أعاد مرّتين قوله إنّه واقع في ورطة، ثمّ قال أخيراً:

- أنت تعرف قصة صورية، إنّها حامل.
- منك.

- نعم.

- إنّها ورطة فعلاً.

خلع صالح طربوشه، وجعل يمسّد شعره، أخرج كيس تبغه، ولفّ سيجارة في ورقة أخذها من أحد الدفاتر. هزّ رأسه يمنة ويسرة كعادته، وهو يشعر بعودة طنين أذنه المعطوبة. شيء مضحك، جاء إلى أبي زهرة كي يطلب منه أن يقوم بترتيب اجتماع لبعض عمال سكّة الحديد في محطة الوضيحي. لقد أخبر الأستاذ عبد الجليل بأمر أبي زهرة. قال عنه، إنّه رجل متحمس لفكرة معاداة الأتراك، وأنّه بقليل من الجهد يمكن إدخاله في الحلقة، وجعله يقوم بنشاط بين عمال السكة بسبب قرب بستانه من المحطة. وليس هذا فقط، بل أخبره أنّ أبا زهرة بسبب قيام الأتراك بتقطيع أشجاره، قد أقسم يميناً أن يحاربهم، وأن ينخرط في أيّ عمل ثوري ضدّهم. هذا هو أبو زهرة الذي يعتمد عليه صالح في عمله السياسي. أيّ عمل سياسي وثوري سوف يخرج من بين يدي أبي زهرة يا صالح؟ لقد تورط مع صورة ابنة جاره مصطفى. وعدها بالزواج على امرأته إن لم تلد له صبياً، ولكنّ امرأته ولدت له الصبي بعد خمس بنات. جاءه الصبي، وكسب ودّ صورية. لم يقعد ليلاعب الصبي، ويربيه، بل قعد يلاعب صورية في الليالي بعد أن يكون أبوها قد راح في سابع نوم. اللعنة عليك يا أبا زهرة.

بصق صالح وهو يهرش رأسه، هل يقول له سبب مجيئه إليه؟ سحقاً لهذه السياسة كم هي ابنة حرام! إنّه يشعر بالاشمئزاز من كلّ شيء. انتبه إلى أنّ أبا زهرة ينتظر حلاً سماوياً لورطته، نظر إليه فتلاقت أعينهما. لأوّل مرّة يرى أبا زهرة على هذه الحال. قال له صالح وهو يمج دخان سيجارته:

- ولماذا أنت خائف بهذا الشكل؟ تزوجها يا أخي؟

اصفرّ لون أبي زهرة. علك شاربيه، ثمّ قال:

- لا أستطيع، نفسي لم تعد تقبلها. أنت تعلم..

فقال صالح بنزق غير آبه لشعور صديقه:

- أنت تعلم... أنت تعلم... وماذا أعلم أنا، هل كنت معك في فراشها.

- صبراً عليّ يا صالح أفندي. صبراً عليّ الله يخليك. أنا لا أقول إنك كنت

تعلم، بل أقول، إنّ صورية لم تكن بنتاً عندما ذهبت إليها أوّل مرّة. كانت تلهو مع سائقي القطارات. لم أكن أعرف ذلك فيما مضى ولكن مع من يمكن أن تلهو، آ.... مع من يا صالح أفندي؟

- وبعد؟ ... ماذا تريد أن تقول؟

- لا أستطيع أن أتركها حبلى هكذا، فتحدث فضيحة، ولا أستطيع أن أتزوجها.

فكّر صالح قليلاً، ثمّ قال ما خطر له:

- لماذا لا تذهب إلى أبيها، وتقنعه أن يقول للناس، إنّ ابنته قد تزوجت من فراري، ثمّ قبضوا عليه، وأعادوه إلى الجيش، وأنّها حبلت منه. تستطيع أن تقنعه بذلك إن أنت وعدته أن تنفق على الولد وعلى أمّه.

نهض أبو زهرة وهو سعيد، عبّر عن سعادته بهذا الحلّ بضجيجه المشهور. قبّل صالحاً، ثمّ هرع إلى الخارج، وطلب إحضار قنينة من "عصير العنب"، ثمّ عاد للجلوس، وهو يردد الفكرة.

دخلت زهرة حاملة القنينة وقدحين، ثمّ خرجت. صبّ أبو زهرة الخمر، ثمّ ناول صالحاً قدحه.

- هيا يا صالح أفندي، أنت والله رجل ذكي ومتعلم، لست مثلي، هيا سأشرب نخبك. كنت والله أعرف أنّك ستجد لي حلاً لورطتي، كنت أقول لنفسي يا أبا زهرة لماذا لا تبحث عن صالح، وتسأله ما العمل؟ هيا اشرب يا صالح يا أخي.

شربا نخب صالح، وما إن مرّ وقت حتى كان أبو زهرة قد أفرغ باقي القنينة في جوفه، وجعل يعيد وهو مطروب ما اقترحه عليه صالح.

- أنت رجل فذ.

فقال صالح يعرض عليه ما جاء من أجله بعد أن عاد أبو زهرة إلى طبيعته:

- اسمع يا أبو زهرة. لقد جئت إليك في أمر آخر، لقد قلت لك إنّني أنتسب إلى جمعية سرية تطالب بالاستقلال عن العثمانيين.

- نعم أعرف ذلك جيداً. آه ولكن يا صالح أفندي ولكن كيف وجدت هذا الحل البديع... قاطعه صالح، وقال له:

– اسمعني جيداً يا أبا زهرة. إنّنا نجتمع مع الناس، ونتحدّث إليهم عن الأتراك والحكم العثماني والتحرر منهم وتكوين دولة عربية يحكمها عرب، ونخبرهم أنّ هناك ثورات وثواراً وأفكاراً جيدة وحياة جديدة وغيرها وغيرها...

هز أبو زهرة رأسه يوافقه رأيه، وكأنّه عالم بكلّ هذه الأمور. تابع صالح قوله:

– عفارم عليك يا أبا زهرة أنت تفهم عليّ جيداً. أريد منك أن تجمع لي عدداً من سائقي القطارات وعمال المحطة، هنا عندك، لأتحدّث إليهم.

تحمّس أبو زهرة وهو يقول:

– آه فهمت، وماذا تريد أن تتحدّث... آه... عن الأتراك... مليح... وأين سأجمعهم هنا في البيت؟ ... هذه فكرة مليحة... ومن سأدعو، سائقي القطارات؟ ... عمّال المحطة...؟ من منهم يا ترى؟ عبد الرحمن؟ عبد الرحيم؟... علي ومحمد وأحمد هذا أمر بسيط... سأفكّر بالأمر، ولكن قل لي وماذا لو رفض أبو صورية العرض؟ ماذا لو أصرّ على الزواج؟ ماذا سأقول له؟

فوجئ صالح، شعر برغبة شديدة في ضرب أبي زهرة. إلاّ أنّه نهض، ومن دون أن يهمس بكلمة أخرى عن الموضوع، ودّعه، وخرج. لحق به أبو زهرة وهو يستوقفه. طلب منه أن يمكث حتى الغداء، إلا أنّ صالحاً رفض. وجد أنّ من العبث الاستمرار مع أبي زهرة. سمعه يسأل من داخل بستانه بصوت جهوري:

– ولكن ماذا سأقول له إن رفض؟

غذّ السير نحو المحطة، انتظر ساعة قبل أن يصل قطار حلب. حاول خلالها أن يبحث عن وجه معروف له بين العمال دون جدوى. ركب قطاره وهو حانق على أبي زهرة، كان منهك القوى تماماً عندما دخل بيت الأستاذ عبد الجليل. في المساء خلع حذاءه، وغسل قدميه وهو يتجاهل نظرات زينب. عاد إلى الهرب منها، وعدها أن يتحدّث مع أبيها عن زواجهما، إلاّ أنّه لم يفعل شيئاً ما يبعده عن التفكير في مثل هذه الأمور. لو أنّ هذا الزواج يتأجل إلى ما بعد حدوث الثورة. كم يرغب في ذلك... ولكن... كم من الجهد عليهم أن يبذلوا كي تقوم هذه الثورة؟ إنّه متشائم جداً. أمامهم طريق طويل، والأتراك ليسوا لعبة، والإنكليز على الأبواب. يا إلهي كم تعب في الأيام الماضيات، وكم سيتعب وزينب تنظر إليه نظرة معاتبة

ومستفهمة، ها هي تمدّ السفرة، صامتة، إلاّ أنّ عينيها تسألانه باستمرار، أو أنّهما تخترقانه لتفهما فيما إذا تبدّل من ناحيتها.

ولكن زينب لا تفهم أنّه يخاف أن يصبح مثل أبي زهرة. أن يشغل باله بالنساء بينما عليه أن يركض إلى هنا وهناك، ويتحدّث إلى هذا وذاك.

جلسوا حول السفرة، وراح الأستاذ عبد الجليل يتحدّث بمرح عن ذكر الأتراك من تطورات الحرب، إنّهم فعلاً قد وقعوا في ورطة، أين عليهم أن يتواجدوا بكثافة، هل على جبهة بغداد، أم في فلسطين، أم أنّ عليهم أنْ يحتاطوا من إنزالٍ ما من البحر. كما أنّ الثورة الحجازية تقترب من درعا.

– ماذا... هل رأيت أحداً اليوم؟

سأل صالح، وهو يمضغ البرغل المطبوخ. فقال الأستاذ:

– نعم، لقد جاء إليّ أحد اللامركزيين هرباً من كلّز حيث كان منفياً. أحد الشوام أعطاه عنواننا.

– وهل من جديد؟

ليس جديداً تماماً. طلبوا منه إبلاغي أنّ الجميع ينتظرون اقتراب الجيش العربي والمصري من دمشق، كي ينتفضوا لقطع طريق العودة على الجيش العثماني. أبلغني أنّ هنانو أيضاً موافق على الخطّة، وأنّ القبائل تتسلّح، وتتهيّأ من أجل الانتفاض، ثمّ راح يسألني عن حلقتنا التي أسماها جمعية.

– وماذا سأل؟

– سأل عن إمكانياتنا وعن عملنا وفي أيّة أوساط ننمو. ثمّ طلب مني انتظار الإشارة بعد أن أفهمته شيئاً عن حلقتنا، فاستغرب كيف أنّ الأتراك لم يكتشفونا، ولم يضربونا، ونحن نعمل في المدينة، إنّه يعلم أنّ العمل في المدن أصعب من العمل في الأرياف، وعندما سألني عن المصاعب التي نواجهها، شرحت له كيف أنّ الناس يموتون من الجوع، وهم غير مصدقين أنّهم يمكن أن يتحرروا.

هزّ صالح رأسه مطولاً، ثمّ قال:

– ذهب اليوم إلى أبي زهرة، إنه كغيره غاطس في همومه، وكأنّ الدنيا كلّها في خير إلا هو.

- كيف؟ سأل الأستاذ.

- طلبت منه أن يرتّب لي اجتماعاً مع عمال السكة فطلب مني أن أحلّ له أمراً وقع فيه.

- ما هو؟

- لقد تورط مع إحدى جاراته، فحبلت منه.

انتبهت زينب فرفعت عينيها إلى صالح. ضحكت ضحكة قصيرة فاستدار إليها. سألها:

- الأمر مضحك أليس كذلك؟

فقالت له وهي تشاكسه.

- يبدو عليك أنك تحلّ أموراً كثيرة، ولا تجد وقتاً لتحلّ أمورك الخاصة.

احمرّ وجه صالح، نظر إلى أبيها وهو يتوقع ضحكة صاخبة. ولكنّ الأستاذ عبد الجليل لم يرفع عينيه عن صحنه، إنه يعرف ما الأمر، ولكنّه لا يتدخل، فزينب تعرف كيف تسيّر أمورها بنفسها، ولا تطلب مطلقاً أيّة مساعدة من أبيها.

وما إن انتهى العشاء، حتى نام حسن ابن صالح، وجلس الكبار في غرفة الأستاذ. كان صالح يلفّ سيجارة، ثمّ يشعلها. وما إن يدخنها، ويطفئ عقبها حتى يشرع في لفّ الأخرى. أحسّ الأستاذ، وأحست ابنته، أنّ صالحاً ليس على ما يرام، وأنّها ربّما قد آذته بتعليقها ذاك الذي أطلقته وهم على السفرة.

إلا أنّ صالحاً لم يكن كذلك، كان يفكّر، هل يخطبها أم لا، وما إن يستنتج أنّ عليه أن يطلبها فوراً من أبيها، كما كان قد صمّم، حتّى يخجل من شيء لا يعرف كنهه. وهذا الأمر واضح جداً في ذهنه، إلاّ أنّه لا يستطيع أن يركبه، إنّه السؤال الذي يطرحه على نفسه، ولكن من دون كلمات: وهل هذا وقته؟ قرّر أن يفتح فمه، ويحدّث الأستاذ بالأمر، إلاّ أنّه قال شيئاً آخر:

- لقد جعلني أبو زهرة أفقد أعصابي.

فسأله الأستاذ، وقد ارتاح لأنّ صالحاً قد تكلّم أخيراً:

- وهل كلّ هذا لأنّه طلب منك أن تنقذه؟ أنا لا أوافقك على هذا. كان عليك أن تنصحه بشيء ما أو أن تعرض عليه أيّة مساعدة.

- لقد حصل.

عادت زينب إلى الانتباه، فتركت شغلها، وجعلت تتابعه بحبّ:

- لقد نصحته أن يعرض على أبيها نفقة للأم والطفل، وقد فرح بذلك كثيراً، إلا أنّ الشيء الذي جعلني نزقاً هو أنّ أبا زهرة يضع موضوعنا في المقام الثاني، أنا لا أوافقه على ذلك، مصلحة الجماعة هي أهم من مصلحة الفرد، اجتماع عمال السكة أهم من صورية.

الآن انفجرت ضحكة صاخبة، كانت ضحكة الأستاذ، أمّا زينب فقد اكتفت بهز رأسها يميناً ويساراً وهي تبتسم بحنو. لو كان كلّ السياسيين أمثالك يا صالح أفندي فماذا كان سيحصل؟ قال الأستاذ عبد الجليل وهو يلتقط غليونه من جديد:

- حسبت الأمر غير ذلك يا صالح يا أخي، عد إليه غداً أو بعد غد لترى كيف كان ردّ الأب، ومن ثمّ لترتيب أمر الاجتماع.

أشعل الأستاذ غليونه، فانطلقت سحابات الدخان الزرقاء لتحجب وجهه عن عيني صالح. التقط الغليون، وأبعده عن فمه، ثمّ قال:

- عليك أن تكون أكثر احتراماً لأمور الناس البسيطة واليومية، هذه سياسة وهذه سياسة. القائد يقود الناس، ويحلّ مشاكلهم، وأبو زهرة ليس لعيناً ولا متخاذلاً. لديه مشكلة يريد حلّها قبل أن تتفاقم، إنّه يحبّك ويحبّ قضيتك، ولهذا الأمر سألك حلاً لمشكلته ووافق أيضاً على ترتيب الاجتماع.

صمت الأستاذ كي ينشق نفساً من غليونه، نظر صالح إلى زينب، وهو يحسّ بخجل أو إحراج أو أيّ شيء يخطر على البال. تلاقت أعينهما، لقد فهمت زينب ما يجول في ذهنه، هذا هو خلوق آخر، إنّك مثل أستاذك يا صالح أفندي، لديك قضية وتريد الغرق فيها، أمّا النساء والزواج فإنّها من أمور ما قبل القضية.

أصلحت جلستها، وقالت وعيناها في عيني صالح:

- إذن، لقد فهمت لماذا تتهرب من الكلام مع أبي.

أطرق الأب ينتظر حسم الأمر. سمع زينب تتابع دون أن يجيبها صالح:

- أريد أن أسألك سؤالاً واحداً لتجيب عليه بوجود أبي، هل أسبّب لك إحراجاً ما؟ قل أرجوك. إذا كان الأمر كذلك، فأنا لا أطلب منك سوى أن نكون أصدقاء

ورفاقاً إلى الأبد. رفع الأستاذ عينيه من دون أن يرفع رأسه. كان صالح يهرش عذاره. لم يجبها، بل قال للأستاذ عبد الجليل وهو يتأتئ في البداية:

– حسن يا أستاذ. يبدو أنّ الأمر يتطلب مني أن أطلب يد ابنتك زينب حالاً. كان بودي أن نؤجل الزواج ما استطعنا حتّى يحلّ السلام، ولكن الحبّ لا يحتمل التأجيل كما يبدو، أنا أحبّ ابنتك، وأريد أن...

قاطعه الأستاذ، وهو يبتسم:

– أنا ليس لي علاقة، أنتما كبيران كفاية، تستطيعان إن أردتما أن تتزوجا غداً أو بعد سنتين، اتفقا على ذلك فيما بينكما، وأنا موافق عليه سلفاً.

ابتسم صالح لزينب، وكأنّه غلب على أمره:

– حسناً غداً سأحضر الشيخ.

ثمّ شاهدها تلتقط قماشها وإبرتها، وتروح تخفي انفعالاتها الشديدة. وفي الصباح اتفق هو وزينب على ضرورة شراء سرير مزدوج. أخرجت بعض الأوراق النقدية، وقدّمتها لصالح، إنّها من أجل شراء السرير، سيضعانه في غرفتها أمّا حسن فسينام مع الأستاذ في غرفة واحدة. أخذ الأوراق النقدية، وذهب إلى الجديدة. هناك بحث عن سرير خشبي غير مهترئ كما أوصته زينب، حذّرته أيضاً من السوس والفسفس. فحص سريراً لامعاً يعرضه صاحبه في واجهة أحد الدكاكين، لم يصدق البائع، في بادئ الأمر، أنّ صالحاً سيشتريه، بقي جالساً على كرسيه الواطئ جامعاً رأسه بين يديه مغمض العينين. سأل رجل عن ثمن السرير في الشهر الماضي، ولم يشتره. لم يعد الناس يشترون الأسرة منذ زمن بعيد، بل أنهم يبيعونها. فقد يبيعون. يأتون إليه كل يوم يعرضون عليه الأسرة المتنوعة والخزائن وطناجر المطبخ النحاسية، بل أن أحدهم عرض عليه فتاة في السابعة عشرة. أما هذا الأفندي الذي جلس القرفصاء وجعل ينقر على مقدمة السرير وكأنه خبير في الخشب والموبيليا فهو يثير أعصابه. عند كل نقرة ينتفض فيه عرق. سمعه يسأل عن الثمن. فتح عينيه وتطلع إليه بملل عظيم وقال:

– هل تريد الشراء حقّاً أم أنك تتسلى؟

فقال له صالح بعد أن أقسم له بشرفه:

– قل الثمن إن كان يناسبني، فسأشتريه.

نهض الرجل عن كرسيه، واقترب من صالح. كان أطول من صالح وأعرض. لحيته غير حليقة وعيناه حمراوان من النعاس، قال له:

– خذه بعشرين ليرة، وأمرنا لله.

فاصله صالح من دون جدوى. كان يمسك بمقدمة السرير، وينقر عليها فعرف البائع أنّ الرجل قد وقع.

– حسناً، سأدفع لك عشرين ليرة مع الحمولة والنقل.

– أخرج الأوراق، وجعل يعدّها. نظر البائع إليها، ثمّ قال بقرف:

– بنكنوط؟ ... أنا أقول عشرين ليرة ذهبية.

– ومن أين آتيك بالذهب؟ ليس عندي سوى أوراق بنكنوط.

فقال البائع:

– إنها لا تساوي شيئاً، لا أحد يأخذها بقيمتها. ليرة ذهب تساوي ثلاث ورقات إن أردت السرير فعليك الدفع بالذهب.

إلا أن صالحاً اشتري السرير بالأوراق نفسها. أعطاه العنوان ودفع له العشرين ليرة ثم ودعه ورحل. طمأنه أن السرير سيكون عنده بعد ساعة من الآن.

مشى صالح في سوق الجديدة. مر أمام حمام "برهم باشا" ليس لديه وقت ليسلم على أبي إلياس. إنه يشتهي أن يستحم ولكن ليس لديه وقت. عليه أن يمرّ على يونس وحمدو ليرى ما يفعلانه. الثروة قادمة وعليهم أن ينشطوا، لقد باتت الأمور واضحة تماماً. الناس جائعة، الرجال هاربون، النساء تشحذ في الشوارع. والمدينة تعبق برائحة الموت، وهذه الرائحة تجعل الناس يهربون منها، تجعل الناس يقاومون ما دام الموت واحدا فلا بأس أن يكون أثناء الثورة.

الثورة! آه ما أجمل هذه الكلمة لها رنين خاص جميل. ولكن كيف ستحدث، أين ستبدأ؟ خلوق أفندي وعبد الجليل الشلاح يقولان إنها ستشتعل في مكان ما لا يعرفه إلا الله، ثمّ ستمتدّ إلى كلّ الأرجاء، كلّ الدنيا ستثور، ولكن لماذا ثار أهل الحجاز وأهل الشام لم يثوروا بعد؟ ماذا ينتظرون؟ ليس هناك من مانع في رأيه "ثورة الفقراء الجائعين على الظلم والجوع والحروب و... و..." قد تكون رسالة اللامركزيين

إلى الأستاذ عبد الجليل تفسر شيئاً. حالما سيقترب جيش الحجاز من درعا، سيهبون وسيقطعون طريق العودة على الجيش العثماني، ثمّ سيتم تتويج ملك عربي. هل هذه هي الثورة أم أنّ هناك ثورة أخرى؟ خليل عوض يقول، إنّ الآخرين يطيحون بملوكهم بينما نحن ننتظر ملكاً. ماذا يعني هذا الكلام؟ الأستاذ عبد الجليل يقول، إنّنا نؤيد ثورة الشريف كبداية. لماذا كبداية؟ وماذا بعد ذلك؟ هل سيعم الخير والسلام، ويعود الرجال إلى بيوتهم؟

عند ساحة التنانير قرّر أن يعود بعد يومين أو ثلاثة إلى أبي زهرة، يجب أن تتم هذه المهمة، عمال السكة هم من الأهمية بمكان أنهم يستطيعون إحراق القطارات، وتدمير السكك عندما يكون ذلك ضرورياً. أبو زهرة لا بأس به، رغم كلّ ما يفعل فهو رجل جيد، إنّه شجاع، لقد أقسم ذات مرّة أنّه سينفذ ما وعد به. لقد وعد أنّه سيحرق قطاراتهم وقت اللزوم. وهو محبوب من رجال المحطة. وهذا شيء عظيم، سوف يقوم معه بتنظيم هذا الاجتماع، سيجمعان عشرة أو عشرين عاملاً، ثمّ يخطب فيهم. سيقول لهم كلّ ما يفكّر فيه، كما يتحدّث الأستاذ عبد الجليل تماماً:

أيّها الأخوة... أيّها العمال الفقراء، إنّنا ندعوكم إلى وعي ما أنتم عليه. أنتم جائعون رغم كلّ ما تقومون به من أعمال. إنّ عمّال السكك هم من أهم وأنبل عمال هذا البلد. لذلك عليكم أن تعوا طبيعة هذا العمل المهم. إنّ البلد سيحتاجكم يوماً من الأيام. متى؟ عندما يثور الشعب ضدّ الحكم العثماني، هذا الحكم الاستبدادي الذي أفرغ البلاد من رجالها، وترك نساءها وأطفالها وشيوخها يجوعون، ثمّ يموتون في البيوت وفي الطرقات، أنتم ترون ما يحدث. إنّ الأمر في الوضيحي ليس كما هو عليه في حلب. هناك الناس يموتون وكل من سار في طرقاتها وجد الجثث متناثرة هنا وهناك. جثث من هذه؟ إنّها جثث أطفالنا ونسائنا. لقد شاهدت نفس الشيء في بيروت بل أكثر من ذلك، وأنتم تسوقون القطارات، وتسافرون، وتجدون كلّ هذه الأمور، إذن أنتم تصدّقون. ماذا تنتظرون إذن؟ إن هذه القطارات التي تحمل رجالنا إلى الحرب، وتنقل حبوبنا إلى الأستانة وبرلين عليها أن تدمر. أنتم من عليه أن يدمرها. ولكن متى؟ سوف نقول لكم متى، حينما يحين الأوان. هل أنتم موافقون؟...

كانت الأصوات تتردد في ذهنه، وهو يقترب من قسطل المشط:

نعم... نعم... نحن معكم، اللعنة على العثمانيين الكلاب، الله أكبر، إنّنا ننتظر على أحرّ من الجمر، كذا وكذا في أمّ القطارات، سوف ننسفها...

وكأنّ العمال فعلاً قد ركضوا إليه، وحملوه على أكتافهم، أحسّ ببعض الأيدي تلتقطه، وترفعه عن الأرض، ثمّ تقذفه في إحدى العربات. لم يكن قد صحا بعد حينما داسته قدم قوية لرجل جالس على مقعد العربة. كانت الجزمة لامعة وثقيلة. نظر إلى الأعلى إلى صاحب الجزمة. كان الرجل يضحك. وكانت أسنانه القوية الصفراء تطالع صالحاً بكراهية ولؤم، وبفعل المفاجأة ضاع صالح، لم يعرف لمن هذه الجزمة وهذه الأسنان. أحسّ بصرير العربة واهتزازها. تمعّن أكثر في وجه العسكري صاحب الجزمة، وعندما عرف أنّه النقيب حكمت، تيقن تماماً أنّه قد انتهى.

13

صفّر القطار من بعيد وهو يزحف متباطئاً كحيوان طويل ملتوٍ. وما لبث أن توقف وهو ينفث سحابات البخار من طرفيه، وكأنّه قد أُجهد في رحلته، فراح يلهث. صفّر مرّة أخرى، وكأنّه يريد إعلام الجميع أنّ قطاراً آخر محمّلاً بالجنود والذخائر والمدافع والبغال والأحصنة قد وصل. ولم تمضِ دقائق حتّى تحوّلت محطّة مسلمية حلب الهادئة التي تحيط بها البساتين على مدّ البصر بأشجارها السامقة وبقرم المقطوعة منها، تحوّلت إلى ما يشبه مستعمرة نمل أحمر، لسبب ما، خرج من وكره دفعة واحدة.

الجميع في حركة منهم من ينزل من العربات، ومنهم من يصعد إليها، وكأنّه اعتاد الجلوس فيها خلال سبعة أيام من السفر البطيء والمضني، فقرّر العودة إليها. بعض الجنود يهبطون، ثمّ يلتقطون الأكياس المقذوفة إليهم من الداخل، وبعضهم الآخر يركض إلى هذه الجهة، أو تلك لهدف ما، بحركة مضحكة، يصطدمون بالراكضين الآخرين، فيشتمونهم، ثمّ يغيب بعضهم خلف الأكمات أو في الوهدات.

هذا القطار اللعين كم تقيأ! كم من الناس قذف؟ وهو واقف على السكّة يلهث، ويدخن، ثمّ يخطر لسائقه، فيشدّ حبل الصافرة، فتنطلق مدوية لفترة، ثمّ تتوقف ليسمع صدى الصفير راجعاً من التلال الجرداء البعيدة. إنّه يستعجلهم النزول والابتعاد عنه، فلا وقت للتباطؤ، فلن يلبث أن ينطلق من جديد، عائداً إلى الأستانة، لينقل المئات الآخرين المنتظرين هناك بملل، المتثائبين، المستلقين، المتطلعين بأعين ناعسة في الظلال الباردة لجدران المحطة.

ولكن الجنود لا يأبهون لصفارات قطارهم. عليه أن ينتظر قليلاً. فالجياد تنزل، وأكياس الجنود وصناديق الذخائر وأكياس العلف تنقل. وهذه المحطة التي كانت قبل قليل نائمة تحت أشعة شمس حزيران الحارقة، يتراقص فوق سطحها الهواء، وعلى السكّة السّوداء الملتهبة، أصبحت تزدحم بالجنود ذوي البذات الصفراء الخاكية، والوجوه القذرة والذقون الكثّة.

تعالت الأصوات من كلّ مكان. لم تعد العصافير تسقسق على شجرة الصفصاف المسودة من دخان القطارات، ولم تعد الجنادب تصفر صفيرها الطويل

الممل وهي مختفية تحت الأوراق اليابسة، فالوقت هو وقت الجنود، بسبابهم وشتائمهم ولعناتهم وكفرهم. بزعيقهم وصياحهم. بسعالهم وبصاقهم.

وقف الرقيب ربيع الزيات بساقين منفرجتين ويداه خلف ظهره، وقد ضيّق عينيه بسبب توهج أشعة الشمس الشديد، ينتظر انتهاء عملية تفريغ القطار. كان يقضم شاربيه بهدوء دون نزق، إن من يراه من بعيد يحسبه رجلاً في الثلاثين. طويل، عريض الكتفين، أبيض البشرة، إنّه رجل قوي، زادت من قوته الحرب نفسها. من كان يحسب أنّ ربيعاً الذي لم يبلغ التاسعة عشرة قد تحوّل إلى رجل يهابه جنوده ويخافون بطشه؟ إنّهم يرنون إليه، وهم ينزلون، أو يصعدون، أو يركضون، أو يقرفصون خلف الأشجار، وقد أنزلوا سراويلهم.

كان الضجيج يصمّ الآذان. فالقطار عاد إلى صفيره الطويل، وزعيق الجنود قد تعالى، وكأنّهم وفّروا صياحهم إلى حين وصولهم. كلّ ذلك وربيع الزيات واقف وقفته تلك مضيّقاً عينيه، ينظر بثبات إلى الجموع المتحركة بلا انتظام، وكأنّه ينظر إلى شيء بعيد لا يثر الاهتمام. ولكن هذه النظرة ضرورية لأمثاله. أن يقف الرقيب منفرج الساقين جاعلاً يديه خلف ظهره، هو ما يجب أن يفعله في مثل هذا الوقت. يجب على الجنود أن يحسوا بوجوده دائماً. هكذا علّموه، وهكذا استمرّ أو هكذا يفعل الآن. ربيع الزيات رقيب قوي ومحارب عنيد، يقتل الإنكليز كمن يصطاد العصافير، ويبطش بالجنود المذنبين بيده، كمن يدقّ على لوح من خشب، لا يحسّ ولا يتألم. إنّه ابن الجيش، ابن الأستانة العظيمة وليس ابن أم ربيع المسكينة التي أصابها السل في غير وقته.

سمع أحد الجنود يصيح:

– ألن ننتهي يا ملعون، لعنة الله على هذه الصناديق؟

فأجابه من كان يناوله صناديق الذخيرة.

– خذ هذه أيضاً، ربما تحتاج إليها يوماً من الأيام.

– وما حاجتي إليها؟ ... آ... ؟ إن كل ما أنا في حاجة إليه هو امرأة بدينة تدعوني إلى بيتها.

– ولماذا بدينة يا أجرب؟

- لأنني مللت النوم في الخنادق وعلى الألواح الخشبية. أنا لا أملك عجيزة هائلة مثلك تجعل الجلوس والنوم مريحين.

فتدخل جندي ثالث يحمل صندوقاً على ظهره، وقد تصبب العرق من وجهه.

- وهل تريد المرأة كي تنام عليها يا غبي؟

- لا... ردّ الجندي الأول. لكي أجد الفارق بينك وبينها.

فنهره الجندي الثالث قائلاً:

- هيا كفى، استلم صندوقك، واركض به، علينا أن ننهي التفريغ لنستريح!.

حمل الجندي الصندوق، ونقله إلى إحدى العربات، ثمّ عاد. راقبه ربيع الذي كان يستمع إلى المحادثة برغبة شديدة، أراد فعلاً أن يعود الجندي إلى ثرثرته، فهذه التعليقات تجذبه وتسليه، إنّها تجعله يتحمّل فظاظة الجيش وفظاظته هو. تجعله يعرف أنّ هذه المخلوقات تتناقش، وتمرح، تقاتل، وتصالح، تشتهي، وتمقت. وعندما كان يسقط أحد الجنود مقتولاً أثناء الهجوم على خنادق الإنكليز، يتذكر ربيع مزاج ذاك الجندي وأقواله وشتائمه، مثلّما يتذكّر أنّه كان فرداً عليه أن يقتل أو أن يُقتل.

هذه الأمور هي من أعاجيب الحرب، إنّه يعرف ذلك، ولكن العجيب الأعظم هو أنّ الجنود يمرحون، في أشدّ الأوقات رعباً. ربّما لأنّ شبح الموت في الخنادق يجعلهم يفعلون ذلك، ربّما لأنّهم يريدون إخفاء خوفهم وهلعهم وتبولهم في سراويلهم. أو...، وهذا احتمال لم يعجب ربيعاً كثيراً، ربّما أنّ جنوناً ما يسيطر على الجنود والقذائف، تنهمر عليهم، فيصبح الموت شيئاً لا معنى له أو شيئاً يدعو للسخرية.

هذه الأمور بدأ يعرفها، حينما أصبح رقيباً، في الماضي لم يكن يراقب تصرفات الجنود، بل كان يفعل مثلهم، ولكن ما إن رفّعوه إلى رقيب بسبب أسره كابتن إنكليزياً، حتّى بدأ يلاحظ أنّ الجنود يفعلون، هذا ولا يفعلون ذاك. ما إن جعلوه رقيباً، حتّى أصبح أعند وأشرس، وبدأ ينظر إلى الجندي بطريقة جديدة لا يعرف من أين أتته.

سأل الجندي صاحب العجيزة الكبيرة الجندي الأوّل ضاحكاً:

- ها ... ها ... قل لي يا أبو حميد، ما هو الفرق بين البدينة والنحيلة.

أصغى ربيع جيداً كي يعرف الرد، استند الجندي بمرفقه على عربة القطار

ومسح عرقه، وقال:

- الله أعلم، يبدو لي أنه كالفارق بين أن تستلقي في فراشك أو تنام على صناديق الذخيرة الصلبة.

توقف عدد من الجنود، وجعلوا يمزحون مع الجندي الأول الذي يدعى أبو حميد:

- ومن أين أتاك كلّ هذا الذكاء؟

- يبدو عليك أنّك مجرّب كبير، كم من النساء ضاجعت في حياتك آ...؟

- اسمعوا يا شباب، أمامكم رجل خطير، ابتعدوا عنه أثناء النوم.

ثمّ قال أحد الجنود، وكان قد أطلق لحيته، فبدا كالشيوخ:

- اتركوه يا أولاد! دعونا نستمع إليه، قل لي يا أبا حميد، كم مرّة كنت تغتسل في الأسبوع قبل الحرب؟

حكّ أبو حميد قذاله، ثمّ بصق على يديه، وفركهما، ثمّ قال:

- هل تريد الصدق يا شيخي؟ مرة واحدة والله العظيم.

- مرّة واحدة فقط؟ أحمد الله أنّ زوجتك لم تطلّقك بعد.

- زليخة لا تحبّ هذه الشغلة، إنّها تهرب منها، كلّ يوم خميس كنت أشتري لها حلاوة كي أغريها، حتّى أنّها أصبحت تعرف ما معنى أن أعود إلى البيت مساء ومعي الحلاوة، مرّة يا شباب قالت لي، يا أبو حميد لقد كرهت الحلاوة، لماذا لا تشتري لنا بقلاوة؟ فسألتها إن كانت البقلاوة ستجعلها تحبّ تلك الشغلة أكثر، فقالت، ربّما، في الخميس التالي ذهبت إلى السوق، واشتريت قليلاً منها، وعدت إلى البيت. قلت لها، هيّا. فقالت، انتظر حتى آكل من البقلاوة. بقيتْ طيلة الليل تتوجع من قلبها، وتبكي، وتذهب إلى المرحاض. لعنة الله على البقلاوة، لن أشتريها مرّة أخرى. هل أعجبتك قصتي يا شيخي.

غرق الجنود بالضحك، مشى ربيع نحو مبنى المحطة، وهو يبتسم. كانت حركة الجنود تهدأ رويداً رويداً. كان شيرزاد جالساً بين عشرة من الجنود تحت ظلال شجرة صفصاف. عندما اقترب ربيع منهم خفتت أصواتهم، كانوا يتناقشون حول الحرب، دعا شيرزاد ربيعاً للجلوس معهم إلاّ أنّه اعتذر، واتّجه نحو المبنى، ودلف

في أحد الأبواب.

سأل شيرزاد بلغته التركية الركيكة أحد الجنود:

– عن ماذا كنت تسأل؟

– كنت أسأل عن سبب مجيئنا إلى هنا، الجبهة بعيدة عن حلب، فلماذا نحن هنا؟

فعلّق أحد الجنود، وكان مستلقياً على التراب، مسنداً جذعه على كوعه:

– ربّما اقتربت الجبهة من حلب بعد أيام.

– هذا كلام معقول. وافقه شيرزاد، فقال جندي آخر بدا في الخمسين ألحقوه بسريتهم في الأستانة:

– يقولون إنّ الإنكليز سيضربون باتجاه حلب بعد أن احتلوا بغداد، خصوصاً وأنّ الطريق من بغداد إلى حلب، كما قال لي أحد الرقباء المرافقين لأحد الضباط الكبار، والذي كان عائداً من العراق، أنّ الطريق فارغة من الجنود الأتراك، لأنّ الجميع يهربون من مواجهة الإنكليز. قال أيضاً إن العرب يهربون أولاً ثم يلحقهم الأتراك. لا أعرف لماذا؟ ولكن إذا حدث، وانخرطت أورطتنا في المعارك، فسأهرب أنا أيضاً.

قطب شيرزاد، لم يعجبه هذا التصريح، حاول تجاهله إلا أن أحد الجنود سأل الجندي الغريب:

– وأين كنت تخدم قبل أن يرسلوك إلينا؟

– كنت أحارب في ارضروم ضدّ الروس. لقد انكسر جيشينا أمامهم، فاحتلوا المنطقة، وهم يهددون الآن ديار بكر، وربّما تكون قد سقطت الآن.

كان الجميع يستمعون إليه من دون أن يجرؤ أحد على التنفس، من هو هذا الرجل؟ وهل ما يقوله صحيح؟ إلاّ أنّ الجندي كان قوي الإقناع. فقد كان غريباً والغريب من أمثاله يكون مقنعاً أكثر مما لو أنه معروف، ويبدو عليه شيء ما يجعل الآخرين يصدقونه، ويلتمسون رأيه. إنّه متعلم، وابن مدينة، ليس فلاحاً مثلهم، لم يكن ساذجاً يطلق الأسئلة، ولا يجد أيّة إجابة عليها.

سأله آخر:

– ولماذا أخذوك من أرضروم، وأتوا بك إلى جيشنا؟

طلب الرجل سيجارة من جندي، كان يلفّ واحدة لنفسه، فقدّمها له. أشعلها من عقب سيجارة أحدهم، ثمّ قال:

– كانت أورطتنا قد دخلت في معركة عنيفة مع الروس، فهلك نصفها، وتراجعت عن القرية التي كانت تحميها، كسبت الفرصة، وهربت في الليل. سرت باتّجاه إيران، وعندما أصبح الصباح، تيقنت أنّني سرت في الاتّجاه المعاكس، فقبضوا عليّ. لم أستطع أن أبرّر سبب وجودي قرب مقر قيادة إحدى الفرق. أخذوني إلى السجن وجلدوني، ثمّ نسوني هناك ثلاثة أشهر، بعد ذلك أرسلوني إلى الأستانة مع بعض الجنود من أمثالي، فألحقونا بجيشكم.

سحب نفساً طويلاً من سيجارته وهو يستطلع وجوه رفاقه. ليست هي المرّة الأولى التي يهرب فيها من الجبهة. بل كان قد ترك بندقيته مسنودة على جدار أحد بيوت البصرة، وهرب منها أثناء نزول الإنكليز من البحر، إنّه رجل عنيد مشاكس رغم كلّ هذا الاطمئنان والهدوء المسيطرين على تصرفاته وأحاديثه. اسمه حلمي وهو شركسي، كان يعمل في معالجة المرضى بالأعشاب. رجل لم يحبّ الحرب يوماً من الأيام. ليس هذا فقط، بل إنّه من الرجال الذين يتحدّثون عن هروبهم من الجيش بحيوية، ويتحدّثون عن هروبهم المقبل، وكأنّ الخدمة في الجيش العثماني شيء اختياري يحق لك أن توافق على البقاء فيه أو تركه في أيّ وقت تريد. قدّموا له سيجارة أخرى. أعجبهم شخصه لأوّل مرّة يتعرّفون على مثل هذه النماذج، في الماضي حينما كانوا معسكرين في منطقة سالونيك مع البلغار، كان الحديث عن الهرب من الجيش، مجرد الحديث عن ذلك، يؤدي بالشخص المتحدث إلى ربطه إلى جذع شجرة، وجلده. وهذا الشيء جعل شيرزاد بالذات يحدج حلمي بنظرات غير طيبة. سأله حلمي بتحد:

– لماذا تنظر إليّ، وكأنّني كلب أجرب؟

تململ شيرزاد، ونظر إلى جندي كردي من جماعته، وقال:

– أنا لا أحبّ الخونة والجبناء.

فقال حلمي بصوت بارد كلّه سخرية:

– يبدو لي أنّني أجالس بطلاً شجاعاً لا مثيل له، إن كنت تخجل من جلوسك معي، فانهض، وانقلع من هنا. ما إن قال حلمي ذلك حتى نهض شيرزاد واثنان من جماعته مستعدين للعراك، تصايحوا، وعلت شتائمهم. استيقظ من غفا على الصراخ، ثمّ تجمّع الجنود حول شجرة الصفصاف حيث كان حلمي محاطاً ببعض الجنود يرد على شتائم شيرزاد وجماعته، وفجأة لمس شيرزاد بيده ذقن حلمي لمساً استفزازياً، فوجّه الأخير لكمة قوية إلى وجه شيرزاد، فانقذف إلى الجنود، ثمّ ضاع الحابل بالنابل، سمع الضباط من داخل مبنى المحطة أصوات العراك والصراخ، فنهضوا يستطلعون الأمر، هرعوا إلى الخارج، كان عشرة أشخاص يتضاربون بالأيدي بينما باقي الكتيبة قد التفوا حولهم في حلقة، وراحوا يشجعون هذا على ذاك. كان الجنود يهلّلون للكلمات التي تنهال على شيرزاد، لأنّه كان مكروهاً. وبصعوبة شديدة استطاع الضباط إيقاف العراك وتفريق الجنود، وقاموا بسحب حلمي إلى داخل المحطة.

بعد ساعة من طرح الأسئلة والتداول، قرّر الضباط أنّ حلمي هو المذنب فقرّروا ضربه خمسين عصاً على قدميه على أن يقوم رقيبهم ربيع الزيات بذلك حينما يستقرّون في الموقع الجديد.

مرّة أخرى، وصل قطار محمّل بالجنود والأعتدة والأحصنة، توقّف في محطة مسلمية حلب، ونزل منه الجنود يضجون، ويمرحون، ويتعاركون، وما إن مكثوا قليلاً كي يتسنى لهيئة أركان الجيش السابع تحديد موقع تمركز الكتيبة، ثمّ انطلقوا بعد أن كانوا قد اصطفوا، حتى كانت أرضية المحطة، قد تحولت إلى ساحة ملآنة بالقاذورات وبقايا الأطعمة وروث البغال والأحصنة.

ومرّة أخرى. ما إن انطلقت الكتيبة، حتى خرجت النسوة الملتحفات بملاحف سوداء مصفرة من خلف البساتين، وهن يتفحصن وجوه الجنود علّهن يجدن أزواجهن أو أبنائهن. ولكن... أواه أيّتها السماء، فالجنود كلّهم متشابهون، لهم ملامح واحدة، لذلك تقف النسوة حيارى فاغرات الأفواه، ثمّ ينطلقن راكضات بعد أن يكنّ قد نسين الجنود، إلى المحطة لالتقاط ما قذفه هؤلاء، فتعود الساحة نظيفة لتستقبل بعد يوم أو يومين قطاراً آخر.

تركزت الكتيبة السابعة والسبعون في قرية جبرين شرق حلب، وهي إحدى

كتائب فرقة المرحوم مدحت باشا التي كانت تحارب في بلاد اليونان ضدّ الإنكليز الذين أنزلوا من البحر مع الفرنسيين وأمم أخرى لهدف شقّ الطريق للاتصال بالروس، بعد أن فشلت حملة الدردنيل، ولكنّ البلغار والأتراك الذين كانوا قد تمركزوا إلى الأمام من سالونيك استطاعوا أن يحصروا الإنكليز والفرنسيين في شريط ضيق، سمي بالمعتقل الاختياري لنصف مليون جندي.

وبينما كان مدحت باشا قائد فرقة الأتراك عائداً من إجازته في قريته قرب بورصة يرافقه الرقيب الشاب ربيع الزيات، استدعي إلى هيئة الأركان في الأستانة، وأخبر أنّ كتائبه سوف تسحب من هناك، لتنضم إلى الجيش السابع الذي تقوم الأركان بتشكيله تحت قيادة مصطفى كمال، وأنّه سيكون قائداً لإحدى فرق هذا الجيش الذي عليه أن يتمركز حول حلب، لأنّ الضرورة الاستراتيجية تقتضي تعزيز قوة الأتراك هناك، بسبب زحف الإنكليز من بغداد وفلسطين، وأنّ حلب هي المكان الصحيح والأقرب من كلا الجبهتين.

أرسل مدحت باشا ربيعاً في إجازة إلى حلب، وتابع هو طريقه مع حراسه إلى جبهة سالونيك. وما إن وصل إلى هناك، واستقرّ في مقرّ قيادته حتّى راح يفكّر كيف أنّ الحظ بدأ يبتسم له، وأنّه لم يعد قائداً لقوة تافهة مرهونة بقوة البلغار في هذا المكان الضائع من الحرب العامة، بل أصبح قائداً لفرقة في الجيش السابع. وأين؟ في حلب، في بلاد الشام التي يعبث فيها خصمه أحمد جمال قائد الجيش الرابع. فكّر مدحت باشا، وقال بصوت مسموع سمعه حاجبه الرعديد.. حسناً يا أحمد جمال، سآتي إلى عتبتك، سوف أريك من هو مدحت باشا.

اختلج شيء ما في داخل مدحت باشا وهو يتذكر السبب الذي دفعه لإرسال ربيع الزيات في إجازة، صحيح أنّ الولد قد خدمه جيداً، ويستحق الإجازة، إلا أنّ شيئاً ما جعله يفعل ذلك كي يتسنى له التمتع بجسد تلك الأرملة اليونانية التي كان قد قتل زوجها بيده، وراحت تصاحب ربيعاً هذا، كيف يمكنها أن تفعل ذلك؟ هو مدحت باشا تفضل عليه صبي تافه قام هو بترفيعه إلى رتبة تافهة، ومنحه وساماً تافهاً أيضاً؟ بصق مدحت باشا، وحرّك خصيتيه كعادته كي يزيل عنهما ضغط جسده، وقد قرّر أن يذهب إليها في المساء.

وما إن حلّ الظلام، حتّى ركب مدحت باشا، يرافقه اثنان من حراسه، فاجتازوا الغابة الموحشة التي كانت أشجارها المبلّلة تنثر قطرات المطر التي علقت بها، ثمّ خرجوا من الغابة، ليدخلوا القرية الصاعدة، على التل ببيوتها البيضاء المتوجة. نزل عن حصانه أمام بيت فروساكي، وطلب من حارسيه انتظاره في نفس المكان. قرع الباب عدّة مرّات، ثمّ انتظر، وقف ينتظر المرأة كي تفتح له. مدّ يده وحرّك خصيته، كان يشعر بألم البواسير في أسفله، لعلّها لن تنزف في هذا الوقت، فعليه أن يبدو نظيفاً لامعاً.

سمع صوتاً نسائيا متحشرجا يسأل عن الطارق. قال، أنا. بصوته العميق الخشن. لسبب ما لا تعرفه فروساكي خفق قلبها، وحسبت أنّ ربيعاً هو الطارق. أسرعت، وفتحت الباب، وما إن شاهدت مدحت باشا، حتّى تذكّرت أنّ محفوظاً صديق ربيع الذي كان يختبئ في المطبخ مع كأس من العرق، كان قد أخبرها أنّ مدحت باشا قد عاد، وأنّ ربيعاً ذهب إلى بلده في إجازة. كيف نسيت ذلك ففتحت الباب؟

دخل مدحت باشا، وأغلق الباب من دون أن يستدير. مشى يلحق فروساكي التي كانت تتراجع أمامه، ابتسم لها بلطف، خطّط له مسبقاً. إنّها هي، هي نفسها بثيابها وعصبة الرأس السوداء، نَمِرَة شهية تأكل الرجال أكلاً. لعنة الله عليك يا أيها الحلبي، كيف تعرف طعم فمك. قال لها وهو يسبقها إلى غرفتها:

– هيا، قولي لي الحمد لله على السلامة، أم أنني فاجأتك بزيارتي. من يمكن أن يأتي إليك غيري؟

جلس على الأريكة ثم خلع قلبقه وفك أزرار معطفه. حاول أن ينزع بيديه جزمتيه إلا أن كرشه منعه من ذلك. أبقى قدميه في جزمته، وخلع معطفه، ووضعه إلى جانبه، كانت فروساكي جالسة على السرير، تحملق فيه ويداها ترتعشان، حمدت الله أنّ محفوظاً لم يرحل قبل وصول هذا الدب، ماذا يريد؟ لقد أفهمته أنّه لن ينالها، لقد أقسمت على ذلك أمامه وأمام نفسها، ثمّ أنّ الناس لا يؤخذون هكذا، يقتل زوجها أمام عينيها، ثمّ يأتي إليها بكلّ وقاحة وقلة أدب، حتّى أنّها بدأت تشعر بخوف على ربيع، حبيبها الجميل الذي لا تجد الشجاعة في رفض مدحت باشا إلا بسببه. رفع

إليها عينيه وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه السمين، قال لها:

– أرجو أن تكوني قد نسيت كرهك لي أثناء تغيبي. لقد افتقدتك، ليس هناك من امرأة في هذا العالم تضارعك، هيا تعالي إلى جانبي، قولي لي ماذا تريدين مني، سأحضر لك معطفاً من فرو الثعالب في المرّة القادمة. (لا يعرف من أين خطرت له هذه الفكرة، فلم يكن قد فكّر سابقاً بالمعطف).

– لا أريد منك شيئاً، لقد قلت بنفسي إنّني أكرهك فلماذا عدت مرّة أخرى. أنا أكرهك حقاً يا مدحت باشا.

حرّك سبابته على فتحتي أنفه الضخم، وهو يشرق، تابع الابتسام كي لا يفاجئ نفسه بتصرف لا يليق مع امرأة متمردة. قال لها بهدوء وبطريقة الرجال العظماء:

– لا أحد يقول لنا مثل هذا الكلام، ثمّ إن كنت تفضلين عليّ ذلك الصبي بهذا الشكل، فأنا أستطيع أن أعلّق مشنقته على باب بيتك. كوني عاقلة، وتعالي إلى جانبي.

انفجرت فروساكي بضحك قوي وداعر، أرادت أن تظهر له ألاّ فائدة من هذا الذي يفكّر فيه. ضحكت طويلاً، ثمّ صفقت على فخذيها، وقالت له:

– ولماذا لا تعلّق مشنقتي أنا؟ من سيسألك عن مصير أرملة حقيرة مثلي، وهل تريد أن أجد لك سبباً معقولاً لذلك؟... آ؟ ... إذن خذ!

من مكانها على السرير بصقت عليه، أصابته في وجهه، ها هي تفعلها للمرّة الثانية، أيّة امرأة هذه. مسح البصقة عن وجهه وثيابه، ثمّ نهض، اقترب منها، وهو يفكّ حزام بنطاله، وقف أمامها، ثمّ أنزله إلى أسفل فخذيه، فبان عريه. قرّر أن يغتصبها، ولتفعل ما تفعل. مدّ يده، وخلع عن رأسها عصبتها، ثمّ أمسك بقبضته شعرها، ورفعها إليه، حاول أن يقبّلها، منعته، إلاّ أنّه أمسكها باليد الأخرى، فثبّت رأسها، وراح يقبّلها، كانت فروساكي تضربه بقبضتيها، وتصرخ، أنت يا ابن العاهرة، كن من تكون لن أسلمك نفسي. ضربته أيضاً في وجهه وأنفه وعينيه. حاول أن يقبّلها من فمها، إلاّ أنّها أغلقته بإحكام، قبّل عنقها، وهو يعصر نهديها بيد حديدية. أحسّت أنّها ستضعف، فقد أمسكها من يديها، يمنعها من ضربه، وعندما بحّ صوتها

من الصراخ، وأحسّت أنّه سيقلبها على السرير، ويأخذها، نهشت عنقه بأسنانها. حاول التملص من أسنانها من دون جدوى. صفعها، ضربها، عصر نهديها، إلاّ أنّها لم تتركه. أحسّ أنّ قطعة من عنقه سوف تنهش، آلمته كثيراً، قبض على عنقها، وشدّ عليه علّها تتركه، ازداد الألم، فشدّ قبضته أكثر فأكثر، وعندما شعر أنّه سيفقد وعيه بعد لحظة، انفكّت أسنانها عنه.

لم تكن فروساكي قد استسلمت له، أبداً... فعندما دفعها إلى السرير سقطت عليه جثة هامدة. نظر إليها، لقد خنق المرأة. كانت عيناها جاحظتين وفمها يقطر من دمه ويسيل على ذقنها المزرق، وعندما دخل محفوظ حاملاً بندقيته يحجل كالبطة، تفوح منه رائحة العرق، كان مدحت باشا يرفع بنطاله ووجهه يطفح بالرعب والألم، ليس هذا فقط، بل إنّ طيف إنسان لمح له على عتبة الغرفة. وبلمح البصر تجمّد مدحت باشا وهو يرى فوهة البندقية. من أين خلق هذا؟ إنّه أحد جنوده، عرفه من بدلته، ليس عفريتاً ولا جنياً، انشقّت الأرض، وخرج منها. صاح محفوظ شيئاً لم يفقهه مدحت باشا. لماذا يزعق هذا الإنسان؟ ربّما لن يطلق النار، فأنا مدحت باشا، فهو مدحت باشا، من يطلق النار على مدحت باشا؟ وعندما كان يبتلع ريقه، ويحسّ بضربات قلبه تصل إلى رأسه، توهجت فوهة البندقية. أفرغ محفوظ أربع رصاصات في رأس مدحت باشا، وهو يسبّ، ويشتم، ويبكي، ويشرق أنفه، وعندما عاد ربيع من إجازته بعد شهر علم بالأمر، وعلم أيضاً أنّهم قبضوا على محفوظ بالجرم المشهود، وأنّهم من دون أن يحاكموه، نصبوا خازوقاً وخوزقوه عليه.

* * *

ما إن استقرّت الكتيبة في قرية جبرين، فنصبت الخيم، وتوزع الضباط على بيوت الفلاحين، حتى بدأ الجنود يعيشون حياة رضية هادئة، لا يعكر صفوها سوى بعض التفاهات التي كانوا يقومون بها لتمضية الوقت. بالنسبة إليهم لم تعد هناك حرب. الحرب انتهت منذ أن وصلوا بالقطار إلى محطة سلمية حلب، سحب المياه بالقواديس، وكش الذباب، والجلوس في الظلّ مسندين ظهورهم إلى الجدران الطينية للقرية، وهم يثرثرون بملل هي الأعمال اليومية التي كان الجنود يقومون بها من دون

وعي ومن دون أن يعملوا ذهنهم بها. حتّى أنّهم ولسبب ما، لم يعودوا يتكلّمون عن الحرب، فظواهر الحرب لم تعد بسبب الحرب، بل لأنّ الحياة قاسية، لأنّ العيش في هذا العالم أصعب من جهنم، لأنّ الدنيا هكذا.

ربّما التسلية الوحيدة التي كانوا يقومون بها هي التلاسن. هناك تسلية أخرى . إن نحن سلّمنا أن القيام بذلك يعدّ تسلية . وهي السير كلّ يوم مساء قبيل المغرب إلى جموع النسوة اللواتي يأتين من حلب ومن القرى الأخرى لطلب الخبز العسكري، من جنود الجيش السابع المعسكر حول حلب كإسوارة. هناك يستطيع أيّ جندي أن يمسك بالرغيف، ويجعله قريباً من أنوفهن الواحدة بعد الأخرى، حتى إذا وجد أكثرهن جوعاً أو تلك التي لديها أطفال جائعون ينتظرونها في مكان ما وعليها لحسة جمال، أمرها أن توافيه ليلاً، كي يحضر لها الخبز، فتراها متلهفة تدعو الله أن يحلّ الظلام سريعاً، كي تذهب إليه وهي عارفة تماماً ما سيحصل لها.

هناك شيء آخر جعل الجنود يتناقشون حوله بنشاط أكثر، إنّه موضوع عقوبة حلمي الشركسي الجندي الغامض دمث الأخلاق، حلو اللسان، الذي فعل مرات عديدة ما يتمنّى الآخرون فعله.

هل سيقوم ربيع الزيات بذلك كما يجب؟ أي هل سيضربه فعلاً؟ لم يكن لدى عيوش ورفاقه أدنى شكّ بأنّ ربيعاً سينفذ العقوبة وبقسوة، كما طلب منه، لا لأنّ شيرزاد صديق لربيع، بل لأنّ ربيعاً حسب قول عيوش بالذات، قد تحوّل إلى إنسان شيطاني، قاس، قد تحوّل إلى انكشاري فعلاً.

قال ذلك عن ربيع لحلمي الشركسي بالذات، كان عيوش ورفاقه قد بحثوا عن الجندي الشركسي. وجدوه جالساً على العشب المحترق يدخّن سيجارة، وينكش أسنانه بعود من سنبلة قمح. جلسوا على الأرض الدافئة يستقبلون نسائم المساء الغربية، وجعلوا يتناقشون.

– شيرزاد هذا حقير جداً، لماذا تورطت معه؟ كان عليك ألا تأبه لكلامه. هو نفسه أراد يوماً قتل ربيع، إلا أنّهما أصبحا صديقين. لا تخف نحن معك!

صمت عيوش، فقال صبحي الإسكندروني:

– ربيع هذا لم تفطمه أمّه بعد. إياك أن تخاف منه.

تكلّموا معه ساعة، وكأنّه سيذهب إلى المشنقة في اليوم التالي. قال لهم وهو يضحك:

– أنتم تضحكونني، ماذا حصل؟ سأتركه يضربني عن طيب خاطر، إنه مأمور، ولكنني سوف أفعل كذا وكذا بأم شيرزاد هذا.

– ماذا ستفعل به؟ سأل عبد الكريم وهو يضحك.

– سوف أترك له تذكاراً مني.

فقال عيوش وهو يمسح وجهه بيده:

– انتبه إلى نفسك. دعني أقول لك شيئاً، إننا نكره الأتراك، وأنت ماذا عنك؟

– كيف ماذا عني؟ وهل تريدني أن أحبّهم؟

ابتسم عيوش، وعاد يمسح وجهه بيده مرّة ثانية. قال وعيناه تشعان بسعادة لأنّه نجح في اختراق الرجل بذكاء:

– حسناً، إنّني أثق بك جيداً، سوف أقول لك شيئاً آخر. نحن الأربعة نشكل تنظيماً في هذه الكتيبة. تطلّع حلمي الشركسي في عيوش، ثمّ في عبد الكريم وصبحي، ثمّ في الرجل السمين الذي يدعونه "بطيخة"، شيء ما أضحكه. حملق به الأربعة وخصوصاً السمين. لعلّه لم يصدق، أو لعلّه لا يأخذ الأمر بشكل جدي.

صمت الشركسي دقائق. كان يشمّ رائحة الأرض الحارة وروائح الحصاد التي كانت النسائم تحملها. تطلّع في السهوب الشرقية الممتدة، ثمّ تذكّر عيوش ورفاقه. سمعه يسأله ما به، فقال:

– إذن أنتم تنظيم، وما معنى ذلك؟

– إنّنا تنظيم، بمعنى أنّنا جماعة، لنا آراؤنا ومشاعرنا الواحدة، هناك ضابط في الكتيبة يشرح لنا ما يجري، وقد طلب منا عدم الهرب من الجيش، لأنّ ثمّة مهمة تنتظرنا.

– مهمة؟

– نعم . وتابع عيوش . سوف يأتي يوم ننتفض فيه على الأتراك.

– وما هو اسم التنظيم؟

– الجمعية السورية العربية. كان اسمنا اللامركزيين، ولكن هذا الاسم لم يعد

يعجبنا. السورية العربية أفضل، وهكذا ترى أنّ لنا اسماً أيضاً.

- نعم أرى . قال الشركسي، ثمّ سأل . وماذا تريدون مني الآن؟

لم يجب أحد سوى عيوش، فقد كان الثلاثة الآخرون جاحظي الأعين من قدرة رفيقهم على التكلم بهذه الطلاقة:

- انضم إلينا، وسوف ترى ما سيحدث، سيصيبك الذي يصيبنا!

- ولكنني شركسي، قال حلمي، فردّ عليه عيوش على الفور:

- وما المانع؟

صمت الرجل، فليكن إذن، ولو أنّ الأمر بدا له مضحكاً جداً إلاّ أنّه هزّ رأسه موافقاً، فقد كان يعلم أنّه لا يستطيع المكوث إلى الأبد، بل أنّه سيضطر للهرب عند أول فرصة، فهل سيسأل عندها عيوش إن كان موافقاً أم لا؟...

تصافحوا، ثمّ قرأوا الفاتحة. تركوه، ومضوا إلى ربيع. كانوا مشتعلين حماسة. ها هم يحققون انتصاراً، فيكسبون إنساناً في تنظيمهم، دخلوا في باب في جدار من الطين الأحمر المصفر، كان ربيع مستلقياً على بساط من اللباد، جلس، وأسند ظهره إلى الجدار، وهو يكش الذباب عن وجهه. جلسوا أمامه. ماذا؟ مضى زمن طويل وهم يتجاهلونه، يعتبرونه قد باع نفسه إلى العثمانلية، هذا غير مقبول. زعلوا منه ومن تصرفاته التي توحي بأشياء وأشياء.

سألهم باستهزاء:

- ماذا حصل كي تأتوا دفعة واحدة؟ ماذا حصل؟ هل عفوتم عني؟

انبرى بطيخة قائلاً:

- لم نعفو عنك بعد!

- هكذا إذن؟ قال ربيع، فردّ عليه بطيخة أيضاً:

- نعم ... وإذا لم تفعل الذي سنقوله لك الآن، فسوف...

ضحك ربيع من طريقة الجندي السمين في الكلام. قال عيوش بطريقته المباشرة:

- انظر... هناك أمر، أنت تعرف ذاك الشركسي الذي طلبوا منك ضربه خمسين عصا على قدميه، لأنّه تصارع مع شيرزاد، أليس كذلك؟

– نعم، وما علاقتكم بذلك؟

– أطلب من الضباط العفو عنه!

– لا أستطيع، فقد كان يدعو للهرب بشكل صريح.

– بل تستطيع.

– لا أستطيع والله العظيم.

كان وجهه ينبئ أنه صادق. حسناً، لقد أقسم بالله العظيم، إنه يريد أن يعودون أصدقاء كما كانوا أيام الخنادق، ولكن هل يمكن؟ لقد تغير شيء فيه، أصبح مقرباً من الضباط الأتراك، ومن يتقرب منهم فقد خان أهله.

قال ربيع وهو يطالعهم الواحد بعد الآخر:

– إن كان يهمكم الأمر فسأتناسى الموضوع، وربّما يكون الضباط قد نسوه فعلاً.

اتفقوا على ذلك. تصافحوا، وقرأوا الفاتحة مرّة أخرى. لم يعانقوه. اكتفوا بالمصافحة، ثمّ نهضوا، وخرجوا مسرعين. ساروا بخطوات سريعة لم يستطع السمين مجاراتهم بها. كانوا يحرّكون أياديهم بتناغم مع مؤخراتهم. كانوا سعداء. عادوا للجلوس مع حلمي الشركسي، ثمّ تحدّثوا معه همساً عن الاتفاق. كانوا يتحدّثون وهم سعداء، وكان حلمي يهزّ رأسه وعيونه تطالع السهوب الشرقية ساهمة بالبعيد تختزن شيئاً ما لا يمكنه البوح به.

* * *

لم يستطع ربيع أن يتحصل على إجازة لزيارة أهله، إلاّ بعد أن فرغ الضباط من ارتياد حلب، وحلب بالنسبة للضباط والجنود في ذلك الوقت تعني الكثير. إنّها خمارة هبّ الريح، ومنزول بحسيتا وبيوت "الملاقاتخانة"، وبيوت أخرى كثيرة تعمل في الخفاء. وكان النقيب سليمان والملازمان مصطفى وعلي يعودون كلّ ليلة قبل الفجر، مخمورين بعد ليلة حمراء، كانوا قد قضوها في أحد هذه الأماكن. بدأ الأمر بعد أن وصلوا إلى حلب بيوم واحد. فلقد دخل النقيب سليمان والملازم علي في رهان على ليرة ذهبية، هل الملازم مصطفى الذي كان يكنى "بالست صفية" رجل أم أنه

فعلاً مخنث؟ هل يستطيع أن يضاجع امرأة أم لا؟ النقيب سليمان يقول إنه يستطيع، فأخرج كلّ منهما ليرته، ودخلا في رهان.

في مساء اليوم لتالي ركبوا، ورحلوا إلى حلب. ذهبوا مباشرة إلى حي بحسيتا، وهو حي اليهود الذي افتتحت فيه حكومة حلب مكاناً رسمياً للدعارة اسمه المنزول. أرادوا الدخول إلا أنّ أحد رجال الجندرمة نصحهم نصيحة لوجه الله:

– يا سادتي أنتم ضباط ولا يجوز أن تدخلوا مكاناً للعامة. اذهبوا إلى دور "الملاقاتخانة".

– وما هي هذه الدور . سأل سليمان آغا، فقيل له:

– إنها محلات راقية لذوي الهيئات والضباط أمثالكم. هيا... تعالوا معي سأدلكم على واحد منها. ساروا خلفه، وقد داخلهم العجب. أيّ تنظيم هذا، لم تنسَ الحكومة شيئاً من هذه الأمور. دخلوا أحد الأزقة. تبعوه بين أجساد النساء المتربعات اللواتي كن يتطلعن إلى بذات الضباط بهلع. كانت تفوح رائحة تفسخ من جثة امرأة عجوز ماتت وهي جالسة. وقف الدليل أمام أحد الأبواب، كان هناك إعلان: ملاقاتخانة نومرو /17/ طرق الباب وبعد قليل فتحته امرأة في الستين. بدينة ترتدي ثوباً مهلهلاً من الدانتيلا، تكلّم معها الشرطي، ثمّ ودّعهم، وعاد. ابتسمت لهم المرأة، وعرّفتهم بنفسها:

– أهلاً وسهلاً، أنا أديبة هانم.

أدخلتهم المرأة، ثمّ راحت تعرفهم على فتياتها، إنّهن فتيات أديبة هانم. أربع فتيات متنوعات، إحداهن أرمنية، أمّا الباقيات فهنّ حلبيات، وقفت الفتيات بثيابهن الخليعة وألوانهن الفاقعة، يمضغن علك الجمل ذات الرائحة النفاذة. أديبة هانم أبدعت في تجهيزهن وتعليمهن. جئن إليها يتضورن جوعاً، أمّا الأرمنية فقد باعها أبوها لأديبة هانم بثلاث ليرات ذهبية، إنّهن ملكها. عرضتهن على الضباط، وهي تكشف سيقانهن وأثداءهن.

سال لعاب النقيب، لم الانتظار؟ أسرع، واختطف يد أجملهن. كانت شقراء في السادسة عشرة ترتدي ثوباً احمر موشى بالدانتيلا. أطلقت الفتاة ضحكة داعرة تثير حتى التيوس، والتصقت به. نظر علي إلى الباقيات. كان يشعر أنّه مصعوق وأنّه

مفتون، إنه يشفق عليهن ويشتهيهن. دفعت إليه أديبة هانم بفتاة سمراء ذات شامة مصطنعة على خدها ترتدي ثوباً موشى أيضاً بالدانيتلا. لقد اكتشف أن أديبة هانم تحب أن تتجمل هي وفتياتها بكثير من الدانتيلا. أمّا "الست صفية" فكان من نصيبه الثالثة، هو الذي ذهب إليها، والتقط يدها، وجرّها إليه. ترك الأرمنية، وانتقى السمراء الثانية. وقفت الأرمنية تراقبهم، وهم يتوزعون على الغرف. تنفّست الصعداء. أخرجت علكتها من فمها. وضعتها على الرف بعناية، ثمّ انزوت قرب الزاوية تنظف أظافرها الطويلة من الأوساخ. نسي الضباط الرهان، لم يربح أحد، ولم يخسر أحد. مصطفى ليس بالست صفية. لقد تأكدت فحولته. إلا أنّ الأمر لم يعد بذي بال، ومن قال إنّ الرجل ليس رجلاً؟ حتى أنه جعل يبالغ مع الفتاة السمراء صاحبة الدانتيلا، فكانت تهرب منه صائحة فاقعة من الضحك، وهو يركض خلفها حافي القدمين متدلي اللسان. وما إن عادوا إلى المعسكر بعد منتصف الليل بساعات، مخمورين من الخمور التي كانت تشتريها أديبة هانم من مخازن اليهود صارخين بأسماء فتياتهم، ضاحكين، حتى فكروا كيف سيعودون إلى النمرو سبعة عشر في مساء اليوم التالي بعد أن يكونوا قد ناموا حتى الظهيرة غير آبهين للجيش والحرب، تاركين أمور الجنود إلى رقيبهم ربيع الزيات.

وما إن فكّر ربيع في أن يذهب دون إذن إلى حلب ليرى أهله بعد أن زهقت روحه، حتى عرضوا عليه إجازة ليومين أو ثلاثة. كان الضباط قد ملوا أديبة هانم وفتياتها، قالوا له، يا ربيع لماذا لا تنزل إلى حلب؟ اذهب وشف أهلك، ثمّ أعرج على بحسيتا لتزور أحد البيوت الذي اسمه ملاقاتخانة نمرو 17 هناك ستجد فتاة أرمنية جميلة ولكنها متوحشة، لم نستطع أن نقترب منها ولكنك تستطيع أن تروضها.

لعنهم في سره، ثمّ ركب حصانه، وسار خبباً. الآن سيرى عائشة، سيأخذها بين ذراعيه لن يذهب إلى بحسيتا. هذه الأمور لا تعنيه. ماذا حصل يا ترى في بيتهم؟ راح يسأل نفسه. حبسوه مع مئتي جندي أخرق تحوم حولهم ألف امرأة. الحمد لله أنه أخذ من مدحت باشا عشرين ليرة ذهبية قبل أن يقتله محفوظ. ماذا كان سيحدث لأمّه وأخته وأطفالها وزوجته لو لم تكن هذه النقود؟ هل كن سيتسولن، ويبعن شرفهن؟ نفض رأسه كي يبعد عنه هذه الأفكار، إنّه ممتن لمدحت باشا،

بالرغم من أنّه يخجل من العمل الذي قام به، واستحق عليه عشرين ليرة. ولكن هذه الأمور لا تعنيه. المهم أنّها حفظت شرفه.

وصل إلى الالمه جي، ومن هناك انعطف في شارع الماوردي. كانت الطريق فارغة تماماً. لا رجال ولا نساء ولا أطفال. كان الماوردي قد هجر. أين الناس؟ تطلّع حوله، تأكد من خلو الطريق، شعر بالضيق وبشدة حرارة الشمس، خلع قبعته، ومسح العرق عن رأسه، وهو يهمز للحصان بنعومة. وعندما وصل إلى بيت الزيات، فغر فاه. توقف مشدوهاً. كان الباب محطّماً والقذارة تعلو الدهليز. انحنى، ونظر إلى الداخل. كانت النوافذ محترقة وسقف الغرفة المواجهة قد احترقت. توقف صامتاً لحظة وذهنه يضج بمئات الأسئلة، وفجأة فجّ الدم في رأسه، وأحسّ أنّه يكاد يختنق. خرج مسرعاً، واتّجه نحو جامع سوق الصغير. هناك كانت عشرات النساء يفترشن الأرض وهن يتوجعن، ويبكين. سمع ثلاث أو أربع نساء يقلن بوتيرة واحدة وبصوت واهن ضعيف:

– جوعانة... جوعانة... والله ... جوعانة .. جوعانة والله...!

نزل عن حصانه، وأسرع إلى الداخل. تمسكت به النساء، إلاّ أنّهن كنّ ضعيفات، فلم يعقنه. وقف في حوش المسجد، وصاح ينادي الشيخ حسن المؤذن. فتح الباب، ودخل إلى القبلية. كان المكان ممتلئاً بالأطفال النائمين، تفوح منهم روائح البطون والقذارة نظر إلى الوجوه. كان يبحث عن أولاد أخته من دون أن يفكّر. ولكنّه لم يجد أحداً. خرج إلى النساء، ووقف ضائعاً. اقتربن منه مادات الأيدي. وبعد لحظة كانت عشرات الأيدي الخشنة تحيط به من كلّ جانب.

– جوعانة... جوعانة... جوعانة والله...

صوت رتيب أحسّ بسببه بنزق، شيء ما يعصر صدره، أمّه وعائشة وبهية... ماذا جرى؟

سأل النساء بصوت راجف:

– من يعرف منكن بيت الزيات؟ ماذا حصل لهم؟ قولوا يا نسوان، ماذا حصل لهم؟!

سمع النساء يمؤن كالقطط:

- بيت الزيات احترقوا.

- ماتوا، الله يرحمهم.

- لأ يا أخ، أعطني قرشاً أقول لك الحقيقة... بيت الزيات هربوا أعطني قرشاً أرجوك؟

انحنى على المرأة، وسألها إن كانت متأكدة، شاهد يدها ممدودة إليه وأنفها قد تطاول بسبب الجوع. مدّ يده إلى جيبه فخشخشت القروش. وعند سماعها هجمت عليه النساء دفعة واحدة، أحسّ بالخوف. نهض، وهرع إلى حصانه. امتطاه والنساء يحطن به من كلّ جانب. أخرج من جيبه قطع النقود الفضية فوجدها سبع، قذفها إلى مدخل الجامع فهرعن إلى هناك.

بقيت المرأة التي أخبرته بالحقيقة واقفة، تتطلّع إليه بتضرع. أخرج مجيدياً فضياً وأعطاها إياه.

سألها:

- من أين عرفت أنّهم هربوا؟

- يا سيدي أنا جارتكم، وأنت ربيع الزيات، عاد صهرك جوز أختك من العراق، وأحضر معه امرأة جميلة جداً. وبعد مدّة علقوه الأتراك، فقتل واحداً منهم اسمه الأرغلي، ودفنه في التراب الأحمر، ثمّ هرب هو والنسوان لا أعرف إلى أين، ولكن الجندرمة جاءت، وأخرجت الجثة، وأحرقت البيت، وأحلت دم صهرك.

وهي تتكلّم تذكّرت أنّها حصلت فعلاً على مجيدي فضة. استدارت وجعلت تركض. بقي ربيع واقفاً لدقيقة فشعت في ذهنه خاطرة: إنّهم في بيت أبي حديدة!

14

أحسّ ربيع الزيات وهو يجتاز أقيول التحتاني، أنّ حصانه لا يتجاوب معه، فلكزه مرّة أخرى، وهو يمسح عرقه المتصبب عن جبينه وصدغيه. كانت الشمس تسطع بقوة وأحسّ أنّ الحصان قد أرهق، ولكنّه يريد الوصول إلى زقاق الطويل بأسرع ما يمكن. راح الحصان يطرق بحوافره الطريق الصاعدة إلى المطحنة البخارية بنزق، وهو ينخر، ويقذف رأسه إلى الأعلى وإلى الخلف محاولاً من دون جدوى الوصول إلى يدي راكبه كي يعضهما. عندما وصل ربيع إلى المطحنة كان هناك جمهور كبير من النساء والشيوخ جالسين على الأرض. إنّهم ينتظرون بأمل أن يوزعوا عليهم مقداراً من الدقيق، إلاّ أنّ هذه العادة لم تكن متأصلة يوماً من الأيام، سار بين الجمهور، فلفتت انتباهه شواهد قبور جبل العظام شيء ما دفعه للظن أنّ هذا الجبل قد يكون قد احتوى عظام أحد أفراد أسرته، وإلاّ فلماذا شعر بقلبه يضرب ضربات غريبة وبخوف عميق يقبع في صدره؟ هكذا إذن، هل ماتت أمّه أو أخته أو زوجته عائشة؟ هل متن حرقاً أم أنّ المرأة التي أعطاها مجيدي فضة قد أصدقته القول...

ضغط على جنبي الحصان بفخذيه، ثمّ راح يحرّك وركيه مستعجلاً حصانه المرهق. انعطف إلى اليسار بصعوبة بسبب الناس الجالسين. زفر هماً وهلعاً وهو يتجنّب الأكوام البشرية الجائعة الصائحة. كاد حصانه يدهس رجلاً مسناً فقد القوة على تحريك نفسه منذ أمس الأول. عرف بحدسه أنّ الناس باتوا يتجمعون حول المطاحن والثكنات ومواقع القوات. وعندما تمسكت امرأة حاسرة الرأس بلجام حصانه تصيح بصوت رفيع: أعطني قرشاً... أعطني قرشاً! جذب اللجام بقوة، ثمّ صفع كفل الحصان، فاندفع قاذفاً المرأة فوق الآخرين.

أطلق ربيع شتيمة، ثمّ ابتعد عن الجمهور الجالس. كان الجميع يحدجونه بنظرات حاسدة، حتى حراس المطحنة كانوا يفعلون ذلك. وعندما وصل إلى زقاق الطويل أرخى العنان، فانطلق الحصان في الزقاق الخالي.

كيف كان يبدو ربيع الزيات حينما ترجّل عن صهوة حصانه أمام باب بيت أبي حديدة؟ لا نستطيع أن نقول شيئاً. لم يكن في الزقاق أحد، فلم يره أحد، ولكنّنا

متأكدون أنّه كان أصفر الوجه مرتجف الساقين رغم كلّ ما يبدو عليه من قوة وشباب. ولم يكن قلبه يدق فحسب، بل إنّ ضرباته كانت تنتشر في جسده، وكأنّ لضربات القلب صدى يتردد. وقف لحظة أمام الباب يستجمع قواه. يستطيع أن ينتظر خمس دقائق أخر، إنّه يحتاجها، فالحرّ أيضاً يضايقه، ويحبس أنفاسه. ماذا حلّ بهم يا ترى؟ بماذا يستطيع عقله أن يجيب؟ لم يستطع أن يستقرّ على شيء، ففي رأسه مئات الأشياء التي تضجّ في اللحظة ذاتها. وفجأة سمع الباب المقابل يصرّ وهو يفتح. استدار، فواجه تلك العاهرة التي منحها يوماً قطعة نقود فضية. إنّها هي ذاتها المرأة التي تضاجع الرجال والجنود لقاء قرش واحد بينما حماتها تسكت لها. لاحظ قبحها، فلم تكن متبرجة، بل كانت تنظر إليه وهي مذعورة من شيء ما. تراجعت بهدوء، وأعادت إغلاق الباب. وفرت عليه تحيتها. هكذا فكّر وهو يمدّ يده ليلتقط السقاطة. ولكن ما بها؟ هل جنّ الجميع؟ هل إنّ اصفرار الوجوه أصبح شيئاً طبيعياً في هذا البلد؟ طرق الباب وبعد لحظة سمع صوت خطوات بطيئة وصوت ضعيف متحشرج يسأل عن الطارق. عرف أنّها عائشة، أسرع وناداها. قال لها افتحي يا عائشة أنا ربيع. كان يبتسم وقد زال عنه اصفرار الوجه. سمع قرقعة المزاليج، ثمّ انسحب الباب، فشاهد عائشة النحيلة في ثوب للنوم دعك لسبب ما. هذه ليست عائشة. صفراء الوجه، نحيلة، محمرة العينين ومؤطرتين بدائرتين سوداوين. يا إلهي، مدّ إليها يديه ليلتقطها، فقد شاهدها كيف تتقلب عيناها، وتلتوي ساقاها، وتشرع في السقوط. حملها، ثمّ أغلق الباب بقدمه ومشى بها إلى الداخل. أمام باب إحدى الغرف وجد امرأة واقفة وقد ضمّت ساعديها على جيدها العاري غير آبهة لسفور وجهها وعري ساعديها. امرأة جميلة لم يرَ مثيلاً لها في حياته كلّها. ليست كفروساكي أو كعائشة أو كأيّة امرأة أخرى. جميلة بشعرها الأسود المهمل وبعينيها الباكيتين.

ماذا حدث؟ صاح مرّة ومرّة أخرى. أشو صار؟ وضع امرأته على فراش جلس عليه ولدا أخته بهية، وجعل يبحث في الدار عن أمّه وأخته. وبعد ساعة، جلس على إحدى درجات السطح، يلفّ السجائر، ويحرقها وقد عاد إلى وجهه مزيج من اللونين الأصفر والأبيض. ما إن دعتها صبيحة حتى هرعت بهية ليلاً إلى بيتها كي تقابل

أحمد آغا. كانت جميلة بيضاء الوجه، محمرة الخدين تفوح منها رائحة زهر العسلية ورائحة الكاز. دفعتها صبيحة داخل غرفتها، ثمّ أغلقت الباب. وقفت في العتبة خجلى غير عارفة أين تضع يديها. رفعت عينيها، فشاهدت أحمد آغا ينهض عن الأريكة، ويقترب منها، دقّ قلبها مسرعاً. آه كم تدق القلوب هذه الأيام، عنيفة، خائفة. عقدت أصابعها فيما بينها. لاحظت قذارة بلاط العتبة، ثم ميزت الثقوب في أحجار البلاط، ثمّ شاهدت ظلّ أحمد آغا الجميل يغطي الثقوب. ماذا تفعل؟ إنّه قادم، بوجهه الجميل الحليق والمستدير والذي تفوح منه رائحة صابون الغار والشبع. نزل أحمد آغا إلى العتبة ووقف إلى جانبها. يا إلهي كم هو طويل. يجب عليها أن ترفع رأسها لتنظر في وجهه، وهذه مشكلة، لأنّ رقبتها قد تصلبت أو هكذا راحت تحسّ، مدّ يديه، وأمسكها من ذراعيها. أسبلت يديها، فوجدت حلاً لهما، أدارها إليه، ثمّ رفع يديه، وبسبابته رفع رأسها، وراح يتملّى وجهها المطلوس بمسحوق الطباشير.

- أهلاً بك يا بهية. خفت أن لا تأتي.

سمعته يقول ذلك بصوت رخيم وخافت. عندها رفعت إليه عينيها، فقطّب حاجبيه لجمال عينيها. ها هو مرّة أخرى، في المرة الماضية لم تميز تقاطيع وجهه ولا عينيه العسليتين ولا شاربيه الأشيبين الجميلين. بقيا مدّة هكذا، واقفين في العتبة، ونور مصباح الكيروسين يفرش ظليهما على باب الغرفة.

اقترب منها أكثر، ثمّ همس في أذنها:

- أنا أحبّك يا بهية!

أغمضت عينيها، وقد أحسّت بلذة اقتراب بشرته من بشرتها، دغدغتها حركات شفتيه وشاربيه، ألصقت وجهها بوجهه، وهي تحسّ بارتعاشة. ها هو رجل يحبّها. ليس كعمر. من قال إنّه كعمر؟ ذلك النذل الذي حطمها! لم يعد لها ولم تعد له. إن كان هناك رجل في هذا العالم فليكن أحمد آغا. عمر لم يلمسها هذه اللمسة، ولم يهمس لها هذه الهمسة، ولم يجعلها تحسّ بطيف الرجل مرّة واحدة من دون أن تلتصق به كما يحدث الآن. زفرت هواءها الساخن وهي تستجيب ليديه عندما احتضنها. رفعت يديها بهدوء، بهدوء شديد، وقد قرّرت أن تحضنه، قرّبت يديها، ولكنّها حسبت أنّها ستضعهما على جمر أحمر، فخافت أن تلمسه، ثمّ جمعت

شجاعتها، وأطبقت على كتفيه. وما إن فعلت ذلك، حتّى أحسّت أنّها تحترق فعلاً. يداها سليمتان، دافئتان فقط، ولكنّها تحترق هناك، في داخلها، تحت ثيابها، فصدرت عنها آهة ناعمة، نسيت من جرائها كدماتها الزرق وضربات عمر وحبل فريدة. نسيت حرمانها طوال تلك الأيام وهي تطارد النوم والأرق يطاردها. وعندما قبّلها أحمد آغا في عنقها بلطف وليونة، تمسّكت به وهما على العتبة، وجعلت تقبّله بنهم شديد.

حملها على يديه، وصعد بها إلى السرير. وضعها برفق، ثمّ نهض كي يخلع ثيابه. رفضت ذلك، تمسكت به بهية، وجرّته إليها من جديد. هذا ليس وقته. تعال إليّ. ثمّ راحت تقبّله، وكأنّه سيختفي إن توقفت. وعندما أرادت أن تقول له، إنّها تحبّه بل تعبده، بل إنّها تريد أن تسحق نفسها به لم تستطع، ولكنّه فهم هذه الأمور بنفسه. وضع يده على فمها كي يهدئها، فنهشتها بأسنانها. تركها تفعل ما يحلو لها. آلمته يده إلاّ أنّه صبر. وعندما تركت يده شاهد أسنانها وقد رسمت عليها دائرة زرقاء محمرة. مثل كدماتها تماماً. ثمّ غرقا في لجة من صراخها وأنفاسها الحارة وجسدها المسعور. ولم يهدأ إلا قبيل الفجر، بعد أن أنهكته، وأنهكت نفسها، فناما متعانقين.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما أيقظتهما صبيحة بنقرات خفيفة على الباب. وبالكاد استطاعا أن ينفصلا عن بعضهما. ارتدت بهية ثيابها، وخرجت. إلا أن أحمد آغا الذي حسب أنه لن يعود إلا بعد مرور عدة أيام، عاد في المساء وطلب من صبيحة أن تجلب له بهية. أصبحا يلتقيان كل يوم. بعد أن تسقي والدتها جرعة قوية من شراب السقاوة وكذلك طفليها إن رفضا النوم، ثمّ تقوم، فتتجمل، وترتدي ثوبها الوحيد الذي يفوح منه رائحة الكاز، ثمّ تمسح رقبتها وصدرها بزهر العسلية، ثمّ تخرج غير آبهة لنظرات عائشة التي أصبحت هذه العلاقة ترعبها، وتولد لديها مخاوف شتى.

وعندما همست لها عائشة ذات يوم أن عليها أن تعقل مدّت لها إصبعها الوسطى وقالت: لم يبق لعمر إلا هذا. ولكن عائشة لم ترضَ بذلك. عقلها قال لها إنّ ذلك قد يعود عليهم بوبال عظيم، إن استمرت بهية. آن لها أن تتوقف. لم تحسب عائشة أنّ الأمر سيصير إلى هذا. سألت نفسها ما العمل. يجب إنقاذ بهية وإنقاذ البيت. ولأوّل مرّة شعرت أنّ عليها أن تشرك أمّ ربيع أو فريدة في هذا الأمر. بهية لم

تعد تستمع إليها بل أنّها كانت تكتفي بضحكة صفيقة، وتبتعد عنها حينما تقوم بنصحها. قالت لها بهية مرّة إنّها ليست مجنونة بل مجنونة كلّ امرأة ترفض رجلاً مثل أحمد آغا، أو لا تبحث عنه على الأقل أو تتركه يفلت من يديها بعد أن تكون قد حازت عليه. هكذا هي بهية. إلى هذا صارت. أصبح هذا الأمر شغل عائشة الشاغل. ماذا لو جاء عمر بنبوك أو أخوها ربيع؟ يا إلهي! ارتجفت عائشة، ونهضت بعد أن كانت بهية قد خرجت إلى بيت صبيحة. دفعت باب غرفة فريدة، ودخلت. كان المرأة الجميلة نائمة، وعندما دخلت عائشة أفاقت، ثمّ تمتمت بشيء ما ودعتها للجلوس. بعد عشر دقائق من الكلام الفارغ قالت عائشة لفريدة الناعسة كلّ شيء. أخبرتها بكلّ شيء، ثمّ صمتت تنتظر رأي فريدة. طال الصمت لا تسمع خلال سوى أصوات أنفاسهما. بعد لأي قالت فريدة، وهي تمسح عرقها عن وجهها بيديها:

– يجب أن تتحدّثي مع العجوز فهي الوحيدة التي تستطيع أن تردعها.

– ولكني لا أستطيع، فأنا لا أملك الشجاعة. هل تستطيعين أنت؟

بعد قليل من التفكير النسائي، قرّرتا أن تشتركا في إخبار العجوز. وهذا ما فعلتاه في ضحى اليوم التالي. كانت بهية نائمة حينئذ، لأنّها قد سهرت طوال الليل. وعندما سمعت أم ربيع ذلك اصفرّ وجهها أكثر وأكثر، واحمرّت عيناها، ثمّ غرقت في سعال طويل، هزّ كيانها وجعلها تزرق، وتبصق مرّات ومرّات في علبتها.

ماذا تستطيع أمّ ربيع أن تفعل؟ لم تفعل شيئاً يذكر. أفهمت بهية مع كثير من الشتائم أنّها باتت تعرف الأمر، وأنّ عليها ألا تخرج من البيت بعد الآن، وأنّها لن تتناول ذلك الشراب اللعين مرّة أخرى، وستمنع تلك العاهرة صبيحة من دخول دارهم.

وهكذا تمّ منع بهية من الاتّصال بأحمد آغا.

وبينما كانت بهية تعمل في المنزل من دون أن تكلّم أحداً. تمضغ علكتها بصمت. تكره فريدة وأمّها وعائشة التي وشت بها، كان أحمد آغا يجيء كلّ يوم مساء إلى بيت صبيحة من دون أن يظفر ببهية. هذا الوضع أفقده عقله.

كان يدخل بيت صبيحة مهموماً، يسبّ، ويشتم ولا يدري ما يفعل. نسي تجارته وأشغاله، وأصبحت بهية كلّ مشاغله. فأحمد آغا من أنشط الوسطاء الذين قام الألمان عن طريقهم بشراء القمح لتصديره إلى ألمانيا. وعندما ارتفع سعر الشوال

الواحد من الحنطة إلى ألفي قرش استطاع أحمد آغا جني أرباح طائلة من وراء الصفقات التي عقدها مع الألمان ومع شيوخ العشائر. فالألمان يحتاجون إلى القمح. هم يدفعون الثمن بالليرات الذهبية وليس بالأوراق النقدية البنكنوت التي هبط سعرها إلى ما دون الثلث.

ولكن أحمد آغا ترك الموسم والألمان والشيوخ وجعل همه الوحيد الحصول على بهية. إنها أغلى من كلّ ما يملكه. بهية هذه أخذت عقله، خصوصاً بعد تلك الليلة التي أرته فيها نجوم الظهر. لقد عرف السبب، قالته له صبيحة، تلك المومس التي كان يرتاد إلى بيتها بعد كلّ مرّة يعود فيها إلى الجزيرة.

قالت له إن بهية قد منعت من الخروج بعد أن كشف أمرها لوالدتها. ولكن أحمد آغا الذي تعلّم أن ينجح في كلّ أمر والذي عرف كيف يحول الحرب إلى حدث مفيد له أبى أن يستسلم. إنه يعرف أنّ بهية تحبّه. كان يأتي إلى بيت صبيحة، ثمّ يعري بهية، ويقذف ليراته الذهبية إليها، فتغطي جسدها الجهنمي. كان يطلب منها أن تأخذ ما تريد، إلا أنها لم تأخذ شيئاً. قالت له مرّة، احتفظ بليراتك لنفسك. ولكنّها استمتعت كثيراً بمشهد الليرات الذهبية وهي منثورة على جسدها الأسمر البض.

ماذا عليه أن يفعل؟ يجب أن يجد حلاً له ولها. ماذا لو خطفها. دار هذا السؤال في ذهنه وردده لصبيحة. سألته إن كان جاداً أم أن ذلك نزوة فحسب، فأقسم لها بشرفه أنّه يريدها، وإذا وافقت على الهرب معه، فإنّه سيتدبر الأمر.

وفي أحد الأيام شاهدت صبيحة بهية تنشر غسيلها على السطح. أمالت جذعها، وأخبرتها بما يزمع أحمد أن يفعل. لعنت بهية أم هذه الدنيا، وأخبرتها أنها موافقة. قالت ذلك بحزم وبقرف من كلّ ما يحيط بها. وبينما راحت بهية تقلّب الأمر في فكرها، وهي خائفة، توافق مرّة، وترفض أخرى، حسم أحمد آغا الأمر، وطلب من صبيحة أن تخبرها أن تكون جاهزة للهرب في فجر اليوم التالي.

عندما أخبرت بهية بموعد الهرب من أحمد آغا جلست على كرسي واطئ في ظلّ أحد جدران السطح، وراحت تفكّر بالأمر لآخر مرّة، وقلبها يفور في صدرها. هل تفعل أم لا؟ هذا السؤال المؤلف من أربع كلمات جعلها تغرق في التفكير أربع ساعات كاملات. ولكن تفكير بهية كان عبارة عن عشرات من الأسئلة الأخرى. هل

تترك عمر بنبوك؟ هل تترك طفليها؟ هل تأخذ واحداً وتترك الآخر؟ ماذا يخبئ لها القدر؟ ماذا لو أن أحمد آغا ظهر على حقيقة تغاير ما عرفت عنه من رقة ولطافة وأريحية؟ هل يحبّها حقاً؟ أم أنّه يخطفها لأنّ كلّ شيء أصبح عرضة للخطف والسلب في هذا العالم المجنون؟ هل سيتغير أم أنّه سيبقى يحبّها، ويغدق عليها الهدايا التي يحصل عليها من الألمان؟ هل... هل... هل... مائة "هل" انهالت على رأسها، فأحسّت أنّه سينفجر، فنهضت عن كرسيها بتوتر ماضغة علكتها بطريقة مضحكة. خطت بضع خطوات هنا وبضع خطوات هناك كي تهدئ نفسها. تذكّرت ما قاله لها مرّة. كانا مستلقين على سرير صبيحة ذي الرائحة النسوية المتميزة والمستوطنة. كانت تنظر إلى وجهه المليء وشعره الأسود القصير وشاربيه الناعمين. كان يبتسم برقة وعذوبة. إنّه طفل مدلل هذا الرجل، هكذا فكّرت وهي تراقب شفتيه تنفرجان:

– لم أعاشر في حياتي كلّها امرأة مثلك يا بهية.

– وهل عاشرت نساء كثر؟

– لا، لم أكن أهتم كثيراً بالنساء. العلم عندي أهم، أنا لم أتزوج في حياتي، كنت أعاشر المومسات فقط، مثل صاحبتك صبيحة هذه، أما أنت فشيء آخر. كنت أحسب أنّني لن أقع في الحبّ في حياتي كلّها. تكفيني المومسات اللواتي كنت أجدد نشاطي عندهن، ثمّ أعود إلى العمل. أنا مثل الألمان، إنّهم يقدسون العمل، أنا مثلهم، ولكنني كما ترين وقعت أخيراً في الحبّ، في حبّك، ماذا فعلت بي يا بهية؟

سهسكت بهية، وهي تدفن رأسها في صدره العاري، وقالت له:

– أنت تعرف ما فعلت بك!

– أقسم بالله أنك متميزة عن الجميع، لا أستطيع أن أفهم كيف أنّ رجلاً يمكن أن يضربك، ويهجرك، ويتزوج عليك امرأة أخرى!.

تنهّدت بهية من دون أن تجيب. ها هو أحمد آغا بل، أحمد باشا يقول لها أحلى كلام في الدنيا، وها هي الآن بهية تعود للجلوس على كرسيها في الظلّ، وهي تبتسم. إنّه حقّاً يحبّها، وهي تحبّه، وتستطيع الآن أن تقرّر هذا القرار الخطير والمرعب الذي تواجهه لأوّل مرة في حياتها. سوف تهرب معه. في الليل بعد أن ينام

الجميع ستحزم بعض المتاع، وستهرع إلى بيت صبيحة عند الفجر. جمعت قبضتها وضربت بها ركبتها، يبدو أنها كانت تحتاج لفعل هذا كي تنهي أسئلتها، وتحزم أمرها. نهضت، ثمّ بصقت علكتها، وشرعت تنزل الدرج إلى الحوش.

هذا ما فعلته تماماً، كان الجميع نياماً عند الفجر، وكان صوت مؤذن عجوز يتناهى بوهن مازجاً سكون الليالي الصيفية بآذان سريع متقطع، بينما سكن الهواء، فشعّت الجدران بحرارة غير عادية. مسحت بهية عرقها وهي لا تقوى على التنفس كي لا توقظ أمّها التي رفضت تناول شراب السقاوة. الحمد لله أنّها لا تسعل، فتستيقظ. نهضت، ثمّ خرجت من الغرفة العابقة بروائح النوم والغازات. مشت إلى حيث خبّأت بقجتها البيضاء، التقطتها، ثمّ احتضنتها، سمعت صوت المؤذن أوضح، ورأت توجه النجوم في السماء. ولكن من سيقعد الآن ليراقب النجوم؟ أحسّت أنّها تقضم شفتيها، وتحتضن بقجتها. تركتها وشرعت بارتداء ملحفتها، وعندما أصبحت جاهزة، التقطت بقجتها من جديد، ثمّ نظرت إلى الغرفة لتودع طفليها القابعين في ظلمتها، وفجأة ارتعدت، وأحسّت بشعرها يقف تحت ملحفتها المشدودة. خرجت منها آهة قصيرة. لقد شاهدت أمّها واقفة بالباب تنظر إليها، لم ترها بل ميزت ثوب نومها المدعوك. سألت الأم كأضعف ما تكون، وهي تستند إلى الجدار:

– ماذا تفعلين؟ هل ستهربين يا كلبة؟

لم تجب بهية. إنّها كلبة، وستهرب إلى الأبد. استدارت، ومشت نحو الباب. سمعت أمّها تناديها، ثمّ تنادي عائشة وفريدة، سمعتها تولول، ثمّ تسعل. سارت في الدهليز والسعال يتسارع من دون أن يتوقف لتأخذ نفساً، وعندما فتحت الباب كان السعال، يسمع طويلاً بصوت أخفت، وأخفت. سمعت صوت عائشة تسأل حماتها ما بها؟ وعندما صفق الباب كانت الكنة تولول، وتنادي أمّ ربيع، وكأنّها في عالم آخر.

ماتت أمّ ربيع، وهربت بهية في عربة كانت تنتظرها أمام الباب يقودها أحمد آغا بذاته. لم تعرف بهية أنّ أمّها ماتت، وأنّها قتلتها، بل جلست إلى جانب حبيبها الوحيد مرتجفة بيضاء البشرة خائفة من العالم الجديد الذي ترتاده مع هذا الذي اسمه أحمد آغا. كم من الآثام ترتكب يا إلهي في هذه الدنيا! ولكن من هو المسؤول؟ هذا سؤال وجيه يصلح للحكماء ولكن ليس لربيع الزيات، الذي جلس على إحدى درجات

السطح وجعل يلف السجائر ويحرقها ناشقاً خانها بعمق، نافثاً إياها بقهر.

ماذا سيفعل؟ لقد علم أن أمه قد احتلت جزءاً صغيراً من جبل العظام. لقد دفنوها هناك حسناً، هذا ما يجب أن يفعلوه ولكن كيف سيصل إلى بهية هذه؟ إنه يقسم أنه سيذبحها. سيصل إليها، ويذبحها. هذا عهد قطعه على نفسه. والأهم من ذلك ألا يعرف أحد في الجيش ما حصل وإلا فسيصبح مضحكة الجميع. صعد الدم إلى رأسه، وتضرّج وجهه. وعندما عاد إلى فكرة ذبح أخته ارتاح قليلاً. عاد لون وجهه إلى طبيعته. ولكن كيف سيجدها؟ عائشة زوجته قالت إن صبيحة العاهرة لا تعرف شيئاً رجتها طويلاً، ولكنّها أقسمت أنّها لا تعرف شيئاً. سوف يراها هذه العاهرة، سيكون لها حساب عسير، ولكن كيف سيجد أخته، وكيف سيجد أحمد هذا ومن يكون، وأين يعمل و...؟

أحسّ بالضيق مرّة أخرى. تذكّر تلك الليلة التي خصى فيها مدحت باشا وكيله في المستودع بحبل من القنب. شعر أنّ عليه أن يفعل مع أحمد آغا نفس الشيء. هكذا يجب أن ينتقم لشرفه. مدحت باشا عرف الطريقة المثلى وأحمد آغا عليه أن يموت بهذه الطريقة. ولكن كيف سيجدهما؟ وهل لديه وقت لذلك؟ عليه أن يكون في "جبرين" بعد غد. وهذه مشكلة. آه كم يؤرقه هذا العمل! ولكن ماذا لو عرف أحد بهذه القصة؟ هل يستطيع أن يقص لسان كل من يتكلم؟ شعر بضغط الدموع في عينيه. إنهم يقفون في طريقه، هكذا فكر وهو بقضم أصابعه وعندما شرق بأنفه عرف أن دموعه تسيل على خديه.

جمع رأسه بين يديه، وبحركة مسح دموعه، وأشعل سيجارة أخرى. رفع عينيه فشاهد عائشة زوجته تنظر إليه وهي واقفة بعيداً عنه، خجل من نفسه، نهض، ثمّ استلّ سيفه وهو يقسم أنّه سيقطع رأس تلك العاهرة، لحقت به عائشة، وتمسكت بسترته. إلا أنّه دفعها، فتح الباب، وخرج. طرق باب بيت الجارة القبيحة، لم تفتح له. شاهد زوجته، وقد لحقت به وفريدة واقفة بالباب، الاثنتان تجأران، وتولولان، وتبكيان. وعندما لم يفتح له أحد الباب، راح يعمل سيفه به. ضرب خشب الباب بسيفه يريد تحطيمه. لن يقف شيء ما في وجهه، إنّه يصر على قطع رأس هذه الأفعى. ولكن الباب ويا للعجب لم يتحطم. أحسّ بالمهزلة. توقف، ثمّ أنزل سيفه وقد ازرق وجهه،

وعندما صمتت عائشة وفريدة، وصلت إلى أسماعه ولاويل صبيحة وحماتها وأولادها.

نام تلك الليلة في البيت، واستطاعت زوجته أن تنسيه هذا الأمر بطريقتها الخاصة، ولكن ما إن أصبح الصباح، حتى خرج يبحث عن أخته وعشيقها. حدث الشيء نفسه في اليوم التالي من دون جدوى، وعندما عاد في اليوم الثالث إلى كتيبته المعسكرة في قرية "جبرين" جلس غاضباً في غرفته لا يكلّم أحداً، حتى إذا قام بتنفيذ عقوبة الضرب بخمسين عصا على قدمي حلمي الشركسي، من دون أن يفهم أحد سبب تذكره للأمر، اعتدل مزاجه، وتناسى أمر بهية أخته إلى حين.

* * *

15

من أين سيهجمون؟ من بغداد أم من سيناء؟ من سيناء أم من بغداد؟ هذه هي الأسئلة السخيفة التي يعجز العقل التركي عن حلها. ولكن المشير فون فولكنهاين الذي أرسله وكيل القائد العام أنور باشا إلى سورية لدراسة الموقف على الطبيعة وكتابة تقرير بهذا الشأن أصبح بإمكانه الإجابة عليها بسهولة.

نعم، العقل الألماني عسكري بالفطرة، هكذا فكّر وهو يمسك قلمه ليشرع بالكتابة. ولكنّ كتابة تقرير مثل هذا عن وضع الجيوش العثمانية إلى قائد الجيوش العثمانية تعتبر مهمة ليست سهلة على الإطلاق، خصوصاً بالنسبة إليه، هو المشير فون فولكنهاين، الشيخ الألماني الذي تجاوز الخمسين، والذي قضى الجزء الأكبر من حياته في الجبهات الحربية.

هؤلاء الأتراك مضحكون حقاً. لديهم جيوش، جيوش كثيرة لا تحصى، ولكنها جيوش ورقية. أخذ المشير ورقة وجعل يرسم أشكالاً لا معنى لها. لديهم جيوش وقادة. الجيش الثاني الجيش الثالث، الرابع، الخامس، السادس، السابع وإلخ وما أكثر الباشوات، حتى أنهم يطلقون عليه اسم المشير فون فولكنهاين باشا. لم ينسوا أن يلصقوا باسمه هذا المقام الكريه. باشا! من أين أتوا بهذه الكلمة، باشا، ماذا تعني؟ فعلاً إن الأتراك مضحكون... أنور باشا، جمال باشا، مصطفى كمال باشا، خليل باشا، حتى قائد جبهة سيناء فون قره س... باشا. ما إن يأتي ضابط ألماني جديد إلى هذه البلاد حتى ينادونه يا باشا. أظنّ أنّ الكلمة تدلّ على العظمة، يكفي أن يكون لك انتفاخ في رقبتك وتحت ذقنك حتى ينادونك بباشا. ولكن هناك صفة مهمة لا يجب تجاهلها بالباشوات، فبالإضافة إلى انتفاخ الرقبة يجب على الباشا أن يكون غبياً لا يعرف كيف يقود حماراً فكيف به يقود جيشاً؟

رسم حماراً يعتمر طربوشاً ذا شرابة متدلية إلى الجانب. كتب على الحمار كلمة "باشا" ثمّ مزّق الورقة. عليه أن يفكّر جدياً في التقرير. أبعد كرسيه نحو النافذة، وألقى نظرة على المدينة ذات الطابع الريفي. يا لها من بلهاء هذه المدينة، لو لم تكن القلعة موجودة لوضع عشرة مدافع في ساحة ثكنة الألمان، وقصفها. إنّه يكره المدينة ولكنّه يحبّ قلعتها. تصوّر المدينة تشكر القلعة لأنّها أنقذتها. يستطيع من هنا أيضاً

قصف ثكنة الترك في بانقوسا. كان على الأتراك أن يبنوا ثكنتهم هنا وليس على هضبة بانقوسا. أحسّ بالزهو لأنّ الألمان أذكى بكثير، ثمّ خجل من نفسه لأنّه قام بمقارنتهم بالأتراك. الألمان وحدهم من يفكر بإقامة الثكنات في مثل هذه المواقع. هذا الجبل رائع، ولكن اسمه سيء "جبل البختي" يا له من اسم كريه. ماذا يعني "البختي"؟

يا لك من مسكين يا فون فولكنهاين، تركت الأماكن ذات السماء الجميلة في ألمانيا لتجلس في ثكنة على جبل البختي، لتكتب تقريرك عن الوضع العسكري العام في هذه البلاد! هناك أمور هامة يجب أن يضمنها تقريره هذا. أولاً، إنّ الإنكليز سيهاجمون عن طريق سيناء وليس من بغداد، هذا أمر واضح. الإنكليز سيضربون في فلسطين وليس في العراق، ويجب أخذ المبادرة لتحطيمهم قبل شروعهم في الهجوم. هز المشير رأسه يوافق نفسه. إنّه متأكد من هذا مائة بالمائة. ثمّ تذكّر مؤتمر حلب في حزيران من هذا العام والذي حضره كلّ الباشوات. حضره أنور باشا هو وقائد الجيش الرابع، جمال باشا، وقائد جيوش القفقاس أحمد عزت باشا، وقائد الجيش السابع مصطفى كمال باشا، وقائد الجيش السادس خليل باشا، ورئيس أركان الحرب العام برونزوار باشا، وغيرهم. حينئذ اقترح خليل باشا نقل الجيش السابع الذي وصل حلب حديثاً إلى "هيت" قرب بغداد لطرد الإنكليز منها. أحمد باشا عارضه في ذلك. هذا الشخص الكريه ذكي، ويعرف أصول الحرب، ولكنّه كريه. وقف أحمد عزت باشا مع جمال باشا ضدّ خليل باشا، الذي كان يؤيده أنور باشا. لعنة الله على هذا الباشا وعلى ذاك الباشا. أحمد جمال ذكي، ولكنّ أنور ضدّه. المهم أن يكون ضدّه لا أن ينقذ السلطنة. لا مانع من أن تفقد جيوشك وأراضيك ولكن عليك أن تقهر خصمك. ألم أقل إنّ الأتراك مضحكون؟

يومها انتهى المؤتمر بعد يومين من دون أن يتخذ حلولاً لمسألة الجيوش والجبهات. ولكن فون فولكنهاين والألمان الآخرين زادت هيبتهم وسلطتهم بعد المؤتمر. فقد قام أنور، بعد أربعة أيام من المؤتمر بتوقيع أمر تشكيل "جيش الصاعقة" بقيادة فون فولكنهاين ذاته، ومهمة هذا الجيش هي التوجه إلى "هيت" لتحرير بغداد، ورغم أنّ المشير نفسه لم يكن مقتنعاً بهذا، ولكنه صمت عن الأمر

لأنّه أصبح قائداً لهذا الجيش.

ابتسم المشير ساخراً. المهم أنّه أصبح حينئذ قائداً لأحد الجيوش، وما إن استلم منصبه، حتى نصح أنور باشا ببرقية بعثها إليه بعد جدوى الهجوم لاسترداد بغداد، لأنّ الإنكليز حشدوا أحد عشرة فرقة من الجنود الإنكليز والأيرلنديين والسكوتلانديين والنيوزلنديين والأستراليين والفرنسيين والعرب... في سيناء، تحضيراً للهجوم على بئر السبع وغزة، وأنّ هيت هي شرك واضح للأتراك.

ولكنّ أنور باشا رفض النصيحة، وطلب تنفيذ الزحف إلى بغداد، وعدم التدخل في شؤون الجيش الرابع. قطّب المشير ما بين حاجبيه وهو يتذكر الخطأ الفادح الذي ارتكبه أنور باشا حينما أرسل إليه برقية غبية كسحنته:

"إنّ حالة العدو في جبهة سيناء لا تمكّنه قط من مهاجمة القوات العثمانية، وكذا شأنه في منطقة العراق، فإذا قامت القيادة العامة بهجومها هذا تمكنت من استرداد بغداد وإعادة الإنكليز من حيث أتوا، وبذلك يتسع المحال لاستعادة صحراء سيناء".

لماذا فعل ذلك أنور باشا؟ سأل المشير نفسه، وهو يتنشق رائحة عطرة من يديه. على الأغلب أنّ أنور باشا يريد تحطيم خصمه أحمد جمال باشا، ليصبح هو القائد الأوحد في السلطنة. ولكنّ فون فولكنهاين باستطاعته التسلق على هذا الصراع. ترك جيشه الصاعقة، ورحل إلى الأستانة بعد أن أعلم القيادة الألمانية في برلين كلّ شيء. القيادة أعلمته بعد ذلك أنّها ستضغط من أجله، فأمره يهمها لأنّها تهتم جدياً بأمر المنطقة. هذه المنطقة يجب أن تكون للألمان، وليس للأتراك. الوجبة الدسمة يجب أن تكون للرجال الذواقة، وليس لرجال فقدوا الشهية على الأكل إلى الأبد.

هكذا إذن يا فون فولكنهاين، لقد وصل إلى الأمر الثاني والمهم، يجب أن يكون تقريرك والذي سيرسل نسخة أخرى منه إلى برلين ضربة قوية لصالح الألمان من أجل السيطرة على البلاد العربية بعد إزاحة هؤلاء الأغبياء المترهلين.

جرّ المشير كرسيه من جديد إلى مكتبه، ثمّ أمسك القلم، وكتب:

حلب في 20 أيلول سنة 1917.

إلى فخامة وكيل القائد العام للجيوش العثمانية.

لا أريد في تقريري هذا الذي أبنيه على الحقيقة الناصعة أن أموّه عليكم، ويمكنكم أن تكونوا على ثقة تامة، أنّه ليس هناك شيء من المغالاة في سرد الحوادث، أو تصويرها بصورة لا تتفق مع الواقع، فاعتقدوا جيداً أنّي أبسط لكم الموقف بدقة زائدة واختصار.

الحالة العمومية، إنّ الذي يستلفت الأنظار في الدرجة الأولى، حالة البلاد العمومية، فالحرب الحاضرة أوجدت في نفوس الأمة يأساً شديداً من الموقف السياسي الحاضر، والذي زاد في خطورة هذا اليأس الشعور الوطني، الذي بدأ يتجلّى في نفوس العناصر الّتي تشكّل الدولة العثمانية. فالسوريون، وهم عرب، يتطلّعون بشغف إلى حركات العدو، ويأملون من وراء فوزه فوزاً لهم، لأنّ هنالك إخواناً لهم من العرب يحاربون في صفوف الأعداء، وقد بدأوا ينظرون إلى السلطتين الملكية والعسكرية كقوة مستبدة، تدفعهم إلى الموت، وقتل شعورهم الوطني، وهم في هذا على حق لأمرين:

الأول: إنّ الأهالي الذين لا يزالون في بلادهم، يرون أنّ الخير لهم في ملازمة بيوتهم والابتعاد عن الحكومة، لأنّ معظمهم مؤلف من نساء وأطفال وعجزة وبعض الفارين، الذين يسعون لكسب قوتهم الضروري.

الثاني: أنّ رجال السلطتين الملكية والعسكرية، يطاردون هذه الفئة فيولدون اليأس والحقد في قلوبها ضدّ السلطة الحاكمة.

وليس الأمر منحصراً ضمن هذه المنطقة فحسب، بل إنّ عجز السلطات الملكية ظاهر جلي، فرجال الحكومة لا همَّ لهم إلاّ إشباع بطونهم، والرشوة قائمة على قدم وساق، والعدل أصبح مفقوداً، والنفور يتزايد بين الشعب والحكومة. وأقل حادث كافٍ لأن تنفجر فيه ضغائن الشعب على الحكومة، فتكون العاقبة وخيمة جداً. والذي رأيته أنّ السبب في عجز السلطة الملكية ناتج عن الأمور التالية:

أولاً، ضعف القوة الموكل إليها حفظ الأمن، فإنّها بدلاً من أن تكون قوة للمحافظة على القانون ومطاردة الأشقياء والمجرمين، أصبحت ضدّ القانون وعوناً للمجرمين.

ثانياً . اجتياح المأمورين، فإنّ الرواتب الضئيلة التي يتقاضاها هؤلاء، والتي لا

يكفي الراتب الشهري منها تأمين معيشة الواحد منهم مع عائلته ليومين، دفعت بهم إلى الارتشاء ومشاركة المحتكرين ضدّ الأمة وسوء استعمال الوظيفة، وتبرئة القاتل وتجريم البريء... وإذا أضفنا إلى ما تقدم، المجاعة الناشبة أظفارها في البلاد والتي تفتك بأبنائها فتكاً ذريعاً مع وقوف دولاب العمل واستحكام الأزمة الاقتصادية، لوجدنا أنّ كلّ هذه الأمور تساعد حتماً على انتشار الفوضى وعلى إقامة هوة سحيقة بين الأمة والحكومة، وترك الشعب غير راضٍ عن الحكم الحاضر ورجال الحكم معاً.

إذا ظلّت الحكومة سائرة على خطّتها هذه، وطالت الحرب العالمية وذلك ما هو ملحوظ في الوقت الحاضر، فإنّ انحلال السلطنة العثمانية حادث مقدر وانقراضها أمر لا مناص منه. وهناك أمر آخر يستدعي الانتباه، فإنّني رغم ما قلته عن عدم إنهاء الحرب العالمي بالصورة التي أعتقدها، فإنّ الحرب الحاضرة توشك أن تضع أوزارها لسببين:

الأول، إنّ دول الاتفاق بما فيها الدولة العثمانية في حالة يأس شديد، وقد أصبحت في حالة لا تمكّنها قط من الاستمرار على قتال الحلفاء، وكلّها تترقب المعونة من ألمانيا، فإذا تعذّر على ألمانيا بسط يد المساعدة، عمدت هذه الدول إلى الاستسلام.

الثاني، باتت دول الاتفاق تسعى كلّ واحدة منها للحافظة على كيانها فقط وإزاء هذه العوامل المؤثرة، هل يمكن لألمانيا أن تقوم بمساعدة الدول المتفقة معها؟

ولم تكن حالة الجيش العثماني تُعدُّ شيئاً بالنسبة إلى ما كان عليه هذا الجيش في ابتداء الحرب، فقوى الجيش من الوجهة العمومية تضاءلت حتى لم يبقَ منها غير واحد من خمسة، والبلاد غير قادرة بوجه من الوجوه على سدّ النقص الواقع في الرجال.

وأحسن القوات الموجودة في هذه المنطقة، هي قوات الجيش السابع الذي جُنّد حديثاً، ولم يلاقِ من متاعب الحرب في الجبهة ما لاقاه غيره، ومع هذا، فأنا أريد اتّخاذه دليلاً على الحالة الحاضرة، فقد دعوت إليّ قواد هذا الجيش، وظهر لي من تصريحاتهم، أنّ الفرقة التاسعة والخمسين هي أقوى فرق هذا الجيش، ولهذا قمت بدراسة حالتها، وإليك هي: تتألف هذه الفرقة من خمسة آلاف جندي منهم 400

جندي في المستشفيات، و350 جندياً في دور النقاهة، و120 جندياً ماتوا، ولم تتمكّن الفرقة من تدارك غيرهم، وألف وخمسمائة جندي ما بين 17 و20 سنة من عمرهم.

وظهر لي، أنّ الطوابير التي كانت وصلت من تركيا، والمقرر أنّ كلّ طابور منها يشتمل على ألف جندي، لم يكن الطابور في الواقع يزيد عدده عن الخمسمائة جندي، وهكذا ترون أنّ جلّ هؤلاء الأفراد في حالة لا تمكّنهم قط من العمل في هذه المنطقة بجد وإخلاص ومعظمهم غير قادر على حمل السلاح ومقاومة العدو المجهز تجهيزاً كاملاً، ولذا أعتقد أنّ الواجب يقضي علينا تلافياً للأخطار، أن ننظر بعين الاعتبار إلى الأمور التالية:

من الواضح أنّ الحرب واضعة أوزارها في الجبهة الغربية، وأنّ العدو حوّل أفكاره والحالة هذه إلى الشرق لاحتلاله، حتّى إذا تمّ له الأمر، أرغم قواتنا على السكوت والاستسلام إلى مشيئته، وبديهي أنّ الأستانة العاصمة العثمانية، هي محطّ آمال الحلفاء، لأنّها حلقة اتّصال مهمة بين الشرق والغرب، ويرى الحلفاء في احتلالها ضربة كبرى إلى السلطنة العثمانية والحكم المبرم بانقراضها، وتجزئتها. فواجبنا تجاه هذه الحالة أن نقيم القوات الكافية لتحول دون هجوم الأعداء عليها، ومن الخطأ الفادح التفكير اليوم بالعمل لاسترداد البلاد، التي احتلها العدو في الجبهة العراقية أو الجبهة القفقاسية، وأرى أن توقف الحركات الحربية في القفقاس، أيّ أنّ نكتفي بإبقاء مفرزات من قواتنا في تلك المنطقة، تتولّى المحافظة على الحدود ضدّ عبث الأشقياء، أقول ضدّ عبث الأشقياء، اعتقاداً مني أنّ الروس بعد ثورتهم الأخيرة ضدّ القيصر لا يفكّرون بمتابعة العمل الذي بدأت به الحكومة القيصرية قط، ولكنّهم في الوقت نفسه لا يسكتون عن مطاردة قواتنا إذا هي عمدت إلى مهاجمة أراضيهم، واسترداد البلاد التي تحت حكمهم.

أمّا المنطقة العراقية، فأعتقد أنّ الهدف الأوّل الذي يقصده الإنكليز باحتلال بغداد، وقد تمّ وها هي بغداد والقسم الأكبر من البلاد العراقية بين أيدي الإنكليز، يقيني أكيد أن ليس ثمّة أسباب أساسية، أو عسكرية، أو اقتصادية، تهيب بالإنكليز للتوسع أكثر من ذلك، وقد تعتقدون أنّه لابدّ لهم من احتلال طرق المواصلات، وهذا

اعتقاد قد يكون له أساس من الصحة، وقد يعمد الإنكليز إلى ذلك إلاّ أنّ احتلالهم للموصل لضمّها إلى المنطقة العراقية، لا يولد خطراً عسكرياً يهدد جبهاتنا في سورية وكردستان، بل إنّ لدينا من الوسائل ما نمنع بها الإنكليز من تخطي هذه المنطقة. فتجاه ذلك لا يوجد خوف إلاّ على جبهتين:

الأولى جبهة سيناء، والثانية جبهة الحجاز، وفي هاتين الجبهتين فقط لم يصل الأعداء بعد إلى هدفهم، ولهذا نراهم يقومون باستعدادات هامة لتحقيق ما يرغبون فيه. ويهمنا وبالحالة هذه أن نبسط الهدف الذي يرمي إليه الإنكليز في احتلال هاتين المنطقتين. فبريطانيا وعدت الشريف حسين والعرب من ورائه بمنحهم حريتهم واستقلالهم ومساعدتهم على إنشاء إمبراطورية عربية، كما أنّها وعدت اليهود بموجب تصريح اللورد بلفور بوطن قومي في فلسطين، يكون تابعاً في إدارته السياسية والإدارية للإمبراطورية البريطانية، وقد كان لهذين الوعدين تأثيرهما الشديد لدى أبناء العرب في الحجاز وسورية واليهود في العالم من جهة ثانية. وأنا لا أريد أن أبيت مقدار ما ستصل إليه بريطانيا بوعديها وعما إذا كانت ستحققهما في المستقبل إلا أنهما على كل حال أمنا لها مساعدة عناصر قوية من أبناء البلاد ورجال المال من اليهود في الخارج وغايتها من وراء ذلك تأمين طرق قناة السويس والبحر الأحمر إلى الأبد وسلب تركيا أعظم مقام ديني تعتبره الطائفة الإسلامية ويمكنها أن تستفيد منه في المستقبل للدفاع عن كيانها السياسي وتأمين طريق الهند.

فيتضح لكم من هذه المعلومات التي بينتها لكم أن الحلفاء أو بالأحرى الدولة البريطانية في الدرجة الأولى يرون أنه لابد من احتلال سورية وفلسطين وبسط سيطرتهم بواسطة الشريف حسين على الحجاز وأنّه لابدّ لنا نحن من العمل على صيانة هذه الجبهة والدفاع عنها.

إذن يجب أن تكون سياستنا العسكرية مرتكزة على قاعدة دفاعية لا هجومية لأنّنا لو أردنا الهجوم لما استطعناه في الوقت الحاضر، ونحن في أمسّ الحاجة إلى وقت لا يقل عن الثلاثة شهور للاستعداد، وفي هذه المدّة يستطيع الأعداء أن يهاجمونا بقواتهم، ويحتلّون منا البلاد بكلّ سهولة، لذلك أقترح ما يلي:

أولاً: إرسال قوات الجيش السابع الموجودة في حلب إلى فلسطين، ووضعها

تحت تصرف الجنرال فون قره س باشا.

ثانياً: إجراء بعض التبدلات في مراكز قوات الجيش وعلى الأخص استدعاء قائد الجيش السابع مصطفى كمال باشا إلى الأستانة، لأنّ حركاته تعرقل مساعي القواد الألمان.

ثالثاً: إلغاء الجيش الرابع.

المشير: فون فولكنهاين

قذف المشير القلم إلى الطاولة، وأعاد قراءة التقرير. وعندما انتهى، فرك يديه، ثمّ شمّ يديه بشهيق طويل. ها هو قد أعدّ تقريره أخيراً. ترك الأوراق، ثمّ التقط زجاجة عطر، وسكب قليلاً من السائل ذي الرائحة الجذابة في إحدى يديه، وأعاد فركهما ببعضهما، فعل ذلك كأنّه يطهر يديه من كلّ أوساخ الأتراك. سيرسل التقرير اليوم إلى الأستانة وبرلين، إلى هنا وإلى هناك. برلين ستطلب، وأنور باشا سينفذ، وما على أحمد جمال باشا ومصطفى كمال باشا إلا أن يذعنا. سوف يضعهما على الرف بتقريره هذا. ارتاح لهذه الأفكار، إنّه متأكد أنّ برلين ستدعمه، ثمّ سترسل برقية تهنئة لفصاحته. لو كان الأمر بيده، لطلب إبعاد وكيل القائد العام نفسه. وفعلاً، فإنّ هذا الأمر ضروري جداً، نحن في القرن العشرين، في الحرب العامة، إمّا ألمانيا أو إنكلترا، لا مكان هنالك لدولة أخرى، لا السلطنة العثمانية ولا روسيا ولا فرنسا ولا أمريكا، التي تزعق، وتجأر من وراء المحيط. إمّا ألمانيا وإمّا إنكلترا. لا مكان في هذا الصراع لرجال من أمثال أحمد جمال أو مصطفى كمال أو أنور باشا أو حتى السلطان رشاد ذاته. ما دامت السلطنة العثمانية ستموت فلماذا سترثها إنكلترا؟ بل على ألمانيا أن ترث هذه الأمم الغبية، على ألمانيا أن تصنع مجدها وهي ستصنعه حتماً.

مسح شاربيه الناعمين وخديه المجعدين، ثمّ مرّر يديه على فوديه الأشيبين. مدّ يده، والتقط جرساً، وهزّه ينادي حاجبه. دخل الحاجب الشاب، ووقف متصلباً ينتظر أوامر المشير، طلب المشير بكلّ تهذيب من حاجبه أن ينادي رئيس الأركان وأربعة أو خمسة من معاونيه. وبعد ساعة كان الجميع يناقشون التقرير.

لم يناقشوه، بل امتدحوه. جاء دور ألمانيا لتثبت للعالم أنّها دولة عظيمة. هكذا

قرّروا وهم جالسون حول طاولة بيضوية بجذوع متصلبة. كانت تفوح منهم روائح العطور وصباغ الأحذية.

طلب المشير من حاجبه أن يبرق التقرير إلى الأستانة وبرلين فوراً. ولم تمضِ ساعة أخرى حتى كان التقرير يطير عبر الأسلاك إلى برلين والأستانة وإلى مسلمية حلب حيث مركز قيادة الجيش السابع.

كان مصطفى كمال باشا مستلقياً على فراشه في غرفته المطلة على أحد بساتين المسلمية، حينما سمع نقراً خفيفاً على الباب. دخل قائد الفرقة الخامسة عشرة، وقدّم له بعض الأوراق، ثمّ انسحب، لم ينظر إليه وهو يقرؤها. وعندما انتهى مصطفى كمال من قراءتها، رفع عينيه إلى قائد فرقته، ثمّ انكبّ على قراءة التقرير مرّة أخرى. نهض عن سريره، واتّجه نحو مكتبه وهو يقرأ بصمت، وعندما أنهى قراءة التقرير للمرّة الثانية وضعه على المكتب، ثمّ جلس مفكراً، وهو يتلمّس كليتيه المريضتين.

ماذا يحضر فون فولكنهاين باشا؟ بكلّ بساطة يستطيع أن يقول إنّ الألمان يجهزون انقلاباً عسكرياً على الأتراك، ستكون نتيجته إزاحة الضباط العثمانيين عن القيادة لتهيئة الظروف المناسبة كي يتمكّنوا من حكم هذه البلاد. ولنفترض أنّ المشير صادق في دعواه وحماسته في أن يقوم بصدّ الإنكليز في فلسطين كما يقول، فلماذا إبعاده هو، وحل الجيش الرابع الذي يقوده أحمد جمال باشا؟ لماذا يريد إبعادهما هما الاثنين بالذات، أليس بسبب كشفهما لأبعاد القضية وصعودهما السريع على سلّم القيادة وذيوع اسميهما أو اسمه هو على الأقل. أين كان الألمان حينما استطاع إفشال خطّة الإنكليز والفرنسيين في غاليبولي؟ أين كان فون فولكنهاين هذا؟ لنفترض أنّه محق بالنسبة لأحمد باشا، فلماذا يريد إبعاده هو بالذات؟ لماذا يريد إبعاد أقوى رجلين في سورية؟ إذن الألمان يعتقدون أنّ السلطنة العثمانية تحتضر في كلتا الحالتين، سواء حاربت أم لم تحارب، وهذا يشجّع فون فولكنهاين على التقدّم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولكنّه لا يساعد بذلك السلطان رشاد أو أنور باشا، بل إنّه يقدّم خدماته لألمانيا بالذات، إنّه يهدم برلين، ولا يخدم الأستانة، لأنّه يطلب استلام الألمان لزمام القيادات في كلّ مكان. حتى، عندما أرسل برقيته إلى أنور باشا يحذره فيها من أنّ

الإنكليز سينزلون في "مرسين" وعلى القيادة العليا أن تحتاط لذلك، فأرسلوا من الأستانة تسعة وستين ضابطاً ألمانياً وضابطاً عثمانياً واحداً. يا لها من مهزلة. وهذا ما يحدث هنا أيضاً، مصطفى كمال يتنبأ بأنّ قيادة سورية وفلسطين القادمة ستكون ألمانية بشكل كامل، لا يكفيهم أن يكون فون قره س باشا قائداً لجبهة سيناء، بل يبذلون كلّ سعيهم من أجل استلام الجيش الرابع والجيش السابع وغيره وغيره... أيّ قيادة كلّ الجبهات في هذه المناطق.

ضرب مصطفى باشا مكتبه بقبضته، وهو يلعن أمّ الألمان. عليه أن يتصل بجمال باشا، ولكن أين هو؟ إنّه في الأستانة. إنّه وحيد هنا. يعرفون كيف يؤقتون ضرباتهم هؤلاء الألمان. بصق على الأرض بحنق. هل يمكن أن تزول بلاد عثمان؟ لا بالله العظيم. حتى ولو قامت كلّ الدنيا تريد سلبهم الحياة والتاريخ فلن تستطيع. إنّنا رجال عظام، أتراك، طورانيون، بنو عثمان الأمجاد، ماذا يحسب فون فولكنهاين هذا؟

رفع رأسه، فوجد قائد فرقته يراقبه، ابتسم مصطفى باشا، ودعاه للجلوس. قال له، وهو يشير إلى الأوراق:

– هل قرأت البرقية يا جودت باشا؟

– نعم قرأتها.

– كيف التقطتموها؟

– بالجهاز البرقي يا مصطفى باشا، كانت مرسلة بنفس الشيفرة التي نرسل ونستقبل من القيادة العامة.

فسأله مصطفى كمال باشا وهو يعود إلى وقاره الشديد:

– وما هو رأيك في البرقية؟

– أنا أعتقد أنّهم أرسلوا المشير إلى سورية لدراسة الوضع العام، ووضع الحرب فيها، وأنّهم سيأخذون برأيه، وأنا أقترح عليك أن ترسل تقريراً مضاداً لبرقية المشير تعلم القيادة العامة فيه بنوايا الألمان السيئة تجاهنا. فأنا أعتقد أنّهم يريدون السيطرة على البلاد عسكرياً من خلال الإمساك بالقيادة وعموماً عن طريق التقرب من الناس والقبائل، لقد شاهدناهم يفعلون ذلك طول المدّة السابقة. لم يعودوا يكتفون

بنقل الحبوب والمواشي من هنا، بل إنّهم يؤملون الناس بحياة أفضل إن هم استلموا السلطات. أنا أعتقد أنّ عليك أن تراسل الوكيل العام، وتشرح له وجهة نظرك.

فقال مصطفى كمال، وهو يشدّ ياقة قميصه بسبابته:

– لقد شرحتها مرّات ومرّات، إنّهم يعلمون أنّني غير راضٍ عن تصرفات الجرمان، ولذلك يسعى المشير لخلعي واستدعائي إلى الأستانة. وجودي يمنعهم من إتمام السيطرة على الجيش وعلى الحياة العامة، ثمّ هناك شيء آخر.

– ما هو يا مصطفى باشا؟

– أنا أرى أنّ المشير يلقى التشجيع من أنور باشا بالذات، وإلاّ فلماذا يدعو لكفِّ يد أحمد جمال؟ وأنت تعرف أنّ أحمد جمال يتفق تماماً مع خطط الألمان الحربية، ومنها الموقف من إرسال الجيش السابع إلى "هيت" لتحرير بغداد، لقد رفض المشير ذلك متفقاً مع طروحات أحمد باشا الذي يريد إرسال هذا الجيش إلى جبهة فلسطين، وليس إلى جبهة "هيت" هل فهمت ذلك يا جودت باشا؟

فقال جودت باشا، وهو يشعل سيجارة ألمانية معطرة:

– هل تريد أن تقول إنّ هنالك صفقة بين أنور باشا والألمان؟

– بالضبط، والهدف هو سيطرة الألمان على المنطقة، وبسط سيطرة أنور باشا المطلقة في الأستانة، وإلاّ فكيف تفسّر تقرّب الألمان من رجال القبائل العربان وإغراقهم بالذهب؟ لقد دعا المشير منذ مدّة إلى وقف العمليات العسكرية ضدّ قطّاع الطرق في الأرياف فلماذا يا ترى؟ ذكّرناه أنّ إحدى مهمات الجيش السابع المتمركز في حلب هي المحافظة على الأمن وملاحقة الجماعات المسلحة والفارين ورجال هنانو وبركات. ذكّرناه بذلك، وقلت له شخصياً، إنّ مؤتمر حلب في حزيران الماضي قرّر ذلك، فلماذا نتوقف عن ملاحقتهم، فقال إنّه يستطيع فعل ذلك سلمياً بواسطة شيوخ القبائل. ولكن من يؤلب علينا، في رأيك، رجال القبائل هؤلاء؟ إنه فون فولكنهاين بالذات.

هزّ جودت باشا رأسه موافقاً. صمتا قليلاً، كلٌّ منهما يحاول ربط الكثير من الظواهر ببعضها، علّه يحوز على رؤية كاملة عن الوضع. وفي النهاية قرّر مصطفى كمال باشا إرسال برقية إلى وكيل القائد العام. قال ذلك لجودت باشا، ثمّ

أردف:

– أريد أن أقوم بفعل ما يجب عليّ فعله. هناك ضميري وعليّ أن أهتم به.

حينئذ نهض جودت باشا، حيّاه، ثمّ خرج. نادى مصطفى كمال كاتبه، وأمره بكتابة ما يلي:

إلى فخامة وكيل القائد العام للجيوش العثمانية

حلب في 22 أيلول 1917

لقد أطلعت على التقرير الذي بعث به إليكم المشير فون فولكنهاين باشا، وعلى برقيته المستعجلة، التي يطلب فيها وضع قوات الجيش السابع، التي بأمرتي تحت تصرف الجنرال فون قره س باشا، وهذا معناه إنزال رتبتي من قائد جيش إلى قائد فيلق.

إن إنزال رتبتي درجتين أو ثلاث درجات عن رتبة القواد والمستقلين في قيادة جيوشهم، لا يؤلمني قط لو كان في هذا الأمر فائدة لوطني، أو كان نتيجة خطأ حربي قد ارتكبته، ولكن الأمر على عكس ذلك فالمشير يرمي إلى غاية أخرى لا أتأخر عن التصريح بها وهي: "الألمان يريدون نزع السيطرة من يد القواد الأتراك ووضعها بيدهم والعمل على قطع هذه البلاد عن جسم الدولة التركية، وضمّها إلى مستعمرات الإمبراطورية الألمانية" وهذه الحقيقة التي كان من واجب القيادة العامة أن تعلمها، وأن لا تظلّ غافلة عن دسائس الألمان ومساعيهم السيئة تجاه الدولة.

يريد المشير الألماني نقل الجيش السابع إلى جبهة سيناء، وربطه بقوات الجنرال فون قره س باشا، ولكن، أتعرفون ماذا يحصل قبل أن يتمّ هذا النقل؟ إنّ العدو عندما يشعر بهذه الحركة والاستعدادات التي تقوم بها القيادة العثمانية، يعمد إلى هجومه قبل الوقت، فيصطاد هذه القوات التي تكون معرّضة بحكم الطبيعة للمخاطر والموت المؤكد وعندها لا يمكن للمشير ولا لزميله الجنرال، أن يديرا الحركات الحربية، فإذا كانت الوضعية الحربية تضطركم إلى السير بالخطة التي رسمها المشير الألماني في تقريره ونزع سلطتي عن الجيش السابع فأنا أصارحكم،

في حال إقدامكم على عمل مثل هذا أعتقد فيه هلاك هذه القوات وضياع بلادي، إنني أسكت عن هذه الأمور ولا أقف وقفة المتفرج الشامت ببلاده كما يفعل غيري من الذين باعوا بلادهم وضميرهم إلى الألمان، بل أقدم وأخوض المعارك الحربية بنفي وأدير أصغر جيش أجده أمامي بلا قيد ولا شرط، ولا أتقيد بأوامر أحد في إدارة المعارك التي أخوضها وبعبارة أصرح أقول إن القوات التابعة لي إذا قدر لها أن تخوض غمار الحرب، وتموت في سبيل وطنها والمحافظة على استقلال البلاد تحت لواء أحد القواد، فإنّ هذا القائد لا يكون أحداً غيري قط. فإمّا أن أفوز معها وأقودها إلى النصر، ويكون الفضل في انتصارها لي، أو أن تموت، فأموت معها في سبيل وطني، لا في سبيل نصرة السياسة الألمانية.

وهنا تسمحون لي يا فخامة وكيل القائد العام أن أصارحكم رأيي في المشير فون فولكنهاين (باشا) وزملائه الألمان، فإنّ الفوضى الموجودة في البلاد، والتي ترونها سبباً يحوجنا إلى طلب مساعدة الألمان، لم تكن مرتكزة على قاعدة حقيقية بل هي نتيجة ضعف شديد أظهره رجال الحكم في السلطنة العثمانية، أو نتيجة مؤامرة مدبرة من بعض هؤلاء للقضاء على هذه السلطة، ولقد أوجد هؤلاء الرجال . رجال الحكم في العاصمة، اعتقاداً عن الشعب التركي ورجال الدولة، أنّه لم يعد في إمكان الترك أن يستغنوا عن الألمان أنفسهم اعتقاداً منهم أنّهم إذا تركوا تركيا خربت واضمحلت. ولهذا بدأوا ينظرون إلى الترك كعبيد وإلى بلادنا كمستعمرة ألمانية، هذا شأن الألمان في بلادنا في الظروف الحاضرة، وهو أمرٌ لا أعتقد أنّ فخامتكم ترضون باستمراره طويلاً، بل ترون أنّ واجبنا يقضي بأن نظهر بمظهر الشمم والإباء، ولو بمقدار ما أظهرت بلغاريا، فنجبر هؤلاء الألمان أن لا ينظروا إلينا نظرتهم إلى عبيد بل حلفاء لنا.

أقول هذا، لا لأنّي أكره الألمان، بل أنا أقدّر وطنيتهم وتضحيتهم في سبيل بلادهم، ولكنّي لا أريد أن تكون بلادي مستعمرة ورجالها عبيداً، وهذه هي حقيقة فاه بها المشير فون فولكنهاين باشا، إذ صرّح هنا "أنّه ألماني قبل كلّ شيء، وإذا كان يدافع عن هذه الجبهات فلصالح الإمبراطورية الألمانية".

إنّ للألمان غاية سياسية خطيرة في هذه البلاد يريدون تنفيذها بواسطة المشير

فون فولكنهاين باشا، وهي استعمار سورية والعراق وبقية البلاد العربية، فإذا قدّر لهم الفوز بحمل الحلفاء على الجلاء عن فلسطين والبلاد الموجودة تحت سيطرتهم الآن، أرسلوا إليها جيشاً، فاحتلها، وقالوا لرجال السلطنة العثمانية أنّ سورية لنا، لأنّنا دافعنا عنها بدمائنا، فاذهبوا أنتم، وفتشوا لكم عن مأوى آخر غير هذه البلد.

هذا ما رأيت أن أعلّق به على تقرير المشير، أبديته بصراحة تامة سيدي.

قائد الجيش السابع . مصطفى كمال

وما إن انتهى مصطفى باشا من إملاء تقريره، حتّى قرأه ثانية، ثمّ وقّعه، ودفعه إلى الكاتب كي يبرقه إلى الأستانة، ويحتفظ بنسخة عنه في سجلات الجيش السابع، ولم يكتفِ مصطفى كمال بتقريره هذا، فهو يحسّ أنّ أنور باشا، قد عقد صفقة سريّة مع الألمان، فقعد، وأملى برقية أخرى، أراد أن يبرقها إلى جمال باشا الموجود في الأستانة بعد أن عاد من رحلة إلى ألمانيا، دفعه إلى القيام بها أنور باشا والقيادة الألمانية في برلين دفعاً مريباً، فشرح له الأمر، وبيّن له مرامي القادة الألمان، وأنور باشا بالنسبة للسلطة العسكرية في سورية وفلسطين.

إلاّ أنّ هذه المراسلات السّرية لم تكن سرية على الإطلاق، فقد علم المشير فون فولكنهاين باشا بأمر المراسلة بين مصطفى كمال وأحمد جمال، فسافر في نفس اليوم إلى الأستانة، واستطاع الوصول إليها بعد أربعة أيام من تاريخ برقية مصطفى كمال، فعرف هناك أنّ أحمد باشا يؤيد مصطفى كمال، وأنّه يعارض جملة وتفصيلاً كلّ الترتيبات العسكرية المزمع الشروع بها، وأنّه يضغط في الأستانة على القيادة العامة سواء من أجل عدم الاستماع إلى نصائح المشير، أو لمنع الجنرال فون قره س باشا من القيام بهجوم، كان قد خطّط له مع المشير على التجمعات العسكرية الإنكليزية في سيناء، فاستاء لذلك المشير كثيراً وهدّد بالإبراق إلى برلين، وفعلاً قام بإرسال برقية إلى القيادة العليا الألمانية، يهدّد فيها بالعودة إلى ألمانيا، إذا لم تنفذ أفكاره التي صاغها في تقرير إلى وكيل القائد العام. ولكن من ألمانيا يأتي المدد دائماً، فقد وصلت برقية من القيادة العليا الألمانية إلى وكيل القائد العام في نفس اليوم، تهدّد، وتتوعد، فجمع وكيل القائد العام كلاً من وزير بحريته أحمد جمال باشا والمشير فون فولكنهاين باشا ورئيس أركانه وغيرهم، وقرأ عليهم برقية القيادة العليا

الألمانية، وهو يبدي حيرة من أمره:

"عملاً بالاتفاق المعقود بيننا بوجوب الاستعانة برأي قوادنا العسكريين، نرى في هذه المرة مخالفة شديدة من وزير البحرية وقائد الجيش الرابع، وإذا استمرّت هذه الحالة، أدّت حتماً إلى عواقب وخيمة. ولهذا نرى أنّ من الواجب تحقيق الطلبات التي قدّمها لكم المشير فون فولكنهاين، لأنّ فيها السلامة الحقيقية للبلاد، وإلا فسنضطر إلى دعوة ضباطناً وجنودنا الموجودين في البلاد العثمانية، وقطع المساعدات التي تقدّم إليكم بصورةٍ نهائية" وما إن انتهى وكيل القائد العام من قراءتها، حتى عمّ الوجوم والصمت على الجميع باستثناء المشير الخبيث الذي كان يبتسم بهدوء، ولكنّه كان يضحك في سرّه.

سأل أنور باشا بصوته الخشن ما العمل؟ يجب إرضاء القيادة الألمانية بأيّ ثمن، فهم باتوا غير قادرين على الوقوف من دون العكازات الألمانية. قذف بالبرقية إلى الطاولة ذات الغطاء المخملي، وجعل يتفرّج على الوجوه. ولكنّ الصمت لم يدم طويلاً، فقد شرع كلّ واحد، يعرض تنازلاته الممكنة ضمن حدود طلبات المشير صاحب الفودين الأشيبين؟ وفعلاً تمّ الاتفاق على حلّ وسط يرضي المشير ووزير البحرية، ويرضي قائد الجيش السابع.

أجمل رئيس أركان الحرب العام الفريق برونزوار باشا بثلاثة نقاط:

أولاً: إلغاء الجيش الرابع وإبداله باسم قيادة جيوش سورية وبلاد العرب على أن يكون مقره دمشق، وتعيين الفريق أحمد باشا قائداً عاماً لهذه الجيوش.

ثانياً: إلغاء قيادة جبهة سيناء، وتحويلها إلى الجيش الثامن، وتولية الجنرال فون قره س باشا قيادة هذا الجيش.

ثالثاً: يتمّ فصل منطقة فلسطين عن سرية، بعد أن تُضمّ إليها منطقة ما وراء الأردن، وتؤلف قيادة عامة يتولاها فون فولكنهاين، وتكون تحت قيادته الجيوش السادسة والسابعة والثامنة، وفي الثلاثين من أيلول عام 1917 وقّع وكيل القائد العام أنور باشا الأمر، وتمّ إصدار الأوامر إلى الجيوش المعنية لترك مناطقها الحالية، والتحرّك إلى جبهة فلسطين. وفي ليلة ذلك اليوم، وصلت الأوامر إلى قيادة الجيش السابع في حلب، جودت باشا هو الذي حملها أيضاً إلى مصطفى كمال، ناوله إياها،

ثمّ جلس على كرسي أمام مكتب قائد الجيش. وما إن فرغ من قراءتها، حتى رفع عينيه، فأسرع جودت باشا يوجز ما فهمه من البرقيات الحاملة للأوامر:

- وهكذا انتصر المشير فون فولكنهاين. لقد أصبحنا أخيراً تحت قيادته.

هز مصطفى كمال رأسه موافقاً، لقد جاء الحلّ نصفياً بالنسبة إليه. لقد وضعوه تحت أمرة المشير، ولكنّه حافظ على رتبته وقيادة جيشه. ولكن هل هذا يجوز؟ أعاد سؤاله بصوت عال، فقال جودت باشا مجيباً:

- هذا لا يجوز، إنّني مثلك أكره الألمان، وأعرف نواياهم، ماذا تقول يا باشا؟...

فكّر مصطفى كمال برهة، ثمّ حسم موقفه:

- لن أستسلم، إمّا أنا أو هو. سوف أعود، وأذكر أنور باشا برأيي في هؤلاء الألمان. قهقه جودت باشا، وهو يربّت على كرشه، ثمّ قال:

- حسناً تفعل.

ثمّ نهض، كاد يفتح الباب، إلاّ أنّه تراجع، وسأل قائده:

- بماذا تأمر، هل نبدأ في تنفيذ الأوامر؟ يطلبون منا أن نتحرّك من حلب إلى مدينة نابلس. هل نجهّز أنفسنا، وننتظر، ماذا تقول؟

فسأله مصطفى كمال بصوت متحشرج فيه نزق ضئيل:

- وهل أنت في عجلة؟

- لا، ولكن هناك بعض المفارز التي مازالت تطارد قطّاع الطرق، وتجوب البوادي، وتحرس الطرقات. لقد أرسلنا إليها الأوامر كي تعود، وهذا يحتاج إلى وقت.

- حسناً فعلت!

رفع جودت يده إلى جبينه بحركة لينة، وخرج. بقي مصطفى كمال صامتاً متصلّباً في كرسيه. ماذا، هل ينفذ الأوامر، أم يقاوم؟ هل يتمرد؟ لا، إنّ السلطنة تنهار، وتتفكك وتسلّم إلى الألمان، ولكنّه لا يستطيع أن يفعل شيئاً. بصق بقوة، ثمّ أطلق شتيمة بصوت مسموع. انتهت البلاد، بدأ يحسّ بذلك، ولكن من ينقذها؟ لا أحد. قال ذلك أيضاً هامساً به إلى نفسه، أمسك قلماً، وخطّ برقية إلى أنور، يعيد عليه آراءه حول الألمان وحول فون فولكنهاين شخصياً. تردّد في إرسالها، إلاّ أنّه

أخيراً حسم أمره، واستدعى كاتبه، وأمره بإرسالها. وفي اليوم التالي تلقّى برقية من أنور باشا يؤكد على أوامره السابقة، ويطلب من قائد الجيش السابع تنفيذ الأوامر الصادرة إليه، والتخفيف من غلوائه. ولكنّ مصطفى كمال الذي اعتاد أن يقاوم حتى آخر لحظة، أرسل إلى أنور باشا يطلب منه إرسال جيشه إلى الجبهة مباشرة، وليس إلى مدينة نابلس البعيدة عنها. إلاّ أنّ أنور باشا، الذي لم يفهم سبب ذلك، عاد يطلب منه تنفيذ الأمر بحذافيره رافضاً إرسال الجيش السابع إلى جبهة فلسطين بحجة انتفاء إمكانية جمع جيشين فيها. وفي اليوم الثالث من تشرين الأول، كتب مصطفى كمال إلى أنور باشا ما يلي:

"بسبب إصراركم على تأييد فكرة المشير فون فولكنهاين، فأنا أقدّم استقالتي من قيادة الجيش السابع، التي لا يمكن سحبها إلاّ بتأييد ما طلبت".

فوصل إليه أسرع جواب على برقية في كلّ حياته العسكرية. لقد قبل أنور باشا استقالته، وقام بتعيين الأمير لواء فوزي شاقماق باشا قائد الجيش الثاني مكانه.

* * *

16

ما إن عاد ربيع الزيات إلى كتيبته المعسكرة في قرية جبرين، وقام بتنفيذ العقوبة بحلمي الشركسي، حتّى أحسّ براحة لم يذقها منذ ثلاثة أيام، ورغم أنّ هذا العمل قد خلق له متاعب جديدة مع أصدقائه، إلاّ أنّه تجاهل هذا الموضوع، وقام باستدعائهم الواحد تلو الآخر ليتحادث معهم، لعلّه ينسى شيئاً، عاد يؤرقه من جديد.

إنّها قضية بهية شقيقته من أبيه وأمّه. كيف أمكنها فعل ذلك؟ ولماذا. وما إن يطرح على نفسه هذين السؤالين حتّى يضرب، ويضيق به المكان، فينهض ليتجوّل في القرية تحت أشعة الشمس المحرقة، أو ينهض من فراشه ليلاً، فيلفّ لفافاته، ويقعد يدخّنها على باب غرفته، وهو ينظر إلى السّماء السّوداء المرصعة بالنجوم بكلّ غضب وقهر.

كيف سيجد هذه القحبة؟ سؤال طرحه بصمت ألوف المرات، وهو قد أقسم على أن يطرحه ألوفاً أخرى حتى يجدها هي وعشيقها، ويقوم بذبحهما. حين ذلك سيهدأ باله تماماً، حين ذلك فقط سيعود كما كان.

هذا الأمر لم يبح به إلى أيّ كان. لم يبح به إلى الضباط ولا إلى أصدقائه، الذين أحسّوا بشيء ما، غير طبيعي، وهم جالسون يستمعون إلى ثرثراته الطويلة يشتمونه في سرهم، ويرسخون في أذهانهم أنّه ليس إلاّ كلباً تركياً" قذراً لم يستطع أن يحترم وعده الذي قطعه، على نفسه أسبوعاً واحداً.

ما به ربيع الزيات؟ لماذا فعل ذلك، جلس عيوش وعبد الكريم وصبحي والسمين المكنى (بطيخة) مع حلمي الشركسي، وراحوا يناقشون الأمر.

– أعتقد أنّ شيئاً ما ألمّ بربيع الزيات. إنّه ليس على طبيعته. قال عيوش.

– أنت تقول هذا لأنّك بسيط. أنا أعرف ربيعاً أفضل منك إنّه من طينة غير طينتنا قال ذلك السمين، فقال صبحي الإسكندروني:

– إنّه ليس إلا ولد، لديّ ابن أكبر منه.

– الجيش يجعل الأولاد كباراً، ويجعل الكبار أولاداً، قال عيوش.

– فعل ذلك بعد عودته من المدينة، لعله واقع في مشكلة. قال عبد الكريم.

- كلّ واحد منا له مشكلة. قال صبحي.
- الوسخ وسخ ولو تغسّل بماء الورد. قال السمين.
- لا تظلموا الرجل! قال عيوش.
- نحن لا نظلمه، هو الذي ظلم نفسه. قال السمين.
- الذي يحيرني أنّه وعدنا بتناسي أمر حلمي، وفرح لأنّنا تصالحنا معه. قال عبد الكريم.
- كان علينا ألا نذهب إليه ونرجوه العفو عن حلمي. قال صبحي.
-هذه نصائح عيوش. قال السمين.
- قلبي يقول لي إن هناك أمراً ما. قال عيوش.
- وماذا يمكن أن يكون؟ سأل عبد الكريم.
- وهل خمسون عصا على قدمي حلمي ستصلح له الأمور؟ سأل السمين.
- إنها فشة خلق. قال عبد الكريم.
- قد تكون زوجته. قال السمين.
- وماذا يمكن أن تفعل الزوجات. سأل صبحي الإسكندروني بخبث.
- وماذا يمكن أن تفعل الزوجة في غياب زوجها؟ سأل السمين.
- أنت رجل لطيف يا بطيخة! قال عيوش.
- زوجتي عجوز شمطاء، أنا أحمد الله على ذلك. قال صبحي وهو يبتسم.
- وماذا تريد أن تقول؟ قال السمين.
- اتركوا هذا الأمر، نحن جميعاً لنا زوجات متروكات في البيوت. قال عيوش.
- وماذا ستفعل إن علمت أنّ زوجتك تفعلها؟ سأل عبد الكريم.
- قلت لكم اتركوا هذا الحديث! قال عيوش بإصرار.
- أحمد الله على أنّ زوجة صبحي عجوز شمطاء. قال السمين.
- ولكنّها ليست سيئة. قال عبد الكريم وهو يضحك.
- يبدو أن جلدك يحكك يا عبد الكريم. قال صبحي محذراً.
- من يغار على زوجته عليه أن يحرسها. قال السمين.

- لا يمكن حراسة الزوجات. قال عبد الكريم.
- خصوصاً أثناء الحروب. قال عيوش.
- ألا ترون النساء اللواتي يأتين من أجل الخبز؟ قال صبحي.
- يقولون إن شيرزداد عثر على واحدة جميلة جداً. قال السمين.
- هكذا سمعت أنا أيضاً. قال عيوش.
- لعنة الله عليه! قال صبحي.
- هل صحيح أنه وجد بينهن امرأة أرمنية فضاجعها، ثمّ ذبحها؟ سأل السمين.
- هذا الكلب يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك. قال عيوش.
- لماذا أنت صامت يا حلمي؟ سأل عبد الكريم.

تململ حلمي الشركسي، كان يستمع إلى حديثهم وهو يعلك عسلوجاً، ناظراً بعينين ضيقتين إلى الأفق البعيد. جمع ركبتيه تحت ذقنه، وراح يجسّ قدميه الحمراوين المنتفختين. لم يبن عليه أنّه يتألم، بل كان الآخرون يتألمون عوضاً عنه. سمع السمين يسأله:

- هه... ما رأيك بربيع هذا؟...

فقال حلمي بعد أن مدّد ساقيه من جديد:

- الذنب ليس ذنبه. سأسلخ جلدة رأس شيرزاد هذا.
- ولكن ربيعاً فعلها بعد أن وعدنا بتناسي الأمر.

قال عبد الكريم، فأجابه حلمي، وقد أخرج كيس تبغه:

- قلت لكم ألف مرة... ربيع ليس له علاقة هيا... دعونا ندخن في سلام.

التقطوا منه كيس تبغه، وراحوا يلفّون السجائر، ويدخنوها صامتين. عادوا إلى هذه الأحاديث في اليوم الثاني، ثمّ في اليوم الثالث، وفي اليوم الرابع استدعي ربيع الزيات إلى غرفة الملازم مصطفى، وطلب منه أن يجلس، ثمّ أخبره بالأمر الذي وصلهم في صباح اليوم نفسه من أركان الفرقة:

- تقول الرسالة إنّ علينا أن نؤلف مجموعة من ثلاثين رجلاً من رجال الأليرى على أن يكونوا من الأتراك والأكراد والشركس. ستكون أنت العربي الوحيد فيها.

– ما هي الغاية؟

– يبدو أنّ قطّاع الطرق قد ازدادوا في هذه الأيام، يتحدّثون، خصوصاً، عن قاطع طريق اسمه "الضبع" يقود عصابة كبيرة من الرعاع الفارين، يقومون بأعمال القتل والنهب على نطاق واسع. هناك مجموعات أخرى تلاحقه. آ.. يا لها من مهزلة! ماذا تقول؟ علينا أن نبحث عنه في منطقة واسعة جداً. من هنا وحتى جبل "الشيخ عقيل" في الشمال الشرقي وحتى جبل الأحص في الجنوب الشرقي. تصور أنهم لا يعلمون بالتحديد أين يتواجد. يا لها من مهزلة! ... وماذا سيفعل ثلاثون عسكرياً؟ انظر... إنّني متشائم جداً. انظر... عليك أن تساعدني! أنا لا أعرف شيئاً عن هذه المناطق. أنت ابن حلب. أكيد أنت تعرف المنطقة جيداً. ابتسم ربيع، ثمّ زفر. إنّه أيضاً لا يعرف المنطقة بالرغم من أنّه ابن حلب، ولكنّه لا يرتجف مثل "الست صفية". بل إنّ هذا الأمر قد أعجبه إلى حد ما، فيه سينسى بهية وعشيقها الذي هربت معه. ثمّ هناك شيء آخر. ماذا لو استطاع فعلاً أن يقتل قاطع الطريق هذا الذي يسمى بالضبع؟ حسن.. خصوصاً وأنّ قائد المجموعة هو هذا الملازم المرتجف. فمن سيصدق حينها، أنّ الست صفية الذي برهن منذ أيام فقط على فحولته مع النساء، أنّه فحل في القتال مع قطّاع الطرق؟ أليس هذا الأمر فرصة ذهبية له؟ ألم يسموه صائد الفرص الذي لا يخيب؟ ومن دون جدال وافق فوراً، وقال للملازم:

– لا تخف، سألتقطه لك كالجرذ من البئر، أين سيهرب مني؟ ولكن هناك أمر أرجو أن تأخذه بعين الاعتبار.

– ما هو؟

– أن تطلب مكافأتي بالملازمية.

ها... ها.. ها... ضحك "الست صفية" بصوت عال، ثمّ فرك يديه بسعادة. قال وهو يمسح على ذقنه المرداء، وكأنّ يداً سحرية قد مسّته:

– ربيع الزيات سيصبح ملازماً والملازم مصطفى يوزباشي.

ضحك مرّة أخرى، ثمّ نهض. وعندما نهض ربيع الزيات بدوره، احتضنه "الست صفية" معرباً عن فرحه بهذا الاتفاق، منهياً خوفه الشديد من قضية قطّاع

الطرق ومن ذاك الذي يسمونه الضبع. إلاّ أنّ ربيعاً أحسّ في هذه الأثناء، أنّ الملازم مصطفى لا يمت إلى الفحولة بأيّة صلة حقّاً.

تمّ تشكيل القوة فوراً، ولأنّ حلمي الشركسي شركسي، تمّ إدراجه في عدادها.

أرسل ربيع الزيات من يخبره بذلك، وبّما أنّه لا يملك حصاناً، فعليه أن يسير مع القوة على قدميه. ابتسم حلمي لهذا النبأ، ثمّ تكدّر حينما علم أنّ شيرزاد سيكون فيها أيضاً. حسناً قال ذلك لأصدقائه الأربعة، وهو يهز رأسه وكأنّه قرّر شيئاً وعليه أن ينتظر الفرصة الملائمة. سأله عيوش وهو يمسح العرق عن وجهه بيده الكبيرة:

– ماذا؟ كيف ستسير وقدماك مطبلتان من الضرب؟

ثمّ احتج السمين:

– لعنة الله عليهم، يضربون الرجل حتى تدمى قدماه، ثمّ يطلبون منه المسير!

ثمّ قال عبد الكريم:

– اطلب منهم حصاناً على الأقل.

وأخيراً وبعد صمت قصير، قال صبحي الإسكندروني:

– إنّهم أولاد قحاب. لو كنت مكانك لطلبت منهم إعفائي بسبب قدمي.

ولكن حلمي لم يفعل كذلك، بل راح يقضي أوقاته صامتاً يدبّر خططاً لا يعلمها إلاّ الله، حتّى إذا جمعوهم في فجر أحد أيام شهر آب، جمع أشياءه، ثمّ ربطها بحبل على ظهره، وانطلق مع القوة على طريق حلب . دير الزور.

* * *

هذا العمل السهل الذي أطلق خيال ربيع الزيات ورئيسه الضابط، لم يكن كذلك أبداً، ومن قال إنّ البحث عن عصابة لقطّاع الطرق، وقتلهم هو من الأمور البسيطة والعادية؟ ها قد مرّ أربعون يوماً، وهم ينتقلون من هنا إلى هناك، من هذه القرية إلى تلك، لم يتركوا مغارة أو بئراً أو قناة رومانية إلاّ ونزلوا فيها، يحملون المشاعل بأيديهم، يبحثون عن أيّ أثر قد يدلهم على العصابة. صعدوا إلى جبل الشيخ عقيل وإلى جبل الدير وإلى جبلي الأحص والشبيط وإلى قلعة النجم. صعدوا إلى كلّ الهضاب، حتّى وإن كانت على شكل أجمات ذات علو يقارب قامة إنسان.

كلّ ذلك فعلوا، ولكن من دون جدوى. كان ربيع يشعر رويداً رويداً، أنّ البحث آيل إلى الفشل. وكما أنّ حماسته قد فترت منذ زمن بعيد، فقد راح يشعر الآن أنّهم يبحثون عن شيء غير معروف وغير معلوم، شيء كالحلم، كلّ الناس تعرفه وكل الناس تعرفه وكل الناس لا تعرفه في آن معاً. عم يبحثون؟ فعلاً عم يبحثون؟ هل يبحثونه عن إبرة في حقل من التبن؟ كيف، بقوة نصفها من الرجال الراكبين والنصف الآخر من دون جياد أو بغال، يتحرّكون كالسلحفاة؟ هكذا يريدونهم أن يلاحقوا عصابة غامضة كالسحر، ويقضوا عليها، في منطقة واسعة تضم مئات القرى ومئات القبائل في منطقة يستطيع فيها أيّ إنسان أن يختفي عن عينيك لأنّ حركتك مكشوفة له وأنت تسير أبطأ منه.

أدار ربيع رأسه، ونظر إلى الخلف، كان الجنود يسيرون ببطء رغم القيظ الشديد لشمس شهر أيلول. بعضهم خلع عمرته، وربط رأسه بخرقة بيضاء وآخرون خلعوا ستراتهم، ووضعوها على رؤوسهم لسيتظلوا بها. أمّا السائرون على الأقدام فقد توزعوا على طول الطريق الترابية فراداً، يجرّون سيقانهم، ينؤون تحت أحمالهم وبنادقهم.

لكز حصانه الكميت، ثمّ تركه يخبّ بكسل كما يريد. ها هم عائدون من جديد إلى دير حافر. لقد جعلوا هذه القرية محطة لهم ونقطة انطلاق إلى جميع الجهات. فيها مخفر للدرك وبئر ماء وسوق صغير يشترون منه بعض حاجياتهم. من هناك أيضاً يتزودون بالمؤن المرسلة إليهم من جبرين. لعنة الله على دير حافر، كم مرّة رحلوا عنها، وعادوا إليها، وفي كلّ مرّة يرسلون برقية من مخفر الدرك إلى المسلمية، لقد بات يحفظ كلمات البرقية عن ظهر قلب: "لم نجد عصابة الضبع، بل قابلنا بعض الفراري وقطّاع الطرق العاديين" ولكن القيادة تلحّ على مطاردة الضبع بالذات. هو الذي يريدونه وليس غيره، ولكن كيف سيجدونه؟ في آخر مرة أمروهم فيها أن يتوجهوا بسرعة إلى منبج. جاءتهم إخبارية بأن الضبع يختبئ في مغارة "أمّ السراج". لم يكونوا قد ارتاحوا يوما واحدا. ورغم أنّ ربيعاً بات يشعر أنّ كلّ جهودهم عبث في عبث، وهذا ما صرّح به للملازم مصطفى، إلاّ أنّهم ركبوا في اليوم التالي، وانطلقوا بسرعة عادية تناسب المرتجلين منهم. أخذوا طريق قرية "تل السوس" واتجهوا شمالاً،

ولما وصلوا إلى "زعرايا" توقفوا ليستريحوا، وبينما كانوا جالسين في أحد الأكواخ الطينية المقببة جاء رجل من عشيرة "بو عبد الله" كان الرجل بدوياً علا الغبار والقذارة سحنته المشعرة. قرفص بجانب الباب، وجعل يلتقط القمل من لحيته وجدائل شعره الطويلة، ويحدّثهم عمّا عرفه عن الضبع. لم يفهم ربيع كلّ كلام البدوي، ولكنّه عرف كلّ ما يريد قوله. كلّ الناس يقولون الشيء نفسه، وكلّ الناس يكذبون بالطريقة نفسها، حتى جعلوا الخوف يدخل إلى قلب ربيع.

قال البدوي إنّه شاهد الضبع مع عشرين رجلاً راكبين جياداً منطلقين كالسهام. وعندما وصلوا إليه، توقفوا، وسألوه عن الأتراك. كان الوقت بعيد الفجر بقليل، وكانت النجوم تشعّ آخر بريقها في السماء، عرف الضبع من فوره، رجل ملتح يضع كوفية سوداء على رأسه، لم يعرفه إلاّ من عينيه. كانوا قد حكوا له عن عينيه، ليس هناك من رجل يستطيع أن يثبت أمام نظراتهما، أقسم البدوي أنّ الضبع يستطيع أن يفتت صخرة بنظرة واحدة، دعاهم لشرب اللبن إلاّ أنّهم رفضوا، ثمّ سألوا إن كان أحد قد سطا عليه أو أنّ الأتراك قد أخذوا شيئاً من غنمه. وعندما أجابهم أنّ كلّ شيء على ما يرام، أعطوه كيساً فيه خمسة أرطال من القمح، ثمّ ودّعوه، وانطلقوا إلى الجنوب. وقبل أن ينهي البدوي حكايته، أقسم برأسه أنّه شاهد امرأة مع الضبع. امرأة ترتدي ثياب الرجال، وتمتطي حصاناً أصهب.

سأله ربيع إن كان متأكداً أنّ الضبع وعصابته اتّجهوا نحو الجنوب، فأقسم البدوي مرّة أخرى، أنّه يقول الصدق. وما دام البدوي صادقاً فلماذا يرحلون إلى الشمال، إلى منبج إذن؟

تداول الأمر مع الملازم على انفراد، وبعد ساعة قرّرا أن يواصلا المسير إلى المغارة. هذه هي الأوامر وعليهم تنفيذها.

استراحوا، ثمّ تناولوا الغداء، وانطلقوا من جديد، وما إن يصلوا إلى قرية حتى يسمعوا أخباراً جديدة عن الضبع، ففي قرية "أم العبد" أخبرهم أحد الشيوخ، أنّه شاهد الضبع وعصابته يتجهون نحو قرى "الباب". وفي "أبو تينة" قال لهم شيخ عشيرة "الحايط" إنّ العصابة جاءت منذ يومين إلى القرية لتشتري حصاناً، ثمّ رحلت إلى جهات منبج. وفي "خاروفية صغيرة" شاهدوا جنوداً آخرين جاءوا للبحث عن الضبع

ولديهم معلومات عن أنّ الضبع ورجاله قد صعدوا إلى جبل "الأحص". يا إلهي، كلّ الناس يعرفون الضبع ولا يعرفونه. كلّهم يقولون إنّهم رأوه في اليوم نفسه، وفي كلّ مكان. ما هذا؟ سأل ربيع نفسه، وسأل الملازم مصطفى الذي فقد منذ أمد بعيد الثقة في كلام الناس، حتى أنّه دفن إلى الأبد حلمه الذي دغدغه لعدة أيام، وهو أن يرقّى إلى رتبة يوزباشي إن أفلح في القبض على الضبع أو قتله. لم يبقَ له سوى تذكر تلك المومس في "النمرو 17" مسح ربيع العرق المتصبب من وجهه، وهو يشعر بظمأ يجفف حلقه، التقط قربة الماء وشرب حتى ارتوى. نظر إلى الأفق البعيد أمامه فشاهد قباب "جناة الشركس"، وإلى اليسار منها بيوت الشعر لعرب بني سعيد، دير حافر مازالت بعيدة، وعلى الأغلب سوف يقضون الليل في "عطوبة" فالمسير في الظلام خطر جداً.

أما الضبع، فلابدّ أنّه يتابع تحركاتهم خطوة بخطوة.

ولكن كيف ساقتهم الأقدار إلى مغارة أم السرج؟ كيف يخطئون بهذه السهولة؟ أم أنّهم لا يخطئون، وكلّ ما يريدونه هو أن يدفعوا القوات إلى هنا وهناك. بشكل متقاطع علّهم يقعون على الضبع؟ المهم، غادروا "خاروفية صغيرة" بعد أن أخذوا بدوياً من عشيرة "التوامات" اسمه بو سالم كدليل. سار بهم بعيداً عن الطريق الترابية كي يتجنبوا المرور بقرى "قرعة كبيرة" و"خربة السودة" وهذه الفكرة خطرت ببال ربيع فجأة وهو جالس في ظلّ أحد بيوت القرية. فكّر... ماذا لو أنّ للضبع جواسيس في القرى فيحصي عليهم خطواتهم؟ وبما أنّ المغارة موجودة على جبل صغير لا يعرف اسمه بجانب قرية "مقبلة حسن آغا" فيمكنه الابتعاد عن الطرق وإتيان الجبل من الخلف. هكذا فعلوا، وصعدوا الجبل من جهة قرية "قلقل" وما إن وصلوا إلى القمة العارية إلا من بعض أشجار الشيح ونبتات العوسج المتيبسة، حتى شاهدوا ضفاف الفرات الحوارية تظهر لهم من بعيد، وكأنّها خيوط بيض وزرق.

وزّع الجنود إلى فرقتين، تتألف كلّ واحدة من عشرة جنود، ليتمّ مهاجمة المغارة من الجهتين، وأبقى باقي الجنود لحراسة الجياد وللتغطية. وما إن وصلت الفرقة التي يقودها ربيع والدليل إلى باب المغارة الخارجي الواسع، حتّى سمعوا صوت عواء كلب أو ذئب أو صوت حيوانات برية تتقاتل، أو هكذا خيّل لربيع بالذات.

انتظر وصول الفرقة الأخرى بقيادة الملازم مصطفى، ثمّ تداولا في الأمر بصوت خافت، وقرّرا إدخال جنديين كتجربة، ليتحريا الأمر، فالرؤية من الخارج مستحيلة.

دخل الجنديان، ثمّ مرّت ثوان قليلة من الصمت، وفجأة سمعوا أصوات استغاثة، ثمّ صوت طلق ناري ضخّمه فضاء المغارة. نظر ربيع إلى البدوي مستفهماً فتراجع هذا، وهو يرتعد من الخوف. كان الملازم مصطفى أيضاً يرتعد. ومن دون أن يعرف ما يفعله، أخرج ربيع قنبلة يدوية، ثمّ نزع مسمارها، وقذفها إلى داخل المغارة. أحدث انفجار القنبلة دوياً هائلاً، صاحبته دفقة من الهواء الساخن والدخان والغبار إلى خارج المغارة، وتردد صدى الانفجار في الداخل للحظات، ثمّ سمع أنين وحشرجة وأصوات أخرى مكتومة، تبعتها أصوات عواء وجري. وعندما جهّز بندقيته للإطلاق شاهد عشرات الذئاب والكلاب المتوحشة تهرع إلى الخارج ملوثة بدمائها، تندفع نازلة السفح بسرعة حتى أنّ بعضها تدحرج إلى الأسفل.

عقدت المفاجأة ألسن الجميع وخصوصاً ربيع، ماذا فعلت؟ يا لي من حيوان. أحسّ بالإحراج وبأعين الجنود تتطلّع إليه بهزء. التقط بندقيته، وهرع إلى الداخل. في بادئ الأمر لم يستطع أن يميّز شيئاً في الظلام، وقف وسط المغارة بساقين منفرجتين. وقف والظلام ينجلي شيئاً فشيئاً يساعده في ذلك النور القادم من الفتحة. وتدريجياً استطاع أن يميز جسدي الجنديين المنطرحين على الأرض الحجرية والدماء والسواد يغطيهما. في هذه الأثناء كان الآخرون يدخلون. قرفص أحدهم بجانب الجنديين، وتأكد أنّهما قد قتلا، ولكن ليس هذا فحسب ما كان يشدّ انتباه ربيع والآخرين، بل إنّ الجميع كانوا يتساءلون من دون أن يتفوهوا بحرف واحد عن مصدر هذه الأشلاء والعظام والشعور والرؤوس نصف المتعفنة التي كانت مبعثرة في أرض المغارة وشيئاً فشيئاً، تحولت رائحة البارود الحريفة إلى رائحة نتنة مثيرة للغثيان. ولم يستطيعوا أن يمكثوا سوى دقيقة أو اثنتين، فما لبثوا أن حملوا جثتي الجنديين، وهرعوا إلى الخارج. هناك جلسوا على الصخور الحوارية تحت أشعة الشمس المحرقة، وقد أصابهم شلل في عقولهم.

آه يا ربيع الزيات، ماذا حصل لك؟ ماذا جرى كي تسير الدنيا عكس ما تريد. كم سيسخرون منك؟ فعوضاً عن أن تقتل الضبع، أو تقبض عليه كما قبضت على

الكابتن الإنكليزي لتصبح ملازماً، وترتدي بذلة الضباط، عوضاً عن ذلك، تهاجم وكراً للذئاب، وتقتل عنصرين من جماعتك.

تطلّع مرّة أخرى إلى الرتل الطويل المنهك، ثمّ إلى الملازم الغارق في صمته الذي يتمايل على حصانه، وكأنّه سيسقط عند أوّل هزة تحدث له، ثمّ نظر إلى قباب قرية "جناة الشركس" التي بقيت بعيدة، نائمة في شمس الصيف. كان الطريق يمرّ عبر هضبتين جميلتين، كأنّهما ثديان ناهدان لامرأة بيضاء البشرة يشوبهما احمرار. كان يرى قباب أكواخ القرية من خلال الهضبتين. أسعده أنّه شبهها بثديي امرأة. ولكن أين هو وأين المرأة؟ لعنة الله على حظه الكريه. إنّه يعلم جازماً أنّ هرب بهية مع ذلك الآغا هو سبب كلّ ما يجري له. منذ ذلك الوقت حين علم بما فعلت، أصبحت الدنيا تجري بالمقلوب. لو كان كلّ شيء يسير على ما يرام لكان الآن يحمل بيده رأس الضبع عائداً به إلى جبرين. ولكن النحس يلاحقه، ها هي بهية، ومن قبل مقتل مدحت باشا، سنده الأساسي. آه لو كان حيّاً الآن، يا مدحت باشا قل لي أرجوك ماذا عليّ أن أفعل؟ قل لي أرجوك فأنا أغوص، وأتراجع. لو كان حيّاً لنصحه أن يرحل، ويبحث عن أحمد آغا وبهية عوضاً عن أن يبحث عن ذلك الضبع. سيقول له، اذهب، وابحث عنهما، اذبح بهية، وأخص أحمد آغا بحبل من القنب، ثمّ أطلق الرصاص على رأسه، واتركه للعقبان والنسور لتلتهم قلبه وعينيه. قضيتك ليست مع هذا الضبع الذي ليس إلا سحراً في سحر. إنّه ليس موجوداً، بل إنه قد يكون أحد تلك الذئاب التي كانت مستوطنة مغارة "أم السراج" يلتهم جثث هؤلاء الناس الذين لا يعرف من قادهم إلى هناك، ومن عراهم من ثيابهم ومن ذبحهم بعد ذلك، وتركهم للكلاب والذئاب.

عندما نزلوا من الجبل الصغير، توجهوا إلى قرية "مقبلة حسن آغا" ليدفنوا الجنديين، ورغم أنّ الملازم طمأنه أن مقتلهما قضاء وقدرا، إلاّ أنّه كان خجلاً من فعلته، يبعد عينيه عن أعين الرجال. قال لهم أحد رجال القرية إنّه كان عليهم أن يأتوا إليه، قبل صعود الجبل، وأنّ "بو سليم" حيوان لا يفقه شيئاً. قال لهم، إنّهم على علم بهذه الجثث، وأنّ رائحة النتن تبعد قطّاع الطرق عن المغارة، وأنّهم على علم بأمر الذئاب، وأنّ الجثث هي لعائلة من الأرمن، هربت من قوافل التهجير، واختبأت

في المغارة، وفي أحد الأيام جاءت قوة من الأتراك تبحث عن الضبع، فوجدت هؤلاء المساكين، فذبحوهم، وتركوهم طعاماً للذئاب.

دفنوا القتيلين، ثمّ ناموا ليلتهم في القرية، وعندما أصبح الصباح، أخذوا طريق العودة، وساروا يجرّون خيبتهم وخيبة ربيع الزيات. وها هو الآن يرقب الهضبتين الجميلتين كثديين ناهدين. ربّما يشتهي ربيع في هذه اللحظة امرأته هرباً من كلّ شيء، كي ينسى كلّ شيء، إنّه يريد أن ينام، وأن يحلم، إنّه يريد أن يموت (نعم أن يموت) لأيام، ثمّ يعود ليحيا من جديد، ولكن من دون كلّ هذا الذي أصبح ماضياً موشوماً على جلدته. آه، إنّه متعب، ينظر إلى قباب الأكواخ الطينية، وما تحتضنه من برودة رائعة تصلح للنوم، وكلّما اقترب من الهضبتين، أصبحت القباب أقرب فأقرب.

* * *

17

بعد أن قتل عمر بنبوك الأرغلي في بيت أمّ ربيع، وقام بدفنه في حوض الزرع. ركب حصان الرقيب القتيل، وعلّق بندقيته على كتفه، وانطلق على طريق دير الزور قاصداً ذات المكان قرب دير حافر حيث التقى بقطاع الطرق أثناء عودته من العراق.

كان طريق دير الزور محفوفاً بالمخاطر، فبالإضافة إلى دوريات الدرك التي تجوب الطريق، وتستوقف المسافرين كان هنالك عشرات الجنود الذين يرافقون المهجرين الذين استطاعوا الهرب من البادية، واقتربوا من حلب ومنبج، فقبض عليهم من جديد، وجمعوا في طوابير طويلة، تسير ببطء شديد، لإعادتهم إلى البادية، أو على الأقل معسكر خاص، أقامته ولاية دير الزور في قرية أبو هريرة، وأقامت على حراسته بعض الجنود وكثيراً من رجال عشيرة "فتلة" مرهوبة الجانب، التي ساعدتها الحكومة العثمانية على السكن في منطقة الفرات الأوسط بعد أن آنست منهم الطاعة لها.

ليس هذا فحسب، فطريق دير الزور، مثله مثل طريق دمشق . القدس أصبح من وجهة النظر الاستراتيجية من أهم الطرق التي يتم تزويد الجيوش العثمانية عبرها بالسلاح والعتاد والرجال والمؤن. فهذه الجيوش التي تمركزت في منطقة "هيت" قرب بغداد، التي احتلها الجيش الإنكليزي مؤخراً، تستهلك من المؤن بمقدار ربع ما يستهلكه الجيش العثماني المحارب كلّه. ولنقل هذه المؤن إلى هناك تعتمد هيئات الأركان على الخطّ الحديدي الواصل إلى الموصل وطريق حلب . دير الزور . الموصل.

ورغم كلّ هذه الأهمية الاستراتيجية لهذا الطريق لم تستطع حكومات الولايات التي يربط بينها، أن تؤمن سلامته من قطّاع الطرق كما يجب، وذلك بسبب قلة الرجال وضخامة المهام العسكرية التي تقوم بها الجيوش على الجبهات التي كانت بدورها تشكو من قلة الرجال والعتاد في الوقت نفسه.

وإن استطاعوا حماية الطوابير الكبيرة، فإنّهم لن يتمكنوا من حماية الغلال

التي يتمّ الاستيلاء عليها من المزارعين كالأعشار الكثيرة التي تمّ فرضها عليهم نتيجة لأعباء الحرب وغيرها من الغلال التي يقوم السماسرة بشرائها لصالح الجيوش تارة ولصالح الألمان تارة أخرى، الذين راحوا يعملون بمعزل عن الأتراك، وأصبحت لهم علاقات خاصة كان الهدف منها تسهيل حصولهم على الحبوب لإرسالها إلى برلين.

كلّ ذلك ولأسباب أخرى، أصبح طريق حلب دير الزور من أهم طرق السفر وأخطرها على السواء. ولهذه الأسباب أيضاً استطاع عمر بنبوك الوصول إلى دير حافر بمفرده مدعياً أنّه رقيب في الجيش السادس المعسكر في "هيت" وأنّه كان في إجازة في حلب وهو عائد إلى هناك، فتمّ تصديقه بسهولة، لأنّ هذا الأمر وارد تماماً، ولأنّ عينيه لا تسمحان للسائل بالأخذ والردّ مطولاً.

ولكن الوصول إلى دير حافر شيء، ولقاء قطّاع الطرق الذين يقودهم خضر المكنى بأبي العباس شيء آخر، دخل سوق دير حافر، واشترى مؤونة وتبغاً بليرة ذهبية، ثمّ عاد، وامتطى حصانه، وخرج يبحث عن العصابة، ولكنّه لم يخرج إلى طريق دير الزور، بل اتّجه نحو الأفق الشمالي، إلى قرية "تل الحميدية" وتل السوق ومن هناك إلى "أم تينة" و"تل ماعز". كان يسأل الرعاة والشيوخ والمارين عن أبي العباس وجماعته. إلا أنّ الجميع، كانوا ينفون معرفتهم به، وكانوا يتهربون من ملاقاته. فقد حسبوه قاطع طريق، أو قاتلاً، أو طالب ثأر، وهم لم يشجعهم أبداً بكلام لطيف أو ببسمة يرسمها على سحنته. وعندما اضطر في اليوم الأوّل للمبيت في مضارب عشيرة الأبي سبيع بجانب قرية أبي هولة حاول أن يستدرج شيخها دون جدوى. فالجميع لا يعرفون شيئاً. فهذه عادتهم، فهم أيضاً يخافون ثأر قطّاع الطرق من جهة، وبطش الدرك من جهة أخرى.

كان يترك رسالة إلى سليم، الذي انضمّ إلى جماعة الخضر، وبعد يوم أو يومين يعود إلى القرية نفسها، ويسأل عمّا إذا شاهدوا الخضر، أو أوصلوا الرسالة إلى سليم، والتي هي عبارة عن ثلاث كلمات لا غير: عمر يبحث عنك. إلاّ أنّ الجواب الوحيد الذي كان يسمعه هو: لا هذه هي حالة عمر بنبوك. بقي يبحث عن الخضر وسليم لأيام عديدة من دون جدوى. كان ينام في البراري وحيداً كأيّ حيوان.

وكثيراً ما كان يصادف بعض الفارين من الجندية أو بعض الأرمن أو قطّاع الطرق العاديين، إلاّ أنّه كان يبتعد عنهم بعد أن يسألهم عن الحضر.

وكلّما اقترب من الشمال الغربي، أخذ يصادف أناساً سمعوا عن الخضر وعصابته، إلاّ أنّهم لم يصادفوهم منذ مدّة. حدث ذلك قرب قرية أبو جبار. كانت "الولد العلي" مخيمة هناك طلباً للكلأ.

اقترب عمر من خيمة على ثلاثة أعمدة وهو منهك. نزل عن حصانه، ودلف إلى الخيمة السوداء، ووقف ينقل ناظريه بالجالسين. دعوه للجلوس، ففعل. طلبوا له الدخن، فأكل. وبعد ساعة، سأله أحد الشيوخ، وكان في التسعين عن حاجته...

– أبحث عن الخضر.

قال ذلك عمر بنبوك وهو لا يتوقع أيّ إجابة. لقد فقد الأمل بالعثور عليهم. هل يمكن أن يكونوا رحلوا إلى الجنوب مثلاً؟ قال له العجوز وهو يتفحصه من جديد:

– أعرفه. من تكون أنت؟

– أنا صديقه.

– هل أنت حلبي؟

– نعم.

– ماذا تريد منه؟

– أريد أن ألتحق به.

زفر الشيخ بوهن، وقال:

– لم نره منذ مدّة. كان يأتي كلّما مرّ بخيامنا، ولكنّه غاب عنا هذه المرّة. قبل شهر من الآن جاؤوا، ومكثوا قربنا يوماً كاملاً، ثمّ رحلوا. أظنّهم صعدوا إلى جبل الدير، هذا الذي تراه أمامك. وبعد يومين شاهدنا قوة من الدرك قادمة من "عويشية"، اقتربوا، وسألونا عن قطّاع الطرق. قلنا لهم، إنّنا لا نعرف شيئاً، تركونا، ورحلوا بعد أن أخذوا كبشين من الغنم. اتّجهوا بدورهم إلى جبل الدير، وفي فجر اليوم التالي سمعنا أصوات إطلاق نار قادمة من الجبل، ومنذ ذلك اليوم لم نشاهده وأصحابه. قال لنا أحد أولاد "الكيار" إنّ الدرك قد قتلوهم. حزنا عليهم كثيراً، كانوا يحموننا من قطّاع الطرق الآخرين، إنّهم طيبو القلب.

في أحد الأيام خطف لنا أولاد الراشد بعض رؤوس الغنم، هو وحده الذي استطاع أن يعيدها إلينا. قلت لك إنّنا حزنا عليه وعلى أصحابه كثيراً، ولكن بعد يوم أو يومين مرّت بنا قافلة من عشيرة الوهب. سألت محي الدين شيخ الوهب عن الخضر وأصحابه. قلت له هل صحيح ما سمعت من أنّ الدرك قتلوه؟ ضحك الشيخ محي الدين مستغرباً ما قلته، ثمّ أكّد لي أنّه نزل سالماً من جبل الدير بعد أن قتل بعض الدرك. هذا ما أعرفه يا ابني عن الخضر وأصحابه. لست متأكداً من هذا أو ذاك. ابقَ معنا، فإن كان حيّاً، فسيأتي إلينا!

ثمّ غرقت الخيمة في صمت طويل، كانوا يراقبونه صامتين، يراقبون وجهه وعينيه ولحيته ورقبته المشوهة، يراقبون صمته وحزنه وقوته. نظر إليهم، تلاقت أعينهم، عرف أنّهم يثقون به، ولكنّه لا يستطيع البقاء، عليه أن يجد الخضر.

ودّعهم في اليوم التالي، ورحل، اقترب من جبل الدير، وعند السفح، وجد صبياً يرعى الغنم. صعد معه الصبي إلى المغاور، بحثا هناك طوال النهار، فلم يجدا أحداً. كان الصبي يعرف ذلك فقد صعد بمفرده في اليوم السابق. لو كان الخضر في أحد هذه المغارات لعرف الصبي.

جلسا بعد أن هبطا إلى السهل. استلقى عمر، وأغمض عينيه. بعد ساعة قال له الصبي:

- أنا أريد أن أخدمك يا عم.

فتح عمر عينيه، ثمّ جلس. قل إذن ماذا هناك!... فقال الصبي:

- انتظرني ساعة.

ركض الصبي مبتعداً باتّجاه أربعة أكواخ على بعد ألفي ذراع، ثمّ عاد برفقة صبي آخر. تركه مع الغنم، ثمّ طلب من عمر أن يركب، ويركبه خلفه. سارا حتى حلّ الظلام، ثمّ استلقيا في العراء ينتظران طلوع الفجر، وعندما طلع أخيراً شاهد عمر خياماً على بعد ثلاثمائة ذراع.

أيقظ الصبي الذي قال له إنّهما وصلا إلى حيث يريدان. نهضا، وسارا على قدميهما، وما إن اقتربا من الخيام، حتّى سمعا صوت امرأة تخض اللبن، وهي تغني. كان صوتها يعلو، ويعلو، كلّما اقتربا من الخيام. صوتٌ جميل ناعم لا علاقة له بكلّ

هذه الخشونة التي تحيط به. لا علاقة له بهذه الأرض الجرداء القاسية. ولكن اندغام صوت المغنية بالفجر الهادئ، جعل عمر يشعر بقشعريرة تهز جسده. منذ زمن بعيد وهو يعيش في صلابة وقسوة، وقد جاء صوت المغنية التي لم يرها بعد ليثبت له أن جزءاً من هذا العالم، مازال ناعماً ولطيفاً، وأنّ فريدة موجودة، وهي جزء من هذا العالم. اجتازا بهدوء الخيمة الأولى والثانية ظهرت صورة المرأة في ثياب سوداء، مقرفصة أمام قربتها وشعرها الفاحم منسدل ومتموج، امرأة جميلة أخذ صوتها هدوءه من جمالها. توقف عمر، ليطلّ براءة هذه الدنيا. سمعها تغني بوضوح، وهي تهز قربتها على إيقاع أغنيتها:

الريم هد وسرى من دربة السلمان

من يوم فراق الولف قلبي اشتعل نيران

ملعون أبو هالبنت الكافر الخوان

ادعاني طعين الهوى ولا التفت ليّا.

ما إن انتهت من أغنيتها حتّى رأتهما، توقّفت يدها عن الشغل، وقد جمّدتها عينان قاسيتان، شاهدت عبرهما ألفة ولدت قبل لحظات. لفّت شعرها تحت غطاء للرأس كانت تركته إلى جانبها، ثمّ نهضت.

– ماذا يا حسين؟

فقال الصبي، وهو يشير إلى عمر:

– هذا الرجل الطيب يبحث عن أبو العباس.

استدارت المرأة، وراحت تتفحص الرجل الطيب. هزت رأسها، وكأنّها عرفت شيئاً أو فهمت أمراً. دعتهما للابتعاد عن الخيام. سارت أمامها قليلاً، ثمّ توقفت، واستدارت من جديد. سألت عمر:

– هل أنت عمر الضبع؟

استغرب عمر قولها بعينيه، قطّب حاجبيه، إلاّ أنّ المرأة تبسّمت، وتابعت قولها:

– أنت الذي أنقذت سليماً من الأتراك. حدّثني عنك مرّات ومرّات. حقّاً إن لك نظرة الضبع، إنّه يحبّك كثيراً. كان...

قاطعها عمر بقوله:

- أين هم، بحثت عنهم كثيراً. ماذا حدث لهم؟

- ليسوا هنا.

- أين هم إذن؟ هل هم أحياء؟

زفرت الصبية، ثمّ قالت للصبي:

- اذهب، وخض اللبن عني.

ذهب الصبي، فبقيا بمفردهما. جلست، ودعته للجلوس، ثمّ حدثته بكلّ شيء.

* * *

بينما كان أبو العباس وسبعة من عصابته ملتجئين في إحدى مغاير جبل الدير، سمع سليم الذي كان يحرس النيام على باب المغارة صوت زقزقة عصافير الدوري والشير، التي كانت تتطاير، وتحطّ على شجيرات القيصوم والسّماق، كأنّها تلعب مع بعضها كالأطفال، ثمّ سمع شحروراً يغرّد وهو واقف على صخرة، يستقبل بريشه الأسود الأملس طلائع أشعة شمس النهار، ثمّ سمع دبيباً وهمساً وصوت رجل يتمخط، ثمّ شتيمة لاذعة.

كان يتابع العصافير بأذنيه وعينيه. وكان ذهنه قد رحل إلى مكان لم يطأه من قبل، حيث يمكن أن تكون زوجته، مازالت حية تنتظره فيه، علّه يأتي، ويعيدها إلى بيروت. وما إن عاد ليفكّر في ابنه الذي تركه مع إحدى نساء عشيرة "مسلط باشا" التي زوجوها له بعد أن أعلن إسلامه، حتّى انتفض، ثمّ جمد، ثمّ قذف بنفسه إلى داخل المغارة، وأيقظ الآخرين.

لقد جاء رجال الدرك، بل كانوا من عسكر الجيوش، فحدثت معركة بين الجانبين. كان أبو العباس، يطلق النار، ويشتم سليماً. أين كنت يا سليم، هل كنت نائماً، لعنة الله عليك!

- أولاد الكلب، لم أسمعهم يصعدون.

- ماذا كنت تفعل؟

- لم أسمعهم يصعدون، ردّ سليم، وهو يطلق النار أيضاً.

استمر إطلاق النار حتى المساء. لم يتركوهم يقتربون من المغارة لإلقاء القنابل فيها. وما أن حل الظلام حتى أطلقوا الرصاص على الأحصنة ثم انسلوا فرداً فرداً يهبطون الجبل مسرعين قبل أن يطلع القمر على القمة فيتم كشفهم وقتلهم. كان الخضر واثنان من عصابته آخر النازلين. وقبل أن يصلوا إلى السهل المقابل "للبيرة" أضاء القمر السفح فراح الجنود يطلقون النار على الثلاثة، فأردوهم قتلى.

ولكن الآخرين ومن بينهم سليم استطاعوا الهرب والوصول إلى بئر روماني قديم يقال إن ماءه غير صالحة للبشر فنزلوا فيه واختبأوا في القناة عشرين يوماً حتى زال الخطر وتوقف الجنود عن البحث عنهم.

كان الأعراب يفدون إلى البئر ليرووا بمائه أغنامهم، وكانت أسرة الشيخ موسى، وهي من "الهنادي" التي يرجع أصلها إلى مصر، حيث أن بقايا الأعراب المتطوعة في جيش إبراهيم باشا المصري قد بقيت في ريف حلب، بعد أن احتلها في عام 1832، تخيم قرب البئر. كانت بدرية أوّل من اكتشفهم، وهي نفسها المرأة المغنية التي حدثت عمر بهذه القصة. رقّ قلب المرأة عليهم. أحدهم أخبرها أنّهم من الفراري، وأنّهم يختبئون من العساكر الذين يبحثون عنهم، ليقوموا بشنقهم في حلب. أخبرت أباها الشيخ موسى بالقصة. وبما أنّ القلب الطيب كان طبع الأسرة فقد قامت، بكلّ أفرادها، على رعايتهم وإطعامهم وإبعاد الجنود عن البئر بشتى الوسائل.

وما إن زال الخطر حتى أخرجوهم من البئر، واستضافوهم في خيمهم عدّة أيام. وبما أنّ مقتل الخضر قد أنهى وجود العصابة عملياً، فقد قرّر ثلاثة منهم العودة إلى بيوتهم وليحصل ما يحصل.

بقي اثنان أحدهما سليم. كان يجلس ساعات، يحدّث الشيخ موسى وابنته بدرية عن ماضيه الأسود كما كان يقول. أخبرهما بقصة نفيه وبقصة زوجته وأهله. أخبرهما عن هربه من المنفى وعن لقائه بشخص مهيب مشروم العنق، تشعّ عيناه بطاقة تستطيع أن تنيخ جملاً، أو تستطيع أن تضبع شخصاً أو عدّة أشخاص مرّة واحدة.

– كيف ذلك؟ سأل الشيخ موسى القزم ذو الأنف الكبير. إلاّ أنّ سليماً أقسم له برب الكائنات، أنّه كذلك، وأنّ اسمه عمر بنبوك، بل عمر الضبع، وأنّه لا يعرف

مصدر هذا الشيء.

عند ذلك بدأ يعلو ثغاء الغنم ورنين أجراسها، وراحت ضجة تعمّ في الخيام بسبب استيقاظ أسرة الشيخ موسى، كانت الشمس قد أشرقت مبلّلة بمياه الفرات. أحسّ عمر بدفئها، وهو يستمع إلى بدرية السمراء كالغجريات، وهي تحدّثه بصوتها الناعم، وكأنّها ما فتئت تغني.

وقفت المرأة، وقالت:

- هذا هو أبي.

استدار عمر، فشاهد رجلاً لا يزيد طوله على المتر والنصف، عاري الرأس، أصلع، يحمل على وجهه أنفاً ضخماً. نهض، وسلّم عليه. عرفتهما الصبية ببعضهما فرحب الشيخ موسى بضيفه الذي سمع عنه الكثير من إنسان لا يدخل لسانه إلى حلقه.

استضافوه ثلاثة أيام، كان الشيخ موسى خلالها يتفحص بسذاجة ملامح عمر وعينيه وعاداته، كان يسأله أسئلة تافهة ليخرجه من صمته، فيتأكد أكثر فأكثر من كلام سليم. ولما علم أنّ سليماً ورفيقيه، قد رحلا إلى بادية الرصافة ليلتحقا بأصدقاء الرفيق، الذين وجدوا مأوى عند عشيرة "الصلبة" قرّر أن يلحقهما إلى هناك.

سأله الشيخ موسى قبل أن يودعه:

- ماذا يا ابني، هل سنراك مرّة أخرى؟

- لا أعلم يا شيخ موسى.

- لماذا لا تعود إلى حلب؟

- إنها قصّة طويلة يا شيخ.

- ستجد مأوى عند الصلبة، كما أنّنا نرحب بك، عد إلينا متى أردت.

عانقه عمر، ثمّ قال له: شكراً لك يا شيخ موسى. ثمّ عانق أيضاً أبناء الشيخ وأصهرته، وشكرهم. طلبوا منه أن يوصل السلام إلى سليم. ثمّ ركضت بدرية تسوق الحصان، وسلّمته إياه. أخذ العنان منها. وعندما استدار إليها ليشكرها، رآها تنظر إليه بعينين غائمتين. أحسّ أنّها حزينة، وأنّها تتمنّى لو أنّه يبقى، حاول أن يبتسم كم مرّة حاول وهو عندهم، إلاّ أنّه يعرف استحالة ذلك. هزّ رأسه، ثمّ نظر إليها لآخر

مرّة ووضع قدمه في الركاب، وامتطى الحصان، ثمّ انطلق مسرعاً.

عاد الشيخ موسى والآخرون إلى أعمالهم قبل أن يحلّ الظلام، إلاّ أنّ بدرية بقيت واقفة تشيّع بنظرها عمر، الذي كان يخبّ باتّجاه الجنوب. كانت تشعر بغصة في صدرها، بشيء لم تشعر به من قبل. جلست في مكانها وعيناها لا تفارقان الأفق الجنوبي، ها هو يرحل، عمر الضبع يرحل، ولكن لا... إنّه ليس بضبع، إنّها الوحيدة التي اكتشفت أنّه ليس بضبع على الإطلاق. أطلقت تنهيدة باتجاهه، وراحت تغني له:

قلت اسمك، قالت اسمي بدرية

قلت خدك، قالت وردة جورية

قلت أهلك، قالت شالوا صبحية

خضر أبو العباس يجمع شملنا

بعد أربعة أيام من المسير الليلي، وصل عمر بنبوك إلى طرق الطاووس عند الطرف الشمالي من بادية الرصافة. في البداية سار على ضفاف "نهر الذهب" الذي ينبع من المناطق القريبة من بلدة "الباب" شمالاً، ويصبُّ في "مملحة الجبول" جنوباً، راوياً حقول القمح الصفراء في البداية، مختفياً في حقول الملح البيضاء في النهاية. ورغم أنّه حسب قضاء النهار سيكون صعباً، إلاّ أنّ بيوت الشعر المنصوبة في بعض المناطق، جعلت حتى النوم ولكن، بكثير من الحذر، شيئاً ممكناً.

لم يحدث له سوى حادث واحد. فقد حاول قاطع طريق سلبه حصانه فأرداه قتيلاً، وعندما أراد الانتقال ليلاً إلى الطرف الآخر من طريق دير الزور تحت الجسر الخشبي المقام على نهر الذهب، سمع حارس الجسر يأمره بالتوقف فلم يفعل بل تابع المسير يخوض في مياه النهر، ولم يحدث أي إطلاق نار فالحارس نفسه كان يرتعد خوفاً. من "الجبول" إلى "جب علي" مروراً بقرية "خساف" كان عمر يقود حصانه خائضاً في أوحال المملحة والقفار البيضاء. كانت أشعة الشمس المنعكسة على الأرض المبيضة تؤذي عينيه. وكانت الجمال السارحة في البرية وبيوت الشعر البدوية المنتشرة بدون نسق تشعره بالأمان ها هو الآن بعيداً عن السلطة ودركها وعيونها. لأوّل مرّة منذ أشهر، يشعر بنفسه طَلِقَة فراح يتنفس بعمق. وعند "جب

علي" سأل بدوياً عن خيام الصلبة، فدلّه إلى "المحساني".

بعد ثلاثة ساعات من المسير إلى الجنوب، وصل عمر إلى مضارب "الصلبة" كانت ثمّة عشرات الخيام السوداء ومئات الرجال والنساء والأطفال ورؤوس الغنم والحمير، اختلطت ببعضها، كأنّها مخلوقات واحدة.

نزل عن صهوة حصانه، ووقف بجانب خيمة يراقب الجمع، التي لا تشبه شيئاً خبره وعرفه. كانت الشمس تميل إلى الغروب، فخرج الناس من خيامهم يستقبلون برودة المساء، شاهد امرأة تغني ورجلاً يعزف على ربابة، وآخرين يرقصون مع صبيتين ضاحكتين. بينما الأغنام تبحث إلى جانبهم عن شيء ترعاه من الأرض فلا تجد، فتطلق ثغاءها، وتهز ألياتها وهي تتحرّك بين الناس. والشيء الذي لفت نظره هو كثرة الحمير، ويبدو من ذلك أنّ هؤلاء القوم يحبّون الحمير أكثر من الأحصنة.

وإلى اليسار منه شاهد جمعاً كبيراً من الرجال والنساء يتصايحون، وهم يلوحون ببنادقهم اليونانية القصيرة ذات الطراز العتيق، التي تطلق النار بإشعال الفتيل. وميّز كثيراً منهم بملامح واحدة، أمّا الآخرون، فقد كانت لهم ملامح مختلفة، وكلّ واحد منهم يختلف عن الآخر. كان الشيء الذي يشغلهم هو موضوع تمرد "مجحم بن مهيد" شيخ شيوخ فدعان العنزة على الأتراك بعد أن كان صديقهم الصدوق. ها نحن نسجل نقاشاتهم بلغة فصيحة، لأنّ كلامهم غير مفهوم لمن لا يحتك بهم، وقد فهم عمر بنبوك آنذاك كلّ كلامهم:

– اسألوا سالم، إنّه من العنزة، اسألوه عن السبب. سالم يا سالم، قل يا سالم!.

فقال سالم:

– الشيخ مجحم يكرههم منذ زمن.

– منذ متى؟

– منذ مدّة طويلة.

– اسكت يا سالم، نحن نعرف أنّ عشيرة "فتلة" في المشحاب والشامية وعشيرة عنزة هنا، أصبحا من أكثر العشائر المدافعة عن الأتراك في وجه من يتمرّد عليهم.

– هذا ليس صحيحاً.

- بل صحيح.

- عشيرة فتلة تصدّت لعشائر الخزاعل وآل شبل وبني حسن.

- ولمن تصدت العنزة... آه؟ ... يا وجه النحس؟

- أنا أقول لكم، الأمير مجحم تنازق عليهم، لأنّهم بدأوا يصادرون من قراه، الحبوب والخيل والغنم.

- أنت ذكي يا طيز الجحش.

- لا... لا... انظروا إليّ، شيوخ القبائل بدأوا يحسّون أنّ الأتراك قد خسروا الحرب، ولم يعد هناك مصلحة لهم في الوقوف إلى جانبهم.

- الأتراك لن يخسروا الحرب.

- بل نعم.

- بل لا..

- سقطت العقبة بيد العربان. هكذا قال لي أهل "الروالة".

- وسقطت بغداد.

- الأتراك مازالوا أقوياء، سوف يخصونكم جميعاً.

- يقولون إنّهم سيجندون البدو في الجيوش.

- بل سيجندون نساءكم.

- ما رأيك يا شيخ ساكت.

- اتركوه ساكتاً.

- رأيي أنّ كلّ من لا يزال يحمل بين فخذيه عدّته عليه أن يشكر الله.

- ها... ها.. ها... لقد فهمنا يا شيخ ساكت لماذا لا تشكره أنت؟.

- إنني أشكره صبحاً وعشية، أمّا أنت فإنّك تشكر زوجتك لا غير.

- وماذا سيفعل الأمير مجحم الآن؟

- رحل إلى البادية.

- وكيف سيتمرد عليهم؟ هل سيبقى في البادية؟

- لم يعد يمنع القبائل من إتيان شيء.

- والله، هذا تصرف حسن.

- كان يمنع الصلبة من إيواء الغزاة والمتمردين وقطّاع الطرق.

- الحمد لله أنّه رحل إلى البادية.

- سيعود ليقطع لسانك.

- سكوت...!

- ماذا؟

- هل سمعتم آخر الأخبار؟

- نعم... لقد ولدت جحشة محمود وهب.

- اتركوا المزاح... يقولون إنّ رجلاً يشبه الضبع، الذي حدّثنا عنه سليم يجوب البراري بين دير حافر والباب، وأنّه قتل رجلاً على نهر الذهب، وأعطى فقراء "الفردون" خمس ليرات ذهبية.

- ومن هذا؟

- إنّه من حلب، يمتطي جواداً أصيلاً، ويحمل بندقية وكيساً مليئاً بالقطع الذهبية. يقولون إنّه يبحث عن أبو العباس.

- ولكن الخضر مات... قتله الأتراك.

- نعم، ويبدو أنه لا يعرف ذلك.

- وهل عرف بذلك سليم.

- لم يعرف بعد.

بعد ذلك راحوا يتناقشون في أمور الصيد وركوب الحمير، وفي تلك الأثناء علا صوت الربابة، التفت عمر إلى جهة المغنية، وكانت المرأة تغني وهي تراقبه. كانت تتمايل، وكأنّها تغني له:

"علمايوني، علمايوني، بيع الفرس والبيت واشتر عيون، يا مدرج الحيران بالك تحير، أفك زرار التوب وأنت المخير".

ضحكت المرأة، وهي تغني غناء الشطر الأخير، ثمّ لوحت له بيدها. رآه عازف الربابة، فتوقف، ثمّ شاهده الراقصون، فتوقفوا أيضاً. ومن اليسار سمع صوتاً ينبّه إلى وجوده، فخفتت الأصوات والضحكات، ثمّ رآهم يدنون منه. منهم من كان يحكّ قذاله، ومنهم من كان يحكّ ذقنه أو لحيته. فاغري الأفواه، متسعي الأحداق.

تجمعوا حوله في دائرة. يجمعهم الصمت والاستغراب. إنّه فعلاً ضبع، فقد ضبعهم. سمع عمر أحدهم يقول ذلك. ثمّ سمع آخرين يرددون كلمة ضبع بصوت خافت.

نخر حصانه من منخريه بقوة، وراح يضرب الأرض بحوافره، آثاره الجوع والعطش، أراد عمر أن يسأل عن سليم، ولكنّه توقف، شاهده يدفع الناس، ويقترب، وعندما وقف أمامه، مدّ يده إليه. إلاّ أنّ سليماً الذي بدّلته البرية، فاسمرّ، وطالت لحيته، احتضنه، وهو يصيح:

– آه يا سيدي عمر... آه يا سيدي عمر... كيف أتت إلى هنا؟ آه يا أخي، آه يا منقذي اشتقت إليك، كيف وصلت إلى هنا، من قال لك إنني هنا؟ يا إلهي. انظروا يا أصدقائي ها هو عم الذي حدثتكم عنه، إنّه عمر... عمر الضبع... تعالوا... تعالوا سلّموا عليه، ولكن لا.. اتركوه يستريح الآن، تفضل يا أخي، لدي خيمة، إنّهم أناس طيبون، إنّهم الصلبة، أروع قبيلة في سورية، بل قل في العالم أجمع، إنّهم قوم مرحون، يحبّوننا، تعال يا أخي، هل سمعت بالصلبة؟ ولكن كيف وصلت إلينا؟ لا أحد يعرف مكاني سوى الشيخ موسى، هل كنت عندهم؟ تعال يا أخي... تعال!

قال سليم أشياء أخرى، ولكنّ صوته ضاع بين الناس وضحكاتهم وأهازيجهم. زغردت امرأة، وعاد عازف الربابة إلى عزفه والمغنية إلى غنائها، ونهق حمار من حمير الصلبة المشهورة.

* * *

عاش عمر بنبوك الملقب بالضبع أسبوعاً كاملاً في مضارب الصلبة، أحبّ ناسها، وأحبّوه. فهو غاز أو قاطع الطريق، أو يشتهي أن يكون كذلك، وهو قاتل سارق خيل في براري دير حافر، وأهم من ذلك هو الضبع الذي ذاع صيته في البراري. كم مرّة جاءهم أناس يتحدّثون عنه رغم أنّه لم يلحق أن يفعل شيئاً، وكلّ ما عمله هو قتله لرجل أراد سلبه حصانه، ومنحه أسرة فقيرة من عشيرة "الفردون" خمس ليرات ذهبية، وكأنّهم ينقلون خبراً جديداً لا تعرفه الصلبة ومن تأوي. ولكن الصلباويين يهزأون من فورهم بنقلة الأخبار، هؤلاء ثمّ يتفاخرون أمامهم بأنّ الضبع بينهم، وأنّه فضّل الصلبة على غيرها، وبينما يتحمس الزوار لإلقاء نظرة عليه

ليتأكدوا مما يروى عنه، فإنّ الصلباويين أنفسهم لا يكفون عن الرواح والمجيء بالقرب منه للتمعن فيه.

ومع ذلك فقد سارت الحياة في المضارب كما هي عليه الحال دائماً، لم تتبدل حياة الصلباويين رغم أنّهم لا يتوقفون عن الحديث عن الضبع، استمروا في رحيلهم إلى صيد الغزلان والظباء والأيائل والأرانب وطي القطا والحبارى ودجاج القرنبيط. استمروا في رعي أغنام جيرانهم العنزة والكبار والرحيل بها إلى ضفاف الفرات قرب "مسكنة" حيث الكلأ في تموز وآب. ولم يتوقفوا عن استقبال وإيواء الغزاة، والهاربين والمتمردين، وخاطفي الزوجات، وطالبي الثأر، والعشاق المصابين باللوثات، والمغنين والراقصات والجواسيس والهاربين من الذبح من الأرمن والسريان واليزيديين الإسماعيليين، والسياسيين المناهضين للحكومة، والهاربين من المنافي.

كان عمر يجلس خارج خيمة صديقه، بعد العصر من كلّ يوم، وهو يراقب الناس بصمت وتجهم، كاتماً غيظه من طريقة سليم في الحكي واللت والعجن، من طريقته في جلد أسماع الضبع لساعات وساعات من دون ملل أو كلل.

كان يجلس مدخناً عشرات السجائر، مرتشفاً فناجين القهوة المرة، ملتهماً صحون العصيدة المقرفة المصنوعة من الذرة البيضاء، التي تسمّد، وتطبخ على طريقة أهل الصلبة، ويوضع عليها السمن يوماً واللبن يوماً آخر. كان يراقب هؤلاء الناس، البسطاء، طيبي القلوب، الذين يعيشون حياتهم من دون تعيد، ومن دون خوف، ومن دون هروب، إنّهم يعيشون، يرقصون، يغنون، يقبّلون زوجاتهم في ساحة المخيم أمام بعضهم البعض، يمزحون، يتشاجرون ويصفعون مؤخرات نسائهم، إنهم يحبون، يشتهون، يضاجعون النساء، ويخلفون الأولاد والبنات ويمرضون ويموتون.

إله، إله احفظ لنا عشائر الصلبة وأبعد عنها كلّ الشرور! ولكن، ما الذي أبقى عمر الضبع متجهماً؟ بماذا كان يفكّر؟ هل كان يفكّر في كلّ المآسي التي شاهدوها، أم في الأيام العديدة التي قضاها هائماً على وجهه كالكلاب في براري دير حافر والباب؟ هل كان يفكّر في زوجتيه؟ في بهية اللعينة أم في فريدة الناعمة؟ أم أنّه يلعن الاثنتين، ويحمد الله أنّه هرب من البيت، وتركهما تتصارعان كالديوك؟ ما الذي جعل عمر الضبع، يهمس في أذن سليم، فينهض، ويجمع عشرة من الغزاة

والهاربين من المدن وقطّاع الطرق القدامى، ويدفع له ببعض الليرات الذهبية، فيرحل مع ثلاثة منهم إلى عشائر الكيار، فيعودون، وهم يسوقون عددا من الأحصنة؟ لماذا يريد الضبع البقاء معهم، وقد أحبّوه، وأحبّهم، بل ركب وعشرة من أصحابه مدججين بالبنادق وأحزمة الرصاص، وقرّب الماء والمؤن، ثمّ انحنى على صهوة حصانه الأصيل، فقبّل شيخ الصلبة، وأعطاه بعض الليرات الذهبية كهدية، ثمّ ودّع الجميع بحركة من يديه، وانطلقوا يخبّون، ويثيرون العجاج؟

لا جواب... وعندما وقفوا يودّعون الضبع وسليماً وأصحابهما منطلقين إلى الشمال، ذرفت نساؤهم دمعات صادقات، وأطلق الرجال بعض العيارات النارية تعبيراً عن محبتهم لهم، ثمّ انفضّ الجميع بعد أن تحدّثوا قليلاً، وتناقشوا، ومدحوا الضبع، ثمّ غنوا، ورقصوا، وأعادت تلك المرأة غناء الشطر الأخير من أغنيتها، وهي تتنهّد بعمق يشوب غناءها لوعة وحسرة:

... أفكّ زرار التوب، وأنت المخير.

* * *

18

عليه أن ينصب كميناً لهذه القوة، وينتهي منها، ها هي قد نضجت، منذ أسابيع عديدة وهي تلاحقه، أو تبحث عنه، أو تتقصى أخباره وأخبار رجاله. يجب أن ينتهي منهم أن يريحهم، فقد عانوا كثيراً من المسير إلى هنا وهناك تحت أشعة الشمس، حتّى أنّه، ملّ أخبارهم. سئم منهم ومن ملاحقتهم له أو من ملاحقته لهم، كلّ يوم على هذه الشاكلة، كلّ يوم يأتونه، بأخبارهم حتّى، أنّه سئم دعابات رجاله عنهم، وخصوصاً سليم الذي اعتاد أن يقعد إلى جانبه، ويروح يطلق رشاشه الذي لا ينتهي، وهو يحدّثه عن آخر أخبار العثمانلية.

ولكن لماذا اهتمّ هو بالذات بهذه القوة دون غيرها؟ حسب علمه، فقد دفعوا بخمس فرق للبحث عنه، ثمّ جعلوها تسير بشكل متقاطع علّها تقع عليه. إلاّ أنّ هذه الفرقة التي يقودها ملازم أمرد الوجه، حسبما وصل إلى سمعه، ويشبه النساء إلى حدّ ما بحركاته وطريقته في الكلام، ويساعده رقيب، كان يثق بنفسه يوماً من الأيام، ثمّ كفّ عن ذلك بعد أن تسبّب في مقتل اثنين من رجاله، جعلته يشعر نحوها بمزيج من الفضول والسأم، اقتسم الرجال الهضبتين على جانبي الطريق، وقعدوا ينتظرون الملازم ورجاله. كان الطريق الملتوي المؤدي من "أبو كهف" إلى "جناة الشركس" فارغاً. لم يظهروا بعد، استلقى عمر على ظهره، وخبّأ عينيه، ليحميهما من أشعة الشمس الحارة. حاول أن يفكّر إلاّ أنّ رأسه كان يرفض التفكير، فسمع طنين ذبابة، ثمّ وقف على أرنبة أنفه، وما لبثت أن طارت بعد أن نفخ بقوة. أنهض جذعه، ونظر من جديد ناحية الشمال، كلّ شيء هادئ، لا يسمع سوى حفيف لطيف يسببه الريح الطلق في الأذنين. عاد إلى الاستلقاء على جنبه، وراح يلفّ لنفسه سيجارة، ثمّ أشعلها، وجعل ينشق دخانها، وهو يستمع إلى سليم، يعيد سرد قصّة هروبه من ديار بكر على رجل التحق بهم حديثاً. ولكن سليماً اعتاد تحوير قصته في كلّ مرّة يسردها على أحد ما، وعمر يعرف ذلك تماماً. وعندما انتهى، شرع سليم يفلت لسانه دون ضابط:

– انظر، إنّه هو، هو الذي حدّثتك عنه، عمر بنبوك ولكنّه الضبع، عمر

بنبوك هو الضبع إنّه ليس بسيطاً، إنّه رجل، أنت لم تقابل رجلاً مثله في حياتك كلّها، هل حصل لك مثل هذا؟ أقسم بالله إنّه لم يحصل لك مثل هذا! اسألني أنا، لقد رأيت الموت بعينيّ هاتين، وخلّصني منه هذا الضبع. إنّه لا يخاف، ولماذا يخاف؟ إنّهم مجموعة من الخصيان، لقد شاهدته يردي ثلاثة جنود بمسدس صغير كالإصبع، هل تعلم لماذا لم يقاوموا؟ طبعاً أنت لا تعرف، إنّه ضبعهم بعينيه يا أخ! في إحدى المرّات جلس الضبع حزيناً، عرفنا إنّه مشتاق لزوجته، هل تعرف ماذا فعل؟ طبعاً أنت لا تعرف، نزل إلى حلب، لحقنا به، واختبأنا في مغاير الكلاسة، وقبل الفجر ذهبنا إلى حيث أخبرنا، أنّه ذاهب، وأتينا به. ها.. ها.. ها... كنّا نحن الخائفين، أمّا هو فلم يكن، سوف ترى يا أخ. اليوم بالذات سترى ما يمكن أن يفعله الضبع، بعد قليل سيأتي ثلاثون جندياً، مسلحون حتّى الأسنان، ولكن مثل هذه الأمور لا تهم الضبع. انظر كيف هو نائم. هل تستطيع أن تفعل مثله؟ لا يا أخ أنت لا تستطيع، إنّني أخمّن أنّك قد بلت في لباسك منذ ساعة. الحرب ليست لعبة، أنا أقول لك، قطع الطرق ليس مسخرة، والسير مع الضبع له أصول، قتل المساكين والفقراء والفارين ممنوع. عليك أن تسرق الطعام من الجنود لتقدّمه إلى الجائعين. هذا ما يفعله الضبع. في إحدى المرات دخلنا ليلاً إلى إحدى القرى. قرية صغيرة بعشرة بيوت طينية. فجأة خرجت إحدى النساء، وهجمت علينا، وهي تشير لنا أن نتوقف. قلنا لها ماذا؟ قالت إنّ دركيين ورجلين آخرين، ينامون في البيت ذي القبتين. سألهما الضبع، عن سبب مبيتهم في القرية، فقالت إنّهم أتوا لأخذ ضريبة الموسم وعشر الحرب، حسناً. أشعلنا المشاعل، ودخلنا عليهم، فقد كان الباب مفتوحاً، أيقظناهم، أفاقوا، وهم مذعورون، أحدهم بال مثلك في ثيابه، هل تعرف ماذا فعل الضبع بهم؟ لا... لم يقتلهم، يا لك من أبله. لو كان قتلهم، لهدموا القرية، وهجّروا أهلها، إلى صحراء البادية. بل ساومهم على حياتهم، طلب منهم أن يأخذوا مقداراً أقلّ من الحبوب بحجة أنّ الموسم كان سيئاً في القرية، ثمّ طلب منهم الرحيل في اليوم التالي. هل أعجبتك هذه القصة؟ طبعاً ستعجبك، وسوف ترى أشياء مثلها بعينيك. ومرّة قمنا بغارة على طريق دير الزور. كانت هنالك عربة تخلفت عن طابور ينقل المؤن إلى العراق، لم نقتل السائق والحارس، بل سرقنا العربة، وجررناها إلى مكان

تجمع فيه مئات من الأرمن المساكين. كانوا يموتون من الجوع والمرض. نساء وأطفال من دون رجال. جثث الموتى منهم متروكة إلى جانب الأحياء. سقنا العربة إليهم، وتركناهم يصعدون إليها. كانت مليئة بخبز الصمون. وقفنا بعيداً عنهم نراقبهم. يمكنك يا أخ أن تتصور ماذا يفعل مئات من البشر الجائعين الذين تركوا أياماً طوالاً دون طعام، وقد رأوا أنفسهم أمام عربة مليئة بالخبز؟ طبعاً أنت لا يمكنك أن تتصور، وكيف يمكنك أن تتصور؟ أنت لا تستطيع شيئاً سوى هز رأسك والتبول في لباسك. في المرة القادمة حينما نذهب إلى "الصلب" سأطلب منهم إعطاءك شراباً مصنوعاً من الأعشاب لهذا الأمر. رجال الصلبة رائعون، إنهم يستطيعون شفاءك من جميع الأمراض، حتى أنهم يستطيعون جعلك تعشق نهيق الحمير، نعم يا أخي... ماذا كنت أقول؟ آ... نعم... بعد أن أكل الأرمن الخبز، وشربوا ماء، راحوا يتجشأون. أصيبوا بمرض امتلاء المعدة بعد جوع طويل أصبح الأمر مضحكاً، وقبل أن نذهب، اقتربت شابة جميلة كانت قصّت شعرها كي تبدوا قبيحة فلا يلمسها أحد من الأوغاد، وقبّلت الضبع، عرفت أنّه قائدنا، فقبّلته، ثمّ رجته بالتركية أن يأخذها معه، ضحكنا حينها كثيراً. شرحت لها أنّنا قطّاع طرق، وأنّ حياتنا في خطر أكثر من حياتهم، ولكنّ الشابة أصرّت، قالت، إنّ أمّها وأباها وإخوتها وجميع أقربائها قد ماتوا، ولم يبقَ لها أحد، ويمكنها أن تذهب معنا، وأنّها تستطيع أن تطلق النار، وترغب في ذلك، لأنّ أخاها كان من الهنشاق حينما كانوا في "بدليس"، وأنّها كانت تقاتل الأتراك مع أخيها قبل أن يقتل. رقّ قلبي عليها، إلاّ أنّ الضبع هو الضبع، رفض أخذها معنا، وطلب منّا أن ننطلق. صديقي الضبع لم يعد يحبُّ النساء. أصبح يرفضهن، بدرية بنت الشيخ موسى تحبّه، وتبكي من أجله، إلاّ أنّه لا يأبه لها. هل تعلم من هي بدرية؟ حسناً، ومن أين لك أن تعلم؟ لعنة الله عليّ كم أنا أحمق. إنها جميلة جداً، لها صوت جميل كالشحرور، تقيم عائلتها قرب البئر الروماني. نذهب إليهم كلّ مدّة لنستطلع أخبارهم. حينما مات أبو العباس على جبل الدير اختبأنا في البئر ذاته، كان الأتراك يبحثون عن الباقين من عصابة أبي العباس، هل سمعت بأبي العباس؟ اسمه خضر، كان قاطع طريق أحبّه الناس أيضاً، أسموه أبو العباس تيمناً بالخضر أبو العباس ماذا كنت أقول؟ ... نعم، بعد أن زال الخطر

خرجنا من البئر لنعيش في بيوت الشيخ موسى، كنت أحدث بدرية عن الضبع، وشعرت أنها عشقته من كلامي، وعندما قابلته حينما جاء إليهم يبحث عني، نعم كان يبحث عني، عرفته فوراً، وزاد عشقها له، ولكنّه لا يأبه لها. بدرية مسكينة، إنّني أرثي لها. ولكنّني أعرف الضبع جيداً، لديه امرأتان، واحدة اسمها بهية والأخرى فريدة. وهذه الأخيرة جميلة جداً. جاء بها من العراق، تركهما في حلب، وجاء يبحث عني. لم تعد النساء يثرن انتباهه، أنت لا تستطيع أن تفهم لماذا؟ هذه هي خصائص الرجال من أمثال الضبع، من يستلقي بين أفخاذ النساء لن يكون مثل الضبع، بل سيلتقطه الأتراك، ويرسلونه إلى الحرب حيث يقتل أو يموت من القهر، أما من لا يأبه لنساء فلن يحصل له ذلك.

نعم يا أخي. ماذا أقول؟ نعم، الأرمنية المسكينة! قلت إنّنا انطلقنا نغوص في الظلام كان القمر هلالاً رفيعاً كالخيط، وبعد ساعة توقفنا لنريح الجياد، فإذ بنا نسمع صوت حصان قادم إلينا من ذات الجهة التي أتينا منها، انتشرنا ونحن على استعداد لإطلاق النار، فقد حسبنا أنّ الأتراك كشفونا، وهم يلاحقوننا، وما هي إلا لحظات حتى عرفنا أنّ الأرمنية حرّرت بغل العربة، وركبته، ولحقت بنا.

إنّها شجاعة. أمرها الضبع بالعودة، قال لها عودي إلى الآخرين، إلاّ أنّها أبت، وقفت أمامه تتحداه. قال لها، مكانك ليس هنا، أنت امرأة، ولا مكان هنا للنساء. رفضت أن تعود. هل تعلم ماذا قالت له؟ إذن أنت لا تعلم... قالت له، إنّني امرأة، ولكنني أملك رأس رجل، أعطني بندقية، وسترى العجائب. كان الفجر قد بدأ يطلع، وراحت العصافير والزرازير تزقزق، انتشلتْ بندقيتي، ثمّ لقّمَتها، وصوبت نحو حجر صغير بحجم قبضة يد رجل يبعد أربعين خطوة، أطلقت النار، فإذا به يتفتت إلى حصى صغيرة. هل شاهدت امرأة تفعل ذلك؟ لا لن تشاهد واحدة مثلها، لقد مضى عليّ سنة، وأنا أجول في البراري، ولم أصادف امرأة أشجع من الرجال، وتقاتل مثلهن، إنّها الأرمنية المسكينة. بعد ذلك صمت الضبع، ركب حصانه، وقال، هيا. وصلنا إلى مخبئنا، بعد شروق الشمس أمرني أن أُلبس المرأة ثياباً رجالية، ثمّ قال لنا ما معناه، أن علينا أن ننسى أنّ الأرمنية امرأة. هكذا كان. ولكن المرأة هي المرأة، لا يمكن أبداً أن تبدّل جنسها إن هي بدّلت ألبستها، لن تنبت لها خصيتان إن هي

ارتدت بنطالاً وبه لن تبول وهي واقفة، هل هذا مفهوم؟ ركّز معي، وافهم جيداً فسليم يقول لك هذا! نحن من جهتنا نسينا أنّها امرأة، ولكنّها لم تنسَ ذلك. لقد علقت دين الرجل، لم تعد تتركه لحظة، إلاّ وتندس إلى جانبه، كنت أراقبها، وأعرف ما يدور في رأسها الصغير المحلوق. ما إن يطلب طلباً حتى تهرع لتلبيته، لا تتركنا نقترب منه، تقعد ملتصقة به ساعات، رغم أنّه كان يتأفف من ذلك، تلفّ له السجائر، أو تحضر له طعامه، أو تغسل له ثيابه. لا تترك أحد غيرها يقوم بخدمته، كنا نبتسم مبتهجين، تركناها تفعل ذلك، وعندما كان ينام، تجلس فوق رأسه، لتحرسه، وتطرد عنه الذباب والبعوض، لقد عشقته المرأة. وهذا ليس غريباً. من هي المرأة في رأيك التي لا يمكنها أن تعشق الضبع؟ ليس هناك من امرأة، يا أخ، لا تعشقه. شيء ما في عينيه جذبها نحوه وأسرها، كنت أرى ذلك، وأفهمه كما أرك الآن، وأفهمك. أنا لست خبيراً كبيراً في النساء إلاّ أنّ المرأة تفضح سرّها ببساطة.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت بين النوم والصحو، سمعت صوت صفعة. أحد ما قد صفع وجهاً أمرد. رفعت رأسي، فشاهدت المرأة ساجدة إلى جانب الضبع وهي تنشج، ماذا حدث؟ سألته دون وعي. آه كم كنت أحمق، وماذا يمكن أن يحدث؟ هيا قل لي ماذا يمكن أن يحدث؟! طبعاً لا تعرف، أنت بالذات، ماذا حدث، كيف ستعرف، وأنت جالس هكذا فاغر الفم، ويبدو عليك البله؟ سوف أقول لك يا أخي وسأوفر عليك مشقة التفكير فأمثالك لا يفكرون بنفس البساطة التي يبولون بها. كانت المرأة قد زحفت إلى جانب الضبع، بعد أن تأكدت من أنّ الجميع نيام، استلقت إلى جانبه، ثمّ احتضنته، وجعلت تقبّله بنهم، فاستيقظ. وعوضاً عن أن يقابلها بالمثل كما كانت تريد، قام، وصفعها، ومن دون أن ينبس بشيء أيضاً عاد للاستلقاء، ونام من جديد. من جهتي، فأنا لا أعرف سبباً يحدوه لكره النساء، هيا قل لي لماذا يكره الضبع النساء؟ أنت لا تعرف أيضاً، ومن أين لك أن تعرف، أنا سأقول لك ما يحيرني بالذات، لديه زوجتان وكثيرات من المعجبات، ولكنّه لا يفكّر بهن. هذا بالذات ما يحيرني، ولكن.. حسناً... اتركنا من هذا الأمر، فلابدّ سنعلم يوماً سبب ذلك. سأسرد عليك ما جرى بعد ذلك، فالجنود تأخروا، وقد نشعر بالسأم إن صمتنا. الضبع يقول إنّني ثرثار. إنّه على حق. فزوجتي كانت تقول ذلك أيضاً. الصمت

يرهقني، ثمّ إنّني لا أغتاب أحداً، بل أسرد عليك ما جرى لنا، ويجب أن نحفظ كلّ هذه الأمور، لنحكيها لأولادنا، ثمّ لأحفادنا.

حسناً.. جاء أحد جواسيسنا، وأخبرنا أنّ مجموعة من خمسة أو ستة ألمان ومعهم عربي اسمه أحمد آغا قد خرجوا من منبج باتجاه الجنوب، وهم يقومون بشراء ما تبقى من الحبوب عند الفلاحين. وأحمد آغا هذا معروف بين البدو والفلاحين، لأنّه غني، ولأنّه يدفع جيداً ثمناً للغلال التي يشتريها للجيش التركي، وأخيراً للجيش الألماني. بصراحة كان الضبع ينتظره، ويبحث عنه فهو صيد ثمين، وهو لابد يحمل معه من الذهب الشيء الكثير. وفي المساء ركبنا، وسرنا طوال الليل حتى "مقطع الحجر الصغير" هناك اختبأنا، وأرسلنا الجاسوس ليستطلع أخبار الألمان وأحمد آغا. عاد الرجل في اليوم التالي ليخبرنا أنّهم يبيتون عند الشركس في "قوجوك كويو" ليلاً، ويسافرون نهاراً إلى عشائر "الجديديين" و"البوسبعة" و"البقارة" و"القرامطة" و"العيار" و"المارندية" والمكالحة" و"الهنادي" لشراء الحبوب والأغنام والجمال وغيرها، وفي اليوم التالي يرسلون عربات الشركس لنقل ما قاموا بشرائه. المهم، لن أطيل عليك، عرفنا يوماً أن أحمد آغا والألمان سوف يمرون في الطريق الواصل بين قريتي "أم ميال" و"أم طماخ". ذهبنا إلى هناك في وضح النهار. وهذا كما تعرف شيء غير محمود وخاصة في السهل فباستطاعة أيّ كان أن يتصيّدك. وبينما كنّا ننتظرهم قرب الطريق. شاهدنا عشرة من الفرسان الشركس. اتّجهوا نحونا، وراحوا يطلقون النار علينا. امتطينا من جديد جيادنا، وبدأنا نخبّ مبتعدين عنهم، إلاّ أنّ الأنذال أصرّوا على اللحاق بنا. وبينما كنت أصفع كفل حصاني كي يعدو أسرع، سمعت إطلاق نار قريباً مني، فاندهشت. وبعد قليل توقف الضبع، فتوقفنا كلّنا، ثمّ استدرنا إلى حيث كان الضبع يشير، هل تعرف ماذا كان يحدث؟ يا إلهي... لو تعرف أنت كم تبدو أخرق لعرفت كيف كنت أبدو أنا حينئذ.

كانت سيلوا وهي الأرمنية المسكينة جالسة على الأرض، تطلق النار من دون خوف وبسرعة هائلة على الفرسان الشركس الملاعين. كان ثلاثة منهم قد سقطوا على الأرض قتلى، أمّا الآخرون منهم من كان هارباً، ومنهم من كان يطلق الرصاص من على صهوة حصانه. عدنا أدراجنا، ونحن نطلق النار، فهرب الجميع.

وما إن اقتربنا من الأرمنية الشجاعة حتى سقطت على الأرض. كانت جريحة. يا لها من امرأة حاولنا أن ننسى أنّها امرأة، كيف يمكنك أن تنسى هذا الأمر! هل تعرف لماذا فعلت ذلك؟ يا لك من أحمق! تهز رأسك فحسب سأقول لك يا أخي، لقد شعرت أنّ الضبع في خطر، فنزلت عن بغلها مضحية بحياتها من أجل أن تنقذ الضبع.

الخلاصة، حملناها، واختبأنا في وهدة حتّى المساء، ثمّ انطلقنا نسابق الريح إلى بيوت الشيخ موسى قرب "الباب" حيث البئر الروماني. هناك نزفت دماً كثيراً. كان الضبع يجلس إلى جانبها طوال الوقت، وعندما فتحت عينيها ذات صباح ابتسمت له، وقالت، إنّها تحبّه، وإنّها تتمنّى أن يقبّلها. قبّلها الرجل، ومسح العرق عن جبهتها، أغمضت المسكينة عينيها، وفي المساء ماتت.

هذه هي قصتنا وقصة سيلوا الأرمنية. إياك أن تنساها، والآن، سأحاول أن أنام قليلاً فأنا حزين لتذكر قصتها. اتركني يا أخي أنام قليلاً، فأنا متعب، أيقظني حين يظهر الجنود، أنا أقول لك إنّني متعب وحزين.

* * *

– ها هم... ها هم... إنّهم قادمون!

انتفض عمر. كان قد غفا حين صمت سليم. أمر الجميع بالاختباء وعدم التدخين وانتظار إشارته، ثمّ انبطح يرقب الطريق والجنود القادمين من بعيد، يتلوون كما هو الطريق. الضابط ورقيبه في المقدمة. صامتين، مطرقين، يقودان جواديهما المعفرين من دون حماسة. كان هناك أيضاً تسعة فرسان. أما الآخرون فمن المشاة المتعبين الذين أنهكهم المسير والبحث تحت شمس أيلول المحرقة.

كان الفرسان يتحرّكون متجاورين، أما المشاة فقد تفرقوا خلفهم الواحد تلو الآخر على مسافة مائة أو مائتي متر. يحملون على أكتافهم بنادقهم وجعب الماء والطعام والخراطيش والبطانيات الملفوفة وأشياء أخرى غير واضحة لمن ينظر إليهم من بعيد. كان ينظر إليهم بعينيه الوحشيتين، ويعلك عسلوجاً متيبساً التقطه بفمه من الأرض التي يشمّ رائحتها فيعرف بفراسته أنّها تحتضن مياهاً باردة، فيحنّ لتلك الأيام التي ذهبت من دون عودة حين كان يحفر الآبار، ويغوص في الأرض، ويحفر

ويحفر إلى أن يغمره الماء البارد حتى خصره، فيصعد وبسمة قد ارتسمت على وجهه، والماء ينقط من ثيابه وهو يرتعش. أحسّ بالبرودة تسري في جسده، كم تغيرت الدنيا؟ ها هم الآن ثمانية وعشرون جندياً عثمانياً تحت رحمته، ماذا سيفعل الشيخ درويش لو كان مكانه. ولكن لماذا الشيخ درويش الآن؟ هؤلاء الناس مضى عهدهم. إنّه يفعل الصحيح، أمّا الشيخ وأعوانه فقد فعلوا الخطأ؟ ماتوا بسبب أخطائهم. وصالح أيضاً سيموت، رغم أنّه يحبّه، ولكن ما فائدة الحب في مثل هذه الأيام. البندقية والحصان ومئة خرطوشة وعشرة من أمثال سليم. هو بالضبط ما يجب أن يكون الصحيح، أما القطحانية والشيوخ والجمعيات وغيرها فهي بلا فائدة، مضيعة للوقت، صالح يهدر وقته، يريد أن يعلّم الناس. وماذا أفعل أنا؟ بعد قليل سيعرف الجميع ما فعله الضبع بثمانية وعشرين جندياً. الأعراب والبدو والحضر، الجميع سيهللون، حتّى صالح سيعرف في حلب ماذا يمكن أن يفعل عمر بنبوك. قال له تعال معنا، رفض صالح، لديه مهمة أخرى. ما تفعله أنت صحيح، وما أفعله أنا أيضاً صحيح.

حكّ ذقنه الكثة، وهزّ رأسه، مازالوا بعيدين، سيقتل الفرسان، وسيطلق المشاة. رقّ قلبه للمشاة، تذكّر المسير من حلب إلى بغداد، كان يحسد، ويكره الفرسان، ثمّ أنّ المشاة لا حول لهم ولا قوة، لن يقتلهم. سيطلق النار على الفرسان حالما يصلون إلى الهضبتين، ثمّ سيجمع الجنود الآخرين، سيتركهم يغطسون أقدامهم في الماء البارد في قرية "جناة الشركس"، ثمّ يلقي عليهم درساً، ويطلق سراحهم، هذا شيء جميل، حتماً سيكونون قد بالوا في سراويلهم.

سمع سليماً يشتم، هذا الرجل لا يستطيع السكوت. لسانه طويل. يريد الانتهاء من هذه القضية لكي يتحدث عنها أمام كل إنسان يصادفه. حتى أمامه هو. أصبح شجاعاً. لا يهاب الجنود، وعندما يسرد من جديد قصة نفيه من بيروت وقصة أهله وهربه من ديار بكر فإنه يسردها بطريقة أخرى. أصبح يتوهم أنّه قام بعمل شجاع. ولم لا، ألا يقوم بذلك الآن؟ كم من مرّة حاول إقناع بدخول معركة مع مفرزة تركية إلاّ أنّ الضبع يرفض لأسباب شتى، هذا ليس وقته يا سليم، إنّنا في منطقة سهلية وعددنا قليل، وإن قمنا بمثل هذه الأعمال، فسوف يرسلون إلينا الجيش السابع بأكمله لقتلنا، ولكن الأمر يختلف اليوم، ها هم الآن قد صنعوا كميناً رائعاً لأوّل مفرزة.

الوقت أصبح مناسباً، المفرزة متعبة والجيش السابع، حسبما تأكد، سيغادر قلب إلى فلسطين أو العراق، أن عليهم أن يضربوا ضربتهم، خصوصاً وأنّ المفارز الأخرى التي كانت تبحث عن الضبع أيضاً بدأت بمغادرة المكان، أحد جواسيسه من العربان قال له، إنّ إحداها تعود إلى حلب على طريق دير الزور.

فرك عينيه، وأزال الدمع والقذى عنهما، أصبح الفرسان على بعد مئتي خطوة. إنّه يراهم كأحسن ما يكون، أناس من لحم ودم متعبين معفرين بالأتربة، تيبس العرق على وجوههم، وترك خطوطاً من الأملاح على ستراتهم، معظمهم بشوارب سود، يخبّون الهوينا مطرقين، أو ينظرون عبر الفرجة بين الهضبتين إلى قباب قرية "جناة الشركس"، يحلمون بالماء البارد وبوجبة من البرغل المطبوخ، وقد يحلمون بالنساء، أو بالأهل، أو بالأرض أو بالموتى من أقاربهم، أو أنّهم خائفون، يسألون أنفسهم أين سيموتون!.

ولكن، سأل عمر بنبوك نفسه، كأنّه يسأل إنساناً آخر، لماذا خرجوا؟ أليس للبحث عن أصحابه ليقتلوهم، ثمّ ليجازوهم على ذلك بإجازة، أو بترفيع إلى رتبة أعلى؟ وما دامت الحرب هي الحرب فلماذا لا يقتلهم؟ إنّه سيعفو عن المشاة لأنّهم، وهذه أعظم هبة لهم وأفضل من قتلهم، لأنّهم سيتكلّمون غداً عنه. سيقولون إنّ الضبع لم يرد قتلهم بالرغم من استطاعته ذلك، ثمّ إنّهم سينقلون الهلع إلى الجيش. ها هم الآن يثورون، ويقتلون، لم يعودوا يصمتون، ويختبئون في الجبال وفي الأقبية الرومانية. وغداً سترى الجميع يفعلون كما يفعل هو الآن وعندها... ها... ها... ها... ضحك... مرحباً يا شيخ درويش. قتلوك أولاد الحرام قبل أن ترى ماذا يمكن أن يفعل عمر. لم يعطوك سلاحاً لتقود ثورة كما يجب. يريدونك خالي اليدين والرأس. قالوا لك هذه مهمة الإنكليز والشريف، ثمّ أصبحت مهمة الإنكليز فقط، وهم الآن يتبرزون فوق قبرك في بغداد، يا لك من مسكين يا شيخ، لقد صدقتهم، ولكن عمر بنبوك أصبح ضبعاً لا يصدق أحداً.

عندما أصبح الفرسان على بعد خمسين خطوة، نفض رأسه، ثمّ قبض على بندقيته. أوقف عمل الرأس فقد حان وقت القلب، لقّم بندقيته، ثمّ استدار نحو الرجال المنبطحين على يمينه، بصورة آلية لقّموا بنادقهم، وهم يرقبون الشعاع المريب الذي

انبثق من عينيه، على هذا الشيء يعتمدون فينتصرون. وكذلك فعل الآخرون خلف الهضبة الأخرى، رفع الضبع ذراعه، وأشار عليهم أن يقتربوا منه، وما إن رأى الفرسان، وقد أصبحوا بين الهضبتين حتّى سدّد على الفارس الأوّل، ثمّ أطلق النار فخر الملازم مصطفى قتيلاً، ينفر الدم من ثقب في رأسه.

في تلك اللحظة كان ربيع الزيات ينظر إلى جسد الملازم يسقط عن حصانه ورذاذ أحمر ينفر من رأسه. لم يفهم في بدئ الأمر ما الذي حدث! كلُّ ما يعرفه أنّه كان يفكّر ببهية وبأحمد آغا وبجنديين قتلا على يديه، صوت آخر كان يتردد في رأسه، صوت حز السكين على رقبة بهية ودوي القنبلة الهائلة في المغارة. أما تلك الإطلاقة الضعيفة التي حدثت، والتي تبعثرت في الفضاء المكشوف والحار والمغبر فلم يفهم ما كانت، ولم يعرف أنّها التي تسببت في مقتل الملازم وسقوطه من حصانه وهو ينثر دمه رذاذاً رفيعاً. وخلال ثلاث ثوان بقي جامداً لا يفعل شيئاً سوى مراقبة نافورة الدم، وهي تخمد رويداً رويداً، ثمّ تتوقف ليسيل الدم على رقبة الملازم سيلاً هادئاً، ثمّ أصبح مرعباً. تناثرت أفكاره، ثمّ تضاربت، وراحت أفكار جديدة وسريعة تنبت فجأة وهو يسمع صهيل حصان الملازم المذعور، أمسك بقوة بعنان حصانه الذي تحرّك، وارتعش، وعندما خطر في باله شيء مرعب ألا وهو أنّهم وقعوا في كمين، وأنّهم ربّما قتلوا، كانت الثواني قد مرّت، وكانت السماء تطلق رصاصاً وكان اثنان آخران يسقطان من على صهوتي حصانيهما. حين ذلك فقط، عندما راح يسمع أصوات إطلاق الرصاص من يمينه ويساره، ويرى أشكالاً تنبت من خلف الهضبتين، ونقاطاً من النار تلمع، وسمع أصوات صهيل الجياد وصياح الجنود وآهات التألم والذعر، ثمّ رأى شيرزاد رافعاً ذراعيه، والجنود الآخرين واقفين لا يعلمون ما يفعلون، حين ذلك فقط غابت بقايا صورة بهية، وتولدت صورة عائشة وقباب القرية التي تمنّى أن يصلوا إليها منذ لحظات، ثمّ راح يعدّ ضربات قلبه، التي تجاوب معها جسده كلّه ينتظر الوخزة المؤلمة التي ستسقطه على الأرض كما حدث للملازم. ولكن لماذا لا يفعل شيئاً؟ لماذا تصلّب؟ يداه وساقاه ليست ملكه، أحسّ بذلك، رأسه وعيناه وشفتاه، وكلّ أعضائه ليست ملكه. تتحرّك دون علمه، حتّى رأسه، لا يعلم ماذا يفعل ولا يكف. ولكن الوخزة المؤلمة لم تحدث بعد، وفجأة صهل حصانه، وراح يسقط على

ركبتيه. حينها أحسّ أنّ عليه أن يقفز عن حصانه كي لا يسقط على ساقه. وهكذا فعل، وعندما ألقى بنفسه على الأرض بقي هكذا وخوف رهيب يتملّكه.

كلُّ ما حدث بعد ذلك سهل وصفه، شعر بفوهة تستقرُّ في نحره، ثمّ أبعدت، ثمّ انتشلوه، وأنهضوه، ودفعوه، وأوقفوه إلى جانب شيرزاد وجنديين آخرين من الفرسان. أمامه كان يقف الجنود الآخرون، أحدهم كان يبتسم، ينظر إلى شيرزاد، ويبتسم، إنّه الشخص ذاته الذي ضربه خمسين عصا على قدميه. أبعد عينيه عنه، وأطرق إلى الأرض، وجعل ينتظر، إنّه أسير. فكّر. ولكن أيُّ أسر هذا الذي وقع فيه؟ هنا لا وجود للأسرى. سيقتلونك يا بهيم. بلع ريقه، فكان فمه ناشفاً. حتّى أنّه لا يفكّر بشرب الماء أو طلبه، ولا يفكّر بالشمس التي بردت، ولا بقباب القرية البعيدة التي تختزن الأمان والبرودة، ولا ببيوت الشعر لبني سعيد التي تبين كنقاط سود، وعندما زقزقت مجموعة من العصافير في مكان ما، أحسّ بانفصاله عن كلّ هذا العالم، وشعر بأنّ كلّ ما فكّر فيه، وتمنّاه، وكلّ ما حصل عليه هي أشياء تافهة، وأنّه لم يبقَ شيء عزيز على قلبه سوى طفولته وسوق الصغير وقهوة أبي حسن وأمسيات رمضان وولعه القديم بعائشة.

هكذا كان يشعر ربيع الزيات عندما وقف الضبع قبالته، يتفرّس فيه، عرفه عمر، اقترب منه ليتعرف الرقيب الذي حارب الكلاب والذئاب، فعرفه على الفور. صبي كبير أصبح رجلاً قبل أوانه. أصفر اللون، وشفتاه جافتان ومتشققتان من العطش، لو كان باستطاعته لضحك. كلّ ما يمكن أن يفعله هو تغييب القسوة من عينيه، الحمد لله أنّه لم يقتل. يا له من حظ. وعندما لم يرفع ربيع عينيه نحوه ناداه بصوت ثخين جلف:

– ربيع!

ارتعش قلب الرجل، ونظر إلى الوجه المتوحش، أحسّ بالأمل حتّى كاد أن ينهار، ولكنّه انشغل في تعرّف الرجل الضبع. ها هو إذن.. ولكنّه لم يكمل، بل ومضت في ذهنه معرفة الشخص. وبين أن يصدق أو لا يصدق، وبين اندهاش واستغرب، وبين أن يسأل، أو أن يجيب، أو أن يرحب، أو أن يفرح، أو أن يحزن، أو أن يخجل عرف ربيعٌ عمر بنبوك، زوج أخته بهية، الضبع، رئيس عصابة قطّاع

الطرق الذي بحث عنه أسابيع كاملة ليقتله.

- عمر؟

- تعال!

دعاه، واستدار. لحقه ربيع بخفة. لحقه، وهو يشعر بسعادة أخيراً. ها هو الآن قد أنقذ، وعاد يسيطر على أعضائه من جديد. ابتعد عشرين خطوة، ثمّ استدار عمر ووقف، تفرّس فيه طويلاً. تفرّس في وجه الصبي الكبير، هزّ رأسه مديداً، ثمّ سأله:

- ماذا تفعل هنا؟

- كما ترى يا صهري.

- إذن أنت الرقيب.

- نعم. وأنت الضبع!

- كنت سأقتلك، خططت لقتل الفرسان جميعاً، وترك المشاة. حظك جيد.

- نعم.. فعلاً... أشكرك يا صهري. أرجو أن تعفو عن الفرسان الباقين.

فقال عمر، وقد شرع بلفّ سيجارة:

- كما تريد.. ولكن سنترككم من دون جياد وبنادق. جناة الجركس قريبة، وبإمكانكم الوصول إلى دير حافر قبل الفجر.

هزّ ربيع رأسه من دون أن يجيب. التقط السيجارة من عمر، ثمّ أشعلها، وراح يدخّنها بنهم، سأله عمر:

- وما هي الأخبار؟

- أخبار من؟

فقال له عمر، وهو يشعل سيجارته:

- أخبار الجيش السابع.

- لا أعلم شيئاً، منذ مدّة ونحن نجوب البراري.

- سوف تغادرون حلب إلى فلسطين أو إلى العراق، لا أعلم بالضبط إلى أين، ولكنكم ستغادرون حلب.

- لا أعلم شيئاً.

- إحدى المفارز شوهدت تعود إلى حلب. كنتم ستتلقّون الأمر في دير حافر

على ما أظن.

- حظنا سيء كما ترى.
- منذ زمن لم أستطع زيارة حلب بسبب وجود الجيش حولها.
- ليس هناك من أخبار جيدة في حلب.
- ماذا تقصد؟
- ماتت أمي.

لم يفاجأ عمر: سأله:

- متى؟
- في تموز.
- رحمة الله عليها، كانت مريضة بالسل.

صمتا للحظات. كان ربيع يفكّر كيف يخبره بأمر بهية، ثمّ سأل نفسه هل يخبره أم لا؟ ثمّ قرّر أن لا يخبره، على الأقل الآن، فهو تحت رحمته. لا يعرف ما الذي سيحصل إن عرف. سمع عمر يسأله:

- هل ستبقى معنا إن عرضت عليك؟

فقال ربيع وهو يبتسم، كأنّه يعتذر:

- لا أستطيع. سأطلب إعفائي من الخدمة بعد هذا الذي حصل، وأعود إلى البيت. هزّ عمر رأسه، وهو يتمتم، لا بأس. ثمّ راحا يدخّنان بصمت، كلٌّ منهما يريد قول أشياء كثيرة، ولكن علاقة الغالب والمغلوب تمنعهما. هكذا يشعر ربيع، وكذلك عمر، ولهذا السبب سأله عن النساء. فسأل ربيع، وكأنّه لم يفهم ليطيل الوقت:

- من تقصد؟

فأجاب عمر:

- بهية وفريدة وزوجتك.
- زوجتي عائشة لا بأس بها. وفريدة حامل.
- أعرف... وبهية، أما زالت تتعارك مع فريدة؟

صمت ربيع، ماذا يقول؟ كان الأمر يؤرقه منذ أن عرف. ولكن عليه أن يشاركه في أمر بهية، إنّه زوجها، وليحصل ما يحصل، على الأقل سيرتاح هو، لقد

هزم بشكل كافٍ، جاء دورك أيّها الضبع. تفرّس في عينيه بضعف، وقال:

- حصل شيء سيء يا عمر، بهية هربت من البيت.

- ماذا تقول؟

همر عمر، واحمرّت عيناه. أبعد ربيع نظره عنه، وتابع قائلاً:

- هربت مع رجل اسمه أحمد آغا. رجل غني تعرّفت به عن طريق تلك الجارة القحبة، لا أعرف من يكون هذا الرجل، لو كنت أعرف لقتلته، وذبحتها. بحثت عنهما في حلب من دون جدوى، وهذا الأمر أزعجني جداً، حتّى أنّه لا يتركني أنام ليلاً. كنت سأخفي عنك الخبر لو لم تسألني عنها.

عاد ونظر إلى وجه عمر، شيء غير معقول، أحسّ بالخوف، حقّاً إنّه ضبع. تراجع خطوة. لاحقته العينان الذئبيتان. أراد أن يقول شيئاً آخر. أراد أن يخفف وطأة الخبر على عمر، إلاّ أنّه أحسّ بثقل لسانه، فجمد في لسانه.

ولكن عمر الذي أحسّ قبل قليل بنشوة المنتصر، راح يشعر ابتداء من الآن بانهيار شيء ما في نفسه. هل يمكن أن يترك ربيعاً يحطّمه؟ لا... إنّه يريد ذلك، يريد أن يعكس الأمر فيصبح عمر الخاسر بعد أن كان المنتصر. لا فرق عنده في هذه اللحظة، ما الذي فعلته بهية. هذا أمر آخر، الآن وفي هذه اللحظة، إمّا أن يتابع في بناء عالمه، أو أن يهدمه.

أحسّ بخوف ربيع، عرف السبب، كلّ قساوة العالم وحروبه تتجمّع في عيني عمر. وبما أنّه خائف فلماذا على عمر أن يخسر؟ فيما بعد سينظر في أمر بهية، وخصوصاً في أمر أحمد آغا فهو يعرفه، حاول مرّة أن يكمن له إلا أنّ الشراكسة أنقذوه. في هذه اللحظة عليه أن ينسى بهية، ويتذكّر ربيعاً والجنود الآخرين، يجب عليه أن يخفي ما فعلته بهية به.

نادى سليم، ركض الرجل الذي كان يرقبه من بعيد، فقال له عمر وهو يشير إلى ربيع:

- خذ هذا إلى الآخرين.

دفعه سليم أمامه. كان ربيع يتساءل عما يريد عمر فعله، كان يرتعش، أوقف إلى جانب شيرزاد، ثمّ عاد سليم إلى رئيسه. سأله عمر:

- هل هناك من يريد أن ينضم إلينا.

- نعم... رجل شركسي اسمه حلمي.

- دعه يأتي إليّ.

اقترب الرجل الخمسيني بهدوء، وكأنّه يخطو نحو بيته. راقبه عمر وهو يقترب، أحسّ بكمال الرجل وبالاطمئنان الذي توحيه ملامحه، ولكنّه اكتشف فيه شيئاً لا يمكن أن يتميز به قاطع طريق، شيء ما مثل العقل أو التعقل، أو لنقل إنّه لا يناسب حياة العسكر والبندقية والبراري، وقف الرجل قبالة الضبع، وراح يتفحصه بعينين تتحرّكان ببطء. سأله عمر:

- هل تريد أن تنضم إلينا؟

- نعم.

- لماذا؟

- لقد حاولت الهرب مرّات عديدة، لم أفلح في ذلك، أنا أكره هذا الجيش، أريد أن أمكث معكم حتّى تسنح لي الفرصة للهرب إلى بلدي.

- هل تتكلم الشركسية.

- نعم.

- حسناً. ابق معنا. ثمّ قال لسليم، أعطه بندقيته وحصاناً، هيا، علينا أن نسرع!

فسأل سليم:

- ماذا نفعل بالجنود؟

- اترك المشاة يمضون من دون أسلحة، أمّا الفرسان الأربعة، فأوقفهم أمامي... أريد أن أعدمهم. وهكذا كان، تركوا الجنود يمضون، وهم يتطلّعون إلى الخلف غير مصدقين أنّهم نجوا. ثمّ صفوا ربيعاً والثلاثة الآخرين على طرف الطريق ولقّموا أربع بندقيات. وما إن عرفوا مرام الضبع، حتّى راح الثلاثة يبكون، ويرجونه العفو عنهم، أمّا ربيع فقد وقف مصفراً من دون حراك وعلى شفتيه ابتسامة رعب وسخرية. لم يكن مصدقاً أنّ زوج أخته سيعدمه، حسب أنّ الأمر لا يعدو أن يكون لعبة يريد عمر أن يلعبها، ولكن عندما قبض عمر على البندقية الأولى، وثبّتها على

كتفه، راح ربيع يرتعد، وجحظت عيناه، وانطبق فمه. سدّد عمر إلى قلب الجندي الأول الذي مدّ يديه بحركة لا يقوم بها إلاّ المحكومين بالإعدام، ثمّ أطلق. سقط الجندي الأوّل الذي يرتعش. التقط عمر البندقية الثانية، وأردى الجندي الثاني الذي كان قد صمت فجأة، توقف عن البكاء من دون سبب، وعندما أراد قتل الجندي الثالث، وهو شيرزاد نفسه، اقترب منه حلمي الشركسي، وطلب منه أن يقوم هو بذلك.

- لماذا؟

سأل الضبع، فشرح له حلمي قصة الخمسين عصا. سلّمه البندقية، وتراجع الضبع إلى الخلف. لم يستغرق الأمر سوى عشر ثوان وإذا بطلقة تدوي وشيرزاد يشخر، وهو يتلوى على الأرض. لم يمت من فوره، كان يتألم، التقط حلمي البندقية الرابعة واقترب منه، وضع فوهتها على صدغه وهو يرقب عيني شيرزاد البائستين، أغمض حلمي عينيه، وضغط على الزناد.

لم يبقَ سوى ربيع. كان يراقب قتل الآخرين بمن فيم صديقه شيرزاد وقد تأكد أنّ عمر قد جُنّ، وأن جنونه سوف يودي به أيضاً، وها هو الآن قد حان دوره. نقّل عينيه في الجميع، يلاحظ كلّ حركة يأتون بها، من سيلقّم البندقية الأخيرة. احتاجوا لبندقيتين من أجل قتل شيرزاد، وهذا فأل حسن بالنسبة له. لم يتحرّك أحد، كان الجميع صامتين، والشمس تنحدر، حمراء، إلى خلف الكون، والجنود الآخرون قد وقفوا بعيداً يراقبون عملية الإعدام، ينتظرون إعدامه هو. سعل أحدهم، فانتفض، ثمّ شعر بسيول العرق على كلّ جسده، وأحسّ بيديه وقد أصابهما التنمل، ورأسه يضج بمئات الذكريات والأفكار والعمليات المنطقية القصيرة، ولكثرة هذه الأشياء، كان رأسه فارغاً، وفمه جافاً ويداه رطبتين.

وفجأة ارتجف قلبه. سمع عمر يأمر أصحابه:

- هيا... اتركوه يذهب!

راح الجميع يتحرّكون، جمعوا البنادق والأحذية والجياد. كانت جيادهم قد وصلت من حيث خبؤوها في بيوت بني سعيد. ظلّ ربيع واقفاً من دون حراك، لم يكن مصدقاً ولم يكن عارفاً بما هو فاعل. هل يقول له شيئاً، هل يشكره، هل يبقى

واقفاً، هل يجلس؟ ... وقبل أن يصل الرجل إلى حل، امتطوا صهوات جيادهم، ثمّ راحوا يطلقون أصوات عديدة، وانطلقوا إلى الغرب، وكلّما ابتعدوا عنه، كان يصغر ويصغر، حتّى تحول إلى نقطة سوداء متكومة على نفسها، تنشج، وترتج.

* * *

19

مرّ أيلول، وجاء تشرين الأوّل بطقسه المتقلب، ثمّ رحل، ولم يعرف الناس كيف رحل أيضاً تشرين الثاني بهذه السرعة، ربّما لأنّه مثل شهر نيسان، واحد من أجمل شهرين في العام، ففيه يسقط المطر الهادئ الجميل، فتشرب الأرض بعد عطش طويل، وتنتعش، وفي هذا الشهر ينتهي موسم القيظ الطويل المضني، ويطول الليل ويقصر النهار.

وفي تشرين الثاني تعود طيور الزرازير النشطة، التي لا تهدأ، أو يحطّ طير السمرمر في حلب، ثمّ يطير باحثاً عن الجراد ليتغذى به. ويأتي الهدهد ليبني عشه في المزابل، ويحكي ليل نهار حكاياته التي لا تنتهي، والتي لم يسمعها أحد. وفي الشهر نفسه يرحل السنونو والحجل، وتمرّ صفوف اللقلق والوروار والترغل المهاجرة إلى الجنوب. وفي هذا الشهر أيضاً رحل آخر جندي من الجيش السابع الذي استوطن حلب ستة أشهر، إلى الجبهة في فلسطين بعد أن قرّرت الأستانة وبرلين، أنّ خطّ غزة بئر السبع، هو الأخطر على سلامة الإمبراطورية. وفي هذا الشهر أيضاً سافر ربيع الزيات إلى ذات الجبهة لاحقاً الجيش، بعد أن انتظر طويلاً، مع جنود المؤخرة، الموافقة على طلبه لإعفائه من الخدمة، وتسريحه، إلاّ أنّهم رفضوا الطلب بامتعاض. وفي شهر تشرين الثاني أيضاً، راح عمر بنبوك المسمى الضبع يسرح، ويمرح في البراري، ويغير مع رجاله على طريق حلب، دير الزور، فيسرق الأطعمة والنقود، ويطعم الجائعين، ويكسوهم غير آبه للدرك، حتّى أنّه زار زوجته فريدة في حلب مرتين، فنام معها بعد أن اطمأن على حملها، ثمّ عاد إلى البراري يغير، ويقتل، ويبحث عن شخص اسمه أحمد آغا ليصفي معه حساباً لابدّ منه.

بسبب كلّ هذا مرّ تشرين الثاني بسرعة مثل كلّ عام، وجاء كانون الأوّل.

امرأة ككلّ النساء، كانت في حلب، مرّ عليها تشرين الثاني ببطء كباقي الشهور، لقد بكت المرأة في تشرين، بكت، وتأوهت، وزفرت، وسهرت الليالي، ونحفت وصمتت، حلمت، وتذكرت، وفكّرت، وانتظرت، وخاب أملها مرّات ومرّات. هذه المرأة هي زينب. زينب حبيبة صالح التي لا تنسى، مرّ تشرين على زينب ببطء شديد، ثمّ

جاء كانون برياحه الشمالية الباردة وأمطاره، بنهاراته القصيرة وبلياليه الطويلة، جاء كانون على زينب ليزيد من حرمانها، ويعزز وحدتها.

جلست زينب على أريكتها، على ضوء شمعة هزيل، بعد أن رقد حسن ابن صالح، ترقب السرير الخشبي الذي لم يلمسه أحد بعد، والذي ذهب صالح ليشتريه ولم يعد حتّى الآن. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، وكانت زينب قد بكت حتى نضبت دموعها، فمسحت عينيها وبمنديلها الرطب، ثمّ تمخطت فيه، وتدثرت بمعطفها السميك، ثمّ التقطت الماندولين، وجعلت تنقر عليه برقة أغنية فرنسية قديمة، وتترنم بكلماتها العذبة عن الحبيب الذي رحل من دون أن يترك عنوانه.

ولكنّ صالحاً رحل من دون وداع. ذهب ليشتري سريراً مزدوجاً يضمّهما معاً. آه كم كانت سعيدة حينما قرع الباب، فجاؤوا به. حملوا قطعه، وراحت تشير عليهم أين يضعوه. كانت ترقص فرحاً، وكانت تغرّد حين تتكلّم، وما إن انتهوا من تركيب السرير حتى قامت بفرشه، ثمّ ارتدت أجمل ما عندها، وتجمّلت بحمرة الخدود وبكحل العيون، ثمّ قعدت تنتظر صالحاً والشيخ، قعد أبوها معها ينتظر أيضاً، كان سعيداً هو الآخر، اليوم يوم زفاف ابنته، اليوم هو أحلى أيام العمر، رغم كلّ ما يجري في الخارج، ورغم كلّ المآتم، وجدوا يوماً واحداً، ليقيموا فيه عرساً.

غابت الشمس، ثمّ حلّ الظلام، وما لبث أن أذّن العشاء. وما إن تمرّ ساعة حتى يظهر الارتباط أكثر في العيون، وتخفق القلوب، ويضيق المكان، ويصبح القعود مستحيلاً. الأستاذ بعد الجليل أحسّ بقلبه وعقله أنّ الأمر فيه إنّ. أمّا زينب فقد تملّكها الغضب على صالح، فهي تعرفه جيداً، ها هو من جديد قد أهملها، وذهب في أمر يتعلق بالسياسة، إلى متى سيستمر هكذا؟ حتى في يوم زواجه؟ لعنة الله على السياسة والأحزاب! لعنة الله على العثمانلية وعلى صالح بالذات!

رقد حسن، ورقد أبوها، وناما، وبقيت هي تقيس بخطواتها حوش الدار. وما إن بان الصبح، حتّى صدمتها فكرة جاءتها كصاعقة أنهكت قواها، وجعلتها تقعد دون حراك ورأسها بين يديها، لقد قبضوا على صالح، ولكي تزيل الغصة التي استوطنت صدرها بشراسة، شرعت بالبكاء، نحيب مكتوم، تتخلّله ارتعاشات يهتزّ لها جسدها. لماذا؟ يا إلهي ما أقسى الحياة! لماذا ولدت؟ لماذا أعيش؟ وماذا تخبئ لي الحياة

أكثر من ذلك؟ أين هو الآن؟ في أيّ سجن؟ وهل سيحاكمونه؟ هل سيعدمونه؟ ولكن أنّى لها أن تجيب عن هذه الأسئلة؟ فمازالت تتردد في ذهنها حتى الآن، ومازالت زينب تبكي حتّى اليوم. انتفخت أجفانها، واحمرّت، وانتفخ أنفها واحمرّ، والدموع تنهمر، والأسئلة هي هي، وصالح غائب بلا خبر.

نقرت على ماندولينها، وهي تهتز. آه كم تجعلها ألحانه بائسة. وكلمات الأغنية الحزينة تزيدها هماً على هم، وألماً على ألم. ومع ذلك تغنيها وهي ترمق السرير الفارغ والسرير يرمقها، هذا السرير الذي قعدت ليال طوال، تتصوّر أنّه يجمعها مع صالح في حبّ ملتهب جمعته له قطرة فقطرة، ثمّ قدّمته له مرّة واحدة وإلى الأبد. ما إن مرّ أسبوع، حتّى شعرت أنّ عليها أن تفعل شيئاً من أجله. أدخلت نفسها في ملحفة نسائية سوداء، وأنزلت على وجهها، وانطلقت، مصطحبة حسن، تبحث في المخافر والسجون عن "زوجها" صالح بنبوك. ذهبت في بادئ الأمر إلى مخفر محطة الشام، ثمّ إلى مخفر باب الحديد ومن هناك إلى سجن البلدية. كانوا يبحثون في سجلاتهم عن الشخص المذكور، إلاّ أنّهم كانوا، يرفعون رؤوسهم عن دفاترهم العريضة وشعور بالأسف والاستغراب يملأ عيونهم، لهذه المرأة الجميلة التي تبحث عن مفقود، وتمنّى كلّ واحد منهم أن يكون هو. وما إن ينسوا أنفسهم، وهم يحاولون اكتشاف ما هو أكثر من ملامح الوجه المرسومة على الغطاء حتى يدلوها على سجون أخرى ومنازل التوقيف العرفي السرية متمنين لها التوفيق في سعيها لإيجاد زوجها، وكانوا، بالإضافة إلى ذلك، يطلبون منها العودة ثانية إليهم، فقد يجدون شيئاً أو سبيلاً جديداً، يفضي إلى ذلك الشخص السعيد الذي احتضن هذا الجسد الجميل يوماً ما.

أحدهم نصحها أن تذهب إلى قشلة الترك في بانقوسا، فقد يكونون أخذوه وجنّدوه من جديد. أخذت درب طريقها، وذهبت، مشت بخطوات واسعة أمّا حسن فقد كان يركض إلى جانبها، كان بعض الناس يقفون ويستديرون لرؤية المرأة الجميلة وهي تخبّ بملحفتها، وقد بان قدّها الفارع. صعدت الحارة إلى باب الثكنة وهناك شرحت للحارس ما جاءت من أجله، وهي تلهث. مرّة أخرى شرحت الأمر للجاويش. ثمّ إلى أحد الضباط، ثمّ إلى يوزباشي نحيل، ثمّ إلى البكباشي مساعد القائم مقام وفي

الأخير أدخلوها إلى مكتب القائم مقام. قام القائم مقام، وسلّم عليها. رفعت زينب النقاب عن وجهها، ثمّ جلست على مقعد جلدي مستورد من بلاد الجرمان، وجلس هو أمامها. أعادت سرد قصة زوجها صالح بنبوك للمرّة العشرين، وهي تكاد تبكي، هزّ الرجل رأسه وعيناه لا تفارقانها مطلقاً، ثمّ نهض إلى مكتبه، وجعل يتصل بالهاتف مع هذا وذاك. كان يتحدّث وهو ينظر إليها. يسأل مساعديه وهو يبتسم لها. حتّى أنّه غمز بعينه اليسرى موحياً أنّ ثمّة شيئاً من أمل. وفي انتظار ما يمكن أن يسفر عنه البحث، جلس إلى جانبها، وجعل يسألها أسئلة تافهة. كان يقترب من الستين. أسمر البشرة بشاربين ناعمين. عيناه حمراوان بسبب الإدمان على العرق والسهر الطويل.

رنّ جرس الهاتف، فالتقطه ابن الستين بخفة ونشاط لا مثيل لهما. أعاد السماعة بعد قليل، ثمّ عاد إلى مكانه قرب زينب. قال لها وهو يبتسم برقة تمرن عليها طويلاً مع النساء:

- لا يوجد عندنا أحد بهذا الاسم، وغير موجود أيضاً في سجلاتنا لهذا العام.

هزت زينب رأسها محبطة، وهي تكاد تبكي. نهضت ممسكة بيد حسن. سارع القائم مقام قائلاً:

- طلبت منهم أن يبحثوا عنه في كلّ حلب. سيجدونه إن شاء الله. هل أستطيع أن ألقاك غداً لأقول لك النتيجة؟

- غداً؟

- نعم. الساعة الرابعة بعد الظهر في أوتيل بارون.

فكرت قليلاً، ثمّ قالت له، حسناً. وخرجت. وفي طريقها إلى البيت قلبت الموضوع في ذهنها مرّة أخرى، ولأنّ هناك شعاعاً من أمل رجّحت أن يكون القائم مقام صادقاً.

وفي الساعة الرابعة من اليوم التالي، كانت تدخل أوتيل بارون برفقة الصبي. سألت عن الضابط الكبير، ثمّ جلست تنتظره في البهو. كان قلبها يدق بعنف. ماذا سيقول لها القائم مقام؟ هل وجد له أثراً أم لا؟... مسكينة زينب، إنّها تسأل أسئلة وجيهة! رفعت رأسها، فوجدت القائم مقام واقفاً، ينقل نظره بينها وبين الصبي. ابتسم تلك الابتسامة إياها، ثمّ قطّب، وسألها بنبرة نصفها رقيق ونصفها نزق:

- لماذا أحضرت معك الصبي؟

ارتبكت قليلاً، ثمّ تجاهلت سؤاله:

- مساء الخير يا أفندي، أرجو أن لا أكون قد أزعجتكم، هل عرفتم شيئاً عن زوجي؟

حمحم، ثمّ قال:

- سوف أعرف بعد نصف ساعة. كنت أريد أن تصعدي معي إلى الأعلى.

- دعنا ننتظر هنا نصف الساعة هذه.

تجهّم الرجل، ثمّ نهض، وقال:

- حسناً. انتظري هنا! ثمّ خرج من البهو.

أحسّت زينب بأن الأمل الذي بنته البارحة، قد بدأ يتلاشى. ومع ذلك بقيت جالسة إلى نصف ساعة ولن تخسر شيئاً. هذا الرجل ليس نظيفاً، ومع ذلك قرّرت أن تبقى. مرّت عشر دقائق، وإذ بصف ضابط يقف إلى جانبها، ويقول لها بكلّ تهذيب:

- يا هانم استمعي إليّ جيداً! إنّ يد القائم مقام تطول في كلّ حلب، وهو يستطيع أن يدخل إلى السجن من يريد، ويخرج من يريد، اتركي الصبي عندي واصعدي إليه وغداً سيكون زوجك في البيت.

فهم الصبي كلام ضابط الصف الصريح، فالتصق بها، ثمّ أحاط خصرها بذراعيه. أراد حسن أن يحميها أو أن يمنعها من مسايرة هؤلاء الأوباش. حينئذ لم تكن زينب بحاجة إلى تشجيع. كانت تشعر بغثيان في معدتها وبقهر عميق في صدرها. الآن عليها أن تسدي خدمة لا بأس بها إلى صالح، نهضت، وواجهت ضابط الصف، وهي تمنع الصبي من جرّها من يدها، قالت له، وقد قلبت شفتها العليا:

- حقّاً؟؟ فقال:

- حقّاً!

رفعت يدها، وصفعته. سمع صوت الصفعة كلّ من كان في البهو والممر وقرب لوحة المفاتيح، استداروا ينظرون إلى ضابط الصفّ المصفوع والمرأة الجميلة التي أسدلت النقاب على وجهها، وهي تقول:

– لعنة الله عليك وعلى قائم مقامك، قل له إنّه عجوز مقرف.

ثمّ خرجت، وفي الطريق، استندت إلى أحد الجدران، وأجهشت في بكاء مسموع، ما لبث الصبي أن بكي مثلها.

أعادت عزف اللازمة الحزينة، ثمّ غنّت كلماتها. وعلى زجاج النافذة بدأ المطر ينقر موقّعاً اللحن نفسه، ثمّ برقت السّماء، فتوغل الضوء الأبيض، المبهر إلى غرفتها، ثمّ أرعدت، واهتزّ البيت مديداً كما هو الرعد، فارتعشت يدها على الأوتار، وخفق قلبها، فتركت ماندولينها، وركضت إلى الفراش الممدود على الأرض، فاندسّت ملتصقة بجسد الصبي الدافئ، اشتدّ هطول المطر، وتسارعت البروق والرعود فقرفصت خائفة، وهي التي لم تعرف الخوف يوماً. كانت الأرض تنبض مثل قلبها. أو أنّ قلبها يدقّ بعنف، فتحسب الأرض تفعل ذلك، حينئذ عادت للبكاء والارتعاش. لماذا كتب عليها أن تكون وحيدة؟ قد يكون أبوها في الغرفة الأخرى وحسن إلى جانبها، ولكنّها وحيدة، لأوّل مرّة في حياتها، تشعر أنّها وحيدة بهذا القدر. وبما أن الرعد سافر إلى عالم آخر، وحلّ السكون مشوب بإيقاع هطول المطر، فقد راحت تفلسف حياتها، فخرجت بنتيجة أنّها عرفت طعم الحياة، حين أصبحت الحياة من دون طعم. وأنّها عرفت الحبّ، حين امتلأت الدنيا بالكراهية، وأنّها حصلت على صالح حين كان عليها أن تفقده، ولكن قد تكون هذه سنة الكون. عليك أن تفقد الشيء حين تحصل عليه. إنّ ذلك مثل المتعة التي تحصل عليها حين تستمع إلى أغنية جميلة. فما إن تمتلك روعتها، حتى تنتهي الأغنية، وتشغلك الحياة بأوساخها، ولا يسعك بعد ذلك سوى أن تتذكر. والذكرى حسرة، ثم تعود تمتلك روعة أشياء أخرى لتفقدها ثانية لتصبح بالتالي ذكرى وهكذا. وفي النهاية ماذا؟ رأس مليء بالذكريات، بينما حامله يغوص في واقع الخطف والسجون والقتل والحروب ومآسي الجوع وفرط الأسر والجماعات وإبادة الأمم وفصل الحبيب عن محبوبته.

ولكن . سألت نفسها . هل يمكن للإنسان أن يديم فترة امتلاكه للروعة؟ وبالتالي أن يبقي رأسه وجسده معاً في مكان واحد؟

نامت زينب، والأستاذ عبد الجليل نائم، وأنا لن أخرج عن السياق لأجيب. فتحت زينب عينيها فجأة، كان المطر يهطل وعتمة الليل قد تبددت، أصغت جيداً

فسمعت هديلاً متقطعاً لحمامة لم تغادر عشها اليوم، صوت طرق غير رتيب أيقظها، إنّها متأكدة، قد يكون أحد على الباب، أو قد يكون أبوها استيقظ، أو يونس وحمدو قد جاءا لمقابلته. أوقفت تنفسها لتميز طرقاً من بين جميع تلك الأصوات الرتيبة: تنفس حسن، ونقر حبات المطر على الزجاج، وتدفق الماء من المزراب، وهديل الحمام، ولم تنتظر طويلاً، فقد جاءها صوت طرق متواصل على باب الدار.

نهضت، لفّت نفسها بمعطفها، وغطّت رأسها بمنديل، ثمّ خرجت راكضة تنثر الماء، وتغوص فيه حتّى الكعبين. وقفت خلف الباب، وسألت عن الطارق. جاءها صوت غريب لرجل يسأل عن بيت صالح بنبوك. فأجابت:

– نعم، هنا، ماذا تريد؟

– لدي رسالة منه.

سحبت الرتاج، ثمّ جرّت الباب. شاهدت دركياً أسمر البشرة تشوب بشرة وجهه آثار الجدري، كان الماء ينقط من قلبقه ووجهه ومعطفه العسكري الطويل حتّى القدمين. أعاد سؤاله مرّة أخرى بعربية تفصح عن أصله الريفي، كان يبتسم أيضاً، ثمّ سألها لما رأى إلى توترها:

– هل أنت امرأته؟

– نعم... أنا زينب.

– هل الجميع بخير؟ وابنه بخير؟

– نعم... وحسن أيضاً. هل تريد أن تدخل؟

فقال وهو يمسح يده بسترته الداخلية، ثمّ يدسّها في جيبه، ويخرج ورقة مطوية:

– لا أشكرك، ليس عندي وقت. تفضلي!

ناولها الورقة. استلمتها بيد راجفة، ثمّ أطبقت عليها، أرادت أن تسأله شيئاً إلا أنّه قال:

– لقد حكموا على زوجك بالنفي ثلاث سنوات إلى رأس العين، إنّه الآن في مخفر محطة الشام. سيتحرّك القطار في الساعة الخامسة مساء هذا اليوم. لقد كتب لك كل شيء في الورقة. تعالي إلى هناك الساعة الثانية، سأكون هناك، وسأسمح لك

بمشاهدته هيا... إلى اللقاء!

مدت يدها، وصافحته. شاهد الدركي الطيب وجهها يشرق وعينيها تبتسمان فرضي على نفسه، قالت له انتظر لحظة. أعادت إغلاق الباب، وركضت باتجاه غرفتها، التقطت ليرتين ذهبيتين من صندوق صغير يخصّها، ثمّ هرعت من جديد تجتاز حوش الدار الغارقة بمياه المطر المنهمر بكثافة. قالت له، تفضل. ومدّت يدها تعرض عليه الليرتين. قال لها، ليس هناك من ضرورة فهو عربي. إلاّ أنّها أصرّت، فالتقطها بخجل. ودّعته، ثمّ أغلقت الباب، وأسندت ظهرها إليه... يا إلهي...! لم تعد تعرف ما تفعل، صدرها يصعد ويهبط بسرعة، الساعة لم تتجاوز السادسة بعد، عليها أن تنتظر ثماني ساعات، لقد ظهر أخيراً. إنّه في حلب، وسينفى إلى رأس العين، هذا يعني أنها تستطيع أن تلحق به. آه ما أجمل المطر! كم تحبّ أن تتبلّل أكثر فأكثر، خلعت منديلها عن رأسها، ووضعت الرسالة في جيب المعطف، ثمّ مدّت يديها ووجهها إلى السماء تستقبل المطر، ثمّ راحت تخطو بحركة راقصة، تضرب الماء بقدميها، تدور وتدور، يسيل الماء من شعرها على وجهها ورقبتها، فتحت معطفها. يجب أن تغرق، الماء خير. ولهطول المطر موسيقى ناعمة تهيجها، أحسّت أنّ عليها أن تضحك، فأطلقت ضحكة ناعمة مغناجة، ثمّ ضمّت يديها كأنّها تضمّه إليها.

بعد ذلك حرّرت يديها، وشرعت تمشي على إيقاع عسكري صنعته بفمها. دارت الحوش مرتين، ثمّ انقلبت حركاتها إلى راقصة، صفرت اللازمة المرحة "لزواج فيفار" وهي تؤدي بعض حركات الباليه. كانت تحسّ نفسها خفيفة، طلقة، فأرادت أن تطير، ركضت قليلاً، ثمّ قفزت في الهواء. وما إن حطّت قدمها على البلاط الغارق بصفحة من الماء حتّى دارت على نفسها، وشرعت بالانحناء لجمهورها الذي صفّق لها، وأطلق صيحات الإعجاب.

ابتسمت، وأزالت خصلات شعرها المبللة الملتصقة ببشرة وجهها، حلّ صمت عجيب فجأة. لم يعد يسمع سوى صوت سقوط المطر الغزير، وما تقذف به المزاريب الحجرية. أحسّت زينب بالبرودة، ها قد انتهت الحفلة، ومازالت تشعر بالسعادة. ركضت ودلفت إلى غرفتها، وبدّلت ثيابها المبللة.

الآنسة زينب المحترمة:

أنا الآن في حلب، وصلنا إليها البارحة، وسنسافر غداً الخميس إلى رأس العين بالقطار. إنّني أكتب إليك من المخفر، حيث وضعونا في انتظار موعد السفر. أرجوك تعالي الساعة الثانية بعد الظهر إلى المخفر، وأحضري معك بعض متاعي وشيئاً من المال. كما أرجو أن تحضري معك ابني حسن لأراه، فأنا مشتاق إليه كثيراً.

إنّ الرجل الذي سيسلمك هذه الرسالة دركي طيب يقوم على حراستنا، وهو الذي سيوصلنا إلى رأس العين ليسلّمنا هناك إلى مخفر المدينة، حيث تمّ نفينا بعد المحاكمة التي أجريت لنا في الديوان العرفي في عاليه. كنت خائفاً من أن يصدروا علينا حكماً بالسجن كما حدث لبعضهم، ولكنّهم لا يعرفون شيئاً عني، كانوا، أثناء التحقيق، يسألون عن الأستاذ عبد الجليل الشلاح، وعن عشرات من الناس الذين لم يسبق أن سمعت بأسمائهم، كما أنّهم سألوني إن كانت لي علاقة مع العربية الفتاة أو الحزب اللامركزي أو غيره من الأحزاب. طبعاً، كنت أدّعي أنّني لا أعرف شيئاً. والشيء الوحيد الذي صرّحت عنه هو أنّني هربت من العقيد زهدي بعد أن قام بضربي في أوتيل بارون، وأنّ التّهم التي ألصقت بي لا أساس لها من الصحة، وأنّني لا أعرف ماذا تعني الحركة الاشتراكية ولا غيرها من الحركات التي يكثر الحديث عنها هذه الأيام.

المهم... سأقول لك ماذا حدث معي، لأنّ الفرصة لن تسنح لنا أثناء مجيئك إليّ في الساعة الثانية.

عندما ذهبت إلى الجديدة لشراء السرير، وقد اشتريته فعلاً، وأرجو أن تكوني نائمة عليه الآن، وبعد أن دفعت ثمنه، وأعطيت للبائع عنواني، قبض عليّ النقيب حكمت بالذات، ولم يسلّمني إلى أحد، بل أركبني فوراً، وسافر بي إلى عاليه حيث الديوان العرفي، فسلّمني هناك على أنّني صيد ثمين، وأنّ التحقيق معي سيظهر لهم أموراً مازالت غامضة حتى الآن حول الحركات والجمعيات التحررية المناهضة

للأتراك.

وضعوني في السجن، وهناك مع آخرين معظمهم ينتظر الحكم بالإعدام، وعندما كان يأتي دوري للتحقيق، كنت أمضي، وأنا أرتجف خوفاً. إن ما كنت أخاف منه أن يلبسوني قضية ليس لي علاقة بها. إلاّ أنّه في كلّ مرّة، كان المحقق يعيد طرح أسئلته نفسها وهو لا يعرف ماذا يفعل بي:

إلى أيّ جمعية أنتسب؟ من هم أصدقائي؟ لماذا هربت من الجيش؟ من هرب معي؟ ماذا أعرف عن اللامركزيين؟ أين اختبأت طوال هذه المدّة؟ هل سافرت إلى الحجاز؟ إلى أيّ مكان؟ هل كنت أعرف عبد الغني العريسي؟ عبد الكريم الخليل، الشهبندر؟ .. وغيرهم، وطبعاً من ضمنهم الأستاذ عبد الجليل... استنتجت أنّهم حيارى في أمري. وأنّهم لا يعتبرونني خطراً عليهم. وفي كلّ يوم كان يغادرنا بعضهم، فالمحكمة تصدر أحكامها يومياً، وأغلب الأحكام بالنفي إلى الأناضول أو إلى دير الزور، أو رأس العين، أو أورفة، فلم يعودوا يحكمون بالإعدام، هذا الأمر أدهشنا، وأسعدنا، وسمعنا هنا من القادمين الجدد أنّ العقبة قد سقطت بأيدي العرب، وأنّ الإنكليز يحشدون قواتهم في سيناء بالقرب من غزة، وأنّهم قد يكفوا يد جمال باشا عن سورية ليكسبوا ود السوريين في حربهم ضد الإنكليز وضد الجيش الشريف. وليس هذا فحسب، فقد وصل إلى هنا، قبل شهر من الآن رجل أرمني مثقف اسمه وارتكس. قبضوا عليه في كسب وشكوا في أمره. كان يدعو الأرمن هناك إلى تشكيل تنظيم سياسي أرمني يختلف عن الطاشناق والهنشاق. قال إنّه كان في روسيا، وأنّ الروس قاموا بثورة هائلة، وأطاحوا بالحكومة، وشكّلوا حكومة جديدة، وأوقفوا الحرب مع تركيا، وبدأوا بالانسحاب من أرضروم. وهذا ما أسعد الأتراك، وخفّف عنهم أعباء كثيرة وقد سمعت بهذا أيضاً في غرفة المحقق بالذات. وقد تحدث معي، وارتكس عن ثورة الروس بالتفصيل، وأنا أريد أن يعرف الأستاذ عبد الجليل هذه الأمور، إنّ ما كنا نتحدّث عنه يحدث هناك، أو حدث بالفعل. وقد أسعدني سماع ذلك، قال إنّ الجنود والفقراء هم الذين قاموا بالثورة. وقال، إنّ الوزراء الجدد يشبهوننا، وأنّه شاهد أحدهم يبكي من الفرح، وسمعه يطلب أن يلفوا له سيجارة لأنّه لا يملك تبغاً. وقال إنّ النساء وعمال المصانع يحملون أسلحة، ويتجولون في الشوارع، وقد شاهدهم يرقصون

أيضاً. والشيء الأهم هو أنّ الحكومة ضدّ الحرب وضدّ الإنكليز. سألته متى ستندلع الثورة في كلّ مكان، فقال، إنّ هذا غير ضروري الآن. فقلت له، إنّني لم أقتنع بهذا الكلام، وإنّني أعرف أنّ الثورة سوف تحدث مرّة واحدة، وفي كلّ مكان، فقال لي، إنّ هذا الرأي خاطئ، وأنا لم أفهم لماذا هو خاطئ، ولم أقتنع برأيه وأنا لا أعرف ما هو رأي الأستاذ الآن. فأنا لا أعتقد أنّ الثورة تحدث في بلاد الموسكوب فقط، ولا تحدث عندنا أو في مكان آخر أيضاً.

أخبرته عن حلقتنا وعن الأستاذ وعن آرائنا حول العدل والمساواة، وعن العمال والفقراء، فقال، إنّ أفكارنا ليست دقيقة تماماً، وتحتاج إلى تشذيب (هكذا قال اللعين) ثمّ راح يعرض عليّ نظرته للأمور، فتناقشنا، طبعاً أنا لم أقنعه لأنّه واسع الثقافة، إنّه يشبه الأستاذ خليل، بل أكثر منه ثقافة، وأستطيع أن أقول إنّه غلبني في النقاش، وقد غلبني في الشطرنج أيضاً. رجل بديع لعين لم أصادف مثله في حياتي.

المهم أنّه مكث معنا ثلاثة أيام، ثمّ أخذوه إلى مكان آخر غير معلوم. لقد أحببته، وشعرت بالحزن لرحيله. ومازلت أذكر قوله، إنّنا مازلنا في المتر الأوّل من الرحلة الطويلة. قبل عشرة أيام من الآن، استدعونا إلى التحقيق، وقرأوا علينا الحكم. ثلاث سنوات في المنفى، في رأس العين. بصراحة لقد سعدنا جداً لهذا الحكم. النفي خير من السجن، وأين؟ في رأس العين، وهذا شيء رائع.

افعلي يا آنسة ما كتبته في البداية وأرجو أن يعلم الأستاذ ما كتبته عن وارتكس. وهناك شيء يشغل بالي كثيراً، هل اتصل يونس وحمدو بالأستاذ أم لا.

إلى اللقاء يا آنسة زينب ودمت

المخلص صالح بنبوك

استيقظ الأستاذ عبد الجليل والصبي، فنهضت زينب وحضرت الإفطار ثم قعدوا في غرفتها يتناولون إفطارهم صامتين. لم تنبس زينب بكلمة واحدة. كانت غاضبة، وعندما تكون كذلك يصمت الأب، ويصمت الصبي. لقد اعتادا على ذلك، وإلاّ فهما يعرفان أنّها ستنفجر باكية، ولكنّها تختلف اليوم عن أيّ يوم آخر. لقد حسبا أنّها غاضبة فقط. نعم إنّها غاضبة، ولكنها شاردة الذهن أيضاً، تمضغ لقمتها طويلاً ثمّ تتوقف، ثمّ تعود إلى المضغ، وتترك قطعة الخبز، لتلتقط غيرها، لقد قرأت الرسالة

فغضبت، ورغم أنّ وصولها هو حدث عظيم بالنسبة إليها، إلاّ أنّها غضبت. إنّها تغضب، وتحزن حين يجب أن تكون سعيدة. إنّها تعلم أنّ الرسالة تبشر بأشياء وأشياء، إلاّ أنّ زينب غضبت، وحزنت حين قرأت الرسالة للمرّة الثانية، وهي تبحث بين سطورها عن أيّ شيء يدلّ على اشتياق صالح، أو حبّه أو أيّ عاطفة يكنّها لها. طبعاً لم تجد. سوى "الآنسة المحترمة" و"أرجو أن" يا لك من رجل مهذب يا صالح! انتظرتك زينب، وخرجت تبحث عنك، وتعرضت لأشياء وأشياء من أجلك، ثمّ عندما فقدت الأمل، وقعدت طوال هذه الأيام مقلوبة السحنة تبكي، وتتحسر، وتكره حياتها، أتيت الآن لتكتب لها رسالة سياسية لا تضمنها كلمة صغيرة تشفي غليلها. لعنة الله على السياسة. هذا الرجل غريب جداً. ماذا حدث له؟ الشيء الوحيد الذي شغل باله هو قضية الحلقة: هل اتصل يونس وحمدو بالأستاذ؟ هذا هو أهم شيء. أمّا أن يقول لها إنّه اشتاق لها، وأنّه شعر بغيابها، وأنّه تذكّرها، وأنّه حلم بها، وأنّه انتظر اليوم الذي يطلقون فيه سراحه، ليهرع إليها، ويضمّها، ويبث لها لواعجه فهذا أمر ليس بذي بال عنده، حتّى أنّه لم يكذب عليها، لو فعل ذلك على الأقل، الآنسة المحترمة زينب. لو أنّه كتب:

حبيبتي زينب! أو على الأقل عزيزتي زينب! وهي كانت ستقبل إن كتب: العزيزة زينب! ماذا كان سيخسر؟ ولكن المكتوب هو المكتوب، إنّه لا يحبّها، يحبّ السياسة، ولا يحبّها. لماذا إذن سهرت، وبكت، وعزفت على ماندولينها أغانيها الحزينة؟ فعلت هي كلّ ذلك، وهو يناقش قضايا الثورة. ليس عندها مانع، فهذا الأمر قضيتها أيضاً، إنّها تتمنّى النجاح للحلقة ولأبيها وله شخصياً، ولكنّها تحبّ. إنّها تحبّه، تقسم أنّها تحبّه، وتقسم أنّه لا يحبّها، لقد اكتشف ذلك من رسالته ولهذا فهي غاضبة. ما إن انتهوا من إفطارهم حتّى انفضوا، فدخل الأستاذ إلى غرفته. دلفت إليها حاملة الرسالة، قدّمتها له بصمت، ثمّ شرعت في ترتيب الغرفة. فتح الأستاذ الورقة، فشهق من المفاجأة، نظر إليها، فاستغرب صمتها، وغضبها. قرأها بسرعة علّه يرى أيّ شيء يجعل زينب غاضبة، فلم يجد، بل صفّق فرحاً. نهض وعانق ابنته، وعندما نظر في وجهها، شاهد دمعة تترقرق، ثمّ تنساب بعد أن طفرت بهدوء. ماذا يا زينب؟ ماذا بك؟ يجب أن تكوني سعيدة. جلست زينب على السرير، أخفت

وجهها بيديها، وقالت وهي تنشج:

- إنّه لا يحبّني يا أبي. لقد فرحت من أجله كثيراً، ولكنّه لا يحبّني.

- من قال لك ذلك؟

- الرسالة!

ضحك الأستاذ طويلاً بصوت عال، وقد عاد إلى التصفيق، ثمّ نادى حسن وأخبره بأمر أبيه، ثمّ احتضنه، واحتضن ابنته، فاضطرت زينب إلى أن تمسح دموعها، وتبتسم.

- هيا.. هيا. قال الأستاذ. انهضي، عليك أن تجمعي أغراضه، اذهبا إلى بيته في باب إنطاكية لجلب ثيابه، سأعطيك بعض النقود، قولي له، إنّ يونس وحمدو يعملان بشكل جيد، وإنّني استفدت كثيراً من الأخبار التي كتبها، وأنّ لقاءنا قريب إن شاء الله، وأقرب مما يتصور.

وهكذا فعلت. ذهبت مع الصبي إلى باب إنطاكية ثم اشتريا بعض الحلوى والتبغ. نسيت نفسها وجعلت تركض إلى هنا، وهناك كي يمضي الوقت بسرعة. وقبل الساعة الثانية وضعت ما جمعته في حقيبة تخصها ثم استأجرت عربة وأعطت السائق العنوان. وأمام باب المخفر كان الدركي ينتظرها. أخذ الحقيبة منها ثم أدخلهما. كان صالح جالساً مع اثنين آخرين في إحدى الغرف، عرفته زينب بالرغم من تغير ملامحه، كان شعر رأسه وذقنه قد طال. وكانت ثيابه وسخة ومهلهلة. وكان قد نحف كثيراً، نهض، واقترب منهما. كانت زينب متوترة، فلم تعرف ماذا تفعل، ابتسمت له، خفق له قلبها، نسيت غضبها، وكلّ ما كانت تعرفه هو، أنّه يقترب منها باسماً، وأنّها تعبده.

أمسك بهما، وجرّهما إلى غرفة أخرى، احتضن الصبي الذي راح يبكي. أبقاه ملتصقاً به، ثمّ استدار نحو زينب، كانت واقفة تنتظر، مدّ يده، فهرعت إليه. احتضنها بقوة، احتضنته، اشتمّ رائحتها الجميلة، اشتمت رائحة أوساخه وعرقه، قبّلها، عندها قبّلته، قال لها، أحبّك أحبّك أحبّك، قالت له، أعبدك، وقد خجلت من نفسها.

كان المطر يهطل عندما تحرّك القطار، صفر، وصفر، وصفر، ثمّ تحرّك ثقيلاً، وما لبث أن تسارع. وشيئاً فشيئاً غاب صالح، وغابت يده الممدودة من النافذة.

وعاد الناس يتحرّكون في المحطة، بينما بقيت زينب واقفة، ممسكة بيد الصبي، سعيدة، ولكنّها خائفة من أن تفقده مرّة أخرى.

* * *

حلب 1982 – 1987